



العسكرية
وأكابر الصحابة والتابعين في الغزوات والفتوحات

تأليف / حازم إسماعيل السيد

دار الروضة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع : ٢٨٨٧ / ٢٠٠٧ م
الترقيم الدولى : 977-5481-83-X

دار الروضة
للنشر والتوزيع
٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر

مقدمـــــة

الحمد لله الواحد المنَّان . باسط أياديه بالإحسان . المتفضل بجوده على الإنسان . المُسْبِغُ عليه بنعمة الإيمان . وصل اللهم على نبينا العدنان . الذى أنزلت عليه شرائع القرآن . وبعثه للناس رحمة وأمان . فاسدى النصح لنا بصدق وحسن بيان . فمحا ضلالات الكفر والطغيان ...

أما بعد : لقد أصبح الناس فى عالمنا يلهثون فى زمن من المادية الجوفاء حتى صارت الدنيا فى أعينهم وقد خلت من روحانيتها الجميلة ، ومعنوياتها السامية التى هى للعالم المادى بمكان الروح من الجسد فإذا تطلع لمن يخلصه مما فى حياته من عناء ، وطمح ليرتفع بعيداً عن هذا الشقاء ، وأطلق لخياله العنان فصنع من نسيجه صورة لبطل أسطورى ليس له وجود يسعى وراء أهداف رخيصة بغايات دنية فنجد "روبن هود"[1] تلك الأسطورة الإنجليزية الشهيرة التى يسعى بطلها بمنطق الغاية تبرر الوسيلة[2] يسرق الغنى ليعطى الفقير . ويتشابه مع هذا الأسطورة فى تراث الشرق " على بابا " أحد أبطال "ألف ليلة وليلة"[3] الذى يسرق اللصوص فيأخذ عطاء من لا يملك ليعطى من لا يستحق أو غيرهم من الأبطال الذين يمضى الواحد منهم حياته لاهثاً خلف امرأة ليتزوجها بعد أن يخوض الأخطار ليبرهن لها عن شجاعته وإقدامه . وكم أعجب لأهل زماننا وهم لا يرون البطولة إلا فى الخيال السينمائى أو عبر صفحات القصص الخرافية . حقاً ، لقد أصبح شبابنا يسيرون متخبطين فى الدروب على غير هدى يتلمسون أبطالهم المنشودين فى أوهامهم الخاوية أو خيالاتهم المريضة فتبهرهم شخصيات لا تمت لواقع بصلة أو وجود يرسم أبعادها عدوٌّ حاقد أو خصمٌ عنيد فيندفع وراءهم ضعاف الهمم وفقراء العقيدة فتنطبع فى أذهانهم هذه الصورة المشوشة كثوابت راسخة .

يا من يتشدقون الفضيلة، ويبحثون عنها بكل وسيلة ! ! أين أنتم من مُثُلِنا الجليلة ؟!

---

(١) بطل أسطورى إنجليزى عُرفَ ببطل البسطاء ظهر فى الأسطورة كفقير يحارب عمدة نوتنجهام الحاكم الفاسد .

(٢) أشهر من استخدم هذا التعبير هو ميكافيللى السياسى الإيطالى الشهير فى كتابه "الأمير" الذى كتبه عام ١٥١٣م .

(٣) مجموعة شهيرة من القصص الخيالية التى بلغت نحو مائتى قصة تدور معظمها فى بغداد فى عهد هارون الرشيد وفى القاهرة فى العصر المملوكى ولا يُعرف لها مؤلف وإن كان من المرجح أنها ذات أصول فارسية .

يا من أعياهم البحث عن المثل الأعلى ! أين أبطالنا الأفذاذ الذين فتحوا الدنيا وبلغت شهرتهم طباق الأرض فأناروا الأرض بمشاعل من نور ليخرجوا أهلها من ظلمات الجهل إلى ضياء الحق ، وأقولها لأولئك وهؤلاء متسائلاً : ألم تقلبوا صفحات تاريخكم لتجدوا بغيتكم ؟! فإن فعلتم لوجدتم رجالاً سموا فوق البطولة وكأنما وضعت للبطولة قواعدها من بديع فعالهم وجليل أعمالهم .

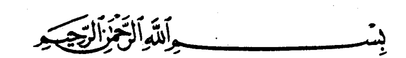
ويا أسفى ! فلقد أصبح تاريخُنا فريسة مهيضة الجناح تكالب عليه غير الأمناء فحرفوا فيه وخانوا ضمائرهم فى سبيل مال أو عرض زائل فطمسوا هويتهم وساروا يتخبطون فتارة يقعون فريسة لمكائد أعدائهم ينساقون خلفهم ويقتبسون من ضلالاتهم . وتارة يجرمون فى حق أنفسهم ودينهم فيرفعون الدنى ويخفضون العزيز بمعايرهم المختلة التى لا تحتكم إلى شرع أو حق .

وبعد فقد قمت فى هذا العمل المتواضع بمحاولة لترسيم أبعاد البطولة فى تاريخنا الإسلامى - الذى يجهله الكثير - ذلك الكنز الوافر والبحر الزاخر ، فأفسح لأبطاله العظماء مجالاً يعبِّرون فيه عن أعمالهم لاسيما وأن الساحة قد خلت الآن من نظائرهم بل ومن أشباههم ، وقد أقبلتُ أجولُ فى ساحتهم وأطوفُ فى رياضهم وقد ركزت على أهم أبطال تاريخ الإسلام وأردفتهم تترا[1] فى طبقات فبدأت بالصحابة الذين حملوا الدعوة وأعانوا النبى ﷺ ثم التابعين الذين اقتدوا بأصحاب السبق فى الإسلام ، ثم الفاتحين من بعدهم الذين نشروا دين الله تعالى ومكنوا له فى الأرض وهدموا طواغيت الكفر . وقد ألقيت الضوء بالخرائط التوضيحية لتكون الصورة أقرب إلى الأذهان وأدعى إلى التثبيت والوضوح . وبذلك تستشعر النفس عظيم جهودهم فنعيد الحق إلى نصابه وننوِّه ببعض من واجبهم نحونا ، فهم يستحقون منا الثناء وأن يعلوا الواحد منهم على كل سماء . وبذلك يكونوا قدوة لنا ولأبنائنا فى ظل مجتمعنا الذى كثرت فيه المفاسد وغابت القدوة الطيبة ، لتصنع مجتمعاً ناهضاً وأمة رائدة يتحقق فيها قول الله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾(آل عمران : ١١٠) . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (هود:٨٨) اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا ، وأهدنا للخير وأهدِ بنا واجعلنا سبباً لمن اهتدى .

حازم إسماعيل السيد

---

(١) تترا : يتبع بعضهم بعضاً



البطولـــة

البطولة في اللغة هي الغلبة على الأقران، والبطولة هي صفة سامية وغاية عليا تنسب إلى صاحبها فيراه النـــاس بمظاهر الإجـــلال والعظمـــة.

ويقـــول الأستـــاذ شـــوقي ضيف[1]: لقد اختلفت نظرة الناس للبطل على مر الأزمنة ففي اليونان القديم كان البطل في القبيلة يعد شخصًا مقدسًا يقف الناس أمامه مذهولين كما لو كان يحوى داخله قوى خفية مكنت له- في رأيهم- إتيان الخوارق، وهى خوارق لا تقف عند نجاته هو من القتل وهو يقاتل عدوه، بل تمتد إليهم فتكون النجاة معه نجاةً تجعلهم يشعرون بقوة أنه هو الذي يهبهم الحياة ومن ثم عبدوه وخلعوا عليه وصفًا بأنه من سلالة الآلهة، ويظهر هذا جليًا في تاريخ اليونان القديم حيث كانوا يعتبرون ملوكهم من سلالة الآلهة لذا فقد نسجوا حولهم الأساطير ووضعوا هؤلاء الملوك مع الآلهة في مرتبة واحدة، ويظهر ذلك في إبداعات شعرائهم ومنهم هوميروس في القرن العاشر الميلادي الذي نظم قصيدتيه الطويلتين: الإلياذة[2] والأوديسا وفيهما مزج مؤلفهما بين أبطاله البشر والآلهة في صراعات متشابكة الأحداث، وعلى هذا يمكن أن يطلق على هذه الفترة اسم البطولة الأسطورية.

وقد اختلفت نظرة العرب القدماء لمعنى البطل عن اليونان القديمة، وكأنما قد اجتاز العرب هذا الدور الفطري الذي يشترك فيه الأبطال والآلهة فعرفوا البطولة الواقعية فالأبطال لديهم أشخاص عاديين لا يعدون على الحدود البشرية الإنسانية لا هم آلة ولا أنصاف آلهة، فالبطولة عندهم تعتمد على القوة الجسدية والشجاعة والإقدام والجرأة وهى صفات أعلن البطل عن وجودها بسيفه ورمحه، فقد كانت

---

(١) البطولة في الشعر العربي د. شوقي ضيف.

(٢) الإلياذة: قصيدة تتألف من نحو ١٥ ألف بيت تصف الأيام الأخيرة من حرب اليونان مع أهل طروادة في آسيا الصغرى والتي امتدت نحو عشر سنين وكانت سجالاً بين الفريقين.

الجزيرة العربية في الجاهلية بحرًا هادرًا من الصراعات بما يشبه ساحة حربية كبيرة تتناحر فيها العشائر والقبائل[١] وقد أصبح الطعان والقتل فريضة الحياة ودستورها كلٌّ يمتشق حسامه يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيوف ميتة شريفة حتى أنها كانت لتعد سُبَّة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنفه كالجبناء وعلى هذا فلا مكان للجبان المتخاذل أما الشجاع الجري فهو في حصن من شجاعته وفي حماية من جرأته يحمي عشيرته وقبيلته، وكانت القبيلة تحمل جناية أي فرد فيها فهي شريكة معه في دمه ولا تطلب القبيلة ثأرها من واترها[٢] وحده بل تطلبه من جميع أفرادها، وسرعان ما يتدافعون في حرب مبيدة .

وعلى هذا النحو كانت تدور حياة الجاهليين في حلقة مفرغة من أوتار وأثآر فالقبيلة دائمًا واترة موتورة. ولم تقف البطولة عند العرب على الجانب الحربي بل اتسعت لتشمل البطولة النفسية: وهي بطولة خصتهم بالكثير من الشمائل الرفيعة كالحلم والصبر على الشدائد والحزم وهو التغلب على التردد في الرأي والسرعة في بتِّ الأمور والفصل فيها، وقد تعانقت هذه البطولة النفسية مع البطولة الحربية لتسموا إلى بطولة أخرى هي البطولة الخلقية التي صارت لديهم مُثُل عليا سامية ينشدونها ويسعون إليها ويحرصون عليها حرصهم على أرواحهم مضحين في سبيلها بكل شيء.

ومن هذه البطولات الخلقية: الإباء والوفاء بالعهود وحماية الجار والنجدة والكرم ولم يكن لديهم أغلى ولا أسمى من صيانة الشرف، فما إن تتعرض قبيلة لعدوان وتسبى النساء حتى يصير الرجل فظًا معتديًا لا يشفيه من أعدائه إلا سفك الدماء. لكن هذه البطولات لم تعدو أكثر من كونها بطولات فردية لا تقوم على هدف واحد وإنما كانت تحرك الأبطالَ فيها دوافعٌ متضاربة تتوقف على الأهواء الشخصية فكانت نسبية

---

(١) كانت الحروب في الجاهلية تسمى أيامًا وقد أحصاها أبو عبيد (أحد المصنفين القدماء) ألفًا ومائتي يوم أشهرها يوم ذي قاربين الفرس وبعض قبائل العرب، ويوم بُعاث بين الأوس والخزرج، ويوم عين أباغ بين المناذرة والغساسنة، ويوم الرحرحان بين قيس وتميم، وأيام البسوس بين بكر وتغلب، وأيام داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان بطلها عنترة بن شداد.

(٢) وَتَرَهُ: قتل حميمه أو أدركه بمكروه.

القياس فهذا معتدى يسعى لبسط نفوذه وإبراز قوته يستوجب الوقوف له والدفاع دونه لكنه في عرفه وعرف قبيلته بطل منتصر وفاتح شهم. ويقول الأستاذ شوقي ضيف: ثم جاء الإسلام فأذكى البطولة في معانيها الثلاثة وأمدها بروحانية مضطربة جعلها تزداد تلظيًا واشتعالاً، كما عدَّل وقوَّم وقام بصقل هذه البطولات ليبرزها في خير صورة، فعلى الجانب الخلقي والنفسي عدّل كثير من الأخلاق ففضيلة الكرم التي بالغ فيها الجاهليون طلب فيها الاعتدال فلا تفريط ولا إفراط ووجه الكرم لخدمة المجتمع بحيث ينفق الموسرُ على المعسر وسمي الصدقة قرضًا لله وفرض الزكاة وجعلها حقًا للفقير في مال الغنى لا يحق له أن يمنعه أو يقتره[1].

وأقولها لقد سمي الإسلام بالبطولة وعلا بها علوًا كبيرًا فالدافع وراء العمل هو نيل ثواب الله في الآخرة وجعل الرياء والمَن مبطلاً للأجر ومن ثَم أصبح المنفق هو الذي يسعى للفقير ويرجوه أن يقبل عطاءه وهكذا يتجرد البطل في كل عملٍ لله تعالى، كما نقل الإسلام حق الثأر من القبيلة إلى الدولة يقوم به ولى الأمر فهو عقابٌ بالمثل، وهكذا حث على كظم الغيظ وهكذا انتصر الدين الحنيف على العصبية الجاهلية.

وعلى الجانب الحربي فقد تغيرت فكرة البطولة تغيرًا جذريًا فقد نشأت بطولة باعثُها الجهاد في سبيل الله ونشر دينه العظيم، وتتابع نزول الآيات القرآنية تحثُ على الجهاد وتدعو إلى بذل الأرواح والأموال لإعلاء كلمة الله تعالى فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[التوبة: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥]. فصدع النبي ﷺ لأمر ربه وشرع يخطب فيهم ويدعوهم ويحثهم بصادق قوله ﷺ، وقد أحالت هذه الآيات والأحاديث الصحابة ومن تبعهم إلى أبطال خُلقوا للجهاد لا يرهبون الموت وكأنما اخترع ديننا الحنيف أبطاله اختراعًا وكأنما أصبحوا رموزًا لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية.

---

(١) المصدر السابق.

البطولة الحربية فى الإسلام

إن الحرب[1] مع ما تحمله من شرور تعد ضرورة اجتماعية حتمية لا محيص عنها وقد قررت بذلك الشرائع كلها، والواقع يؤكد أن السلام لم يستقر أبدًا على الأرض وإنما التاريخ ما هو إلا سلسلة من الحروب تتخللها فترات هدنة قليلة لا تلبث حتى يشتعل فتيل حرب جديدة، وتزيد ضراوة الحروب جيلاً بعد جيل مع تطور الأسلحة واتساع نطاق القتل والتخريب إلى داخل المدن لتشمل النساء والأطفال والعجائز كلٌ يناله السبي والقتل والذبح والتحريق.

ويقول الأستاذ الكبير محمود عباس العقاد: إذا تساءلنا عن الدافع وراء الحروب وما الذي دفع القادة إلى خوض المعارك وأعمال القتل والتدمير لوجدنا لها عدة أسباب:

منها دوافع نفسية كما قال المارشال ويفل: "إذا رجعنا إلى تاريخ الحروب واستعرضنا أسبابها ودوافعها فسوف نجد أن أكثر الحروب يرجع لعوامل نفسية فهذا الإسكندر المقدوني يتولى عرش مقدونيا ويتوسع حولها ثم يغزو آسيا ويفتح بلاد فارس والهند ومصر.. وقد كان قائدًا سيطرت عليه روح الغزو وقادته أطماعه إلى قهر الشعوب وسفك الدماء كي يملك الدنيا كأنه ظل الله في أرضه، وجنكيزخان الذي تمكن من توحيد المغول وفتح بهم آسيا لم يكن إلا همجيًا بدائيًا سفاحًا كان يقول: »إن جماع سرور المرء دحر أعدائه وسوقهم أمامه واستيلاؤه على ما لديهم«، ثم جاء من بعده تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي هدم المدن وحصد الأرواح، اندفع لغزو آسيا وأوروبا وكان يستغل قوته في التخريب والتدمير والقتل بلا مبرر سوي التوسع".

---

(١) يرجع ابن خلدون في مقدمته أسباب الحروب إلى أمور عدة فهي إما أن تكون غيرة أو منافسة، وإما أن تكون عدوانًا، وإما إن تكون غضبًا لله ودينه، وإما غضبٌ للملك وسعى في تمهيده.

ثم نأتي إلى نابليون بونابرت أشهر عبقرية عسكرية قال عنه مونتجمري: "إنه قائد تسيطر عليه الأنانية وتوجهه أطماعه الشخصية فقد انتزع عرش فرنسا ووجهته طموحاته إلى احتلال أوروبا والشرق، وكان محصلة ذلك أن أفني جيشه وحكم عليه بالنفي ومات مسجونًا مقهورًا". وهذه كلها صور لحرب غير مشروعة[١].

لكن إذا أردنا الحرب المشروعة فليس أمامنا إلا أن ننظر في سجل الحروب التي خاضها النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ثم المسلمين من بعده وهم يحملون راية لا إلا إله إلا الله، فقد غيروا المفهوم العام للحرب وأوجدوا ما لم يكن من شيم القتال وهو الفتح الذي لا يأتي إلا بخيري الدنيا والآخرة، فقد ظهرت البطولة الحربية في الإسلام في أزهى حللها لقد أضفى عليها هذا الدين الحنيف روحًا جديدًا لم تكن تعرفها الحروب من ذي قبل.

ويقول الشيخ المباركفوري: "لقد تغيرت مع الإسلام أغراض الحروب وأهدافها لقد كانت الحرب في الجاهلية- ولذا سميت بالجاهلية- نهب وسلب وقتل وإغارة وظلم وبغى وعدوان وأخذ بالثأر وكبت للضعيف وتخريب العمران وتدمير للبنيان وهتك لحرمات النساء، والقسوة بالضعاف والفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، أما في الإسلام فقد صارت الحرب جهادًا في تحقيق أهداف نبيلة وأغراض سامية وغايات محمودة يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان فقد صارت جهادًا لتخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان إلى نظام العدالة والنَّصَف، ومن نظام يأكل فيه القويُّ الضعيفَ إلى نظام يصيرُ فيه القويُّ ضعيفًا حتى يُؤخذ منه، والضعيف قويًا حتى ينتصر، وصارت جهادًا في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء:٧٥]"[٢].

---

(١) عبقرية خالد للعقاد.

(٢) الرحيق المختوم ص ٤٢٦.

وما فرض الإسلامُ الحربَ إلا لإصلاح ما يعترى المجتمع من فساد لرد الظلم والفساد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[البقرة:٢٥١]، فهي حرب لدحر المفسدين وإبقاء لدين الله تعالى ومنعًا للفتن، والأصل في الإسلام هو السلم لا الحرب لقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾[الأنفال:٦١].

ويقول اللواء أحمد كمال الطوبجي(١): "كانت الحروب قبل الإسلام حروب شعوب لا حروب يخوضها مقاتلون فحسب فقد كان الشعب المحارب يستبيح من الشعب الآخر كل الحرمات، وكانت الحرب مع الشعب كله لامع حكامه فقط أو مقاتليه. فالأصل في العلاقة بين المجتمعات كان الحرب وليس السلام، لكن في الإسلام فالنظرة مختلفة فقد جاء محمد ﷺ ليعلن أن القتل في الحروب لا يتجاوز الميدان وأن الحرب لا لقتل الشعوب واستعبادهم ولكن لتحريرهم من القوى المسيطرة الظالمة، فمن لم يدخل طرفًا في الحرب لا يُقتل، ونهى النبي ﷺ عن قتل الشيوخ والنساء والأطفال، كما وجه اللوم والتعنيف يومًا لخالد عندما خالف ذلك، كما لامه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في ذلك، وكان يقول ﷺ: "تعجبني حرب ابن العاص فإنها حرب رقيقة سهلة"..

لقد كان الإسلام أول من وضع دستورًا للحرب بما يكفل حقوق الإنسان فكان الرسول ﷺ يقول مخاطبًا قادة المسلمين: "انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى بركة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين"(٢).

وقال ﷺ مخاطبًا خالد بن الوليد رضي الله عنه: "لا تقتل ذرية ولا عسيفًا"(٣)، كما نهى

---

(١) لن تلق مثل عمر جـ ١ لأحمد كمال الطوبجي.

(٢) رواه أبو داود في سننه.

(٣) العسيف: هو العامل المستخدم وذلك لأن العمال الذين لا يحاربون بالسيف أو بالرأي هم عمّار البلدان ودعائمها والإسلام يدعو للبناء لا للهدموالحديث رواه أحمد في مسنده وذكره الهيثمي في الزوائد.

ﷺ عن قتل رجال الدين ونهى عن التخريب وقطع الأشجار والنخل وحرقه ما لم يكن في ذلك ضرورة من الضرورات الحربية كاحتماء العدو بغابة يكمنون فيها أو حصونًا يؤذون المسلمين منها، كما نهى ﷺ عن التمثيل بالقتلى نهائيًا، وكان ﷺ إذا نزل بقوم ليلاً لم يغر عليهم حتى يصبح ونهى عن السلب والنهب وقال ﷺ عند فتح مكة: "لا تجهزُنَّ على جريح ولا تتبعن مدبرًا"(١).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال- بعد أن أعطاه النبي ﷺ الراية يوم خيبر-: يارسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا- أي يسلموا؟ فقال ﷺ: "انفُذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النعم"(٢).

كما دعي الإسلام إلى حسن معاملة الأسرى واعتبر الله تعالى إطعام الأسير من أكرم البر لقوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[الإنسان: ٨]، ونهي ﷺ عن تعذيبهم وإيذائهم فقال ﷺ: "استوصوا بالأسارى خيرًا"(٣). وحث الإسلام على إعطاء الأمان لعدوك إذا استأمنك فلا يحل عندها قتله ..

وكان عمر ﷺ يقول: لو أن أحدكم أشار إلى السماء بإصبعه إلى مشرك- دليل على رضاه بتأمينه بأمان الله وعهده- ثم نزل إليه على ذلك ثم قتله، وإني والذي نفسي بيده، لا يبلغني أن أحدًا فعل ذلك إلا ضربت عنقه. ونهي الإسلام عن قتل من يسالم المسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤].

وكان النبي ﷺ يأمر بعدم البدء بالعدوان فقال لمعاذ بن جبل ﷺ: "لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإن بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل فلإن

(١) الرحيق المختوم.
(٢) رواه البخاري في صحيحه.
(٣) رواه الطبراني في الصغير والكبير وقال الهيثمي إسناده حسن.

يهدى الله على يديك رجلاً واحدًا، خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت"، وقال ﷺ: "تألّفوا الناس وتأنّوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم".

وجعل الإسلام العهد بالأمان هو النهاية الحتمية للحرب إذا التزم الطرف الآخر بما جاء فيه، فلما دخل المسلمون مكة منتصرين صاح أحد هؤلاء القادة: اليوم يوم الملحمة، فقال النبي ﷺ: "اليوم يوم المرحمة" وعزل ذلك القائد. فقد كانت دعوة النبي ﷺ دعوة حسنة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

لذا فإن الحرب في الإسلام حربٌ فاضلة الباعث عليها ليس فرض الإسلام لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لكن الباعث عليها هو دفع الاعتداء لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[البقرة: ١٩٤]، فلم يقاتل الرسول ﷺ في أول ظهور الإسلام إلا قريشًا وذلك لأنهم تربصوا بالمسلمين واعتدوا عليهم وآذوهم فكانت بدر وأُحد خاصتين بقريش، ولما اجتمعت القبائل لقتال المسلمين بالأحزاب حاربهم جميعًا، و لم يستبح النبي ﷺ دماء اليهود بل سالمهم وعقد معهم عهدًا حتى خانوا عهودهم، فأرادوا قتله ﷺ[1] واعتدوا على حرمات المسلمين[2] ثم ما كان منهم في غزوة الأحزاب من نقض العهد[3].

كما أن النبي ﷺ لم يحارب كل النصارى ولكنه حارب الروم لأنهم قتلوا رسوله إليهم واعتدوا على مسلمي الشام، أما كسرى فلم يهم النبي ﷺ بقتاله إلا عندما كاد يقتل رسوله بل تمادى في غيه وبعث من يأتيه برأس محمد ﷺ لذا اتجه النبي ﷺ لقتال الروم والفرس دفاعًا عن حرية العقيدة من أن يُفتنَ أصحابُها، ثم خاض المسلمون حروب الردّة بعد وفاة النبي ﷺ كذلك منعًا للفتنة لقوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) دبر بنو النضير مؤامرة لقتل النبي ﷺ بإلقاء حجر رحى عليه فأخبره جبريل عليه السلام وأمره الله بقتالهم.

(٢) اعتدى رجال من بنى قينقاع على مسلمة فكشفوا عورتها عند صائغ يهودي فهبّ لهم مسلم فقتلوه فحاربهم النبي ﷺ .

(٣) نقض بنو قريظة عهدهم مع النبي ﷺ يوم الخندق وسمحوا للمشركين بالمرور من أراضيهم.

وقد تدرَّج الأمر بالجهاد حتى أصبح الجهاد فرضًا واجبًا على المسلمين، فعند بدء الدعوة أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتبليغ الدعوة فصدع لأمره، لكن قريش قابلته بالرفض والعدوان، وكان الصحابة يأتون النبي ﷺ يشكون الأذى الذي لحق بهم ويستأذنون النبي ﷺ في رد العدوان فيجيبهم قائلاً: ''كفوا أيديَكم عنهم واصبروا. فإني لم أومر بقتالهم''، ولما اشتد أذاهم وطغيانهم نزلت أول آية في الإذن بالقتال قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]، ورغم ذلك لم يبدأهم المسلمون بالقتال عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ونهاهم عن قتالهم في الأشهر الحرم لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]، ولم يسمح لهم بذلك إلا لرد الاعتداء، واستقر أمر القتال في الإسلام كعقيدة لإعزاز الدين وقهر أعدائه فخرج النبي ﷺ بنفسه يقود المسلمين فشهد معهم الغزوات وأرسل البعوث والسرايا[١].

لقد كان جهاد النبي ﷺ والمسلمين جهاد عقيدة دعا إليه الدين وألزمهم به للدفاع عنه ورد اعتداء من حاربهم أو تآمر للهجوم عليهم، لقد فاضت روح الإسلام بالتسامح حتى على حروبهم وهذا يخرس كل لسان يدَّعى صاحبه أن الإسلام انتشر بحد السيف فما بدأ المسلمون أحدًا بالقتال قط، ولما دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا عفا عن أهلها، ولعل أكبر دليل على عدم انتشاره بالقوة أن الإسلام لم ينتهي بذهاب قوة المسلمين في هذا العصر.

لقد سبق التشريع الإسلامي كل النظم والقوانين في حماية حقوق الإنسان وحفظ كرامة الأسرى، فالمسلمون يحاربون بقيمهم ومبادئهم وأخلاقهم قبل سيوفهم

---

(١) يقول الشيخ د. محمد سيد طنطاوي (مفتي الجمهورية) في كتابه السرايا الحربية في العهد النبوي : السرية هي طائفة مختارة من الجيش يرسلها القائد لقتال أعدائه أو إرهابهم أو استطلاع أحوالهم وغير ذلك من المقاصد، وسُميت بذلك لأنها تسرى خفية، والسرية يبدأ عددها من خمسة أشخاص وقد تصل إلى ٤٠٠ شخص ، ويقول الحافظ بن حجر: السرية قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه وعددها بين مائة وخمسمائة ، وقد اصطلح جمهور العلماء وأهل السير أن كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة يسمي غزوة، وما لم يحضره بل انتدب له بعض أصحابه يعرف بالسرية أو البعث وقد اختلفوا في عددها على نحو سنبينه فيما بعد.

ولقد صدق أمير الشعراء أحمد شوقي في وصفه لحروب النبي ﷺ راسمًا بذلك القدوة لمن تبعه إلى يوم القيامة فقال:

الحرب في حقٍ لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا	فالمجد مما يدَّعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبرا	وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة	فيها رضي للحق أو إعلاء

الجهاد في الإسلام

ما إن تحمل النبي ﷺ أعباء الرسالة حتى صدع لأمر ربه وطفق يدعو الناس إلى دين الله، لقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] فآمن معه نفر قليل ومكث يدعو الناس ثلاث سنوات سرًا حتى أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة قال: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فانطلق النبي ﷺ مجاهرًا بالدعوة وانطلق أصحابه رضوان الله عليهم متخذين منه قدوة لهم في الجهاد، فيلقى النبي ﷺ شديد الأذى فبينما هو يصلى عند الكعبة حتى يجئ عقبة بن أبي معيط[١] فيخنقه خنقًا شديد حتى كاد يُزهقُ روحه ثم يأتي فيلقى عليه وهو ساجد أمعاء بعير، ويلقون في طريقه الأشواك ويقذفون في وجهه التراب ويستهزؤون به ولما طال الإيذاء فر إلى الطائف يدعوهم فتلقاه أهلها بأغلظ القول وأبلغ القسوة يرضخونه[٢] بالحجارة ويسبونه، كل ذلك والنبي ﷺ صابرًا محتسبًا وتحل شجاعته وجهاده في روح أصحابه فينطلقون في حقل الدعوة يتحملون صنوف العذاب فيخرج ابن مسعود[٣] يجهر بالقرآن فيضرب ويؤذى، ويتزل الأذى والبلاء بالمؤمنين.

فهذا بلال[٤] يتقاذفه المشركون ويغرون به السفهاء وهو ثابت على الحق يقول: أحدٌ.. أحدٌ، ويُعذَّبُ عمارَ وأبواه فيمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فيسمع الأب ياسر يقول وهو يأن في قيوده: ''الدهر هكذا!'' فينظر إليه ﷺ ويقول: ''صبرًا آل

---

(١) عقبة بن أبي معيط: من مقدمي قريش في الجاهلية، كان شديد العداوة والأذى للمسلمين، حارب المسلمين يوم بدر فأسر وقتل صلبًا وهو أول مصلوب في الإسلام. (الأعلام ٤/٢٤٠)

(٢) رضخه بحجر أي قذفه به.

(٣) عبد الله بن مسعود، المخزومي: صحابي من السابقين الأولين هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين شهد بدرًا والحديبية. كان من أندى الناس صوتًا في قراءة القرآن. مات سنة ٣٢هـ بالمدينة.

(٤) بلال بن رباح: صحابي عرف بمؤذن الرسول ﷺ أسلم مبكرًا وكان عبدًا لأمية بن خلف الذي عذبه حتى اشتراه أبو بكر وأطلقه حرًا. شهد غزوات الرسول كلها ومات بالشام عام ٢٠هـ

ياسر؛ فإن موعدكم الجنة''[١]. وتكون أمه سمية أول من تقتل في سبيل الله.

ويأتي كل مشرك على من أسلم من أهل بيته يعذبه ويحبسه، وهكذا.. يُقتل هذا ويُضرب هذا ويُعذّبُ ذاك وهم صابرون محتسبون قد تساموا على آلامهم فلم يعد يؤلمهم شيء إلا أمر دينهم يريدون له الرفعة، فألحُّوا على النبي ﷺ أن يقاتلوا وهو يدعوهم ليتذرعوا بالصبر ويكفوا أيديهم عن أعدائهم، وما إن تنزّل قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] وتتابع نزول الآيات تحثُّ على الجهاد كقوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ ﴾ [التوبة: ٣٦] وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣] .

وأقبل النبي ﷺ على أصحابه يدعوهم إليه ويحثهم عليه فيصفه بقمة الإسلام وذروته فيقول لمعاذ بن جبل ﷺ: ''رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد''[٢]. وأخذ النبي ﷺ يعدد من فضائل فيقول: ''رباط يوم في سبيل الله تعالى خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل''[٣]. ويقول ﷺ: ''رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان''[٤].

وقال ﷺ: ''حرس ليلة في سبيل الله تعالى أفضل من ليلة يقام ليلها ويصام نهارها''[٥]. وسأل النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: دلَّني على عمل يعدل الجهاد! قال ﷺ: ''لا أجده''. ثم قال: ''هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقول ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟'' قال: ومن يستطيع ذلك؟ فقال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل

---

(١) الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية والهندي في الكنز وابن كثير في البداية.
(٢) رواه الترمذي في سننه وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه أحمد في مسنده.
(٤) رواه مسلم في صحيحه.
(٥) رواه أحمد في مسنده.

الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله"[١].

ثم تأتي أول مواجهة عسكرية بين المسلمين والمشركين يوم بدر فيقول النبي ﷺ قبل الصدام: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة"، فيقوم عمير بن الحمام الأنصاري[٢] ﷺ- وكان في يده تمرات يأكلهن- ويقول: بَخ بَخ[٣]، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم ألقي التمرات من يده وأخذ سيفه يقاتل[٤] وهو ينشد:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكلُّ زادٍ عُرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد

فيلقى الله شهيدًا ﷺ[٥]، وتتنزل آيات الله تعالى في فضل الشهيد كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ويخبر الرسول ﷺ بما أعده الله لهم من عطايا فيقول: "للشهيد عند الله ست خصال يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويُشفع في سبعين من أقاربه"[٦]. وأقبل الصحابة رضوان الله عليهم وقد باعوا من الله تعالى دنياهم ومتاعها الزائل بجنة

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) عمير بن الحمام الأنصاري: شهد بدرًا وكان أول قتيل من الأنصار في حرب قتله خالد بن الأعلم. (أسد الغابة ٢٧٨/٤).
(٣) بَخٍ بَخٍ: كلمة تقال للتعجب.
(٤) رواه أحمد في مسنده.
(٥) رواه مسلم عن عمير أنه أخرج من قرنه (جرابه) تمرات فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه لحياة طويلة ، فرمي ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل.
(٦) رواه الترمذي في سننه وقال: حسن صحيح غريب وروى مثله ابن ماجه في سننه.

عرضها السموات والأرض لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ [التوبة:١١١] .

فهذا عهد قطعه الله تعالى على نفسه وكتبه في القرآن ومن قبله التوراة والإنجيل. وعلى هذا أصبحت الشهادة أمنية يسعى إليها المسلمون ولقد تمناها النبي ﷺ وهو أفضل الخلق عند الله وأكرمهم إليه فقال ﷺ: "والذي نفسي محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل- كررها النبي ﷺ"[١].

وروى النسائي في سننه: سُئل النبي ﷺ: ما بال المؤمنون يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال ﷺ: "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة". وهكذا تصدى النبي ﷺ لحماية دين الله في مهده ومن حوله أصحابه من المهاجرين والأنصار على قلب رجل واحد يؤيدوه وينصروه فوقف المقداد بن عمرو ﷺ يقطع برأيه ورأى الصحابة- عندما شاورهم النبي ﷺ في أمر الخروج للمشركين ببدر- وقال: فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٢] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ثم وقف سعد بن معاذ ﷺ يقول: فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّفَ منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء[٣]. وهكذا كانت قلوب الصحابة ﷺ الذين اختارهم الله تعالى لنصرة دينه وتأييد ومؤازرة رسوله ﷺ .

ومن هنا كان شرف الصحابة وفضلهم الذي لا يدانيه شرف وفضل، فعن جبير بن نفير[٤] عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد ﷺ يومًا فمر به رجل فقال له: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله! لوددنا أنا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) موضع في اليمن يضرب مثلاً للمهالك.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام.
(٤) من التابعين ﷺ أدرك حياة النبي ﷺ ولم يره أقام بالشام ومات بها سنة ٧٥هـ (سير أعلام النبلاء ٤/٧٨)

فاستمعتُ فجعلتُ أعْجَبُ ما قال إلا خيرًا فأقبل المقداد ﷺ فقال: ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضرًا غيبَّه الله ﷻ عنه، لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه. والله! لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبهم الله ﷻ على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم ﷺ وقد كُفيتُم البلاء بغيركم[1]. وما يدريك حقًا لو كنت بين ظهرانيهم أن تكون منهم وقد اختارهم الله تعالى أكمل الخَلْق بعد أنبيائه ورسله وأصدقهم دينًا وأمرَ الله تعالى ورسولُه ﷺ المؤمنين بحبهم وجعل حبَّهم مكملاً للإيمان وأردفه بعد حب الله ورسوله .

وكان خالد بن معدان[2] إذا أوى إلى فراشه يذكر شوقه إلى الرسول ﷺ وإلى أصحابه ﷺ ويسميهم بأسمائهم ويقول: ''هم أصلى وفصلي وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم فعجلْ ربِّ قبضي إليك''، حتى يغلبه النوم[3].

ثم جاء من بعد الصحابة جيلاً من خير الناس بعدهم في الفضل لقوله ﷺ: ''خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم''[4]. فساروا على دربهم وحملوا راية الجهاد خلفًا لهم مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ .

فيقول أبو مسلم الخولاني[5] ﷺ مشجعًا نفسه على طاعة الله ورسوله وتحمل تكاليف دين الله: ''يا صحابة النبي ﷺ! والله لا ندعكم تستأثرون به دوننا، والله لنرينكم أنكم تركتم خلفكم رجالاً''.

ثم جاء من بعدهم المسلمون يحملون راية الإسلام وهكذا إلى يوم القيامة

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد والطبري بمعناه وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

(٢) تابعي جليل وهو شيخ أهل الشام وإمام الفقه بها روى عن عدد من الصحابة وتوفى عام ١٠٣هـ (سير أعلام النبلاء ٤/٥٤١)

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخه والذهبي في سير الأعلام.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وأبو داود والبيهقي في سننهم وأحمد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير عن عمران بن الحصين ﷺ .

(٥) هو عبد الله بن ثوب تابعي أدرك أبو بكر الصديق ﷺ .

فالدعوة لا تقف بموت أحد فالدين دين الله وهو ناصره لا محالة فقد علم المسلمون أبدًا حقيقة أمر الله لهم ورسوله ﷺ في الجهاد وعلموا أن الهلاك والهون في تركه والاستغناء عنه .

فعن أبي عمران ﷺ قال: كنا بالقسطنطينية فخرج من المدينة- أي القسطنطينية- صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين عليهم حتى دخل فيهم ثم خرج علينا، فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري ﷺ فقال: يا أيها الناس! إنكم لتأولون قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] على غير تأويلها، فقد أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنَّا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا بعضنا لبعض سرًا من رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت فما أقمنا فيها، قد أصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله ﷻ يرد علينا ما هممنا به فقال: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. قال أبو أيوب ﷺ: فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن تقيم في أموالنا نصلحها. فأمرنا بالغزو[1].

هكذا أمر الله بالجهاد وتوعد من تخاذل عنه بإنزل العقاب والذلة والخذلان فقال ﷺ: "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها". فقال قائل: من قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ: "بل أنتم كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغثاء السيل، وليتر عن الله من صدور عدوكم المهابة وليقذفن في قلوبكم الوهن". فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال ﷺ: "حب الدنيا وكراهة الموت"[2].

ويومها يكون الناس قد تسلطت عليهم الدنيا ويكونوا قد نسوا أمر الله ورسوله مما التزم به الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وما قاله أبو بكر ﷺ مخاطبًا جنده: "اطلبوا الموت يوهب لكم الحياة!"، وما قاله عليٌّ ﷺ: "إنه من ترك

---

(١) رواه البيهقي في سننه وروي مثله ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك والترمذي في السنن وابن حميد في مسنده وأبو يعلى في مسنده وذكره ابن كثير في البداية.

(٢) رواه أبو داود في سننه وقال: حديث حسن وأحمد في مسنده عن ثوبان ﷺ .

الجهـــاد في الله وأدهن في أمره كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله! وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله[١].

وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ: "إن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتمنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا في آخرتكم[٢].

وهكذا تاقت نفوسهم إلى الجهاد فقال عمر ﷺ: "لولا ثلاث لأحببت أن أكون لحقتُ بالله: لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبهتي في التراب ساجدًا، وأجالس قومًا يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر"[٣]. وأقبلوا عليه يحرصون عليه حرصهم على حياتهم فقال سهيل بن عمرو لسعد بن فضالة[٤] رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمره في أهله". فقال سهيل: فإنما أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة. قال: فلم يزل مقيمًا بالشام حتى مات في طاعون عمواس[٥].

ووقف بلال يومًا يقول للخليفة أبي بكر: "يا أبا بكر! اعتقتني لله أو لنفسك!" قال أبو بكر ﷺ: "لله"، فقال بلال: "فأذن لي حتى أغزوا في سبيل الله!"، فأذن له فذهب إلى الشام- مجاهدًا- فمات ثَمَّ[٦].

كما خرج معاذ بن جبل ﷺ إلى الشام في عهد أبي بكر فقال عمر ﷺ: "لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه، وما كان يفتيهم به"، فقال أبو بكر: "والله لا أمنع رجلاً أراد وجهًا يريد الشهادة فلا أحبسه"، فمات بالشام- وكان يفتي الناس

---

(١) رواه الطبراني عن أبي الوداك الهمداني والكندهلوى في حياة الصحابة.
(٢) حياة الصحابة للكندهلوى
(٣) رواه أحمد في الزهد.
(٤) كانت له صحبة ﷺ
(٥) رواه ابن سعد في الطبقات وروي الحاكم في المستدرك عن أبي سعيد مثله وذكره ابن حجر في الإصابة.
(٦) ذكره الكندهلوى في حياة الصحابه، وروي أبو نعيم عن سعيد بن المسيب نحوه.

بالمدينة في حياة النبي ﷺ وأبي بكر[١]. وبلغ فضله عندهم أن قال عمر ﷺ: "عليكم بالحج! فإنه عمل صالح أمر الله به، والجهاد أفضل منه[٢].

وهكذا أعلى الله من شأن الجهاد وجعله من خير العبادة بل وفضله عليها. وخير ما أذكره في هذا المقام رسالة بعث بها عبد الله بن المبارك ﷺ[٣] إلى عابد الحرمين الفضيل بن عياض[٤] ﷺ يدعوه إلى الجهاد ويذكره بفضله على العبادة لأن الدين الذي يتعبد الإنسان به يحتاج إلى التمكين في الأرض حتى لا يتكالب عليه أعدائه ويَفْتِنُون أهلَه، فقال:

يا عابـد الحـرمين لـو أبصـرتنا	**لعلمـت أنـك بالعبـادة تلعـبُ**
من كان يخضـب خـدَّه بدموعـه	**فنحورُنـا بـدمائنا تتخضـبُ**
أو كان يتعـب خيلـه في باطـل	**فخيولنا يـوم الصـبيحة تتعـبُ**
ريحُ العبير لكـم ونحـن عبيرُنـا	**رهج السنابك[٥] والغبار الأطيـبُ**
ولقـد أتانـا مـن مقـال نبينـا	**قولٌ صحيحٌ صـادقٌ لا يُكـذَبُ**
لا يسـتوي غبـار خيـل الله في	**أنف امرىء ودخان نـار تلـهبُ**
هـذا كتـابُ اللهِ ينطـق بيننـا	**ليس الشهيد بميـتٍ، لا يُحجَـبُ**

فبكى الفضيل وقال صدق ابن المبارك.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٢) رواه ابن أبى شيبة في المصنف

(٣) عبد الله بن المبارك: تابعي جليل من أهل مرو، وُلد عام ١١٨هـ (٧٣٦م) لم يدع بابًا من أبواب الفضل إلا وسلكه، مات بهيت منصرفًا من الغزو عام ١٨١هـ (٧٩٧م).

(٤) الفضيل بن عياض: تابعي من تميم اشتهر بالعبادة ولد بآبيور من خرسان، قدم إلى الكوفة فسمع من منصور بن المعتمر وغيره وانتقل إلى مكة وانقطع للعبادة بها ومات بها عام ١٨٧هـ (٨٠٢م).

(٥) الرهج: الغبار، والسنابك هي: أطراف حوافر الخيل.

مظاهر البطولة الحربية فى الإسلام

أقبل الصحابة رضوان الله عليهم ينهلون من قبس النبي ﷺ يتعلمون من فيضه أسمى معاني البطولة والشجاعة تسير على قدمين وتتجسد في شخصه الكريم ﷺ فقد عرفوا معنى الجهاد وفضله فتراكضوا في ميدانه يشرون أنفسهم من الله تعالى وتسابقوا لنيل الشهادة بعد أن صارت هدفًا لهم وأملاً غاليًا، ففي يوم بدر يقف ابن عفراء، عوف بن الحارث ﷺ، فقال: ''يا رسول الله، ما يُضحك الرب[1] من عبده؟'' قال ﷺ: ''غَمسُهُ يده في العدو حاسرًا''، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[2].

ويحضُ[3] النبي ﷺ أصحابه يومها فيقول: ''والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة''، فتسابق الصحابة على الموت وكان في يد عمير بن الحمام تمرات فألقاها من يده وشق طريقه وسط المشركين حتى قُتل[4]، وقاتل عمر بن الخطاب وأخيه زيد رضي الله عنهما حاسرين بعد أن ألقيا درعيهما.

وفى يوم أحد جمعهم الرسولُ ﷺ يستشيرهم في الخروج للمشركين فوقف خيثمة ﷺ - سيد قومه بنى عمرو بن عوف ونقيبهم يوم العقبة- يدعو المسلمين ويحضهم على الخروج للمشركين فقال: لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنتُ عليها حريصًا ولقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني[5] في الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة وقد كنت على الشهادة حريصًا وقد رأيت ابني البارحة يسرحُ في ثمار الجنة وأنهارها ويقول: ''الحقْ بنا

---

(١) أي يرضيه تعالى غاية الرضي

(٢) السيرة النبوية لابن هشام

(٣) حَضَّ على: حَثَّ على.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) هو سعد بن خيثمة قتله عمرو بن ود.

ترافقنا في الجنة! فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقد والله يا رسول الله! أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ورق عظمي وأحب لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة فدعا له النبي ﷺ فرزقها يوم أحد[١]. لقد تمناها بقلبه ودعا الله فعلم منه الصدق فرزقه ما تمنى.

وها هو عبد الله بن جحش ؓ يخلو بسعد بن أبي وقاص ؓ فيدعو ويؤمن سعد على دعائه فيقول: "اللهم ارزقني رجلاً شديدًا حردُه[٢] شديدًا بأسُهُ أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع[٣] أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلتَ: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك ﷺ فتقول: صدقت. قال سعد ؓ: لقد رأيته آخر النهار- يوم أحد- وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط[٤].

وعن أنس ؓ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله! إني رجل أسود قبيح الوجه، لا مال لي، فإن قاتلت هؤلاء حتى أُقتل، أدخل الجنة؟" قال ﷺ: "نعم". فتقدم فقاتل حتى قُتل فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال: "لقد حسَّن الله وجهك وطيّب ريحك، وكثّر مالك، لقد رأيت زوجتيه من الحور العين يتنازعان جُبَّة[٥] عليه يدخلان فيما بين جلده وجبته"[٦].

ويوم صفين يقف عمار بن ياسر ؓ يقول: "الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة، اليوم ألقى الأحبة محمدًا وحزبه"، ثم حمل ومن معه حتى قُتل[٧].

---

(١) حياة الصحابة للكندهلوى

(٢) الغيظ أو الغضب.

(٣) جدع أنفه: أي قطعه.

(٤) رواه الطبراني والهيثمي وقال رجاله رجال الصحيح ورواه البغوى والبيهقى وأبو نعيم مختصرًا وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة.

(٥) الجُبَّة الثوب السابغ واسع الكمين.

(٦) رواه البيهقى وروى الحاكم نحوه في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم وذكره ابن كثير في البداية والنهاية وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة والمنذرى في الترغيب والترهيب.

(٧) رواه أبو يعلى في مسنده وأحمد في مسنده والهيثمى في الزوائد وقال: رجالهما ثقات ورواه الطبراني وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

لقد سعوا نحو غايتهم ولسان حالهم (عجلت إليك رب لترضى) يقبلون على ما عند الله كما لو كانوا يرون الجنة ويتنسمون عبيرها وقد سرت في نفوسهم روح الإيمان نالوها بصدق عهدهم مع الله وقوة اليقين التي فتحت في قلوبهم عيونًا يرون بها صدق عهد ربهم فيما أعده لهم عنده .

والأمثلة على ذلك كثيرة ففي يوم اليرموك صاح جندي في قائده أبا عبيدة قائلاً: ''يا أبا عبيدة إني عزمت على الشهادة فهل لك حاجة أبلغها رسولَ الله ﷺ''، فقال أبو عبيدة ﷺ: ''أخبره أنّا وجدنا ما وعدنا الله حقًا''.

وعن شداد بن الهاد قال أن رجلاً من الأعراب جاء رسول الله ﷺ فآمن به وشهد غزوة خيبر فقسم له رسول الله ﷺ قسمه فقال: ''يا رسول الله ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى هاهنا- وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت؛ فأدخل الجنة''. فقال ﷺ: ''إن تصْدُق الله يصْدُقكَ. ثم نهضوا إلى قتال العدو. فأُتى به رسول الله ﷺ يُحمل، وقد أصابه سهم حيث أشار. فقال النبي ﷺ: ''هو هو!'' قالوا: نعم. قال ﷺ: ''صدق الله فصدقه''، وكفنه النبي ﷺ في جبته- أي جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، وكان مما ظهر من صلاته: ''اللهم! هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قُتل شهيدًا، وأنا عليه شهيدٌ[1].

وفى أحد لما انكشف المسلمين أخذ أنس بن النضر ﷺ يمر على رجال من المسلمين المنهزمين وقد أُشيع أن رسول الله ﷺ قُتل فألقوا أسلحتهم، فقال ''ما يجلسكم؟'' قالوا: ''قُتل رسول الله ﷺ''، فقال: ''فما تصنعون بالحياة بعد! قوموا فموتوا على ما مات عليه!''،- فما إن انكشف المسلمون وفرُّوا حتى ثبت وصمد بنفسه ويقول ﷺ في ذلك ثلاثة يحبهم الله ويضحك لهم ويستبشر بهم فذكر منهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه الله تعالى فإما أن يُقتل وإما أن ينصره الله

---

(١) رواه البيهقي والنسائي والحاكم بنحوه وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

ويكفيه فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟![1]- فاستقبله سعد بن معاذ ﷺ فقال: ''يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر! إني أجد ريحها دون أُحُدٍ، قال سعد: ''فما استطعت يا رسول الله أصنع ما صنع فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل،وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه''[2]. ونزلت فيه ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣] لقد صدق الله فصدقه الله وكان قد قال: ''يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. وفي يوم أحد سعى ليفي بعهده الذي عاهد ربه عليه فصدقه الله وآتاه الشهادة.

كما كان حب الصحابة الشديد للرسول ﷺ من أقوى الأسباب التي دفعتهم كي يجودوا بأرواحهم وهكذا ينبع حب رسول الله ﷺ من حب الله تعالى والإيمان به فهذا زيد بن الدثنة ﷺ يصلبه المشركون ليقتلوه[3] وإذ بأبي سفيان يأتيه- وقد كان مشركًا، فيقول له: ''أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك فنضرب عنقه وأنك في أهلك؟'' قال: ''والله ما أحب أن محمدًا ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي''. فقال أبو سفيان: ''ما أريتُ من الناس أحدًا يحب أحد كحب أصحاب محمد محمدًا''[4].

وتتضح أسمى معاني هذا الحب في يوم أحد وما أدراك ما يوم أحد؟ فلو شاهدت حال الصحابة في دفاعهم عن النبي ﷺ وتضحيتهم بأرواحهم دونه، لعلمتَ كيف فُضل الصحابة على من جاء بعدهم، فبعد انكشاف المسلمين نادى رسول الله ﷺ ليجمع أصحابه فخلص إليه المشركون وأقبلوا عليه ليجهزوا عليه، فصاح رسول الله ﷺ: ''يا أيها

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٣٦): رجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي في سننه عن أنس بن مالك ﷺ.

(٣) كان ذلك يوم الرجيع حيث أسرته هزيل وباعته بأسير لهم في مكة حيث اشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قُتل ببدر.

(٤) حياة الصحابة للكندهلوى والسيرة النبوية لابن هشام.

الناس مَنْ رجل يشرى نفسه؟'' فقام سبعة من الأنصار فأحاطوا بالنبي ﷺ إحاطة السوار بالمعصم يذودون عنه بأرواحهم فتساقطوا بين يديه قتلى الواحد تلو الأخر وكان آخرهم زياد بن السكن[١] ﷺ فقد ترس بجسده أمام النبي ﷺ يتلقى الرماح والنبال بجسده حتى مزقته الطعنات فخر صريعًا تحت قدمي رسول الله ﷺ فوسده الرسول ﷺ واحتضنه وقال: ''ارفعوا خده عن التراب اللهم إني أشهدك أن زياد بن السكن قد وفّى''[٢].

ثم صمد مع النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما فكان سعد يرد عنه المشركين بسهامه وطلحة يقيه الضربات بجسده فشلت أصبعه ثم تدافع الصحابة ﷺ لإنقاذ النبي ﷺ فأبو دجانة يترس عليه بظهره فيمتلأ ظهره بالسهام، وأبو قتادة بن النعمان أعزل يقي النبي ﷺ السهام بوجهه فكان يقول: ''كنت كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله ﷺ ميَّلتُ رأسي لأقي وجه رسول الله ﷺ بلا رمى أرميه''[٣]. وظل هكذا حتى اندلقت عينه وسالت حدقتها على وجنته، وبعد المعركة يرسل الرسول ﷺ زيد بن ثابت ﷺ يطلب سعد بن الربيع ﷺ فجعل يطوف في القتلى حتى أتاه وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقال: ''يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجدك؟''. قال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: ''يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف''، وفاضت نفسه من وقته[٤].

ولقد بلغ من حب الصحابة لرسول الله ﷺ أن فاق لديهم منزلة الأب والأم والأخ والولد وهكذا اكتمل إيمانهم كقوله ﷺ: ''لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما''[٥]. فقد نُعى لامرأة من بنى دينار[١] زوجها وأخرها

---

(١) ذكره ابن هشام في سيرته أنه عمارة بن يزيد بن السكن.
(٢) حياة الصحابة للكندهلوى
(٣) رواه الطبراني والهيثمي في الزوائد.
(٤) رواه ابن هشام في سيرته وذكره المباركفوري في الرحيق المختوم وصاحب زاد المعاد.
(٥) رواه أحمد عن أنس ﷺ

وأبوها يوم أحد فكان أول قولها عندما سمعت الخبر: ''فما فعل رسول الله ﷺ ؟'' قالوا: ''خير هو بحمد الله كما تحبين''. قالت: ''أرونيه حتى أنظر إليه!''، فأشير إليه حتى إذا رأته قالت: ''كل مصيبة بعدك جلل''[٢]، فلما قابلت عائشة رضي الله عنها سألتها عائشة: ''ما وراءك؟'' فقالت المرأة: ''أما ورسول الله بحمد الله بخير لم يمت، واتخذ الله من المؤمنين شهداء''[٣].

لقد دفعهم حب الله تعالى ورسوله ﷺ أن يضحوا بكل شيء ويؤثرون الجهاد على أي شيء فهذا حنظلة بن أبي عامر ﷺ في ليلة ''عرسه يترك زوجته وينطلق مجاهدًا فيرزق الشهادة[٤]، فيمر عليه النبي ﷺ فيقول: ''إن صاحبكم لتغسله الملائكة؛ فسألوا أهله ما شأنه؟'' فسألوا صاحبته[٥] عنه فقالت: ''خرج وهو جُنب حين سمع الهاتفة[٦]''.

وهذا أبو خيثمة ﷺ تخلف عن ركب المسلمين بعد أن ساروا أيامًا نحو تبوك فخرج إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريش[٧] لهما في حائط[٨] قد رشت[٩] كل واحدة منهما عريشها وبرَّدت فيه ماء وهيَّأت له فيه طعامًا. فلما دخل أبو خيثمة قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال لهما: ''رسول الله ﷺ في الضح[١٠] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنَّصَف، والله! لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ . فهيِّئا زادًا!'' ففعلتا ثم قدم ناضحه[١١] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله

---

(١) هي السميرا بنت قيس.
(٢) الجلل من ألفاظ التضاد فهي تعني الخطير والتافه وتعني هنا صغيرة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام
(٤) قتله شداد بن الأسود وقيل حنظلة بن شعوب الليثى مولى نافع بن أبى نعيم (ابن هشام في سيرته).
(٥) زوجته.
(٦) الهاتفة من أسماء الحرب.
(٧) العريش: بيت يستظل سقفه بالسعف ونحوه.
(٨) الحائط البستان.
(٩) رَشَّ نضح الماء.
(١٠) الضحُ: حر الشمس.
(١١) بعيره

ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة!" فقالوا: يا رسول الله- والله!- أبو خيثمة. فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ وقال: كدتُ أهلك يا رسول الله! وحدَّثه حديثه فدعا له النبي ﷺ[١].

وهكذا كان الجهاد هو راحتهم ومنشودهم لم يتخلف عنه متخلف ولم يرغب عنه[٢] واحد منهم حتى أصحاب الأعذار منهم فكان عمرو بن الجموح ﷺ أعرجَ شديد العرج فهو ممن أنزل الله رخصتهم في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧] فلما كان يوم أحد خرج أبناؤه الأربعة للجهاد وأرادوا حبسه وقالوا له: "إن الله ﷻ قد عذرك". فجاء يشتكى إلى رسول الله ﷺ يقول: "إن بَنَّى يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه في الجنة"، فقال رسول الله ﷺ: "أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك"، ولما وجد ﷺ عزمه وصدق نيته قال ﷺ لبنيه: "ما عليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة". فخرج معه فقتل يوم أحد[٣].

وكذلك فلم يمنع العذر من الصحابة من طعنوا في السن فقد روى الطبري في تاريخه أن رسول الله ﷺ لما خرج يوم أحد وكان حسيل بن جابر بن اليمان[٤] وثابت بن وقش بن زعوراء رضي الله عنهما في الآطام مع النساء والصبيان فقال أحدهما لصحابه وهما شيخان كبيران: "لا أب لك ما تنتظر؟! أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة مع رسول الله ﷺ!" فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس و لم يُعلم بهمات ورزقا الشهادة[٥].

---

(١) رواه الطبراني وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة وابن كثير في البداية والنهاية.

(٢) رغب عنه: زهد فيه وتركه

(٣) السيرة النبوية لابن هشام.

(٤) هو والد حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(٥) أما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل فاختلفت فيه أسياف المسلمين فقتلوه وهم لا يعرفوه فقرر له

وكما جاهد كبار السن فقد جاهد الصغار ما هم دون السن، فكان الصحابة يُعرضَون على النبي ﷺ يوم بدر وأحد فيردهم النبي ﷺ لحداثة سنهم وقد رأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير رضي الله عنهما يوم بدر يتوارى. فقال: "مالك يا أخي؟"، فقال عمير: "إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة"، فعُرض على رسول الله ﷺ فرده فبكى فأجازه فقُتل وهو ابن ست عشرة سنة(١).

وبرغم أن الله تعالى لم يكتب الجهاد على النساء(٢) لا أنهن أقبلن على هذا الخير يقتبسن من نوره فضربن أروع الأمثلة على الفداء، فهذه صفيه بنت عبد المطلب رضي الله عنها تقتل يهودي تسلل إلى حصن النساء يوم خيبر وتحتز رأسه فيظن أعداء الله أن بالحصن رجالاً، وهذه أن عمارة تمسك بسيفها تقاتل بين يدي النبي ﷺ يوم أحد فيقول النبي ﷺ: "ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وجدتها تقاتل دوني". وأم سُلَيْم رضي الله عنها تمسك بخنجر لها تقاتل به يوم حنين، وأم حكيم(٣) يوم اليرموك وقفت وقد شدت عليها ثيابها وهى تمسك عود خيمة فتقتل به سبعة من الروم، وفى ذلك اليوم وقفت نساء الصحابة في مؤخرة الجيش يضربن بأوتاد الخيام رقاب خيل المسلمين كي لا يفروا وكن ينادين إلى أين يا حماة الإسلام وطُلاَّب الشهادة، هذا علاوة على دور النساء الأساسي من سقاية المحاربين وإخلاء الجرحى وتضميد جراحهم والإجهاز على من أثبتتهم الجرحى من العدو وحفر القبور للموت، فقد وقفت فاطمة بنت رسول الله

الرسول ﷺ الدية فتصدق بها ابنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(١) رواه البزار ورجاله ثقات وابن سعد في الطبقات.

(٢) لم يفرض الله الجهاد على النساء وهذا ما أراد النبي ﷺ أن يبينه لهن حتى لا يثقل عليهن فعن أم كبشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ﷺ أتأذن أن أخرج في جيش كذا وكذا . قال: لا . قالت: يا رسول الله ﷺ إنه ليس أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوى الجرحى والمرضى أو أسقى المرضى . قال: لولا أن تكون سُنه ويقال فلانة خرجت لأذنت لك، ولكن اجلسي . (رواه الطبراني والهيثمى) وسألت امرأة: ماذا يكون للنساء؟ فقال ﷺ: إن طاعة الزوج واعترافًا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن من يفعله . (رواه البزار مختصرًا والطبراني والمنذري في الترغيب والترهيب).

(٣) أم حكيم رضي الله عنها: صحابية جليلة تزوجت عكرمة بن أبى جهل فلما استشهد يوم اليرموك تزوجها خالد بن سعيد فلما استشهد في حروب الروم تزوجها عمر بن الخطاب فولدت له فاطمة.

ﷺ تضمد جراحه يوم أحد وكانت السيدة رفيدة[1] رضي الله عنها يوم الأحزاب لها خيمة بمسجد النبي ﷺ تعالج الجرحى وكان النبي ﷺ قد أمر بعلاج سعد بن معاذ ﷺ بخيمتها، وهذه كلها أمثلة لجهاد أصحاب الأعذار ممن أخلصوا نياتهم وتغلبوا على أعذارهم فكانوا خير عون للإسلام.

كما ضرب الصحابة ومن تبعهم بإحسان أروع الأمثلة في التضحية بالأبناء والزج بهم في ميادين الجهاد فكانت صفية تربى ولدها الزبير رضي الله عنهما على حياة الخشونة والإقدام، وفى يوم أحد جاءت امرأة من المسلمين بابنها صبيًا صغيرًا فدفعت إليه بسيف فلم يطق حمله فشدته على ساعدة بنسعة[2]، ثم أتت به النبي ﷺ فقالت: ''ابني يقاتل عنك''- فقاتل فأصابته جراحة- فقال له النبي ﷺ: ''أي بنى لعلك جزعت؟''، قال: لا يا رسول الله[3].

وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ قد دفع بأخيه الصغير عمير وكان يعقد عليه حمالة سيفه من صغره[4]. وروى عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن الزبير كان معه ابنه عبد الله رضي الله عنهما يوم اليرموك وهو ابن عشر سنين، فحمله على فرس ووكل به رجلاً[5].

وروى الذهبي في سيره أن أنس بن مالك ﷺ رأى بعينيه ثلاث مائة ولد يجاهدون في سبيل الله. ويوم القادسية دفعت الخنساء بفلذات كبدها الأربعة وخرجت معهم تشد عزيمتهم وتحمسهم تقول: ''يا بَنّى! إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية... إلى أن قالت: فإذا أصبحتم غدًا فاغدوا إلى عدوكم مستبصرين بالله على أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها

---

(١) رفيدة الأنصارية الأسلمية: كانت امرأة تداوى الجرحى ولما أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق قال رسول الله ﷺ: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب . (أسد الغابة ١١١/٧)

(٢) نسعة أو شسعة: قطعة من النسيج.

(٣) رواه ابن أبى شيبة في المصنف والهندى في الكنز.

(٤) رواه البغوي وابن عساكر وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه وابن كثير في البداية والنهاية.

فاقصدوا وطيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة''. فاندفعوا إلى ساحة القتال وقد خرج أولهم يرتجز:

يا أخـــوتي إن العجـــوزَ الناصـــحة قد نصـــحتنا إذ دعتنـــا البارحـــة
مقالـــة ذات بيـــان واضـــحة فباكروا الحرب الضروس الكالحـــة[1]
وأنـــتم مـــن حيـــاةٍ صـــالحة أو ميتـــة تـــورث غُنمًـــا رابحـــة

وظل يقاتل حتى قُتل، فحمل أخوه من ورائه وهو يهتف:

إن العجـــوزَ ذاتُ حـــزمٍ وَجَلَـــد والنظر الأوفـــق والـــرأي السَّـــدَد
فباكروا الحـــرب حمـــاة في العُـــدد إمـــا لفـــوز بـــارد علـــى الكبـــد
أو ميتـــةٍ تـــورثكم عـــز الأبـــد في جنة الفردوس والعيش الرَّغَـــد

ثم قاتل حتى قُتل فحمل ثالثهم وهو ينشد:

والله لا نعصـــى العجـــوز حرفـــا قـــد أمرتنـــا حـــدبًا[2] وعطفـــا
نصـــحًا وبـــرًّا صـــادقًا ولطفـــا فبادروا الحرب الضـــروس زحفـــا

وظل يقاتل حتى قتل فاندفع رابعهم يقول:

إمـــا لفـــوزٍ عاجـــلٍ ومغـــنم أو لوفـــاةٍ في الســـبيل الأكـــرم

فلحق بهم إلى جوار ربه- نحسبهم شهداء وأجرهم على الله- ثم زُفَّ بالخبر إلى أمهم، تُرى ماذا قالت هذه المرأة وقد نعت في الجاهلية أخاها صخرًا سنين طويلة لم يرقأ لها دمع، وما من أحدٍ إلا ويعلم أن الأبناء أحب وأغلى ممن سواهم وإذا أردنا الحق أنهم أغلى على المرء من نفسه التي بين جنبيه، لكنها صبغة الإسلام ونور الإيمان في القلوب فما إن نُعوا إليها حتى فرحت واستبشرت وقالت: ''الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في معارك الجهاد الشريفة وأرجو منه أن يجمعني بهم في مستقر رحمته''.

---

(١) حرب شديدة.
(٢) حَدَبَ عليه: انحنى وعطف.

عوامل انتصار المسلمين

يقول الندوى في كتابه ''ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟'': ''عمد الإسلام إلى الأمة العربية الضائعة فما لبث العالم أن رأى نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ،فأصبح عُمَرُ الذي كان يرعى الإبل لابن الخطاب ولا يحسب له أقرانه حسابًا كبيرًا إذ به يفاجئ العالم بعبقريته وعصاميته ويدحر كسرى وقيصر على عرشيهما ويؤسس دولة إسلامية تعلو على دوليتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

وهذا خالد بن الوليد الذي كان أحد فرسان قريش وانحصرت كفاءته في المعارك القبلية في نطاق محلى ضيق إذ به يلمع سيفًا إلهيًا لا يقوم له شيءٌ إلا حصده ويترل كصاعقة على الروم والفرس ويبقى ذكره خالدًا في التاريخ.

وأبو عبيدة بن الجراح الذي وُصف بالأمانة والصلاح والرفق يقود سرايا المسلمين فإذ به يتولى القيادة العظمى للمسلمين بالشام يطرد هرقل من ربوع الشام .

وهذا عمرو بن العاص ترسله قريش في سفارتها إلى الحبشة ليسترد المهاجرين فيرجع خائبًا إذ به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش إذ به يتقلد مفاتيح المدائن عاصمة الفرس..''[1].

وهكذا انتصر المسلمون في معاركهم وجابت أمجادهم طباق الأرض، وما وُجد على الأرض سابقًا أو لاحقًا جنديًا كالجندي المسلم في شجاعته وقوته وجرأته، وإذا أردنا أن نستعرض العوامل والأسباب التي مكنت المسلمين من الانتصار فيما خاضوه من معارك وقوضت أركان معاقل الظلم على أيديهم فيلزمنا الوقوف على جانبين هما:

(١) كتاب لن تلق مثل عمر جـ١ لأحمد كمال الطوبجي نقلاً عن الكتاب المشار إليه للندوى.

الجانب المعنوي: من قوة إيمان وثقة بالله بموعوده وبصدق رسوله ﷺ وبما أحدثه ذلك في نفوسهم من صبر وثبات عزم وصدق نية.

والجانب المادي: الذي يتجلى في حسن التخطيط والأخذ بأسباب العلم وإعداد ما يُستطاع من قوة وغير ذلك مما يُعين على القتال والمجالدة ويتعلق كل جانب من الجانبين بكلا الجيشين المتحاربين .

فلكي يتم النصر يجب أن يقابل الإيمان واليقين الصادق في قلب المنتصر بما يناهضه في قلوب العدو من ضعف وخور، وعلى الجانب الآخر تبرز قدراتُ قادة وجند في تحرى نقاط الضعف في العدو واستخدامهم لكل ما يجلب النصر ويقابل ذلك جحافل مفككة وجموع مزعزعة وقواد مغترون ونوازع متناقضة وأهداف مشوشة متضاربة، ويُذْكي[1] الله تعالى الجانبين المادي والمعنوي بقوته ومدده فيثبِّت جنده ويزلزل أعدائه ويقذف الرعب في قلوبهم وينزل الملائكة تشد أزر المؤمنين، ويعينهم بقدرته تعالى﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[المدثر: ٣١] فيجرى الريح تدمر معسكرات العدو في يوم الأحزاب وينزل المطر في يوم بدر فيثبت به أقدام المؤمنين وتوحل منه أقدام الكافرين وإلى غير ذلك من عجائب قدرته ومظاهر تصرفه في كونه.

أولاً: الجانب المعنوي:

يقول الأستاذ محمد فرج: "إن المتعمق في دراسة تاريخ الحروب والمتتبع لظروفها وتطورها يعلم أن هناك نظريتين سادتا ميدان الحروب منذ عرف الإنسان الحروب حتى يومنا هذا.

النظرية الأولى: هي نظرية الكم أي العدد فالنصر يكون حليف أكثر الجيشين عددًا وعُدَّة وقد سادت هذه النظرية ميدان القتال خلال القرون الطويلة التي سبقت

---

(١) أذكى النار أشعلها.

الإسلام، وسعيًا وراء العدد الكبير كانت الجيوش تستعين بالمرتزقة ليزيدوا من أعدادهم، ولما جاء الإسلام وأُذن للمسلمين بالقتال دفاعًا عن دين الله أخرج إلى الساحة نظرية جديدة قامت على أنقاض النظرية القديمة وهى نظرية الكيف فبدأ الاهتمام بالفرد نفسه بقدراته وإمكانياته ومعنوياته فالحرب تعتمد على نفسية المقاتل وقوة إيمانه بهدفه الذي يقاتل في سبيله.

ويقول المارشال ''بوديني'' ما يؤيد ذلك: ''إن الروح المعنوية غالبًا ما تعاون الجيش على النصر حتى ولو كانت الظروف كلها مجتمعة ضده، فما قيمة قوة الجيش في عدده وعدته إن كانت روحه المعنوية على درجة من الضعف؟ إنه بلا شك سيفقد معداته في الدور الأول من القتال ومن ثَمَّ يلقى الهزيمة''[1].

إن قوة المسلمين الحقيقية تكمن في إيمانهم بالله تعالى فهم يحاربون بدين الله وينتصرون به، يسعون لإعلاء شأنه وهم يوقنون أن الله ناصرهم لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[الحج: ٤٠] ويصدق قول سعد بن أبي وقاص ﷺ إذ يقول: ''إننا لا نحارب بعدد ولا عدة ولكن بهذا الدين الذي أكرمنا الله به''.

والمسلم يحارب في طلب إحدى الحسنين إما النصر المبين والظهور على الكافرين في الدنيا، وإما إلى الشهادة حيث رضي الله تعالى ودار كرامته والخلود في جنته وكانت الشهادة هي الغاية الأسمى، لقد كانوا يطلبون الموت ومن ثَمَّ وُهبت لهم الحياة وأية حياة إنها حياة العزة والنصر وقد أشعلتْ في نفوسهم هذه القوةَ المعنوية الهائلة أمورًا كثيرة منها قوة الإيمان التي تفتحت لها في قلوبهم عيونًا ترى بنور الله وتحس وتدرك ما عند الله من جزيل الثواب في الآخرة وقد أيقنوا صدق ذلك من كتاب الله الذي وعوه وحفظوه وعملوا به وطبقوه وتفاعلوا معه كما تفاعل القرآن معهم حيث أنزله الله منجمًا يُثبِّت الرسول ﷺ والمؤمنين ويرد على الكافرين كيدهم ويفضح مؤامراتهم، وحمل بشائر النصر والتمكين والحياة الكريمة والخروج من ذل الرق والعبودية إلى سعة الكرامة والحرية التي ينشدها الإسلام.

(١) محمد رسول الله ﷺ أوامره ونواهيه في ميدان القتال لمحمد فرج.

كما كان لوجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بينهم- أي في جيل الصحابة- أثر بالغ الأهمية في النفوس يقول فيه صاحب كتاب "الرحيق المختوم": "من أهم عوامل الثبات والصبر وجود قيادة تهوى إليها الأفئدة وهو شخص النبي ﷺ الذي كان نموذجًا فريدًا وتطبيقًا حقيقيًا لشرائع الإسلام فقد كان قرآنًا يمشي على الأرض يجذب إليه القلوب بما حباه الله به من كمال النفس ومكارم الأخلاق والشيم النبيلة والشمائل الكريمة فكانت أنصبته من الكمال ما لم يرزق بمثله بشر، وكان من العفة والأمانة والصدق والخير والفضل ومن جميع سُبُل الخير ما لم يتمارَ[1] فيه أعداؤه فضلاً عن محبته ورفاقه. لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها، تحمل كلماته الأوامر التي لا تخطئ والبشارات الكريمة، ويقول: لقد كان يحل في رفاقه وأصحابه محل الروح والنفس ويشغل منهم مكان القلب والعين فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور، وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس فكان من أثر هذا الحب أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر أو يُشاك بشوكة".

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يشعرون بالمسئولية الهائلة الملقاة على عواتقهم- والتي لا يمكن الحياد أو الانحراف عنها- من نصرة هذا الدين وتأييد رسوله ﷺ وتبعهم على ذلك من تلاهم من التابعين وأتباعهم من المجاهدين المخلصين وإن لم يكن الرسول ﷺ حي بينهم فقد استعاضوا عن مكانه بينهم بمكانة راسخة في قلوبهم، وسيظل دين الله باقيًا بعد أن أدى النبي ﷺ واجبه كما أمره ربه وترك نصرة هذا الدين أمانة في عنق كل مسلم، وقد أقبل المسلمون على تحمل هذه الأمانة بقلوب متجردة لا تبتغي الدنيا ومتاعها الزائل ولا تسعى لمنصبٍ أو زعامة .

فهذا خالد بن الوليد ﷺ يحرز انتصارته الباهرة قائدًا فذًا فلما ولى عمرُ ﷺ الخلافةَ عزله وبعث بذلك في رسالة إلى القائد الجديد أبي عبيدة فكتمها أبو عبيدة ﷺ عشرين ليلة فكان خالد يقود معركة دمشق وأبو عبيدة جنديٌّ تحت رايته فلما علم

(١) يشك فيه.

خالد بالأمر قال له: يغفر الله لك، جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني؛ وأنت تصلى خلفي والسلطان سلطانك. فقال أبو عبيدة: "ما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل وأن ما ترى سيصير إلى زوال"[١] ثم يقاتل خالد جنديًا مخلصًا في سبيل ربه .

وبمثل هذه الروح المتجردة اندفع المسلمون في ميدان القتال فعن عبدة بن سليمان قال: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ثم آخر فقتله ثم آخر فقتله ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه، قال: فنظرت إليه فإذ هو مُلَثَّمٌ وجهَهُ بكمه فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك وهكذا خاف على إخلاصه برؤية الناس له .وكان إبراهيم بن أدهم[٢] يقاتل فإذا عُرض عليه سهمه من الغنيمة رفضه ليوفر له الأجر[٣].

وهكذا كانت قلوبهم وصدق إيمانهم فأنزل الله عليهم نصره وتأييده بتثبيته لهم وتنزيل ملائكته عليهم تحارب معهم وتطمئن قلوبهم ففي يوم بدر يتنزلون بأمر الله يقاتلون في صفوف المسلمين قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]، فتنزل جنود الله من الملائكة أرسالاً فيستبشر النبي ﷺ ويبشر أصحابه فيقول ﷺ: "أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[٤]".

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له ولأبي بكر رضي الله عنه: "مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٢) إبراهيم بن أدهم، التميمي البلخى: زاهد مشهور ولد ببلخ ورحل في طلب العلم بالعراق والشام والحجاز وتفقه، توفى عام ١٦١هـ (٧٧٨م) قيل في سوفنن. (حصن ببلاد الروم) (الأعلام ٣١/١)

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزى.

(٤) النقع الغبار. رواه ابن اسحاق في سيرة

يشهد الصف"[١]. ويقول عكرمة ﷺ وكان مشركًا يومها: كان يومئذ يندر[٢] رأسُ الرجل لا يُدرى من ضربه، وتندر يدُ الرجل لا يُدرى من ضربها[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل من الأنصار يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: "أقدم حيزوم!"[٤]. فنظر إلى المشرك أمامه، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: "صدقت، وذلك من مدد السماء الثالثة"[٥].

وقال أبو داود المازني: "إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري"[٦]. وكان الصحابة يعرفون من قتلته الملائكة بأثر حرق فوق الأعناق والأطراف مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وكان أبو أسيد، مالك بن ربيعة- من أهل بدر- بعد أن ذهب بصره يقول: "لو كنتُ معكم ببدر- أي موقع المعركة- ومعي بصري لأريتكم الشِّعْبَ[٧] الذي خرجت منه الملائكة! لا أشك ولا أمتري[٨].

وقال: "ولم تقاتل الملائكة في غزاة إلا ببدر، وإنما كانت تنصر وتعين، وكانت عليهم عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم"[٩]. وقال أبو سفيان بن الحارث ﷺ وكان قد فر يوم بدر- وكان مشركًا- لأبي لهب وهو يصف ما جرى في المعركة: "إنْ هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا[١٠] حتى قتلونا كيف شاءوا وأسرونا

---

(١) رواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي أنه على شرط مسلم.
(٢) نَدَرَ الشيء: سقطت.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات
(٤) اسم فرس قيل هو فرس جبريل ﷺ
(٥) الرحيق المختوم وروى مسلم مثله في صحيحه.
(٦) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.
(٧) الشعب: افراج بين جبلين.
(٨) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.
(٩) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى
(١٠) انسحبنا هاربين.

كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس لأنَّا لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله لا يقوم لهم شيء''[١].

وفى هذه الغزوة أسر الصحابيُّ أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري- وكان قصيرًا- العباس وكان طويلاً ضخمًا، فقال له النبي ﷺ: ''لقد أعانك عليه ملك كريم''[٢]. وبعد الخندق جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: ''أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم وأقذف في قلوبهم الرعب فسار جبريل في موكبه من الملائكة[٣]. وكان الله تعالى ينصره بقدرته وقوته فكان ينصر النبي ﷺ بقذف الرعب في قلوب الكافرين قال رسول الله ﷺ: ''نصرتُ بالرعب مسيرة شهر''[٤].

ونصره بالريح يوم الأحزاب قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩]. وقال ﷺ: ''نُصرتُ بالصبا''[٥]. وهكذا ينصر الله عباده ولو كانوا قلة، قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦] وعلى هذا تعد القوة المعنوية دافعًا هائلاً لإحراز النصر.

---

(١) الرحيق المختوم.
(٢) رواه أحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات.
(٣) رواه ابن هشام في سيرته وذكره المباركفورى في الرحيق المختوم.
(٤) رواه مسلم في صحيحه والترمذي في سننه.
(٥) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد في مسنده والبيهقي والحاكم.

ثانيًا: الجانب المادي:

يقول الأستاذ العقاد: "حقًا إن أمضى الأسلحة التي مكنت للمسلمين في الأرض ونقلتهم من نصر إلى نصر هي العقيدة لأمراء، لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول فالواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم والدليل على ذلك هو فلاح أناس وإخفاق آخرون فانهزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل ابن حسنة حيث انتصر خالد في اليمامة، وخرج خالد وعياض بن غنم[1] لفتح العراق من طرفيه في آن واحد فسار خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى توفيق ولبث عياض يتردد يقدم خطوة ويحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل، كما سبق خالد بن سعيد إلى الشام فغرر به الروم واستدرجوه إلى مرج الصفر فأوغل وراءهم و لم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة فأحدقت به جحافل الروم وكادت تفتك بجيشه لولا أن أدركه هذا المدد"[2].

وهذا بالطبع لا يقدح في شجاعة هؤلاء ومقدرتهم ولا يشكك أبدًا في استنصارهم بربهم لكن جرت السُّنَّة[3] على اختلاف الناس في القدرات والكفاءات فلا يبرز منهم في هذا المقال إلا من يحسن استغلال قدراته وقدرات رجاله ويستغل عوامل النصر من حيث التربص والانقضاض والكر والفر ويستغل كذلك طبيعة الأرض وظروف البيئة والمناخ وغيرها من الظروف المختلفة.

ويقول الأستاذ العقاد: "إن هزيمة الدول الكبرى أمام المسلمين في عصر الفتوح لها أسباب كثيرة كما أفاض المؤرخين من الغرب والمستشرقين ذكروا منها: ضعف العقيدة، واختلال النظام، ونقص القيادة والانحلال والترف وتفرق الرأي- ويقول

(١) عياض بن غنم: صحابي شهد بيعة الرضوان. افتتح الجزيرة صلحًا وأقره عمر على الشام وكان أحد الأمراء يوم اليرموك، مات سنة ٢٠هـ بالشام. (سير الأعلام ٢/٣٥٤)

(٢) عبقرية خالد للعقاد.

(٣) سُنَّة الله: حكمته في خليفته

العقاد: لكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل، وكانت تلك الآفة شرًا على تلك الدول المتصلفة[(١)] فقد كانت دولة الفرس تنظر إلى البادية العربية نظرة السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل الذين لا يحتاجون إلا للعطاء أو التأديب، فقد بلغ من صلف كسرى وغروره حين جاءته دعوة الإسلام أن بعث شرذمة من الجند إلى النبي ﷺ لتأتيه به في الأصفاد[(٢)]، وكانوا يستخفون بخالد وجيشه حتى صار إليهم وذكَّ حصونهم وتتابع عليهم قادة المسلمين يتزلون بهم الهزائم حتى أزالوا دولتهم.

أما الروم فقد كانت لا تختلف كثيرًا عن نظرة الفرس للبادية، وكان قصارى ما حذروه منهم أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم إلى الصحراء فإن أوغلوا في بلاد الروم فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة، فلما جد الجد إذ بدولة الروم ينقلب حالها من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد- ويضيف العقاد: ومازال أكثر المؤرخين المحدثين يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم فيحسبون هذه الغلبة شيئًا قد حدث فلتة لا يُقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار، وبعضهم يلتمس العلة في إصابتهم بالخور والانحلال وافتقارهم لما كان لدى المسلمين من عقيدة قوية.. ويقول: وهذه كلها تعليلات ناقصة من كل نواحيها فالمصادفة لا محل لها في حوادث الوجود ولا تطرد في قتال بعد قتال من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارف الأرض ومغاربها من إفريقيا إلى الصين كما أن انحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر لكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكن.

---

(١) المغرورة المتكبرة.

(٢) بعث الرسول ﷺ عبدَ الله بن حذافة ﷺ إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس برسالة في العام السابع الهجري، يدعوه إلى الإسلام، فلما قرأها مزّقها فلما علم النبيُّ ﷺ بذلك قال: مُزّق ملكه! ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز- أي النبي ﷺ - رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فلما جاءا إلى النبيّ ﷺ قال بعد أن جاءه الوحي: إن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في ليلة كذا وكذا من الليل في شهر كذا وكذا- وكان مقتله ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع- فلما بلغ باذان خبر مقتله أسلم وأسلم من معه. (تاريخ الطبري ١٤٣/٣) .

فالعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن فقدها لكنها وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد، والحقيقة أن المسلمين كانوا أيضًا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم منها فقد كانوا محاربين بالفطرة التي نمت في نفوسهم بالتجربة والممارسة الفعلية وما توارثوه عن الآباء والأجداد[1] فنجد واحدًا من الأنصار وهو الصحابي الجليل عاصم بن ثابت ﷺ وهو عربي لم يفارق بيئته ولم يتصل بأي حضارة يسأله النبي ﷺ: "كيف تقاتلون؟" فقام عاصم وأخذ القوس والنبل وقال: "إذا كان القوم قريبًا من مائتي ذراع كان الرمي وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة[2] حتى تقصَّف فإذا تقصَّفت وضعناها وأخذنا بالسيوف وكانت المجالدة فقال ﷺ: "هكذا نزلت الحرب، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم"[3].

وقال العقاد: "إن البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو في صدر الإسلام لم تكن تجهل فنون الحرب بتلك الحالة التي يتوهمها مؤرخي الغرب فقد استقر في أذهانهم أن حروب الصحراء لم تكن إلا مشاجرات بالسيوف والرماح والقسي لا ترجع إلى نظام وإنما هي شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تُقبل حتى تُدبر وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال هو الفر بعد الكر والكر بعد الفرار وهذا خطأ كبير قد وقعوا فيه، فمن الخطأ أولاً أن تستخف بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على مثل هذه المناوشات أو ما نسميه اليوم حرب العصابات.

فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات والتي تشترك فيها القبائل بين عادية ومعدو عليها فقد عاش البدوي كما جاء في التوراة "يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه" فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى "حاسة الحرب" لا تفارقه في ليل أو نهار فحياته بين حيطة المدافع

---

(١) عبقرية خالد للعقاد.

(٢) المداعسة هي الطعان والمِدْعاس هو الرمح الغليظ الذي لا ينثني.

(٣) رواه ابن إسحاق في السير .

واستعداد المهاجم وهذه ملكة لا تحصل لأبناء الحضر أو المدن فحياتهم مستقرة ينتدبون للقتال بين آونة وأخرى ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى في مكان العمل ثم يُطرح عن العاتق في سائر الأوقات.

وقد أكسبت هذه الرياضة البدوي جيلاً بعد جيل الصبر على الفرار والجأش عند الإدبار لأن الفرار عندهم حركة من تحركاتهم المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها فهو إن فر لا يكون بالضرورة مهزومًا، إنما يكون في حالة صالحة لاستئناف القتال بعد ذلك في الكر بعد الفر ومن هنا تيسر لقادة العرب في المعارك الكبرى أن يجمعوا شمل الجيش المنهزم في سويعات معدودة وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش الرتيبة أن تتداركه قبل زمن طويل- .

ويضيف العقاد: وكما أن العصابات المغيرة لا تخلو مع طول المران من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة[1] وحسبان الحساب للرجعة والإفلات هذا وإن صح أن حروب العصابات هي كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم، وذلك غير صحيح؛ فالعرب عرفوا في حروبهم تسيير الجيوش بالآلاف على اختلاف الأسلحة والأقسام- .

فقد روى ابن الأثير في تاريخه أن الحارث بن الأعرج قائد الغساسنة حشد لقتال المنذر بن ماء السماء في معركة "عين أباغ" جيشًا قوامه أربعين ألفًا، وكان جيشه ينقسم إلى كتائب ويضم في صفوفه الخيالة وحاملي السيوف والرماح وضاربي الحجارة ورماة الحراب، كما استعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثاني بثمانية آلاف- كما أن البادية لم يفتها قط علم الحرب الذي كانت تمارسه دول الحضارة المجاورة للعرب في العصر الجاهلي فكان الغساسنة على مقربة من الروم تتدخل معهم في الفرق المتطوعة على حاليّ الدفاع والهجوم وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس وكانت تخدم الفرس كتيبة من أبناء القبائل العربية تُعرف بالدوسر، ولا يحتاج العربي بما لديه

---

(١) المخاتلة: المخادعة.

من فراسة إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج إليها في تعبئة الجيوش وغيرها من فنون الحرب التي كان في مسيس الحاجة إليها.

وقد نتبين ذلك فعلاً في وقعة ذي قار(١) التي تغلبت فيها بعض قبائل العرب على الفرس، وقد كانت حربًا منظمة بعث فيها العرب الطلائع وبثوا العيون وقسموا جمعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل وميسرة تولاها بنو شيبان، وقلب تولته بطون من بكر يقودهم هانئ بن مسعود، كما أرسلوا رسلاً يثيرون القبائل فانضمت إليهم إياد، وفى المعركة طبق العرب خططًا حربية مدروسة فقد تكردسوا في كراديس(٢) ثم كمن بعضها بينما تراجعت أياد أمامهم فلما استدرجوا جيش الفرس أحاطو بهم فتقدمت الكمائن من الجانبين وكرت عليهم إياد فكانت ضربتين متداركتين فانتصر العرب، وعلى هذا فإن العرب قد اكتسبوا الطريقتين معًا حرب الصحراء بنشأتهم في البادية، وحروب دول الحضارة التي تجاورهم، وبذلك أضافوا سرعة الحركة في طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم في طريقة الجيوش المنظمة فقد أخذوا من هذه الحضارات وطوروا و لم يقفوا عند قوالب جامدة وبذلك أخذوا بأحدث وسائل العلم لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فنجد النبي ﷺ عندما حاصر الطائف عام ٨هـ وطال الحصار حتى أرهق المسلمين فأمر النبي ﷺ فنصب لهم المنجنيق(٣) وقذف به الحصن حتى وقع شدخ في جدرانه فدخل المسلمون تحت دبابة(٤) في شدخ الجداره(٥) .

---

(١) ذو قار: سبب هذه المعركة أن النعمان بن المنذر لما ساءت العلاقات بينه وبين كسرى قرر أن يستودع ما له وأولاده عند هانئ بن مسعود سيد شيبان ولما قتل كسرى النعمان أرسل يطلب ما استودعه عند هانئ بن مسعود فرفض هانئ فغضب كسرى وقرر قتال العرب.

(٢) كراديس مفردها كردوس وهى لفظة أعجمية قديمة تعنى كتيبة.

(٣) كان قد غنمه المسلمون من اليهود عند فتح خيبر.

(٤) الدبابة: بناء ضخم من الخشب في جوفه فراغ يدخل منه الجنود ويستخدم في نقب الجدران كان المسلمون قد غنموه يوم خيبر.

(٥) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفوري.

وبعدها بقرون عندما استخدم صلاح الدين الأيوبي أحد المركبات المذيبة[١] التي مكّنته من صهر أبراج الصليبيين الحديدية، وكذلك عندما استخدم محمد الفاتح المدفع العملاق الذي دك به أسوار القسطنطينية و لم يكن وقتها هو أول من استخدم البارود فقد ابتكره واستخدمه المماليك في حروبهم وخاصة في حرب المنصورة ضد الصليبيين كما روى المؤرخ الفرنسي جوانفيل[٢] الذي عاصر هذه المعركة واصفًا القذائف التي ضربهم بها المماليك البحرية فقال: "وفى ذات ليلة كنا نحرس الأبراج حيث أحضر المسلمون آلة لم يستعملوها من قبل يقذفوننا فيها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب.. نار مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة وذيلها خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء لها نور ساطع من جراء انتشار اللهب فجعل المعسكر كوضح النهار وقد رمى علينا المسلمون هذه النار ثلاث مرات وكان ملكنا لويس كلما سمعهم يقذفون النار علينا ينهض من فراشه ويبسط يداه إلى السماء ويقول أيها السيد العظيم احفظ لي رجالي[٣].

ويقول عميد أ.ح. محمود نديم فهمي: وعلى هذا فقد استخدمه المماليك وقد عُرف باسم المكحل (المكحلة) وكان يصنع من النحاس أو الحديد بأحجام أغلبها كبير وهذا يتضح من المدافع الموجودة بالمتحف الحربي بالقلعة لكن يبدو أنهم قد احتفظوا به كسلاح سرى و لم يستخدموه إلا في حالة الضرورة وهذا يبرر ندرة وجودها بالمصادر هذا بجانب استهانة المماليك بهذا السلاح وتمسكهم بسلاح السنة النبوية لأن القتال بالسيوف في التحام هو الجهاد الذي يتلاءم مع المسلمين الذين يرفضون الحرب الجبانة التي تفتقر إلى شجاعة المواجهة وكانوا يقولون: "نحن قوم لا نترك سنة نبينا ﷺ وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف".

وقد ذكر ابن إياس في "بدائع الزهور" أن المكاحل كانت على نوعين: نوع

---

(١) قام بتحضيره رجل دمشقي لم تذكر المراجع اسمه.

( ) Joinville .

(٣) الفن الحربي للجيش المصري في العهد المملوكي للعميد أ.ح. محمود نديم فهمي.

يحمل على عجل وتتم تجربته بقبة الهواء وهو مكان خلف القلعة وجرَّبه السلطان الغورى بنفسه في رجب ٩١٣هـ (١٥٠٧م) والنوع الثاني كان يركب في السفن وقد تمت تجربته في نهر النيل عند طره، ثم استخدمه المماليك على السفن وفى تحصين القلاع والأبراج في القلعة ورشيد وجدة والعقبة وفى قلاع الإسكندرية التي حُصنت وحدها بمائتي مكحلة.

وقد أشار نجم الدين الرماح في كتاب ''الفروسية'' أن البارود استخدم في هذا الوقت وكان يتركب من الملح ومسحوق الكبريت ورماد الفحم والبرادة والنشادر والرنيخ الأحمر والتيلة الزرقاء ولا يُستخدم إلا إذا جاءه نار.

وهكذا فقد سبق المسلمون جميع من عاصرهم وأخذوا بوسائل العلم الحديث فجاءت انتصاراتهم كمنظومة متكاملة من الإيمان بالله وصدق العقيدة وإعداد العدة وحشد الجيوش واستخدام الحديث المتطور من السلاح.

الجيش الإسلامي

في الحقيقة وأنا أطوف هذا البستان الزاهر من بطولات المسلمين وفتوحات الفاتحين من الصحابة والتابعين والمجاهدين بعد أن مهدت بذكر دوافع هذه البطولة ووقفت على جانبيها المادي والمعنوي، وجدت أني في مسيس الحاجة للحديث عن ميدان بطولاتهم الذي أبلوا فيه وسطروا أمجادهم ولمع فيه نجمهم فوق قرنائهم بقيادتهم الرشيدة أو بجنديتهم الفريدة فيما أوكل إليهم من مهام عسكرية أو من خلال الجيش الذي انتظموا فيه، وكيف كان هذا الجيش الذي ضم مثل هذه الشخصيات الرائعة التي جمعت بين الروحانيات السامية والماديات التي يعوزها واقع الحياة فتحقق لهم قوتي المادة والروح فملكوا الدنيا وأركعوا الطغاة وكسروا الجبابرة.

وعن هذا الجيش الإسلامي: تطوره ومراحل تكوينه وجنده وقياداته وتكتيكاته واستراتيجيته سيكون لنا حديثًا أوجزناه في عبارات مقتضبة. ولعل أهم الدراسات الحربية التي تبرز الحرب عند العسكري العربي القديم هو كتاب "الحيل في الحروب" لأبي سعد الشعراني الهرثمي والذي اختصره أيوب الجهني وأسماه "المختصر"[1] ذكر فيه أن أول جيش للمسلمين كان من رجال البادية الذين دربتهم الطبيعة ومرنتهم الصحراءُ وحياةُ البداوة والنزاع والترحال فصاروا مقاتلين بالفطرة يتوارث الأبناء خبرات الآباء كما علمتهم حياة البداوة التقشف والصبر .

ثم جاء الإسلام ليضع أمامهم أمرين كلاهما فيه خير: النصر أو الشهادة، فالنصر يثقون بحتمية حدوثه لإيمانهم بوعد ربهم وبصدق رسوله ﷺ فيما بشره به ربه من الفتوحات والنصر المبين، أما الشهادة فكانت هدفًا ومنشودًا يسعون إليه، وكانت هذه الثقة والإيمان والإقدام على الموت في قلب الجندي المسلم هي أقوي أسلحته وأمضاها،

(١) ذكر هذه المصادر اللواء أحمد كمال الطوبجي في كتابه لن تلق مثل عمر حـ١.

وقد شهد الجيش الإسلامي تطورًا كبيرًا فقد بدأ قليل العدد ضعيف التسليح إلا أنه كان جيشًا قويًا بإيمانه عظيمًا بعقيدته وقد مر الجيش الإسلامي في عهد النبي ﷺ بأربعة مراحل حتى أصبح جيشًا ضخمًا:

١- **مرحلة التعبئة والحشد**: وقد امتدت ما بين بعثته ﷺ إلى الهجرة ليثرب وكانت هي النواة الأولى للجيش الإسلامي.

٢- **مرحلة الدفاع عن الدعوة**: وفيها قاتل المسلمون المشركين وقد بدأت هذه المرحلة بسرايا النبي ﷺ وغزواته وانتهت بعد غزوة الأحزاب (الخندق).

٣- **مرحلة الهجوم على أعداء الإسلام**: حيث عرفت الجزيرة العربية كلها بأمر الإسلام وكان فيها فتح مكة وغزوة حنين، وفي هذه المرحلة اكتسبت قوات المسلمين التنظيم الكامل والنمو الطبيعي للجيش.

٤- **مرحلة استكمال الجيش الإسلامي**: وكانت هذه المرحلة بعد غزوة حنين فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب وبدأ المسلمين لقتال الروم والفرس.

وقد قسم الرسول ﷺ هذا الجيش إلى تشكيلات منها السرية (الكتيبة) والجريدة (الفصيلة) وكون الفرق وعقد لها الألوية حيث سميت الفرقة بأهل الراية ومنها: فرق للمهاجرين وللأنصار وكان لهذا التشكيل أهمية في المعركة ليسهل للقائد ترتيب جيشه والتمايز فيما بينها وكانت الفرق كلها تندرج تحت اللواء الذي كان يحمله أمير الجيش ليسهل التعرف على مكانه وكان لواؤه ﷺ أبيض إلا أنه زاد عليه رايتان سوداوان كانتا أمامه في غزوة بدر الكبرى. وخرج هذا الجيش في غزوات وسرايا عديدة، ولم يكن التجنيد فيه إلزاميًا، ولكن المسلمون كانوا يتطوعون في الحرب مختارين بإرادتهم رغبة في رضي الله تعالى، وكان من يتخلف بغير عذر يتعرض لسخط الله تعالى وسخط رسول ﷺ. وكان الرسول ﷺ يستعرض جيشه ويتفقد أحواله قبل القتال فيحدد قادة أفرعه ويضع تكتيكات جيشه وخط تحركه دون أن يغلق باب التشاور مع أصحابه.

وفي عهد أبي بكر ﷺ سار الجيش والتجنيد على الطريق الذي رسمه الرسول ﷺ، ثم جاء عمر ﷺ فأسس الدواوين وحصر فيها أسماء الجند ودرجاتهم ورواتبهم[(١)]، وكان بيت المال يجري على أهلهم الرزق، وجعل عمر ﷺ للجنود النظاميين ديوانًا وحظر عليهم أي عمل يتكسبون منه غير الجهاد فكانوا بذلك موقوفين على الجهاد، وجعل للمتطوعين ديوانًا آخر وكان هؤلاء المتطوعين ينتدبون وقت الحرب فقط ويسرحون في السلم، وكان الصبي يتعلم القرآن والشرائع صغيرًا فإذا صار فتًا بالغًا تعلم فنون الحرب وكان عمر ﷺ يوصى دائمًا فيقول: ''علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل''، وكان يجرى تدريب الجيوش في عهده كما يقول ابن قتيبة[(٢)] فالتدريبات اليومية أو طوابير التمرينات كانت تمارس في ميدان خاص يسمى ''الحِمَى'' لا يُسمح لأحد باجتيازه وكان عمر ﷺ يشرف بنفسه عليه، وكانت الخيل باعتبارها آلة الميدان تخضع فيه لرعاية بيطرية كاملة وكان سليمان بن ربيعة الباهلى أول طبيب بيطري في معسكر المسلمين.

وقد تطور القتال في الإسلام فبعد أن كان قتال العرب يعتمد على الكرِّ والفرِّ أصبح في الإسلام زحفًا حيثُ يُرتب الجند صفوفًا منتظمة مثل الصفوف في الصلاة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] وكان الرسول ﷺ يقف قبل المعركة يسوى الصفوف ممسكًا بعصي قصيرة، وكان للصفوف أشكالٌ حسبما تقتضى الأحوال وكان أفضلها الصف المستوى.

---

(١) لم يكن هناك رواتب للجند في عهد رسول الله ﷺ بل كان يجرى تقسيم الغنائم خمسة أقسام واحد للرسول ﷺ وتقسم الأخماس الأربعة الباقية بالسوية بين رجال الجيش، وسار أبو بكر على نفس النهج فلما جاء عمر وضع للجند ديوانًا وجعل رواتبهم بحسب سبقهم في الإسلام وبلائهم في القتال وكان عطاء الجندي العادي نحو ٦٠٠ درهم في السنة (٥ جنيهات ذهبية في الشهر) ثم جاء الأمويون فزادوا من العطاء وفي العصر العباسي بدخول غير العرب في الإسلام كان عطاؤهم من جزء من الجباية بناحيتهم وظل عطاء الجند من بيت المال والجباية حتى جاء السلاجقة الأتراك فوزعوا الأراضي والإقطاعيات بين الأمراء والقواد فكان كل أمير سلجوقى أميرًا إقطاعيًا في ناحيته واستمر الحال في العصر المملوكي (الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها: عبد الحميد العبادى وآخرون).

(٢) ابن قتيبة الدينورى: ولد عام ٢١٣هـ بالكوفة وقيل ببغداد. درس القرآن واللغة والأدب. تولى القضاء بدينور لذا ينسب إليها، له مؤلفات في السير والأدب والنحو أشهرها: المعارف ، و عيون الأخبار . توفى ببغداد عام ٢٧٦هـ.

انواع التعبية انواع التشكيلات القتالية

تعبية الصف المستوي

تعبية شهروات

تعبية حوض النجاه

(تشكيل رأس سهم مقلوب)

تعبية ذات الدوائر

تعبية السورات

(تشكيل رأس سهم معكوس)

تعبية الصف الخارج الصدر

من كتاب الفن الحربى فى العصر المملوكى البحرى لعميد أ . ح محمود نديم فهمى

نقلاً عن كتاب " الأدلة الرسمية فى اللتعابى الحربية " لمحمد بن المنكلى

خريطة رقم (*)

ثم جاء خالد بن الوليد ﷺ فقسم جيشه إلى كراديس وهي تشبه المربعات. (أنظر الخريطة (*)) .

لكن عمومًا كان الجيش ينقسم إلى خمسة أقسام: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والمؤخرة وكان كل قسم منها يقسم بدوره إلى قلب وميمنة وميسرة، وكان الجيش عند الزحف يتكون من خمسة خطوط:

١- **القلب والميمنة والميسرة:** وهم من الرماة والمبارزين الشجعان وأصحاب البأس والنجدة.

٢- **ردء القلب:** ويغطى أجزاء الخط الأول وهو يضم أهل الحيل والمصابرة والكمائن.

٣- **الأثقال:** ويضم الضعفاء والنساء والخدم والحاسرين والمرضى والجرحى.

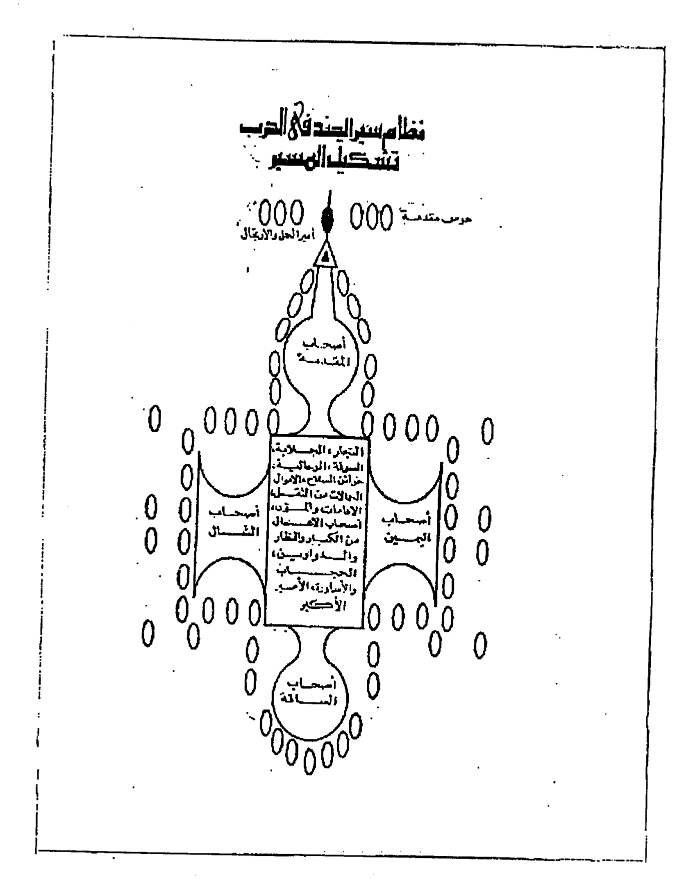
٤- **ردء الأثقال:** ويقوم هذا الخط بحماية النساء والضعفاء والأمتعة.

٥- **الساقة:** ويقع في المؤخرة ليمنع الجند الجبناء من الفرار.

وكان الجيش ينقسم من حيث العدد إلى: الجريدة وهي أقل عدد من الجند، ثم السرية: من ٥٠ إلى ٤٠٠، ثم الكتيبة: من ٤٠٠ إلى ١٠٠٠، ثم الجيش: من ١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠، ثم الخميس: من ٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠، كما تنوعت فيه المهام فهو يضم: النوافض: وهم جماعة تُرسل إلى الجهات المختلفة لتنظر هل فيها عدو من عدمه، والأرصاد: وهم الذين يراقبون تحركات العدو، والدرجات: وهم الذين يلتقطون الأخبار، والمرتبة: الذين يراقبون العدو من فوق المرتفعات، والمسالح: وهم الجماعة المسلحة المعدة للقتال، والديادبة: وهم حرس النهار، والردء: وهم الجماعة المعاونة، كما عُرفت الدرجات والرتب[1]. (أنظر الخريطة **)

---

(١) شهدت أعظم صورها في العصر العباسي فكان لكل عشرة جنود عريف، وعلى كل عشرة عرفاء بجنودهم (١٠٠ رجل) نقيب، وعلى كل عشرة نقباء بجنودهم (١٠٠٠ رجل) قائد، وعلى كل عشرة قواد بجنودهم (١٠٠٠٠ رجل) أمير وكانت هذه الرتب والدرجات توضع لها علامات على ذي صاحبها تميزه عن غيره. (الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها: عبد الحميد العبادى).



من كتاب الفن الحربي الإسلامي فى العهد المملوكى البحرى ، للعميد أ . ح محمود نديم فهمى نقلاً عن كتاب " الأدلة الرسمية فى التعابى الحربية " لمحمــد بن المنكى . خريطة رقم (**)

أما أسلحة الجيش فكانت تنقسم إلى أسلحة الهجوم: ومنها الخفيف الذي يستخدمه الجندي الواحد كالسيف والرمح والخنجر والقوس، ومنها الأسلحة الثقيلة التي يشترك في حملها وتسييرها الجنود: كالمنجنيق والدبَّابة ورأس الكبش وسلم الحصار، أما الأسلحة الدفاعية فمنها ما كان يحمله الجندي كالدرع والخوذة والترس، ومنها ما يشترك في إعداده الجند كحفر الخنادق ونثر حسك الحديد الشائك وإقامة الجدران والموانع وبناء القلاع والحصون، وكان للرسول ﷺ من الأسلحة: تسعة أسياف وسبعة دروع وسبعة قسي وثلاثة تروس ورمحين وخمسة حراب وخوذتين، كما شهد الجيش الإسلامي تطورًا في التسليح بإنشاء الأساطيل البحرية[١] وقد كانت للمسلمين تكتيكات عسكرية حققت لهم النصر في فتوحاتهم منها:

١- استخدام نظام الطلائع وكان يُختارون ممن لديهم المناورة وخفه الحركة واليقظة.

٢- استغلال طبيعة الأرض باختيار الأماكن المناسبة للعمليات العسكرية.

٣- استخدام الحيل والكمائن بما لديهم من دراية كاملة بطبيعة الأرض وسرعة الكرِّ والفرِّ.

٤- اختيار أنسب وقت للهجوم وعدم التسرع في القتال حتى تظهر غرَّة[٢] للعدو.

٥- المحاربة بالصفوف أو بالكراديس وفق ما تقتضيه الضرورة.

٦- تحديد الهدف والتركيز عليه وصرف النظر عما لا يفيد فعندما طال حصار المسلمين لفلول هوازن في حصن الطائف قرر النبي ﷺ رفع الحصار والرحيل فثقل ذلك على المسلمين وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ وهو يبتسم في طريق عودهم: قولوا: ''آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون''، ثم قالوا: يا رسول الله! ادعُ على ثقيف! فقال ﷺ: ''اللهم أهدِ ثقيف وأت بهم''[٣].

---

(١) الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها للدكتور عبد الحميد العبادى وآخرين.

(٢) الغرَّة: الغفلة.

(٣) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.

٧- الاهتمام بمبدأ سلامة القوات.

٨- تمويه العمليت والخداع لقوله ﷺ: "الحرب خدعة"[١].

٩- الحرب النفسية.

١٠- الحرب الدفاعية.

١١- الحرب الوقائية.

١٢- الحرب الشعبية: فقد كان الرسول ﷺ أول قائد عسكري في التاريخ خاض الحرب الشعبية على نطاق واسع وعمل على القضاء على نفوذ الغرباء بالجزيرة العربية كاليهود وجعل السيادة للحرب على أرضهم وتم النجاح في ذلك مطلقًا في عهد عمر ﷺ حيث أجلى اليهود والنصارى إلى الشام والعراق.

١٣- التعبئة العامة وقد تجلى ذلك في حشده ﷺ ثلاثين ألفًا يوم تبوك. أما الاستراتيجية[٢] العليا التي تتطلع لما بعد الحرب على المدى البعيد فقد وضع الرسول ﷺ أول لبناتها ورسم مراحلها وسار على نهجه الخلفاء الراشدون في تطبيقها وكانت هذه المراحل التنفيذة في سبيل تحقيق الاستراتيجية العليا:

١- تأسيس قاعدة قوية آمنة تكون مركزًا للعمليات والتجهيز وتكون عاصمة للحكومة الإسلامية.

٢- تنظيم العلاقات الاجتماعية والتشريعات داخل المجتمع فيتماسك أفراده ويقبلون على الجهاد.

٣- حرمان العدو من موارده الاقتصادية كمهاجمه قوافله حيث يستعيد المهاجرون أموالهم المنهوبة ويزعزعوا طرق التجارة التي تسلكها قريش وإشعار المشركين بقوة المسلمين.

---

(١) رواه ابن ماجة عن عائشة وابن عباس ﷺ، وأبو داود عن كعب بن مالك، والنسائى عن علىّ، وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأحمد عن أنس ﷺ.

(٢) الاستراتيجية لفظ إغريقي يعني فن إعداد الحرب وإدارتها لتحقيق نصر لا يتعارض مع سلم مقبل.

٤- نشر الإسلام في الجزيرة العربية كلها ليكون الإسلام الرابط القوي الذي يوحدها فينسى المسلمون ما كان بينهم في الجاهلية فتزول العصبية القبيلة والخلافات ليحل مكانها سماحة الإسلام ووحدة أهله، ثم اعتبارها قاعدة ينطلق منها الإسلام إلى ما يجاورها.

٥- الإبقاء على العنصر العربي لتحميله أعباد الثورة الإسلامية مستقبلا.

القادة والقيادة

بعد أن استعرضنا الجيش الإسلامي نشأته وتطوره وتكوينه وتسليحه وتكتيكاته والاستراتيجية التي توجهه، نأتي لأهم أجزائه ألا وهو القيادة التي تشغل في الجيش موقع الرأس من الجسد فتاريخ الحروب شاهد على أن القائد العظيم هو الذي يحرز النصر وليست الجيوش وحدها قادرة على إدراك ذلك، ويقول الأستاذ السيد فرج: إن أهم مشتملات القيادة هي: القائد- الجنود- النظام- الخطة- الهدف. فالقائد في أبسط تعريف هو من يحرك مجموعة من الجند وفق نظام معين وحسب خطة مدروسة لإحراز هدف محدد.

والقائد هو رأس الجيش، والجنود هم الجيش، والنظام هو انضباطهم وتدريبهم، والخطة هي الوسيلة للوصول إلى الهدف، والهدف هو تحقيق النصر والحصول على ما اقتضاه التحرك[1]. وإذا أردنا أن نجيب عن التساؤل: من هو القائد الناجح؟ وما شروط ذلك النجاح؟ نجد الأستاذ العقاد يقول[2]: رغم الاختلاف الكبير بين الحروب قديمًا وحديثًا إلا أن مفهوم القائد لا يزال ثابتًا على مر السنين.

فبالرجوع إلى كتب الاستراتيجيات ونظريات القتال ومبادئ الحرب وخصائص القيادة نجد أن هذه الخصائص لا تختلف وهذه المؤهلات لا تتغير، وأقدم وصف لهذا يمكن الرجوع إليه هو ما جادت به قريحة الفيلسوف اليوناني سقراط (٤٦٩ ق.م – ٣٩٩ ق.م) قال: "القائد هو الذي يعرف كيف يعطي جنوده تعييناتهم وأي مؤن أخرى لازمة للحرب ويكون لديه ملكة وضع الخطط وقدرة عملية على تنفيذها، وأن يكون دقيقًا حمولاً لماحًا، طيبًا وقاسيًا، بسيطًا ومبهمًا، مخادعًا ويقظًا، كريمًا وبخيلاً، متعجلاً ومتمهلاً".

---

(١) محمد بن عبد الله (ص): توجيهاته وأوامره في ساحات القتال للسيد فرج.
(٢) عبقرية خالد للعقاد.

وهي صفات طبيعية مكتسبة تحمل الكثير من المتناقضات والشخص الذي يستطيع أن يحقق المعادلة الصعبة ويحوز مثل هذه المتناقضات بلا مراء شخص فذ يستطيع أن يعدل من تصرفه ويأتي بالنقيض تمامًا بتغير الظروف والأحوال، كما يقول العرب: "لكل مقام مقال"، ثم جاء الحكيم الصيني "زاما" ليقول: "إنك تستحق لقب القائد العظيم إذا: صففت قواك بطريقة فنية، وركزها في مواضع ملائمة ودفعتها للقتال في الوقت المناسب وأدرت العمليات بحكمة وكافأت قواتك بعد المعركة وحافظت على قواتك بعناية"، أما عن آراء أبرز القادة الذين صنعتهم مواقفهم فيها فيقول المارشال ويفل (واحد من أبرز قواد الحرب العالمية الثانية): إن أبرز صفات القائد:

١- العناية برجاله مع توفير العتاد والمؤن والراحة.

٢- أن يكون قويًا قادرًا على تحمل صدمات الحرب ومفاجآتها.

٣- أن يتحلى بروح المخاطرة والشجاعة مع عدم تقيده بالنظريات الثابتة.

٤- أن يشعر جنوده أنه واحدٌ منهم ويقضى معهم معظم وقته.

٥- أن يكون قدوة حسنة لجنده.

ويرى المارشال مونتجمرى (بطل معركة العلمين وأبرز قواد الحرب العالمية الثانية) أن أبرز هذه الصفات:

١- العامل الإنساني: حيث يهتم بمعرفة الطبيعة البشرية لجنده.

٢- الثقة المتبادلة بينه وبين جنده.

٣- تفهم أصول الحرب.

٤- التقدير السليم للموقف.

٥- الشجاعة والصلابة.

ويرى المارشال روميل (أحد قادة الحرب العالمية الثانية الأفذاذ) أن أبرز هذه الصفات:

١- القدوة التي يجدها الجنود في قائدهم.

٢- المرونة والهدوء والبعد عن التوتر وانفلات الأعصاب لأن القائد هو عقل الجيش.

ويذكر اللواء أحمد كمال الطوبجي أن أفضل خصال القائد الناجح كما أوردها صاحب "مختصر الحيل في الحروب": "أفضل القادة هم أكملهم عقلاً وأطولهم تجربة وأبعدهم صوتًا وأبصرهم بتدبير الحرب، وأحسنهم تعبئة لأصحابه، وأن يكون حسن السير في جنده متيقظًا شجاعًا سخيًا صارمًا حذرًا"، ثم يسدى صاحب الكتاب من النصائح ما يعد أساسًا ضروريًا للقائد الناجح فيقول: "استعد لكل أمر قبل وقته! واحذر التفريط في الأمور اعتمادًا على القدر! وإذا خُيرت بين أمرين فاختر أشدهما عزمًا! واطلب الأناة ولا تعجل إلى اللقاء! فإن الحرب لا يصلحها إلا المكيث[1]، شاور فيما يحتاج إلى المشورة! أكفف لسانك عن كل ما لا تستطيع إنجازه! بث طلائعك في معسكرك بالنهار وسيِّر النوافض[2] ليلاً وأقم الأعساس بالليل في معسكرك يدورن في صمت! وأقم الحراس بالليل حول عسكرك وليرفعوا أصواتهم!.. ويقول: رأس التدبير في الحرب ألا يظهر عدوك على عوراتك ولا تستتر عليك عوراته وذلك بكتمان السر ونشر العيون، واستعد للعدو بأكثر من قَدْره، وتوخى السرية في الأمور كلها..."[3].

هذه هي صفات القائد الفذ مما اتفق عليه الفلاسفة والحكماء ورجال الحرب، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: من هم أفضل القادة على مر التاريخ على ضوء ما ذكرنا من صفات؟ .

---

(١) المكيث: الرزين.

(٢) النوافض: جماعة من الجيش تُرسل إلى جهة معينة لمعرفة وجود العدو بها أو خلوها منه.

(٣) لن تلق مثل عمر حـ ١ لأحمد كمال الطوبجي نقلاً عن مختصر الحيل في الحروب لأيوب الجهني.

يقول الأستاذ السيد فرج: لقد حفلت المراجع التاريخية وكتب التحليل العسكري والاستراتيجي بأسماء كثير من القادة فقائمة نابليون تضم: الإسكندر (المقدوني)- هانيبال (القرطاجى)- يوليوس قيصر (الروماني)- جوستاف أودلف (السويدي)- تورين (الفرنسي)- أوجين (الفرنسي)- فردريك الأكبر (البروسي)، وقائمة الناقد العسكري المعاصر "ليدل هارت" وتضم: سيبيو (الروماني)- بلزاريوس (اليوناني)- جنكيزخان (المغولي)- مارلبورو (الإنجليزي)- شرمان (الأمريكي)- مولتكة (الألماني)، ويقول الأستاذ محمد فرج: وبنظرة عامة فقد اتفقت آراء أصحاب المراجع التاريخية وكتب التحليل العسكري على نابليون بونابرت (١٧٦٩- ١٨٢١م) باعتباره مضرب المثل في حسن القيادة ووصفوه بأنه أشهر عبقرية عسكرية في التاريخ لدرجة أن المؤرخون أطلقوا على فرعون مصر تحوتمس الثالث (١٥٠٤ ق.م - ١٤٥٠ ق.م) أنه نابليون الشرق، قال عنه مونتجمرى: "أنه قائد تسيطر عليه الأنانية وتوجهه أطماعه الشخصية...".

وأشهر من ذُكر كذلك على رأس قائمة القادة الأفذاذ: جنكيزخان (١١٦٧م- ١٢٢٧م) ووُصف بأنه وحش ضارٍ أقام بسيفه دولة عظمي امتدت من منغوليا وشمال الصين إلى تركستان وأفغانستان وفارس وجنوب روسيا حتى قال عنه الجنرال "ماك آرثر" (قائد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية): "لو مُحيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ماعدا أخبار جنكيز لبقي لرجال الحرب معين لا ينضب من المعلومات والدروس الحربية".

وقال عنه نابليون: "لم يوفقني الله مثلما وفق جنكيزخان". وذُكر تيمورلنك (أي تيمور الأعرج) ذلك القائد الذي عُرف بقاهر العالم، والذي سيطر على تركستان وفارس وجنوبي روسيا والهند وبلاد الكرج وسوريا والعراق وآسيا الصغرى[1].

ومما سبق الإشارة إليه نتبين ظاهرة عجيبة وهي خلو جميع المراجع الحربية

---

(١) محمد بن عبد الله (ص): توجيهاته وأوامره في ميدان القتال للسيد فرج.

والتاريخية الغربية من الأسماء العربية وكأنما خلت الأمة الإسلامية من عباقرة الحرب. عجبًا لهم!! فأين النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده وأين قادة الإسلام الأفذاذ الذين تحركوا بأمر الله لنشر دينه ففتحوا الدنيا وصنعوا حضارة بلغ من عجائبها أنها هي الحضارة الوحيدة التي قامت على الدين ودعت له وخضعت لمبادئه وما كانت حروب الإسلام إلا حروبًا نبيلة فاضلة تغير معها مفهوم الحرب لتصبح فتحًا وليست حربًا.

عجبًا لهم!! كيف يتفاخرون بمن غزوا العالم بجحافل جرارة فدخلوا المدن فأحرقوها وخرَّبوها وقتلوا كل ذات كبد بها ولم يرعوا إلاً ولا ذمة[1] في شيخ ولا امرأة ولا طفل فقد خاضوا حروبَ تخريبٍ وإبادة دفعهم للخوض فيها رغباتهم المتعطشة وأحقادهم البغيضة. عجبًا لهم!! كيف تغافلوا عن قادة المسلمين وأجنادهم الذين استطاعوا وهم قلة مؤمنة أن يهزموا تلك الجيوش الجرارة.

والحقيقة أن عددًا ضئيلاً من مؤرخي الغرب وكتّابهم المنصفين، الذين طالعوا التاريخ بنظرة حيادية مجردة بعد أن نحُّوا[2] الأهواء والأحقاد جانبًا، قد بهرهم التاريخ الإسلامي ووقفوا مشدوهين[3] أمام تلك القوة المعنوية الهائلة التي قادتهم إلى تلك الفتوح الباهرة ففتحوا الممالك المترامية الأطراف والحصون المنيعة والقلاع المنيفة[4]، وهزموا جيوشًا هائلة وهم في أعداد محدودة وأسلحة متواضعة عبر مفازات صعبة ومهالك شديدة المسالك ومن هؤلاء المنصفين الكاتب "توماس كارليل" في كتابه : "البطولة والأبطال" فقد وصف النبي ﷺ في قيادته أنه راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهمة كريمًا برًا وتقيًا حرًا.

(١) الإلّ هي القرابة، والذمة هي العهد والأمان.
(٢) جنَّب وأبعد.
(٣) مندهشين
(٤) قصر منيف: عالٍ في ارتفاع

عبقرية محمد ﷺ العسكرية

إذا أردنا الحق والتزمنا بالحيادية فلا نجد في ميادين القتال من يفوق محمد ﷺ في الشجاعة وقيادة المعارك ووضع الخطط وتحقيق القدوة وحسن معاملة جنده، والصبر والمثابرة وقوة الإيمان بهدفه الذي يحارب من أجله. لذلك فإننا إذا تحدثنا عن صفات القائد العظيم لا نراها تخطئ شخص النبي الكريم محمد ﷺ وكأنما أُخذت هذه الصفات من ذاته الكريمة بصورة لا تصف إلا قدرًا ضئيلاً من جوانب العظمة والتي تجلت واضحة في شخصه وتخطت حدود الزمان ليتجسد بعضها في أصحابه الذين ربَّاهم في مدرسته فخرج منهم أبطالاً أمثال: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة وغيرهم وعلى هذا فلا يحق أن يوضع على قمة قائمة القادة العظماء إلا محمد ﷺ وإن تحرينا الحق أكثر لكان لزامًا علينا ألا نذكر في هذه القائمة سواه، فلا يحق لأحد أن يكافؤه أو يناظره.

لقد تولى النبي ﷺ القيادة في سبعة وعشرين زحفًا[١] قاتل في تسع منها: بدر- أُحد- المريسيع (المصطلق)- الخندق- قريظة- خيبر- فتح مكة- حنين- حصار الطائف: هذا بخلاف السرايا[٢] التي بعث بها للاستطلاع أو كمقدمات للعمليات بلغت سبعًا وأربعين سرية وبعثًا.

---

(١) الذي عليه أئمة المغازى كابن اسحاق وابن سعد والواقدى وغيرهم أن الغزوات التي حضرها النبي ﷺ بنفسه سبعًا وعشرين غزوة ويرى بعض العلماء أن عدد غزواته ﷺ يبلغ ستًا وعشرين وقيل خمسًا وعشرين وقيل أربعًا وعشرين وقيل إحدي وعشرين أو تسع عشرة ويقول صاحب المواهب: يمكن القول بأن عددها دون سبع وعشرين نظرًا لشدة تقارب بعضها فجمع بين غزوتين وعدهما واحدة فضم الأبواء لبواط، وضم حمراء الأسد لأحد، وضم الطائف لحنين [ذكره محمد سيد طنطاوى في كتابه السرايا الحربية في العهد النبوي نقلاً عن سيرة ابن هشام وشرح المواهب للزرقانى].

(٢) ذكر ابن سعد في الطبقات أن عدد السرايا والبعوث تبلغ سبعًا وأربعين، وذكر ابن إسحاق أنها كانت ثمانيًا وثلاثين، وقال ابن عبد البر أنها بلغت خمسًا وثلاثين [محمد سيد طنطاوى في كتابه السرايا الحربية في العهد النبوي نقلاً عن الطبقات الكبري لابن سعد وسيرة ابن هشام].

وباستعراض صفات القائد العظيم التي حددها كبار العسكريين والمؤرخين نجد أن النبي ﷺ استأثر بنصيب وافر منها فقد كان خبيرًا بمعادن الرجال يعرف رجاله حق المعرفة هذا بما جَبَلَهُ[1] عليه ربُّه من حسن الضمير وسلامة القلب وبعد النظر، كما أتاح له الوحي معرفة لا تتاح لغيره فهي بصيرة من الله خصَّها أنبياءه فهو يستبصر خصائص رجاله فينمى هذا الصفات ويدرِّب صاحبها على كيفية استغلالها الاستغلال الأمثل بغير تفريط أو إفراط لقد جمع شمل رجاله بعظمته وطيب نفسه، وألف القلوب من حوله بحسن خلقه ومسامحته قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وألَّفها بالإيمان بالله لقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣] فلما دعا داعي الجهاد قاد النبي ﷺ رجاله من نصر إلى نصر .

ويقول الأستاذ السيد فرج: كان محمد ﷺ يملك طبيعة الجندي ظاهرة وباطنة كان يعيشها بالفطرة قبل أن تطأ قدمه أرض المعركة، وقد انفتح المجال أمام هذه القيادة الطبيعية الملهمة للممارسة العملية والإدارة الفعلية فالتحم الفكر بالتجربة وتدعمت الماديات بالمعنويات وزادت حصيلة المعرفة الميدانية والدروس المستفادة في كل معركة خاضها بصحابته وهم يسعون جميعًا إلى النصر أو الشهادة.

ويقول العقاد في كتابه "عبقرية محمد": "لقد كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعت إليها المصلحة اللازمة ويعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه، إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة[2] وإذا استعرضنا صفات القائد الفذ لوجدنا على رأسها: الشجاعة وهي أهم صفات القائد فمحمد ﷺ كان أشجع الناس وأقربهم من صفوف العدو حتى قال عنه عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: "كنا إذا حمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو"، كما ظهرت شجاعته يوم أُحد

(١) جَبَلَهُ: خلقه وطبعه.
(٢) عبقرية محمد للعقاد.

وحنين لما انهزم المسلمون فيهما ثبت النبي ﷺ وحده يدعو الناس ويحمسهم حتى جمعهم حوله مع علمه بتربص أعدائه به.

ومن صفات القائد الناجح: الحزم وتصميم الرأي فلما لبس سلاحه ودرعه يوم أحد وأرادوا أن يراجعوه خشية أن يكونوا قد أثقلوا عليه برغبتهم في الخروج للمشركين فقال على الفور: "ما ينبغي للنبي إذا لبس لأمته[1] أن يضعها حتى يقاتل".

ومن هذه الصفات الصلابة فقد تحمل كثير من صدمات الحرب ومفاجآتها بل استطاع أن يقلب دفة المعركة من الهزيمة المحققة إلى النصر الساحق كيوم حنين.

ومن هذه الصفات: مشاركته لجنده ففي يوم بدر يتعاقب مع اثنين على بعير واحد فلما عرضا عليه الركوب وحده قال ﷺ: "ما أنتما بأقوى مني على المشي وما أنا بأغنى منكما عن الأجر"[2]، ويوم الخندق يحفر بنفسه ويحمل التراب والحجارة على كاهله.

ومن هذه الصفات: الكتمان وهي لازمة أساسية لنجاح أي قائد -لذا أنشئت المخابرات الحربية في جميع الجيوش لضمان سرية التحركات وتضليل العدو- فقد ظل الرسول ﷺ طوال ثلاث سنوات يدعو قومه سرًا حتى أذن الله له أن يظهرها وعند فتح مكة نجده يحرص على تعميه الخبر[3] عن أهلها حتى يفاجئهم، كما أرسل عبد الله بن جحش ﷺ في سرية برسالة وأمره ألا يطّلع عليها بعد مسيرة يومين.

وعن الحرية والشورى كان ﷺ لا يقوم بعمل لا يُوحَى إليه فيه إلا بعد أن يشاور أصحابه، ففي يوم بدر فتح أمامهم باب الشورى فيسأله الحباب بن المنذر ﷺ عن موقع المعركة، فيقول: "أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو

---

(١) اللأمة: لباس الحرب أو السلاح والحديث رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد والبزار عن عبد الله بن مسعود ﷺ وقال الهيثمي: فيه عاصم وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) أي اخفاؤه.

الرأي والحرب والمكيدة؟'' فلما أخبرهم النبي ﷺ أنها المكيدة طرح رأيه فاستحسنه النبي ﷺ وعدَّل موقفه، كما أشار سلمان الفارسي[1] ﷺ بحفر الخندق يوم الأحزاب.

ومن هذه الصفات: اختيار الشباب لمراكز القيادة: حيث وجد في الشباب حماسة وقوة وشجاعة فأذكى جذوتها في نفوسهم لا سيما مع خبرته ﷺ، لذا كان أغلب أصحابه من الشباب الوقَّاد، فقد استعمل أسامة بن زيد ﷺ وهو دون العشرين في وجود كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ومن هذه الصفات الخدعة والمفاجأة: فكان النبي ﷺ يقول: ''الحرب خدعة''[2]، ويقول: ''ادرعوا الليل فإنه أخفى للويل''- أي اتخذوا الليل ستارًا يحمي قواتكم فعليهم أن يتحركوا في الليل ويهاجموا مع بزوغ الصبح، وكان يفضل دائمًا ملاقاة عدوه قبل أن يخرج عدوه إليه.

ومن هذه الصفات: الروح المعنوية: فقد تجلت هذه الصفة كوحدة في ذاتها لا غنى عنها في إحراز النصر مهما بلغت قوة العدو، ويقول نابليون بونابرت: ''إن القوة المعنوية تساوى ثلاثة أمثال القوة المادية''، ويقول: ''توجد قوتان في العالم: السيف والروح، والسيف غالبًا ما ينهزم أمام الروح''[3].

هذا عن أهمية الروح المعنوية لا سيما مع جندي مسلم يرجو الشهادة ويحرص عليها حرصه على الحياة نفسها لذا كان يؤيدهم ربهم فنُصروا بالرعب لقوله ﷺ: ''نُصرت بالرعب''[4]. ونصروا بالملائكة وغيرها من جند الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]. (أنظر الخريطة (١) .

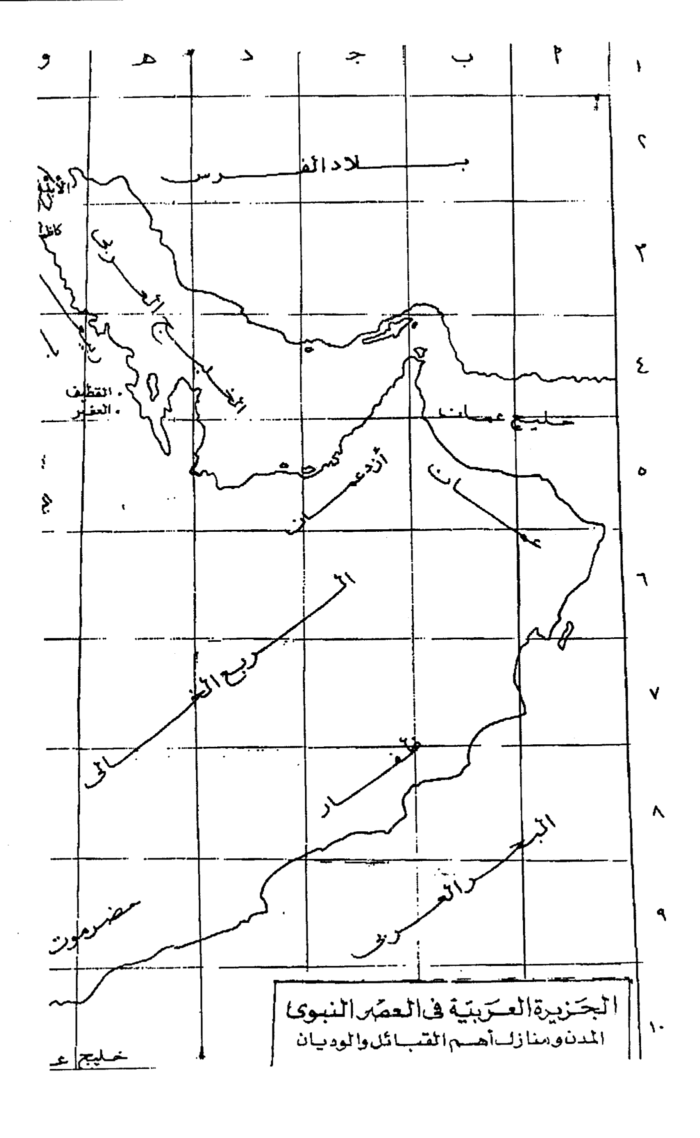
---

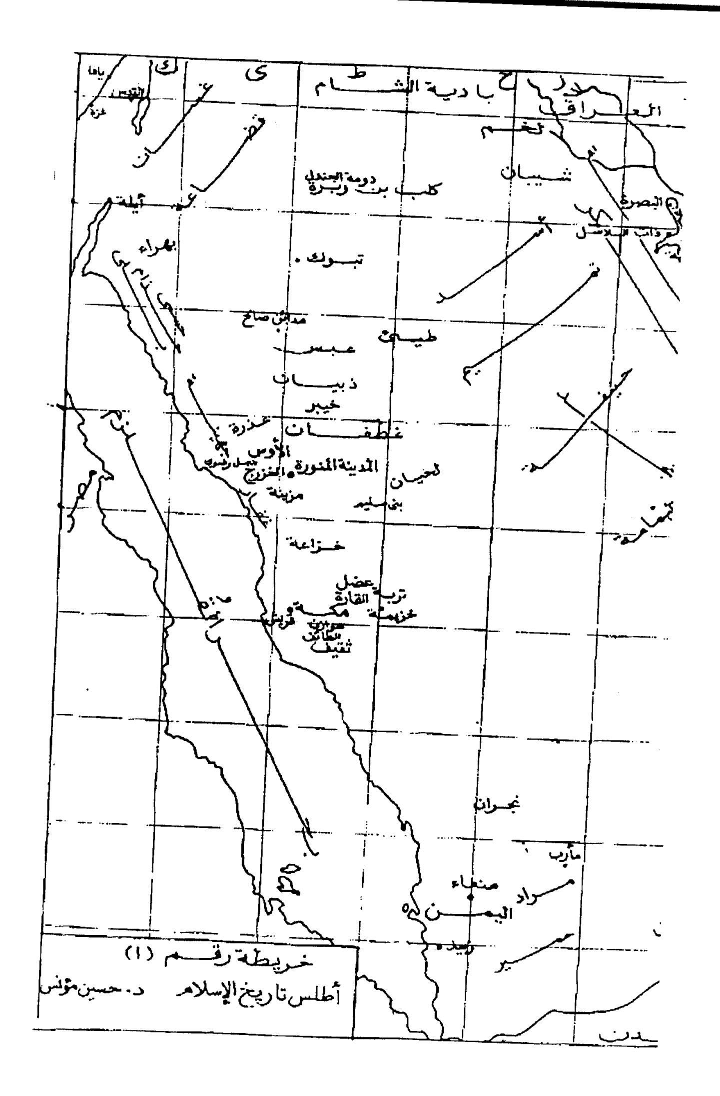
(١) سلمان الفارسي: صحابي أصله من مجوس أصبهان رحل إلى الشام فالموصل فتصيبين فعمورية ثم قصد بلاد العرب فوقع في الرق وأقام بالمدينة ثم أسلم وفدى نفسه من الرق، قال عنه النبي ﷺ: سلمان منا أهل البيت . توفى بالمدائن عام ٣٦هـ.

(٢) سبق تخريجة ص٣٨.

(٣) محمد بن عبد الله (ص): توجيهاته وأوامره في ميدان القتال للسيد فرج.

(٤)سبق تخريجه.


بلاد الفرس
خليج عمان
أزد عمان
عمان
الربع الخالي
ظفار
البحر العربي
حضرموت
القطيف
العقير
الجزيرة العربية في العصر النبوي
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان



خريطة رقم (1)

أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس

غزوات النبي ﷺ

كما ذكرها ابن إسحاق وابن هشام في سيرهما

١- غزوة ودان (الأبواء) (صفر ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في سبعين من أصحابه لاعتراض عير لقريش وبني ضمرة بالأبواء لكن المسلمين لم يدركوهم ولم يلقوا كيدًا.

٢- غزوة بواط (ربيع الأول ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في مائتين من أصحابه لاعتراض قافلة لقريش تضم ٢٥٠٠ بعيرًا ويحرسها مائة من المشركين عند بواط قرب جبل رضوى لكنها فرت ولم يلق المسلمون كيدًا.

٣- غزوة بدر الأولى (سفوان) (ربيع الأول ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في سبعين من أصحابه لتأديب كرز بن جابر عندما أغار على إبل النبي ﷺ وردها منه وذلك عند وادى سفوان قرب بدر لكن لم يدركه المسلمون.

٤- غزوة ذات العُشيرة (جمادى الأولى ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في ١٥٠ من أصحابه لاعتراض قافلة لقريش متجهة للشام ونزل المسلمون بذات العشيرة قرب ينبع لكن لم يدركهم المسلمون.

٥- غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في ٣١٣ أو ٣١٤ أو ٣١٧ من أصحابه لقتال المشركين وكانوا قرابة الألف فالتقوا ببدر فانتصر المسلمون نصرًا ساحقًا وقتلوا من قريش سبعين وأسروا مثلهم واستشهد من المسلمين ١٤ رجلاً.

٦- غزوة بني سليم (شوال ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في مائتين من أصحابه لتفريق جموع بني سليم فلقيهم المسلمون في الكُدْر وهو ماء لبني سليم يقع في نجد على الطريق التجاري بين مكة والمدينة ففرق المسلمون جمعهم وغنموا منهم غنائم كثيرة.

٧- غزوة بني قينقاع (شوال ٢هـ):

خرج النبي ﷺ وأصحابه لتأديب يهود بني قينقاع فحاصرهم المسلمون ١٥ يومًا وكان عدد اليهود بها ٧٠٠ يهودي وأجلاهم المسلمون.

٨- غزوة السويق (ذو الحجة ٢هـ):

خرج النبي ﷺ في جمع من أصحابه للتصدي لأبي سفيان ومن معه وكانوا مائتين في العريض أحد نواحي المدينة ففر أبو سفيان ومن معه و لم يلق المسلمون كيدًا.

٩- غزوة ذي أمر (المحرم ٣هـ):

خرج النبي ﷺ في ٤٥٠ من أصحابه لتأديب قبائل بني ثعلبة ومحارب من غطفان فنزلوا ذي أمر وهي عين ماء بغطفان وفر المشركون و لم يلق المسلمون كيدًا.

١٠- غزوة بُحران (ربيع الآخر ٣هـ):

خرج النبي ﷺ في ثلثمائة من أصحابه فنزلوا بحران بالحجاز لإرهاب مشركي قريش و لم يلقوا كيدًا.

١١- غزوة أحد (٧ شوال ٣هـ):

خرج النبي ﷺ في ألف من أصحابه لقتال المشركين بقيادة أبي سفيان في ثلاثة آلاف فالتقوا عند جبل أحد شمال المدينة وكان المسلمون منتصرين حتى عصى الرماة أمر النبي ﷺ وغادروا أماكنهم فانهزموا وقتل منه سبعين وجرح النبي ﷺ جراحًا شديدة.

١٢- غزوة حمراء الأسد (٨ شوال ٣هـ):

خرج النبي ﷺ والصحابة من غزوة أحد فعسكروا في حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة لخوفهم من كَرَّة المشركين عليهم وأقام المسلمون ثلاثة أيام و لم يلقوا كيدًا.

١٣- غزوة بنى النضير (ربيع الأول ٤هـ):

خرج النبي ﷺ في أصحابه لتأديب بنى النضير لأنهم أرادوا قتل النبي ﷺ فحاصرهم المسلمون حتى أجلوهم من المدينة.

١٤- غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد) (جمادى الآخرة ٤هـ):

خرج النبي ﷺ وأصحابه لتأديب بنى ثعلبه ومحارب وكانوا في جمع عظيم فنزل المسلمون بنخل وهو موضع بنجد من أرض غطفان ففر المشركون و لم يلق المسلمون كيدًا.

١٥- غزوة بدر الآخرة (شعبان ٤هـ):

خرج النبي ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه للقاء المشركين عند بدر في الموعد المتفق عليه في أحد وكان المشركون بقيادة أبى سفيان ألفين وأقام المسلمون ٨ ليال و لم يلقوا كيدًا إذ قذف الله الرعب في قلوب المشركين.

١٦- غزوة دُومة الجندل (ربيع الأول ٥هـ):

خرج النبي ﷺ وألف من أصحابه لمهاجمة قبائل المشركين بدومة الجندل لأنهم كانوا يهاجمون المسلمين ويقطعون عليهم الطريق ففرَّق الله جمعهم وفروا هاربين.

١٧- غزوة الخندق (الأحزاب) (شوال ٥هـ):

أقبل المشركون من الجزيرة العربية مع قريش في عشرة آلاف لقتال المسلمين في المدينة فأمر النبي ﷺ فحفروا خندقًا وعسكر ثلاثة آلاف من المسلمين خلفه وعاهدهم

بنو قريظة بعدم السماح للمشركين بالمرور من الجنوب فخانوا العهد وتحالفوا مع المشركين لكن الله أخزاهم وبعث ريحًا عاتية عليهم فانصرفوا خائبين.

١٨- غزوة بنى قريظة (ذو القعدة ٥هـ):

خرج النبي ﷺ في ثلاثة آلاف لتأديب بنى قريظة لخيانتهم العهد يوم الخندق فحاصرهم المسلمون ٢٥ ليلة حتى سلّموا ونزلوا على رأى سعد بن معاذ ﷺ الذي حكم فيهم بحكم الله تعالى فأمر بذبح الرجال وسبى النساء والأطفال وكان عدد بنى قريظة ٨٠٠ يهودي.

١٩- غزوة بنى لحيان (جمادى الأولى ٦هـ):

خرج النبي ﷺ في مائتين من أصحابه إلى بطن عران وهو واد بين أمج وعسفان لقتال بنى لحيان ثأرًا لأصحاب الرجيع فلما سمع بنو لحيان بقدوم المسلمون فرُّوا هاربين.

٢٠- غزوة ذي قُرَد (الغابة) (جمادى الأولى ٦هـ):

خرج النبي ﷺ في ثمانية من أصحابه لرد اعتداء عينية بن حصن ومن معه من فزارة على إبل للنبي ﷺ وقتلهم راعيها فهزمهم المسلمون واستنقذوها منهم وكان موقعها الغابة.

٢١- غزوة بنى المصطلق (المريسيع) (شعبان ٦هـ):

خرج النبي ﷺ وأصحابه لتأديب بنى المصطلق من خزاعة فالتقوا عند المريسيع وهي عين ماء لخزاعة فهزمهم المسلمون وقتلوا عددًا كبيرًا وأسروا عددًا آخر وغنموا منهم.

٢٢- غزوة الحديبية (ذو القعدة ٦هـ):

خرج النبي ﷺ في سبعمائة من أصحابه يريدون العمرة وليس القتال فصدهم المشركون وعقد المسلمون معهم صلح الحديبية على أن يأتوا للعمرة في العام التالي.

٢٣- غزوة خيبر (المحرم ٧هـ):

خرج النبي ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه لتأديب اليهود بخيبر ففتح المسلمون جميع حصونهم وهزموهم وغنموا منهم.

٢٤- عُمْرَة القضاء (ذو الحجة ٧هـ):

خرج النبي ﷺ مع الصحابة للعمرة بعد أن رجعوا في العام السابق.

٢٥- فتح مكة (رمضان ٨هـ):

خرج النبي ﷺ في عشرة آلاف فدخلوا مكة فاتحين بعد أن اعتدوا هم وحلفاؤهم بكر على خزاعة حلفاء النبي ﷺ.

٢٦- غزوة حُنَين (١٠ شوال ٨هـ):

خرج النبي ﷺ في اثني عشر ألفًا لقتال قبائل هوازن وغطفان وكانوا عشرين ألفًا فالتقوا بوادي حنين فهزمهم المسلمون شر هزيمة وغنموا غنائم طائلة منهم.

٢٧- غزوة الطائف (شوال ٨هـ):

خرج النبي ﷺ وأصحابه للقضاء نهائيًا على فلول المنهزمين من هوازن وكان عدد المسلمين ألفًا فحاصروا الطائف وطال الحصار فلم يجد النبي ﷺ حاجة منهم فانصرف وصرف المسلمين.

٢٨- غزوة تبوك (رجب ٩هـ):

آخر غزوات النبي ﷺ حيث خرج في ثلاثين ألفًا لقتال الروم والغساسنة فجمعوا نحو أربعين ألفًا ونزل المسلمون تبوك لكنهم لم يلقوا كيدًا حيث قذف الله في قلوب الكافرين الرعب.

السرايا الحربية في عهد النبي ﷺ

١- خرج حمزة بن عبد المطلب في غُرة رمضان ١هـ في ثلاثين رجلاً لاعتراض عيرًا لقريش يحرسها أبو جهل في ثلثمائة مشرك فنزلا العَيْص[١] لكن مجدي بن عمر حجز بينما فانصرفا بغير قتال.

٢- خرج عبيدة بن الحارث في شوال ١هـ في ستين أو ثمانين رجلاً لاعتراض عيرًا لقريش يحرسها أبو سفيان في مائتين من المشركين فالتقوا برابغ ولم يحدث قتال.

٣- خرج سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة ١هـ في عشرين رجلاً لاعتراض قافلة لقريش فعسكر في الخرار[٢] لكن بعد مرور القافلة.

٤- خرج عبد الله بن جحش في رجب ٢هـ في اثني عشر رجلاً لاعتراض عيرًا لقريش يقودها عمرو بن الحضرمي فالتقوا عند نخلة وهو موضع بين مكة والطائف فغنم المسلمون القافلة وقتلوا قائدها عمرًا وأسروا من معه.

٥- خرج عمير بن عدى الخطمى في رمضان ٢هـ لقتل عصماء بنت مروان اليهودية في بيتها لأنها كانت تؤذي النبي ﷺ فلما قتلها ذهب يخبر النبي ﷺ فمدح فعله.

٦- خرج سالم بن عمير الأنصاري في شوال ٢هـ لقتل أبي عفك اليهودي لأنه كان يؤذى النبي فقتله في بيته ومدح النبي ﷺ فعله.

٧- أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة[٣] في خمسة رجال لقتل كعب بن

---

(١) موضع على الساحل كانت تسلكه قبائل قريش إلى الشام.

(٢) وادي بالحجاز يصب في الجحفة.

(٣) محمد بن مسلمة، الأنصارى الأوسى: شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ عدا بتوك، استعمله عمر على صدقات جهينة وكان عمر إذا شُكى إليه عامل أرسله يكشف الحال وكان يرسله لينصف أموال عماله إذا أثروا من عملهم. اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان. توفى بالمدينة سنة ٤٦هـ. (أسد الغابة ٥/١٠٨).

الأشرف اليهودي الذي كان يؤذى النبي ﷺ فتوجه إليه في ١٤ ربيع الأول ٣هـ فقتله في حصنه الكائن خلف ديار بنى النضير.

٨- خرج زيد بن حارثة في جمادى الآخرة ٣هـ في مائة رجل لاعتراض عير لقريش يقودها أبو سفيان فنزل المسلمون القَرْد(١) وفر المشركون بعد أن غنم المسلمون القافلة.

٩- خرج أبو سلمة المخزومى في المحرم ٤هـ في مائة وخمسين رجلاً لقتال بنى أسد فهزمهم المسلمون غنموا منهم.

١٠- أرسل النبي ﷺ عبد الله بن أنيس في ٥ محرم ٤هـ لقتل سفيان بن نبيح الهذلى الذي كان يؤلب القبائل على المسلمين، فقتله وسط أهله بعرنة.

١١- أرسل النبي ﷺ ستة من أصحابه أَمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت وقيل مرثد بن أبى مرثد الغنوى لتعليم عضل والقارة من بطون خزيمة شرائع الإسلام فغدرت بهم هذيل وقاتلوهم في مائتين من رجالهم فقتلوهم وأسروهم وعرفت هذه السرية بالرجيع.

١٢- أرسل النبي ﷺ سبعين من القُرَّاء وفقهاء الصحابة في صفر ٤هـ لتعليم أهل نجد شرائع الإسلام فغدرت بهم قبائل عصية ورعل وذكوان ولحية وقتلوهم عند بئر معونة(٢).

١٣- خرج محمد بن مسلمة في ثلاثين من المسلمين في العاشر من المحرم ٦هـ لمهاجمة أحد بطون بنى بكر فالتقوا بهم في ناحية ضَرَيَّة فهزمهم المسلمون وغنموا منهم.

١٤- خرج عكاشة بن محصن في ربيع الأول ٦هـ في أربعين لقتال بنى أسد فنزلوا الغمر(٣) ففر أعداؤهم وغنموا منهم.

---

(١) موضع بين أرض نجد بين الربذة والغمرة.

(٢) بئر تقع بين بنى عامر وحرة بن سليم.

(٣) الغمر: ماء على ليلتين من فيد وهي قلعة بطريق مكة.

١٥– خرج محمد بن مسلمة في ربيع الأول ٦هـ في عشرة من الرجال لقتال أهل ذي القصة[١] في ديارهم وهم من بنى ثعلبة فَقُتل المسلمون جميعًا وفر محمد بن مسلمة جريحًا.

١٦– خرج زيد بن حارثة في ربيع الآخر ٦هـ لقتال بنى سليم فلما بلغ الجموم[٢] تفرقت بنو سليم وفرت.

١٧– خرج زيد مرة أخرى في جمادى الأولى ٦هـ لاعتراض عيرًا لقريش يقودها أبو العاص بن الربيع وكان المسلمون مائة وسبعون فغنموا القافلة، وكانت بالعيص.

١٨– ثم خرج زيد كذلك في خمسة عشر رجلاً لتأديب بنى ثعلبة فترل الطرف[٣] لقتالهم ففروا هاربين وأخذ المسلمون غنائمهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة ٦هـ.

١٩– خرج زيد بن حارثة في خمسمائة رجل في نفس الشهر لتأديب الهنيدى بن عارض وقبيلته جذام فالتقوا في حسمي[٤] وهُزمت جُذام وقُتل الهنيدى.

٢٠– بعثه النبي ﷺ في اثني عشر رجلاً في رجب ٦هـ إلى وادي القرى لتأديب بنى فزارة فهزمهم المسلمون وشتّتوا شملهم.

٢١– خرج عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة رجل في شعبان ٦هـ إلى دومة الجندل لمهاجمة بنى كلب فهزمهم المسلمون.

٢٢– خرج على بن أبى طالب في نفس الشهر في مائة رجل إلى فدك[٥] لقتال بنى سعد ففروا هاربين و لم يلق المسلمون كيدًا.

---

(١) موضع يبعد ٢٤ ميلاً من المدينة بطريق الربذة.

(٢) موضع يسار بطن نخلة.

(٣) اسم ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

(٤) موضع وراء وادي القرى.

(٥) قرية بعد المدينة في طريق خيبر.

٢٣– أرسل النبي ﷺ في رمضان ٦هـ عبد الله بن عتيك في خمسة رجال لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي لأنه آذى النبي ﷺ فقتلوه داخل حصنه بخيبر.

٢٤– أرسل النبي ﷺ عبد الله بن رواحة في ثلاثة رجال في نفس الشهر لأسر أسير بن رزام اليهودي وكان في ثلاثين من قومه غدوا بالمسلمين فقتلهم المسلمون.

٢٥– أرسل النبي ﷺ في شوال ٦هـ كرز بن جابر[١] في عشرين رجلاً إلى الحَرَّة[٢] بطرف المدينة لأسر من اعتدى على المسلمين من عكل وعرينة فأُسروا وأمر النبي ﷺ بقتلهم وكانوا ثمانية.

٢٦– أرسل النبي ﷺ عمرو بن أمية وأسلم بن أبي سفيان إلى مكة في العام السادس لقتل أبي سفيان بن حرب لكن أبا سفيان فر هاربًا.

٢٧– خرج عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى تربة[٣] في شعبان ٧هـ لتأديب إحدى بطون هوازن لـمجاهرتها بالعداوة للإسلام ففروا قبل قدوم المسلمين.

٢٨– خرج أبو بكر في نفس الشهر لتأديب بني فزارة فقتلهم المسلمون وأسروا منهم عددًا.

٢٩– خرج بشير بن سعد الأنصاري في نفس الشهر مع ثلاثين رجلاً إلى فدك لتأديب بني مرة لكن قُتل الثلاثين مسلمًا عدا بشير استطاع الفرار بنفسه.

٣٠– خرج غالب بن عبد الله في رمضان ٧هـ معه مائة وثلاثين إلى الميفعة[٤] لتأديب بني عوال وبني عبد بن ثعلبة فقتلهم المسلمون وأسروا منهم.

٣١– خرج بشير بن سعد الأنصاري في شوال ٧هـ في ثلاثمائة من المسلمين

---

(١) كرز بن جابر، القرشي الفهري: أسلم بعد الهجرة أغار على سرح المدينة في الجاهلية فخرج له النبي ﷺ في غزوة سفوان ففر كرز ثم أسلم وحسن إسلامه. قُتل يوم فتح مكة عام ٨هـ. (أسد الغابة ٤/٤٤٣).

(٢) أرض ذات حجارة سوداء مدببه.

(٣) موضع على بعد ٤ ليال من مكة على طريق صنعاء ونجران.

(٤) موضع قرب المدينة بناحية نجد.

لقتال هوازن وعلى رأسهم عيينة بن حصن فهزمهم المسلمون وشتتوا شملهم.

٣٢- خرج ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلاً في ذي الحجة ٧هـ لتأديب بني سليم فقُتل المسلمون جميعًا عدا قائدهم.

٣٣- خرج غالب بن عبد الله الليثي[(١)] في صفر ٨هـ معه خمسة عشر رجلاً إلى الكديد[(٢)] لتأديب بني ملوح فهزمهم المسلمون وأسروا منهم.

٣٤- خرج غالب في نفس الشهر معه مائتي رجل إلى فدك للثأر من بني مرة لقتلهم سرية بشير بن سعد الأنصاري فهزمهم المسلمون وقتلوهم.

٣٥- خرج شجاع بن وهب الأسدي في ربيع الأول ٨هـ إلى السيء[(٣)] لتأديب بني عامر من هوازن فهزمهم المسلمون وغنموا منهم.

٣٦- خرج كعب بن عمير الغفاري في نفس الشهر في خمسة عشر إلى أطلاح[(٤)] لتأديب أهلها من المشركين وقُتل جميع المسلمين ونجا كعب وحده.

٣٧- سرية مؤتة: (جمادى الأولى ٨هـ): خرج المسلمون في ثلاثة آلاف إلى مؤتة فحاربهم الروم في مائتي ألف وقتل قادة المسلمين الثلاثة زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وقتل بعض المسلمين واستطاع خالد بن الوليد أن ينحاز بالمسلمين ويشق لجيشه طريقًا بين جحافل الروم ويعود بالجيش سالمًا.

٣٨- خرج عمرو بن العاص في جمادى الآخرة ٨هـ في ثلثمائة ثم جاءه مائتي رجل مددًا لتأديب قضاعة فالتقوا في ذات السلاسل[(٥)] فهزمهم المسلمون وغنموا منهم.

---

(١) غالب بن عبد الله الكناني الليثي: صحابي بعثه الرسول ﷺ عام الفتح ليسهل لهم الطريق. ذكر الكلبي أن الرسول ﷺ بعثه إلى بني مرة بفدك فقتل دونها. (أسد الغابة ٣٢١/٤).

(٢) ماء بين عسفان وعديد.

(٣) موضع على بعد ٥ ليال من المدينة.

(٤) أرض بالشام من وراء وأدي القرى.

(٥) موضع وراء وادي القرى يبعد عن المدينة ١٠ أيام.

٣٩- خرج أبو عبيدة بن الجراح في رجب ٨هـ في ثلثمائة إلى القبيلة[١] لتأديب جهينة واعتراض عير لقريش لكن عير قريش فرت هاربة.

٤٠- خرج أبو قتادة بن ربعي في شعبان ٨هـ في خمسة عشر رجلاً لتأديب أحد بطون غطفان بأرض نجد فهزمهم المسلمون وغنموا منهم.

٤١- ثم أرسل النبي ﷺ أبا قتادة أيضًا في رمضان ٨هـ إلى موضع إضم بين ذي خشب وذي مروة في ثمانية ليوهم المشركين أن النبي ﷺ لا يريد التوجه إلى مكة لفتحها ثم عادوا و لم يلقوا كيدًا.

٤٢- ثم أرسل النبي ﷺ سرايا لهدم الأصنام خارج مكة فأرسل خالد بن الوليد في ثلاثين رجلاً في شهر رمضان لهدم العزى ببطن نخل، وعمرو بن العاص إلى هذيل لهدم سواع[٢]، وسعد بن زيد الأشهلي في عشرين رجلاً إلى المشلل[٣] لهدم مناة معبود كلب وخزاعة، وفي شهر شوال من نفس العام أرسل الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه لهدم ذي الكفين.

٤٣- أرسل النبي ﷺ في شوال ٨هـ أبا عامر بن عبيد بن سليم إلى أوطاس[٤] لقتال الفارين من حنين فهزمهم المسلمون لكن قُتل قائد السرية أبو عامر.

٤٤- أرسل النبي ﷺ قيس بن سعد بن عبادة[٥] في أربعمائة إلى اليمن لدعوة قبيلة صداء للإسلام فأسلموا جميعًا ووفدوا على النبي ﷺ مبايعين.

٤٥- خرج عيينة بن حصن في ذي الحجة ٨هـ يقود خمسين رجلاً لتأديب بنى تميم فهزمهم المسلمون وأسروا منهم ٧٢ رجلاً.

---

(١) موضع جهة البحر يبعد عن المدينة ٥ ليال.

(٢) يبعد عن مكة ثلاثة أميال.

(٣) جبل على ساحل البحر.

(٤) أوطاس وادي بديارهوازن.

(٥) قيس بن سعد: صحابي أرسله الرسول في سرية تحت إمرة أبى عبيدة. روى البخاري أنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير. حارب في صفين وكان تحت راية على. توفى في آخر عهد معاوية.

٤٦- أرسل النبي ﷺ على بن أبي طالب في مائة وخمسين إلى طئ لهدم القُلَس أحد أصنامهم في ربيع الثاني ٩هـ ثم أرسل المغيرة بن شعبة إلى الطائف لهدم اللات معبود ثقيف.

٤٧- أرسل النبي ﷺ مالك بن الدخشم[١] ومالك بن عدى في رجب ٩هـ لهدم مسجد الضرار التي بناه المنافقون.

٤٨- أرسل النبي ﷺ وفوده لدعوة اليمن إلى الإسلام فأرسل خالد بن الوليد في ربيع الثاني ١٠هـ إلى نجران لدعوة بنى عبد المدان وعلى بن أبي طالب إلى بنى مذحج ومعاذ بن جبل إلى اليمن من جهة عدن وأبو موسى الأشعري من الناحية السفلى لليمن فأسلموا جميعًا عدا بنو مذحج[٢] الذين هاجموا المسلمين فهزمهم المسلمون ثم تابوا ورجعوا.

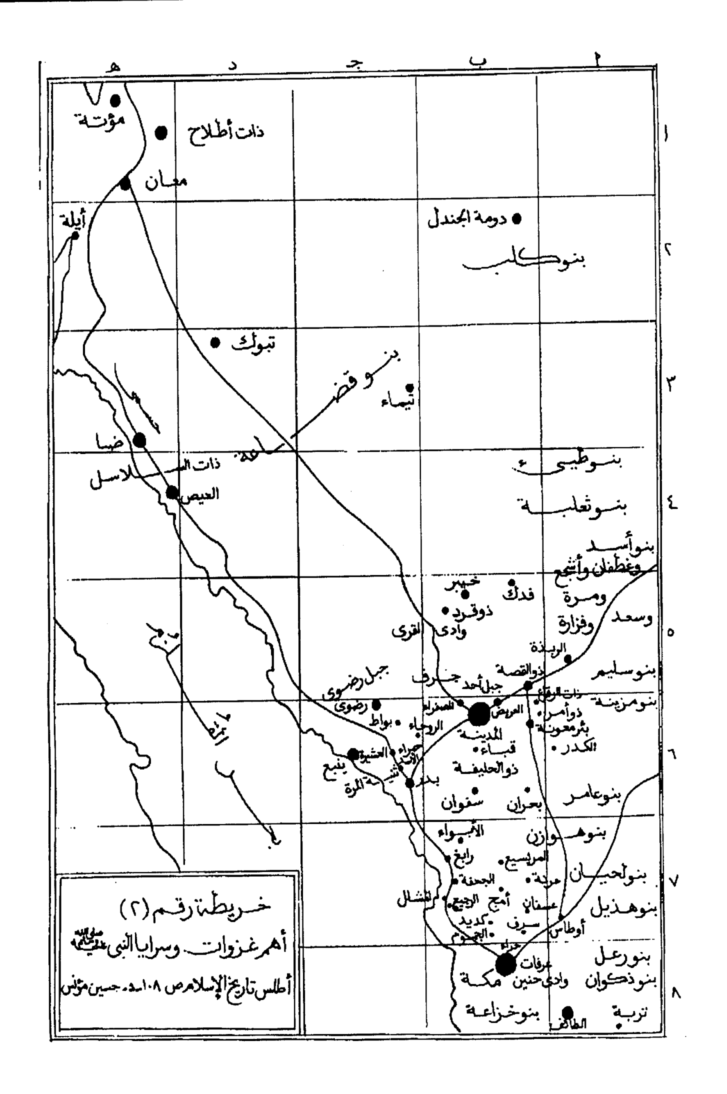
٤٩- كان النبي ﷺ قد أمر بخروج أسامة بن زيد لتأديب الروم فلما مات النبي ﷺ وهم بجرف من المدينة أنفذها أبو بكر ﷺ في آخر صفر ١١هـ فقصدوا أُبْنَى[٣] وشتتوا شمل الروم والغساسنة بها. (انظر الخريطة رقم (٢))

---

(١) مالك بن الدُّخْشُم: صحابي شهد العقبة وبدرًا. (أسد الغابة ٥/٢٠).

(٢) مذحج: قبيلة تنسب إلى مذحج بن كهلان بن سبأ من العرب العاربة (صبح الأعشى ٢٢١/٤).

(٣) ذكرها اليعقوبى في البلدان (ص١٦٧) يبنا، وذكرها يا قوت الحموى في معجم البلدان (١٠١/١) أُبْنَى وهى موضع بالشام جهة البلقاء، وذكرها كذلك صاحب معجم ما استعجم (١٠٣/١).



خريطة رقم (٢)

أهم غزوات وسرايا النبي ﷺ

أطلس تاريخ الإسلام ص ١٠٨ د. حسين مؤنس

أبو بكر الصديق ﷺ

والله ما جرى قلمي بمداده بتاريخ الإسلام ومواقف الصحابة إلا ووجدت هذه القمة السامقة[١] بارزة تتراءى أمام عيني تتعالى في السماء رفعة، وتعانق الجوزاء في السماء، لذا آليت على نفسي أن أصدرها موارده كلما أردت أن أرتوي من ينابيع الصحابة رضوان الله عليهم. فوالله ما رأيت أعجب من هذا الرجل فقد وقفت مليًّا أمام شخصيته التي بهرتني عظمتها وأخذت بخاطري فلا أتمالك نفسي حتى انجذب لدارالها[٢] إعجابًا وإجلالاً.

إنه رجلٌ جمع خصال الخير كلها فما ترك من أبواب الفضل بابًا إلا طرقه ولا محفلاً للشرف إلا خلّد له فيه علامات، حتى استحق أن يعدل هذه الأمة كلها فضلاً بعد نبيها ﷺ، فقال عنه عمر ﷺ: "لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم"[٣].

ولتعلم يا أخي أن كفة أهل الأرض التي وصفها عمر هي لأهل زمانه من الصحابة رضوان الله عليهم الذين لو وُزن إيمان الواحد منهم بأهل الأرض جميعًا إلى يوم القيامة لرجح بهم، فما خلق الله بعد الأنبياء رجلاً خيرًا من أبي بكر، لقد كان أبو بكر حقًا من أصحاب السبق والتفوق في ميدان البطولة والجهاد ولا يحق أن نذكر شجاعة المسلمين وبطولاتهم إلا ونذكر الصديق أبا بكر.

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل[٤]: "إن فيما رواه المؤرخون من الوقائع التي

---

(١) عالية مرتفعة وسمق أي علا وارتفع.

(٢) دارة القمر أي هالته ومداره.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) محمد حسين هيكل: وُلد عام ١٨٨٨م بالدقهلية حصل على ليسانس الحقوق ثم على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي من باريس ١٩١٢م ثم عين وزيرًا للمعارف ورئيسًا لمجلس الشيوخ عام ١٩٤٥م. يعد من رواد الرواية العربية ومن أبرز كتاب مصر له مؤلفات شتى في التراجم والسير الإسلامية وأبرز أعماله: "حياة محمد" وفي منزل الوحي". توفي عام ١٩٥٦م.

حدثت في عهد الخليفة الأول لما ينطوي على عظمة نفسية تثير الدهشة بل الإعجاب، بل الإكبار والإجلال، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى التقديس... فهذا الرجل الوديع السمح الأسيف[1] السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس في بؤسه والضعيف في ضعفه، تنطوي نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام... لقد برزت أمامي بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ﷺ، فأين مواقفهم، على جلالها وعظمتها من مواقفه أول الرسالة، وحين كانت قريش تنال الرسول ﷺ بالأذى وحين كان حديث الإسراء، وأول الهجرة، ويوم الحديبية، ويوم وفاة الرسول ﷺ، وحروب الردة!! إن كان موقف من هذه المواقف لكفيل بأن يُؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه في كتاب الخلود. وعظمة أبي بكر مع ذلك هي العظمة الصامتة التي تأبى أن تتحدث عن نفسها؛ لأنها عظمة الروح وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحى إلى رسوله ﷺ''[2].

وهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَّيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، القرشي التيمى. لقب بالصِّدِّيق وكُنِّى بأبي بكر. وهو من لا يخفى فضله عن ذي لُبٍّ فهو أول من آمن من الرجال ولازم النبي ﷺ وناصره في كل موضع قولاً وفعلاً وجاد بكل ماله لنصره الإسلام وإعزازه.

ولقد تحمَّل في سبيل الدعوة ما لا تطيقه الجبال وذاد عن النبي ﷺ بروحه ودمه وبكل ما آتاه الله من قوة وكون جبهة وحده حيال ذلك وأظهر من فنون الشجاعة والبسالة ما تعجز عنه الجيوش لا الأفراد.

فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: سألت عمرو بن العاص ﷺ، فقلت: ''أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ!''. قال: ''بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقًا

(١) رقيق القلب بالبكاء.

(٢) الصديق أبى بكر لمحمد حسين هيكل.

شديدًا، فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨][1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال "لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غُشى عليه فقام أبو بكر ﷺ فجعل ينادى: ويلكم! ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾، فقالوا: من هذا؟، فقالوا: أبو بكر المجنون، فتركوه وأقبلوا على أبي بكر[2].

وعن على بن أبي طالب ﷺ قال: "لقد رأيتُ رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فذا يجبؤه[3] وهذا يتلتله[4] وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال عليٌّ: فوالله مادنا منا أحد إلا أبا بكر: يضرب هذا، ويجبأ هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾، ثم رفع عليٌّ بردةً كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت[5] لحيته، ثم قال لمن حوله: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعةٌ من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[6].

لقد تحمل أبو بكر الأذى في سبيل الله تعالى ولاقى في ذلك أشد العذاب فعن عائشة رضيَ الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على الرسول ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر! إنَّا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وذكره ابن كثير في البداية والنهاية والكندهلوى في حياة الصحابة.
(٢) رواه البزار في مسنده ورجاله رجال الصحيح والهيثمى في المجمع والحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
(٣) جبأه: فاجأه.
(٤) تلتله: زعزعه وحركه بعنف.
(٥) اخضلت: ابتلت.
(٦) رواه البزار في مسنده.

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوه في نواحي المسجد ضربًا شديدًا ووُطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين[١] ويحرفهما لوجهه، ونزا[٢] على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه؛ وجاء بنوتيِّم يتعادون[٣] فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنوتيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكُّون في موته، ثم رجعت بنوتيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله! لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة؛ فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنوتيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب؛ فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ .

لم يهتم بما جرى له، لقد هانت عليه نفسه في حب الله ورسوله ﷺ وظل يسأل أمه عن الرسول ﷺ وعن مكانه- فقالت أمه: في دار ابن الأرقم[٤]. قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ. فخرج يتكأ على أمه أم الخير وأم جميل بنت الخطاب حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله ﷺ، رقةً: شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله! ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي[٥].

ولقد تجسَّدت شجاعته في غزوات النبي ﷺ يجاهد ويبلى عظيم البلاء فعلى الرغم من رقة قلبه وجيشان مشاعره وما خلقه الله عليه من بنيه ضئيلة إلا أن قوته كانت تنبع من إيمانه فيصير في مواقف الشدة أسدًا هصورًا[٦] لا يجبن أبدًا وإن ضحى بحياته في سبيل ما هو عليه من الحق.

---

(١) خصف النعل: أي خاطه.

(٢) نزا: وثب.

(٣) عدا: جرى.

(٤) الأرقم بن أبي الأرقم، القرشي المخزومي: صحابي من السابقين الأولين فهو سابع سبعة في الإسلام، اتخذ الرسول ﷺ بيته بجبل الصفا مقرًا للدعوة في مهدها. شهد بدرًا وما بعدها. توفى بالمدينة يوم وفاة أبي بكر ﷺ.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير والإصابة لابن حجر وحياة الصحابة للكندهلوى.

(٦) الهصور: الأسد المفترس.

فعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: أيها الناس! أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين! قال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس. قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر ﷺ إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا.

فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلاً يهوى إليه أحد من المشركين؟ فوالله! مادنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس[1].

وهكذا شهد بدرًا ثم شهد أحدًا والخندق وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وفي غزوة تبوك التي سمَّاها الله تعالى "ساعة العسرة" قام رسول الله ﷺ يحث الناس على الخروج فتثاقلوا وتخلف من تخلف فعاتب الله تعالى جميع المسلمين إلا أبا بكر أخرجه الله من دائرة المعاتبة وأنزل قوله تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] يذكرهم بما كان من أبي بكر من نصرة لرسوله ﷺ يوم الهجرة فما كان من النبي ﷺ إلا أن دفع إليه برايته العظمى يوم تبوك وكانت راية سوداء. ولازم النبي ﷺ يناصره ويشد أزره .

وكم تعددت المواطن التي تجلت فيها شجاعته التي نبعت من عميق إيمانه بالله تعالى وتصديقه لرسوله ﷺ .

ويقول الإمام النووي رحمه الله: كانت لأبي بكر ﷺ في الإسلام مواقف رفيعة منها ثباته فيما أخبر به رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء وجوابه للكفار وهجرته مع رسول الله ﷺ وترك عياله وأطفاله، وملازمته في الغار وفي سائر الطريق ثم كلامه يوم بدر حين شد أزر الرسول ﷺ ويوم الحديبية حتى اشتبه على غيره الأمر في تأخر دخول مكة.

---

(١) رواه البزار في مسنده وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

أما عن أعزِّ هذه المواطن وأبرزها فهو كما يقول الإمام النووي- قال: وموقفه يوم وفاة رسول الله ﷺ وخطبته في الناس وقيامه وحده بتسكين نفوسهم[١]. فقد أثبت أبو بكر ﷺ رغم حبه الشديد لرسول الله ﷺ صلابة وقوة تعجز عن إتيانها الجبال فقام وحده للأمة استعمله الله تعالى في هذا الخطب الجلل فثبَّت وسكن نفوسهم ولولاه لضلت الأمة الإسلامية يومها، ثم قيامه في قضية البيعة لصالح المسلمين والقضاء على الفرقة بين المسلمين بعد موت رسول الله ﷺ ثم تحمُّله هَمَّ الخلافة وقد أطلت فتنة الردة برأسها.

فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن عائشة رضي الله عنها قالت: ''لمَّا قُبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبةً واشرأبَّ النفاقُ، والله! لقد نزلَ بأبي ما لو نزلَ بالجبال الراسيات لهاضها[٢] وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة في حش[٣] في ليلة مطيرة بأرض مُسْبِعة''[٤].

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: ''بموت رسول الله ﷺ نجم النفاق واشرأبتْ اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم''. فقد ارتد أغلب المسلمين حتى هم بعض أهل مكة بالردة فخاطبهم سهيل بن عمرو ﷺ وهدَّدهم قائلاً: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ''.

وهمَّت ثقيف أن ترتد فقال لهم عثمان بن العاص ﷺ: ''يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد''. وفيما عدا مكة والطائف والمدينة فقد ارتدت الجزيرة العربية كلها وظهر مدعيو النبوة باليمن واليمامة والبحرين وغيرها فجمعوا الناس حولهم.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي وتاريخ الخلفاء للسيوطي.

(٢) هاضه: كسره.

(٣) حش: بستان أو مجتمع النخل.

(٤) مسبعة: كثيرة السباع.

ويقول الأستاذ العقاد: إن لردة العرب أسبابًا منها: تمرد القبائل القوية على قريش وخاصة التي تنتمي إلى ربيعة دون مضر والتي تأنف[1] أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرياسة وهذا ما صرح به طليحة النمرى حين لقي مسيلمة الكذّاب فقال له: "أشهد أنك كذاب، لكن كذّاب ربيعة أحبُّ إلينا من كذّابِ مضر[2]"، وكان مسيلمة يقول: "أردتُ أن آخذ نصف الأرض وأترك نصفها لقريش ولكن قريشًا قوم لا يعدِلُون"، وكما كان التنافس بين قبائل ربيعة ومضر كان التنافس داخل مضر أشد وأقوى فقد كانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره سيادة قريش وهو ما قاله عيينة بن حصن فقال مؤيدًا طليحة بن خويلد الأسدى الذي ادعى النبوة: "نبيٌّ من الحليفين[3] أحب إلينا من نبيٍّ قريش"، والسبب الثاني هو طمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ أمره وذيوع صيته والتفاف الناس حوله وذلك بأنهم ظنوا أنهم قادرون على أن يأتوا بما أتى به محمد ﷺ وأن المسألة على حد زعمهم كهانة وأسجاع وقيادة وأتباع.

ويذكر العقاد سببًا آخر وهو: ثورة البادية على الحاضرة وهو دأب البادية دائمًا وسببًا آخر هو دخول البعض في الإسلام ممن لم يرسخ الإيمان بعد في قلوبهم ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية كقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] فضاقوا ببعض الفروض كالزكاة لضنِّهم[4] بالمال كما ضاق بعضهم ببعض العبادات مما دفع طليحة بن خويلد لمّا ادعى النبوة أن يأمر بعدم السجود في الصلاة.

وسببًا آخر يراه العقاد وهو الدسيسة المبثوثة من البلاد الأجنبية كالفرس ورغبتهم في نقض عُرى الإسلام الذي يناهض معتقداتهم[5]. كل هذه كانت أسبابًا للردة .

---

(١) أنف: استكبر واستنكف.

(٢) يقصد عليه اللعنة بهذا القول النبي محمد ﷺ .

(٣) يقصد بالحليفين أسد وغطفان.

(٤) ضَنَّ: بخل.

(٥) عبقرية خالد للعقاد.

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل: ''ورغم أن حروب الردة تمت في فترة قصيرة لا تتجاوز سبعة وعشرين شهرًا، إلا أنها لم تكن حروبًا بسيطة كما يتصور البعض، بل كانت حروبًا طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء وهؤلاء ولقد كان لهذه الحروب أثر حاسم في تاريخ الإسلام، ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلاد العرب، ولما قامت الدولة الإسلامية، ولو أن جيوش أبى بكر لم تنتصر في هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمر ولتغير في الحالين مجرى التاريخ في العالم كله''[١].

لقد كان لأبى بكر بطولات رائعة في هذا الميدان وتجلت شجاعته في حزمه حين وقف وحده يحض الناس على قتالهم ولم يدع حيزًا للتنازل أو التفريط فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ''توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم نصلى ولا نزكّى، وقال بعضهم: لا نصلى ولا نزكى. قال: فأتيته- ولا آلو[٢] نصحًا- فقلت: يا خليفة رسول الله! تألّف[٣] الناس. فقال: أخرّت نصرتك وجئتني بخذلانك، جبارًا في الجاهلية خوارًا في الإسلام... هيهات هيهات! مضى النبي ﷺ وانقطع الوحي، والله لأجاهدهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً''[٤].

وعن أبى هريرة ﷺ، قال: ''لما تُوفِّي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر بعده وكفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر! كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم منى ما له ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، قال أبو بكر: والله! لأقاتلن من فَرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله! لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. قال عمر: فوالله! ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال،

---

(١) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل.
(٢) لا آلو: لا أقصّر.
(٣) تألف: استمال.
(٤) رواه البيهقى في الدلائل والدينورى في المجالسة وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

فعرفت أنه الحق"[١].

وهكذا قرَّر الصديق أبو بكر قتال المرتدين وعدم التهاون في أمر الدين كي لا تَنْقَضَّ عُرى الإسلام، لكن هذا العزم وهذه النية مع صدقه ﷺ فيهما ما كان لهما أن يتحققا إلا بقوة من الفعل وصرامة من العمل وهذه حقًا كانت هي المحنة التي واجهته فقد كان الجيش الإسلامي معقودًا لواؤه بيد النبي ﷺ لقتال الروم والناس في حيرة من الأمر يقاتلون الروم أم المرتدين؟ لكن الصديق كان قادرًا على تدبير الأمر بمثل عزمه الصادق الذي عُهد عنده.

وفي هذا يقول العقاد: "من عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يُقال لم يدع مزيدًا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال أنه لم يدع مزيدًا للإيمان"[٢]، وهكذا تدبَّر الأمرين معًا وقرر دحر القوتين معًا: الروم والمرتدين. وقد كان جيش أسامة بن زيد- الذي سيَّره النبي ﷺ لقتال الروم بالشام- لما علم بموت النبي ﷺ توقف عن المسير عندما بلغ الجُرف على حدود المدينة، فأبى أبو بكر أن يخالف وصية النبي ﷺ فقد كان آخر كلامه ﷺ: "انفذوا بعث أسامة". (ابن سعد في الطبقات وابن عساكر في تاريخه وابن حجر في الفتح) وقال أبو بكر: كلمته الخالدة: "والله! لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطيرُ تخطفتنا والسباعُ من حول المدينة. لأجهزن جيش أسامة". ونادى في الناس: "ألاّ لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرف"، فأذعنوا لأمره وخلت المدينة من الجند إلا بضع مئات من المهاجرين والأنصار.

لقد كان لأبي بكر في قراره هذا من بعد النظر والحنكة والدراية ما سد به أمام الأمة الإسلامية الناهضة أبواب الخطر وحفظ لها هيبتها أمام الروم وقمع الفتنة في مهدها ولو لم يفعل ما فعل لسقطت هيبة المسلمين في أعين الروم ولداهموا المسلمين في

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد في مسنده، والترمذي والنسائي وأبو داود في سننهم وابن حبان في صحيحه ورواه البيهقي.

(٢) عبقرية خالد للعقاد.

المدينة. وها هو أبو بكر يخرج مودعًا جيشَ أسامة فيوجهه قائلاً: ''اصنع ما أمرك به النبي ﷺ ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ[(١)] ولا تعجلن لما خلفت عن عهده''.

ويقول الأستاذ السيد فرج: لقد كان الصديق قائدًا عبقريًا سار على نهج قائده الأول ومعلمه محمد ﷺ فقد سبق عصره وانطبق عليه قول الفيلد مارشال مونتجمرى قائد معركة العلمين الشهيرة الذي أدلى به عام ١٩٧٠ نتاج الخبرة والدراسة، قال: ''إن مهمة رئيس الدولة- القائد الأعلى للقوات المسلحة هي اختيار قادة أكفاء وإعطاؤهم التوحيد السياسي والاستراتيجي اللازم ثم ترك الحرب لهم''.

والعجيب أن خليفة رسول الله ﷺ كان يعمل بهذا القول منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنًا فكان يرسم الاستراتيجية لقادته ثم يترك لهم العنان ليتصرفوا وفق ما يرونه في الحرب، لقد سبق أبو بكر ؓ كبار المؤرخين والقادة إلى ذلك وقد جاء بعده بمئات السنين نابليون ليقول: ''لا يوجد عسكري رديء وإنما قائد رديء''[(٢)].

وزحف جيش أسامة إلى وجهته فلقن أهل المكان من الروم والغساسنة درسًا لن ينسوه وثأر لوالده زيد[(٣)]، وبذلك علم الروم أن المسلمين لن ينتهوا بموت نبيهم ﷺ وأن الله حافظهم، أما على ساحة حروب الردة فيمكن تقسيم حروب الردة إلى قسمين:

أولاهما: كان للدفاع عن المدينة وما جاورها من أي محاولة من جانب المرتدين لغزوها والنيل منها.

---

(١) عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أنه قال: أمرني رسول الله ﷺ لما وجهني فقال: "اغد على يبنا صباحًا ثم حرق". (رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود).

(٢) محمد بن عبد الله: أوامره وتوجيهاته للسيد فرج.

(٣) بلغ جيشه البلقاء قرب مؤته فنزل حيث قُتل والده فأغار على آبل وحارب قضاعة وقتلوا كل من قاومهم وأنفذوا أمر النبي ﷺ أن يوطئوا الخيل على تخوم البلقاء والد اروم من فلسطين وأن ينزل على أعدائه في عماية الصبح وأن يمعن فيهم قتلاً وتحريقًا، ففعل ثم عاد منتصرًا وهو ممتطى جواد أبيه بعد سبعين يومًا من الغزو.

وثانيهما: لقمع قوي الردة في معاقلها.

ولقد ظن أهل الردة لَمَّا خرج جيش أسامة أن المدينة صارت لهم لقمة سائغة، فزحفت بعض القبائل كعبس وذبيان ومن انضم إليهم من كنانة وغطفان وفزارة وقد قسَّموا جموعهم فرقتين فرقة أقامت بالأبرق من الربذة، وسارت الأخرى إلى ذي القَصَّة[١] وأرسلوا وفودهم يفاوضون أبا بكر في إسقاط الزكاة عنهم فأبى وقال: "والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه"، فرجعت هذه الوفود بعد أن اطلعوا على عورة المدينة وعلموا أنها خالية ممن يدافعون عنها.

ويقول العقاد: "فأخذ أبو بكر يتأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة هذا كله بعد حزم الإيمان فلم يدع شيئًا قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعدَّه في أوانه فدعا إليه عليًّا والزبير وطلحة وابن مسعود ﷺ وجعلهم على مداخل المدينة وأمر سائر الناس أن يكونوا في المسجد في عُدَّة القتال وأرسل العيون على الطرقات وصَدَقَ حدسه[٢] فلم تمر ثلاثة أيام حتى بدأوا يزحفون ليلاً، وفي حزمه المعهود قرر أن يباغتهم ويمضي إليهم قبل أن يفاجئوه فلما كان الثلث الأخير من الليل جعل له ميمنة وميسرة وانقض بجيشه عليهم حيث شلتهم المفاجأة فشتَّتَ شملهم وطاردهم حتى ذي القَصَّة[٣].

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل: "لقد وقف أبو بكر ومن معه وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغيرهم ليذكرونا بوقعة بدر التي انتصر فيها الرسول ﷺ وأصحابه في ثلثمائة أمام ألف من المشركين"[٤]. ولا عجب في ذلك وقد آلي الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألاّ يدع شيئًا كان يصنعه الرسول ﷺ إلاّ صنعه فنعم القدوة ونعم المُقْتَدى.

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل: "يجمع المؤرخون على أن عظمة الصديق في

---

(١) ذو القَصَّة: أقرب محلة من المدينة على طريق نجد.

(٢) الحدس: الظن أو التخمين.

(٣) عبقرية خالد للعقاد.

(٤) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل.

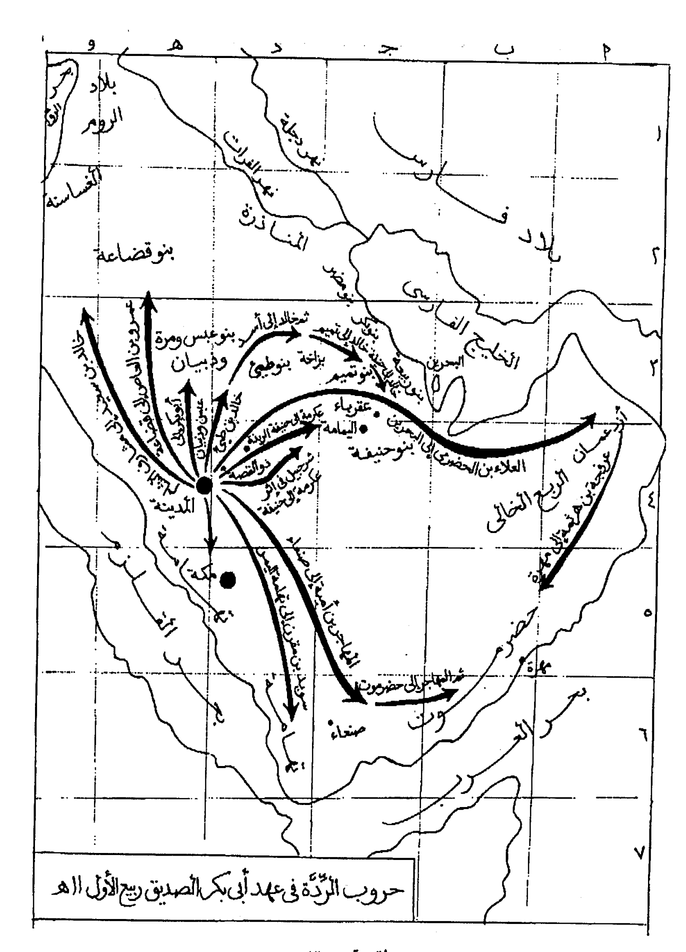
خلافته ترجع إلى عظمته في صحبة الرسول ﷺ، فقد أشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذي جاء به محمد ﷺ وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة، إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب. ومما أُشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب.. وهذه حقيقة روحية أدركها كثيرون في عصور شتى بعقولهم، أما أبو بكر فأدركها بقلبه ورآها بعينيه مَاثلةً[1] في رسول الله ﷺ وفي عمله. وهذا الإيمان الصادق هو الذي دفعه ليُصِرَّ على قتال المرتدين حتى وإن خرج إليهم وحده".

ثم جاءت المرحلة الثانية من قتال المرتدين وذلك لأن المرتدين لما هزمهم أبو بكر ﷺ لم يعودوا للإسلام إنما أخذتهم العزة بالإثم وانحاز بعضهم إلى طليحة بن خويلد متبئ بنى أسد في بزاخة وانحاز باقي المرتدين إلى متبعيهم من زعماء المرتدين ومدعيِّ النبوة. فعزم أبو بكر ﷺ على الخروج بنفسه لقتالهم في أماكن تجمعهم، فاستخلف أسامة بن زيد على المدينة ولما نهاه الناس عن الخروج قال: "لا والله لا أفعل ولأواسينَّكم بنفسي" وأمام إصرار الصحابة فيما رأوا من عدم الخروج حرصًا على استقرار الأمر، رأى الصواب في ذلك وآثر عدم الخروج ليرسم لنا سياسة جديدة كان له السبق فيها على كل من تلاه من القادة والسَّاسة إلى يومنا هذا ألا وهو ما ذكره الأستاذ محمد فرج في قوله: "إن خوض المعارك يتطلب وجود مستويين من القيادة، وهما: القيادة العليا وقيادة الجيوش وقد كان رسول الله ﷺ يجمع بين المستويين من القيادة إلا في السرايا والبعوث التي لم يخرج فيها للقتال لكن في عهد الخلفاء من بعده وأولهم أبو بكر تغير الوضع واتسعت ميادين القتال واتسعت رقعة الدولة فأصبح الخليفة متوليًا أمر القيادة العليا ومركز قيادته من المدينة حيث يباشر منها ما يجرى في ساحة المعركة على يد قادة الجيوش الذين كان القائد الأعلى يختارهم بعناية وأصبح هذا تقليدًا متبعًا حتى عصرنا الحديث"[2].

---

(١) ماثلة: شاخصة وكائنة.

(٢) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.



خريطة رقم (٣)

أطلس تاريخ الإسلام ص ٧٩ د. حسين

وحشد أبو بكر جيوش المسلمين لقتال المرتدين في قبائلهم وقسّمهم أحد عشر لواءً (أنظر الخريطة (٣)) وجعل على كل لواء أميرًا، ووكّل إلى خالد أمر قتال طليحة الأسدى ببزاخة ثم قتال مسيلمة باليمامة، وخرج أبو بكر يودِّع جيش خالد ويوصيه بوصاياه الغالية التي تصلح دستورًا للحرب في كل عصر، قال: "عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه والجهاد في سبيله والرفق بمن معك من رعيتك فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم فإذا دخلتْ أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة، وقدِّم أمامك الطلائع تَرْتَدْ[١] لك المنازل، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة، واحرص على الموت توهب لك الحياة ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه واحترس من البيات فإن في العرب غَرَّة وأقلل من الكلام وأقبل من الناس علانيتهم وكِلْهم إلى الله[٢] في سريرتهم".

وأمرهم ألا يقاتلون أحدًا حتى يدعونه فمن استجاب وأقرَّ وكفَّ وعمل صالحًا قبلوا منه ومن أبى فليقتلوه وألاَّ يُبْقُوا على أحد منهم قَدَرُوا عليهم وأن يحرقوهم بالنيران ويَسْبُوا نساءهم وذراريهم فيكون ذلك نكَاية[٣] بهم ومنعًا للفتنة، وهكذا كانت وصاياه الجامعة التي التزمت بها الجيوش فحقق الله لهم نصره وقُمعت الفتن واستقر الأمر في الجزيرة العربية.

وبدأ أبو بكر يتطلع لفتح بلاد الروم والفرس وهنا تظهر عبقرية الصديق الحربية حيث أدار دفة القتال بكل اقتدار على جبهتي الشام والعراق مع أكبر قوتين عسكريتين حينئذ الروم والفرس. وكانت أولى المصادمات مع دولة الروم حيث تفجر معهم الصراع في آخر عهد النبي ﷺ وبموته ﷺ ظنُّوا أن باستطاعتهم القضاء على دولة الإسلام في مهدها، ومن هنا حدث الصدام فحشدت الروم الحشود وأعد القائد الأعلى

---

(١) ارتاد المكان نزله.
(٢) فوض أمرهم إلى الله.
(٣) قهرًا وهزيمة.

الفذ أبو بكر العُدَّة وتأهب لهذا الأمر فأرسل خيرة قواده إلى جبهة الشام وكان أول لواء عقده لقتالهم في مستهل شهر صفر في العام الثالث عشر من الهجرة (٦٣٤م) هو لواء خالد بن سعيد[١] ﷺ فاتحه بجيشه فلما بلغ تيماء حشد له الروم فاستمد أبا بكر فأرسل أربعة جيوش متفرقة تحت إمرة أربعة قادة: أرسل يزيد بن أبي سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة[٢] على مثل هذا العدد إلى الأردن، وعمرو بن العاص على جيش بعدد يزيد قليلاً إلى فلسطين، وأبا عبيدة على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى الجابية[٣] وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل على جيش صغير ليحمى ظهر من احتاج منهم للحماية ويسارع بنجدة من يطلب منهم. (أنظر خريطة رقم (٤)) .

وجعل بينها تنسيقًا وأسند القيادة العامة إلى أبي عبيدة بن الجراح فكان لكل جيش خطته المنفردة مع وجود تنسيق بين هذه الجيوش والتي عليها أن تستشير أبا عبيدة وهذا التنسيق والترابط لا تدار المعارك الحديثة إلا به، وكانت عبقرية الصديق كذلك في تفرقة هذه الجيوش لتشتيت جهود الروم والفت في عضدهم[٤] فلا يتاح لهم أن يطوقوا أحد هذه الجيوش، كما أن تجمع مثل هذه الجيوش في مكان واحد يضيق عليهم في الماء والكلأ. وخرج الصديق يودع هذه الجيوش ويزودهم بنصحه كقائد أعلى للمسلمين.

فصحب يزيد بن أبي سفيان مترجلاً ويزيد راكب فقال يزيد: ''أيها الأمير إما أن تركب وإما أن أنزل!''، فقال أبو بكر ﷺ: ''ما أنت بنازل ولا أنا براكب، أليست خطاي هذه في سبيل الله؟!''.

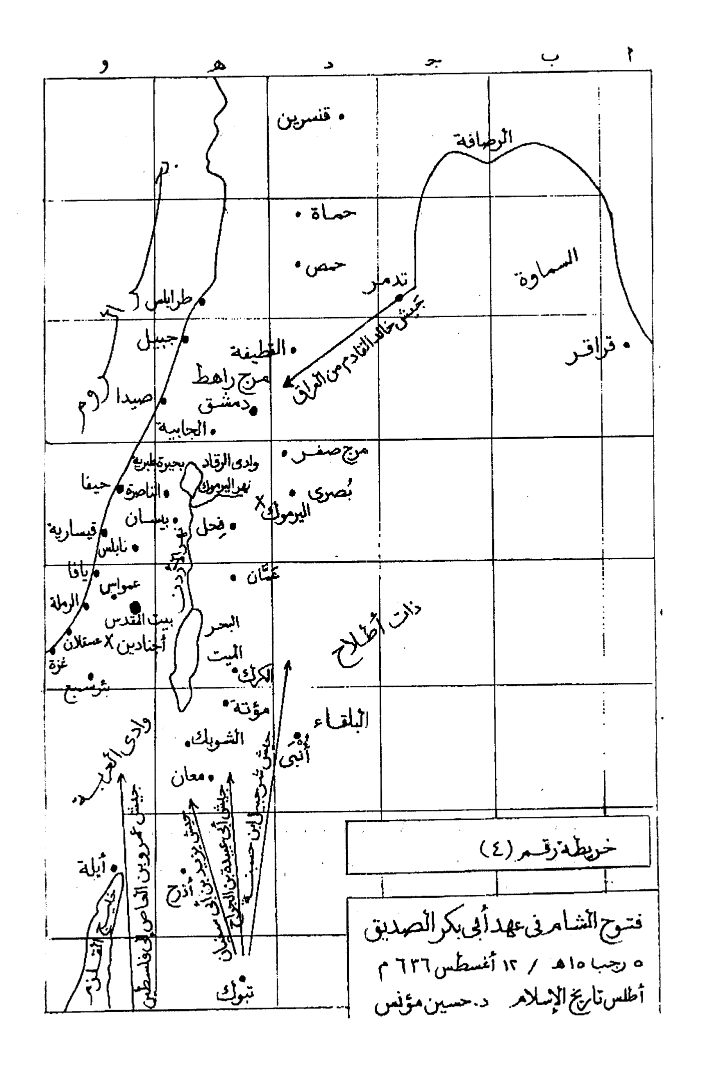
---

(١) خالد بن سعيد بن العاص من السابقين الأولين هاجر الهجرتين، قدم مع جعفر على النبي ﷺ من الحبشة فحضر عمرة القضاء وما بعدها أرسله أبو بكر على جيش إلى شارف الشام واستشهد في مرج الصفر. (الإصابة ٢/٢٠٤).

(٢) شرحبيل ابن حسنة: اسمه شرحبيل بن عبد الله بن العطريف، الكندى. عُرف باسم أمه حسنة، صحابي أسلم مبكرًا وهاجر الهجرتين وشهد غزوات النبي ﷺ وجهه أبو بكر لفتح الشام فافتتح الأردن كلها وتوفى بطاعون عمواس. (الأعلام ٣/١٥٩)

(٣) الجابية: قرية بالشام من أعمال دمشق ناحية الجولان قرب مرج الصفر تقع قرب تل الجابية.

(٤) فَتٌ في عضده أي أضعفه.



خريطة رقم (٤)

فتوح الشام في عهد أبي بكر الصديق

٥ رجب ١٥ هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦ م

أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس

وأوصاه فقال: "لا تقتلن كبيرًا ولا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا ولا تعقر بهيمة إلا لنفع، ولا تخرِّبن عمرانًا، ولا تقطعن شجرًا إلا لنفع ولا تغل ولا تغدر ولا تجْبن ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] .

ثم ودع عمرو بن العاص وأوصاه بوصية تصلح دستورًا للحرب في كل عصر نظرًا لأهميتها لما حوته من مبادئ حربية هامة فقد ترجمها عدد كبير من مؤرخي الغرب أمثال: جبون[1] في كتابه "تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية"[2]، و"إيرفنج"[3] في كتابه "تاريخ خلفاء محمد"[4]، قال في هذه الوصية: "اتق الله في سرك وعلانيتك واستحيه في خلوتك فإنه يراك في عملك وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله وأسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى فلسطين وإياك أن تكون دانيًا[5] عما ندبتك إليه! وإياك والوهن! وإياك أن تقول جعلني ابن قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به" .

وهكذا يدعوه أبو بكر ليستنصر بالله ويكون قدوة حسنة لجنده وأن يحدد قصده فلا يحيد عنه، ويخبره أنه لم يُأمِّره على جيش إلا لأنه رأى فيه القائد الكفء القادر على إحراز النصر، وقال: "واحذر من عدوك ومُر أصحابك بالحرص ولتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم، وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم، واتق الله إذا لاقيت العدو وقدِّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك.. وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون في ذلك فخرًا منك".

لقد أمره هنا أن يحسن استطلاع عدوه وأن يبعث قبله الطلائع والعيون، كما أمره أن يكون واحدًا من الجند يتقرب منهم ويكون على اتصالا مباشر بهم، ويكون لهم قدوة وأوصاه بالصبر عند القتال.

---

(1) Gibbon.
(2) The history of the Decline and Fall of Romane.
(3) Irving.
(4) A history of the lives of successois of Mohamed.
(٥) قريبًا.

ثم قال: "والْزِمْ أصحابَكَ قراءةَ القرآنِ وأَنْهِهم عن ذكر الجاهلين وما كان منها فإن ذلك يورث العداوة بينهم".

فهذا أمر منه بالتقرب من الله وأن يلزموا معيته فيستشعروا تأييده فترتفع الروح المعنوية ونهاهم عن ذكر ما كانوا عليه من جاهلية وفُرقة فيختلفوا شيعًا ويتفرقون وليذكروا فقط حالهم مع الإسلام الذي ساوى بينهم وجعل لهم معايير جديدة للتفاضل والترقي فلا فرق بين أبيضهم وأسودهم إلا بصالح عمله.

ويقول الأستاذ محمد فرج: لقد حملت هذه التوجيهات مفاهيم ومبادئ خالدة فقد ذكرت أهمية التعاون بين الجيوش خلال العمليات العسكرية وهو أمر هام يعمل على تشتيت قوات العدو لأنه يواجه الضغط من أكثر من جبهة كما ألزم قادته بالتشاور فيما بينهم لما يقدمه ذلك من جديد وألا ينفرد أحدهم بالرأي فيرد المهالك، كما نَبَّه فيها إلى ضرورة التوجه إلى الله تعالى طلبًا لتأييده ونصره وهذا هو غاية الإيمان، والإيمان يمنح المحارب قوة هائلة تجعله يستهين بالموت في سبيل رسالته وهدفه، كما شملت كيفية علاج القائد لنفسيه جنده لعلمه أن القائد هو مرآة الجند فإذا كان القائد على مستوى مرتفع من المعنويات انتقل ذلك إلى جنده فارتفعت معنوياتهم، كما أوصى أبو بكر بالتواضع وعدم التطاول والاستعلاء عليهم، كما أوصى بإقامة الحراسة اللازمة حتى لا يفاجئه عدوه والحراسة تعد حقًا من أهم متطلبات المعركة الحديثة إذ تقوم بها دوريات خاصة منتقاة يمتاز أفرادها باليقظة التامة كما يتم التناوب بين أفرادها، وبيَّن كذلك أهمية الاستطلاع لأنه يرسم للقائد صورة واضحة عن عدوه وهذا أيضًا ما تتطلبه الحرب الحديثة وهكذا تتضح عبقرية الصديق أبي بكر كقائد فذ ليس له نظير بين أهل زمانه ومن تبعهم من قادة إلى يوم القيامة[1].

ونفذت الجيوش توجيهاته بكل دقة فأحرزت النصر على أعدائها ثم أرسل الصديق أبو بكر خالدًا من العراق وأسند إليه قيادة جيوش الشام وأمرهم أن يوحدوا

---

(١) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

الجيوش لصد زحف الروم الهائل فانتصر المسلمون حتى طردوا الروم من كل الشام، أما جبهة العراق فكان يديرها كما لو كان بين أرجائها يرسم خططها مرحلة بعد مرحلة وفق ما يستجد من أحداث فجعل للمثنى بن حارثة مناوشتهم في المرحلة الأولى فلما اشتد الأمر وأخذ مأخذ الجد فكر الصديق في مرحلة جديدة.

ويقول الأستاذ العقاد: ''كان من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرًا إلا أحكم تدبيره فندب لقتال الفرس قائدين هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ووجَّه خالدًا إلى الأبلة ووجَّه عياضًا إلى المصيخ بشمال العراق فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معًا ووجبت طاعته على زميله وهي خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى ففيها إذكاء روح المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت لجهود الفرس وفيها تدبير لأمر نجاة الجيشين إذا ما تعرضا للخطر وفيها تيسير أمر الماء والكلأ؛ لأن المراعي تضيق بالجيشين مجتمعين وأمر القائدين ألا يقبلا إلاّ المتطوعين الصادقين ولا يُكْرِها أحدًا على القتال ولا يقبلا المرتدين إلا من تاب منهم وعمل صالحًا''[1].

وكان لخالد السبق واستطاع أن يقهر الفرس في خمس عشرة معركة ثم رأى الصديق كقائد أعلى يدير القتال في ميداني العراق والشام أن يُثَقِّل كفة المسلمين في الشام بخالد لقهر جحافل الروم المجتمعة وأوكل قيادة الجيش بالعراق للمثنى بن حارثة. لقد كان القائد الفذ أبو بكر يعلم جيدًا متى يحتاج للقتال بجيوش متفرقة ومتى يحارب بجيش واحد، فقد رأى أن الأنسب لقتال الروم في هذه المرحلة هو جيش موحد وأن ينضووا[2] فيه تحت لواء خالد فأرسله على عشرة آلاف وكتب لقواده يقول: ''اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره.. فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه''.

(١) عبقرية خالد للعقاد.

(٢) انضوى تحت لوائه حارب تحت إمرته.

وأحرز المسلمون على الروم نصرًا ساحقًا باليرموك، ثم لبىّ أبو بكر نداء ربه[١] بعد أن أدى جُلّ ما عليه في نصره الإسلام وحفظه في الداخل والخارج ضاربًا أروع الأمثلة في الشجاعة والحزم وحسن التدبير، رحمه الله وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

اللهم صلِ على محمد ﷺ وارضَ اللهم عن أبي بكر ﷺ والصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) روى الطبراني بسند حسن والهيثمي برجال ثقات أنه توفي ليلة الثلاثاء لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

عمر بن الخطاب ﷺ

عمر بن الخطاب بن نُفَيل، القرشي العدوى. كنَّاه النبي ﷺ بأبي حفص[١]- وهو ولد الأسد- لشجاعته، كما لقبه النبي ﷺ بالفاروق لأنه فرَّق بين الحق والباطل، ولا يخفى على مسلم فضله فهو خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وأبي بكر ﷺ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو أول من جهر بالإسلام، وأقولها صادقًا إن تجسدت الشجاعةُ رجلاً لكان عمر بن الخطاب .

وإذا رجعنا لقول النبي ﷺ: ''خيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام''[٢] لعلمنا أن عمرًا جُبِلَ[٣] على صفات نبيلة فقد كان عمرُ من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية فكانت قريش تبعث به سفيرًا إذا دارت رحى الحرب بينها وبين القبائل ثم جاء الإسلام فقام بصقل هذه السجايا[٤] العظيمة وإبرزها في أزهى صورها وأضفى عليها حلاوة الإيمان التي تدفع صاحبها إلى بذل كل غال في سبيله بل وتجعله يستعذب[٥] أجلَّ التضحيات لما ينتظره من جميل الثواب. فما إن ذاق قلبُه حلاوةَ الإيمان حتى اتجه بكل جوارحه نحو الإسلام ينصره ويعزه ويدفع عن إخوانه فيه أي أذى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمرَ بن الخطاب ﷺ قال عندما أسلم: ''يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟'' قال: ''بلى والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم''، قال: قلتُ: ''ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ، فأخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، قال: فَنَظَرَتْ إليَّ قريش

---

(١) مناقب عمر لابن الجوزى.

(٢) رواه البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده والهندى في الكنز.

(٣) جُبلَ على: طُبِعَ على وفُطِرَ على.

(٤) مفردها سَجِيَّة: أي الطبيعة والخلق.

(٥) استعذب الشيء أي جعله عذبًا سائغًا.

وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمَّاني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ''[١].

وعن صهيب بن سنان ﷺ قال: ''لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن أغلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به''[٢]. وهكذا تحققت للإسلام العزة به واستجاب الله لنبيه ﷺ إذ قال: ''اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام''[٣].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: ''مازلنا أعزة منذ أسلم عمر''[٤]. وعنه ﷺ قال: ''ما كنا نقدر أن نصلى عنـــد الكعبة حتى أسلم عمر''[٥] . وعنه ﷺ أيضًا: ''كان إسلام عمر فتحًا، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى إلى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا''[٦].

لقد كان لعمر من القوة والهيبة والشجاعة ما كان كفيلاً بدفع الأذى عن نفسه، لكن نفسه أبت عليه أن يكون في منأى عما يلاقيه إخوانه المستضعفين فما إن أسلم حتى سعى لمجالدة الكافرين فبمجرد أن أسلم أرسل إلى جميل بن معمر الجمحى- وكان أنقل قريش للحديث- فأخبره بأمر إسلامه، فنادى جميل بأعلى صوته: ''ابن الخطاب قد صبأ!'' فقال عمر- وهو خلفه-: ''كذب، ولكني قد أسلمت''، فثاروا إليه فمازال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطلح[٧] عمر فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنّا ثلاث مائة رجل لقد

---

(١) حياة الصحابة للكندهلوى وتاريخ عمر لابن الجوزى والرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.

(٢) حياة الصحابة للكندهلوى وتاريخ عمر لابن الجوزى والرحيق المختوم للمباركفورى.

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمر والطبري عن ابن مسعود وأنس، وصححه ابن حبان، ورواه أحمد في مسنده والبيهقي في الدلائل والهندي في كنز العمال.

(٤) رواه البخاري في صحيحه.

(٥) الرحيق المختوم وحياة الصحابة.

(٦) رواه الطبراني في معجمه وابن سعد في الطبقات.

(٧) طلح: أعيا.

تركناها لكم أو تركتموها لنا"[(١)]. وظل يناضل في سبيل الله ونصرة رسوله ﷺ ويجاهد الكافرين حتى أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى يثرب وتبعه المسلمون خفية إلا عمر فقد جهر بها شجاعةً وقوةً .

فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "ما علمتُ أحدًا هاجر إلا متخفيًا إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لَّما همَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكَّب[(٢)] قوسه وانتضى في يده سهمًا واختصر عنزته[(٣)]، وأتى الكعبة– والملأ من قريش بفنائها– فطاف سبعًا، ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حِلَقهم واحدة واحدة فقال: شاهت الوجوه![(٤)] من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، وترمَّل زوجته! فليلقني وراء هذا الوادي فما تبعه منهم أحد"[(٥)].

ولازم النبي ﷺ في جميع مشاهده وأبلى أحسن البلاء ففي يوم أحد قال لأخيه زيد: خذ درعي يا أخي! أريد من الشهادة مثل الذي تريد، فتركاها جميعًا– وقاتلا حاسرين[(٦)]. ثم ثبت مع النبي ﷺ لما انكشف المسلمون وحلت بهم الهزيمة .

وشهد بعدها الخندق وبيعة الرضوان وفتح مكة وحنين وتبوك وخرج في عدد من السرايا وكان أميرًا على بعضها، وكان هو وأبو بكر نعم الوزيران للنبي ﷺ أيداه وناصراه ولما قبض الله تعالى نبيه ﷺ وقف يوم السقيفة بالبيعة لأبي بكر رضي الله عنه وكان نعم الناصح والمعين له في فترة خلافته حتى توفاه الله راضيًا مرضيًا بعد أن أثقل كاهل عمر بتبعة الخلافة وكان لأبي بكر ظنٌّ صادق وفراسة لا تخيب في اختياره لعمر فقد أصلح من بعده وأرسى قواعد العدل والمساواة حتى صلحت أحوال البلاد والعباد.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام وصفة الصفوة لابن الجوزي.
(٢) أدخله في منكبه.
(٣) العنزه: عصا لها رش كالرمح الصغير.
(٤) دعاء بالذم، وشاهت الوجوه أي قَبُحَتْ.
(٥) رواه ابن عساكر في تاريخه والهندي في الكنز والكندهلوى في حياة الصحابة.
(٦) رواه الطبراني والهيثمى وابن سعد وأبو نعيم.

أما على الصعيد الخارجي فقد آلت إليه الخلافة في ظل تبعات جسام فقد اشتدت المواجهة المسلحة مع الفرس من ناحية ومع الروم من الناحية الأخرى فكأنما كان بين شقي الرحى، لكنه بحنكته ودرايته استطاع أن يقهر هاتين الإمبراطورتين ويرسم خريطة جديدة للأمة الإسلامية في ظل ثقافة وحضارة وعلم وعدل ورخاء.

ولم يكن عمر حديث عهد بأمور الحرب والقتال، ولم يكن يعوزه شيء من مقومات الساسة وخصائص القيادة فقد كان من أولئك القادة الذين تربُّوا في مدرسة النبي محمد ﷺ فقد كان النبيُّ ﷺ يعهد إليه بعمليات عسكرية رئيسية في البعوث والسريا كما تعلَّم على يديه بالتجربة العملية كيف يكون القائد، ولعل أبرز ما يوضح مقدرة عمر العسكرية شهادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قال في مرض وفاته: "وددتُ أني كنت إذا وليت خالد بن الوليد إلى الشام، ووجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله".

وكان عمر قائدًا فذًا لما جمع من مقومات الصلابة وصفات التريث وقوة الملاحظة وشدة الفراسة مع ما حباه الله به من الحزم وقوة الإيمان، وكانت مقولته المشهورة دائمًا لقادته: "الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف"[(١)]، وكانت هذه الصفات دائمًا ما تجعله يتابع المعارك وكأنما يراها بعيني رأسه إضافة إلى ما حباه الله به من مكاشفات وإلهام تحسب كلها كرامات له نالها بإيمانه ودقة محاسبته لنفسه، ومنها ما اشتهر كقصة سارية ابن زنيم الكناني[(٢)] الذي كان بأرض العراق فسُمع عمر في صلاة الجمعة وهو يصيح: "يا سارية الجبل الجبل ومن استرعى الذئب ظلم"، فسمع سارية نداءه عبر مئات من الأميال تفصل ما بين المدينة والعراق، وانحاز بالجيش إلى الجبل وجعله في ظهره فكان النصر[(٣)].

---

(١) الإحجام والتوقف.

(٢) صحابي شاعر وفاتح كبير كان لصًا في الجاهلية وكان يسابق الخيل عدوًا لما أسلم سيره عمر لفتح أصبهان وتوفي عام ٣٠هـ.

(٣) سَيَّر عمر قائده سارية بن زنيم على رأس جيش لفتح فساو داربجرد فلما وصلها حاصر الفرس فحشدوا له وكان موقعه في صحراء مفتوحه وكان من ورائه جبل إذا تحصنوا به لم يستطيع الفرس أن يأتوهم إلا من جانب واحد =

ويقول الأستاذ السيد فرج: كان عمر كأبي بكر رضي الله عنهما يرسم الاستراتيجية العامة ويدع لقواده حرية التصرف في الخطط التكتيكية والتفاصيل وفق ما يستجد لهم من أحداث، وهكذا لم تكن قيادته العليا مركزية بصورة تعرقل العمل فقد كتب يومًا لأبي عبيدة وهو على جبهة الشام: "أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتوك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا فابعث إليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وإن طلبوا الصلح فصالحهم".

وهذا يوضح بعد نظره في سبقه لعصره في استراتيجيات الحروب، وكانت المدينة مركزًا للقيادة العامة التي يشغلها عمر ﷺ يدبر منها العمليات في ساحات القتال، وكان قد أسند قيادة ساحة العراق لسعد بن أبي وقاص، وبلاد فارس للنعمان بن مقرن والشام لأبي عبيده بن الجراح، وفلسطين ومصر لعمرو بن العاص وكانت كل ساحة مقسمة إلى جبهات وكل جبهة تنقسم إلى مناطق وكل جبهة ومنطقة لها قائد مسئول عن عملياتها الحربية كان عمر يحدد الخطط الاستراتيجية لها ويعهد بتنفيذ واجباتها إلى قائدها العام الذي يضع هو بدوره الخطط التكتيكية التي يسير عليها ويقوم كذلك بتعيين قادة المناطق والجبهات، وكان عمر يتبادل مع قادته الرسائل عبر جسر مفتوح دون انقطاع فكان على إلمام تام بأدق التفاصيل، كما كان عمر يضع استراتيجية عليا للفتوح الإسلامية بأن تخلص أولاً البلاد التي يسكنها العرب لهم ثم تكون هذه البلاد قاعدة لفتح البلاد المجاورة للجزيرة العربية.

ويضيف الأستاذ السيد فرج قائلاً: "كان عمر يشتهر كذلك بصفة الصلابة والشدة وهو ما يرجع إليه الفضل في إحراز انتصارات مبهرة، ونفس الشيء قاله المارشال "ويفل" أحد قادة الحرب العالمية الثانية: "إذا بحثنا في أسباب إخفاق عدد كبير من القادة فإننا سنجد في مقدمة هذه الأسباب الافتقار إلى الصلابة وهي صفة تعني

= فلما أسندوا ظهورهم إليه لم يستطع الفرس أن يطوقوهم فانتصر المسلمون، وأورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة أئمة الحديث كالخطيب البغدادي والطبري والبيهقي وأبو نعيم وابن مردوية وصحح روايته الشيخ الألباني.

القدرة على تحمل مسئوليات الحرب ومفاجآتها"[١].

وظهرت شجاعة عمر واضحة جلية عندما علم أن الفرس وحَّدوا صفوفهم وحشدوا قواتهم ليوم القادسية فعزم على الخروج لقتالهم بنفسه فنادى في المهاجرين والأنصار وخرج في غرة المحرم سنة أربع عشرة (٦٣٥م) حتى أتى صرارًا[٢] وقدم طلحة بن عبيد الله حتى يأتي الأعوص[٣]، وسمي لميمنته عبد الرحمن بن عوف، ولميسرته الزبير بن العوام، واستخلف عليًّا على المدينة، لكن عبد الرحمن بن عوف نهاه عن الخروج بنفسه وقال: "ما فديت أحدًا بأبي وأمي! بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده.. أقم وأبعث جندًا، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تهزم في أنف الأمر[٤]، خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدًا"[٥].

وهكذا كانت المشورة والنصح الصادق من جانب المسلمين وعدم الانفراد بالرأي من جانب عمر وطالما كان ينصح قواده فيقول "اسمعوا من أصحاب النبي ﷺ وأشركوهم في الأمر ولا تجتهدوا مسرعين حتى تتبيَّنوا" وكان يطبق هذا الأمر على نفسه فلا يقطع أمرًا إلا بمشورة أصحابه، كما كانت شجاعته شجاعة الرجل المسئول يحكمها العقل فيكبح جماحها فلا تصل إلى حد التهور، وأشار عليه أصحابه بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للقادسية، فاستحسن عمر الرأي ورأى فيه الرجل الذي لا يصلح لهذا المقام إلا هو، وبعث إليه برسالة يرسم له فيها استراتيجية القتال ويزوده بخبرته الحربية.

ويقول الأستاذ محمد فرج: وتعد هذه الرسالة من أعظم الرسائل الحربية على مر العصور؛ فهي تدل على عبقرية حربية ليس لها مثيل، قال فيها: "إني آمرك ومن معك

---

(١) محمد بن عبد الله (ص): توجيهاته وأوامره في ساحات القتال.

(٢) بئر قرب المدينة تبعد عنها ثلاثة أميال على طريق العراق.

(٣) موضع شرقي المدينة على بعد أميال يسيرة.

(٤) أنف الأمر: أول الأمر.

(٥) رواه الطبراني في معجمه والكندهلوى في حياة الصحابة.

من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن التقوى أفضل العُدَّة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليكم من عدوكم وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عُدَّتنا كعدتهم فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا من القوة وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم'' .

وهذه أول نصيحة من القائد فهو يطلب من جنوده تقوى الله فهي تزيد الإيمان وتثبت العقيدة وتمنح النصر الذي وعد الله به المجاهدين وهو يرجع بالنصر إلى مُنْزِل النصر الله تعالى الذي يؤيد به عباده المتقين ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وهذا كله يحرك الروح المعنوية للجيش ويقويها ويصلها بحبل ممدود بين الرب الجليل وعباده الذين يستنصروه فيكون الجندي على ثقة أن الله معه ينصره ويقويه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠] على عكس الجندي البعيد عن ربه الذي يعلم أن الله خاذله.

فالحقيقة الثابتة دائمًا أن المسلمين لم يُنصروا يومًا بقوة أو عدد وإنما يُنصرون بمدد الله تعالى.

وقال عمر: ''ترَّفق بالمسلمين في سيرهم ولا تُجَشِّمهم(١) سيرًا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع(٢) وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمُّون(٣) أسلحتهم وأمتعتهم'' .

(١) جَشَّمه: أي كبده مشقة.
(٢) الكراع: الخيل.
(٣) رَمَّهُ: أصلحه.

لقد أعطى عمر الدستور المناسب لتحرك الجيش وأمر القائد أن يترفق بهم فلا يكبّدهم مشاقًا تضعف قوتهم وهذا ما تلتزم به القيادات الحربية اليوم إذ تستخدم المركبات وناقلات الجند المسيرة برًا وبحرًا وجوًا، التي تكفل لهم الانتقال إلى ميادين القتال في أحسن حالاتهم البدنية والنفسية التي تؤهلهم لخوض المعارك، كما أمر باتخاذ راحة أسبوعية لجنده وهو الأمر الذي يُعمل به على مستوى جميع الجيوش النظامية في العالم.

ثم قال: "نحِ[1] منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزح[2] أحد من أهلها شيئًا، فإن لها حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح"، فهو يأمر بعدم التعرض لأهل الذمة أو الصلح حتى لا تُفتح على المسلمين جبهات جديدة وحتى يكون المقاتل المسلم قدوة حسنة لا يظلم ولا يخون فيرى الناس حسن فعاله فيكون خير داعية للإسلام فينتصر بأخلاقه ودينه قبل سيفه، فالغرض من حروبهم نشر الإسلام كما أمرهم الله ودعا إليه رسوله ﷺ.

كما أمر عمر بجعل أماكن تجمع جنده في منأى عن قرى أهل الذمة والصلح وأمره بعدم الاختلاط بهم ليسد أي ذريعة لظلم أو جور. وقال: "وإذا وطأت أرض العدو، فاذك[3] العيون بينك وبينهم ولا يخفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والناس عين عليك وليس عينًا لك، وأكثرْ الطلائع عند دنوك من أرض العدو وبث السرايا بينك وبينهم وتنقَ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوًا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر عليه ولا تحصى بها أحدًا هوى ولا تبعثن طليعة ولا سرية

---

(١) ابعد وأقصى.
(٢) رزح البعير ضعف وثقل بحمله.
(٣) أنشر.

في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية". لقد أوضح عمر أهمية استكشاف أمر العدو، وأمر قائده باتخاذ العيون الصادقة المخلصة فيعرف كل شيء عن عدوه وهذا ما نراه في جميع الحروب الحديثة حيث تُولِى القياداتُ، عمليةَ الاستطلاع أهميةً كبرى وتلتزم بها في كل تحرك.

كما أمر عمر بضرورة تأمين وسائل الترابط بين قواته باستخدام الفرسان الأشداء والخيول السوابق فيحافظ على وسائل الاتصال والإمداد وهذا أيضًا ما تعرفه الحروب الحديثة إذ أن تدمير المرافق وقطع خطوط المواصلات والإمدادات كفيلة بتدمير الجيش، كما أمر بعدم إرسال السرايا في الأماكن غير الخاضعة للدراسة الجيدة وذلك لأنهم يحاربون عدوهم في أرضه وهم قادمون عليه لذا طلب منه تأمين خطوط سير جيشه والبقاء في أرض العدو أكبر مدة ممكنة حتى تزيد خبرتهم بها، وقال: "فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك[1] وطلائعك وسراياك واجمع مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرَّف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذكِ أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك"، ويَبرز في هذه الفقرة فهمه العميق لمفهوم الحرب حيث يجب على الجيش المحارب أن ينسق بين وحداته لإعداد ضربة شاملة للعدو، وأمر ألا يحاربوا حتى يبدأ عدوهم بالعدوان فيقيم المسلمون الحُجة عليهم ويكونوا قد خيروهم بين الإسلام والقتال، كما أمر بضرورة الاهتمام بفرض الحراسة حول معسكرات المسلمين وخاصة أثناء الليل[2]..

وهكذا وضع هذا الرجل العظيم دستورًا للحرب يصلح مع اختلاف الزمان وتطور العُدد والتجهيزات.

وخاض القائد الفذ سعد المعركة وانتصر بالمسلمين نصرًا مؤزرًا وكان ذلك في

(١) ما بعد من جيشك كالطلائع ونحوه.
(٢) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

أول جمادى الأولى سنة ستة عشر للهجرة (٣١ مايو ٦٣٧م) ثم طاردهم جيش المسلمين ففتحوا المدائن وجلولاء في جمادى الأولى سنة ستة عشر للهجرة، ثم حلوان سنة تسعة عشر للهجرة (٦٤٠م).

وذكر الطبري في تاريخه أن القعقاع بن عمرو أدرك خاصة كسرى وهم يفرون بأمتعته فقاتلهم وغنم منهم أحد عشر سيفًا ودروعًا كانت خاصة بكسرى منها سيفه وسيف هرقل ودرعه فقال سعد له: اختر أحدها فاختار سيف هرقل ودرع بهرام ووزعت بقيتها على الكتيبة الخرساء التي كان يقودها إلا سيف كسرى والنعمان لأن العرب كانت تعرفهما فأرسلهما إلى أمير المؤمنين فلما رأى عمر خمس الغنائم معها سيف كسرى ومنطقته وزبر جده وكنوزًا كثيرة ملأت المسجد قال: إن قومًا أدوا هذا لذوو أمانة، فقال عليٌّ: إنك عففت فعفت الرعية ولورتعت لرتعت. ثم قال عمر: يا سراقة قم فالبس وأنجزه ما وعده به الرسول ﷺ حين كتب له عهدًا عند هجرته بسواري كسرى.

وكانت آخر مواجهات المسلمين مع الفرس في نهاوند حيث حشدوا للمسلمين مائة وتسعين ألفًا وتجهزوا لقتال المسلمين حتى أصبح وجود المسلمين في بلاد العراق على خطر، فلما علم عمر بن الخطاب ﷺ عَزَمَ على الخروج لقتالهم بنفسه في شجاعة وعزم، وجمع المسلمين وقال لهم: "هذا يوم له ما بعده، وقد هممتُ أن أسير فيمن قبلي ومن قدرتُ عليه فأنزل منزلاً وسطًا بين هذين المصرين ثم استنفرْهم وأكون لهم ردءًا حتى يفتح الله عليهم"، فشق ذلك على الصحابة والتمسوا منه البقاء بالمدينة ليرعى شئون الخلافة ويدبر أمر الحرب، فوقف على رأيهم واختار لهذا الأمر النعمان ابن مقرن ﷺ وبعث إليه برسالة جامعة لمبادئ الحرب وفنونه فقال: "من عبد الله عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو- أما بعد- فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي فسر بأمر الله وبعونه ونصره، فمن معك من المسلمين لا توطئهم

وعرًا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة[1] فإن رجل من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار.. فإذا اجتمعت إليك جندك فسرْ إلى الفيروزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله".

وهكذا يوصى عمرُ أميره على الجيش بأن يقيم فيهم حقوقهم ولا يظلمهم ولا يقحمهم موارد الخطر لأن اهتمام القائد بجنده من أهم عوامل النصر لأنه يبث الثقة بين الجند والقادة، كما أوصاهم بالاستعانة بالله وطلب النصر منه وحده، وكدأبه دائمًا كان موفّق الاختيار وكان النعمان نعم الرجل فنصر الله جيش المسلمين فدحروا الفرس ولم تقم لهم بعدها قائمة .

وهكذا تحققت لجيوش عمر انتصارات متتالية بفضل حسن قيادته وعبقريته الحربية ففتح ميسان ودستميسان[2]، وكانت وقعة الجابية بالأهواز على يد أبي موسى الأشعري، وفى سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢م) كانت أرجان بالأهواز وأميرها المغيرة بن شعبة، وفى سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣م) فتح اصطخر وهمذان، ثم فتح دينور والسيروان والصيمرة ومهرجان قذق وماه، ثم أصبهان وأميرها عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ثم فتح قزوين[3] والديلم وجيلا والطيلسان وزنجان وأميرها البراء بن عازب ﷺ، ثم واج الروز والري وقومس وجرجان وطبرستان[4] ودبناوند ثم أذربيجان وأميرها بكير بن عبد الله، ثم فتح الباب بالقوقاز وموقان تفليس وجبال اللان وأميرها سراقة بن عمرو[5]. (انظر خريطة رقم (٥))

---

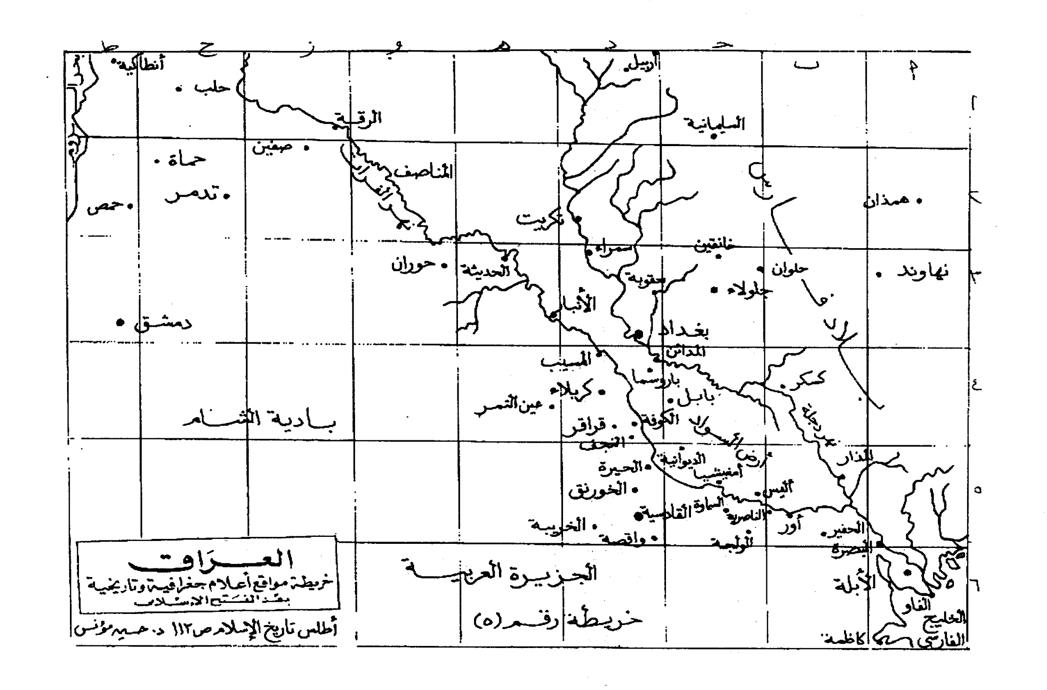
(١) غيضة: موضع به شجر كثيف ملتف.

(٢) مدينة بين واسط والبصرة.

(٣) قزوين: مدينة مشهورة قرب الري. أول من استحدثها سابور وكان بها حصنٌ مشهورة.

(٤) طبرستان: مملكة قديمة كثيرة الحصون منيعة الأودية كان ملوكهم يعرف الواحد منهم أصبهبذ كما كان ملك الفرس يدعى كسرى. (معجم البلدان ٢٤٩/١)

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري.


العراق
خريطة مواقع أعلام جغرافية وتاريخية
بعد الفتح الإسلامي
أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٢ د. حسين مؤنس
خريطة رقم (٥)
الجزيرة العربية
بادية الشام
أنطاكية
حلب
الرقة
صفين
حماة
تدمر
حمص
دمشق
المناصف
حوران
الحديثة
تكريت
سمراء
الأنبار
بغداد
المدائن
خانقين
جلولاء
حلوان
نهاوند
همذان
السليمانية
أربيل
المسيب
كربلاء
عين التمر
بابل
قراقر
الكوفة
النجف
الحيرة
الخورنق
القادسية
الخويبة
واقصة
الديوانية
أمغيشيا
أليس
الناصرية
أور
الولجة
المذار
كسكر
الحفير
البصرة
الأبلة
الفاو
كاظمة
الخليج الفارسي

أما على ساحة الشام فقد تحقق للمسلمين في عهده انتصارات مبهرة فما إن تولى الخلافة في أعقاب اليرموك حتى أمَّر أبا عبيده فبعث إليه أبو عبيدة يسأله ماذا بعد اليرموك أيبدأ بدمشق بعد وصول مدد الروم إليها أم فِحْل فأرسل إليه عمر يأمره أن يبدأ بدمشق لأنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فِحْل بخيل تشغلهم فإذا فتح دمشق سار إليهم بفحل ليفتحها ثم يسير هو وخالد إلى حمص بعدها.

وهنا تتجلى عبقرية عمر العسكرية حيث يبدأ بالقوى الكبرى أولاً ليتفرغ إلى غيرها وهو من مبادئ الحرب المعروفة، وبالفعل فُتحت دمشق في رجب سنة أربع عشرة من الهجرة (٦٣٥م) وتلاها فتح فحْل وحمص، ثم بيت المقدس صلحًا سنة ست عشرة (٦٣٧م)، وقيسارية سنة تسع عشرة (٦٤٠م) وكان أميرها معاوية بن أبي سفيان ﷺ، ثم اتجه لفتح مصر فوجَّه إليها عمرو بن العاص ففتحها في المحرم سنة عشرين (٢٢ ديسمبر ٦٤٠م)، ثم فتح عمر بن الخطاب أنطاكية وملطيه في السنة الواحدة والعشرين (٦٤١م) ثم فتح عسقلان صلحًا وعمورية ببلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣م)، ثم غزا عمرو بن العاص أطرابلس.

وقُتل عمر ﷺ وهو يصلي بالناس فجر يوم الأربعاء لثلاث أو أربع بقين من ذي الحجة بعد أن ازدانت الخلافة بحكمه طيلة عشر سنين عدلاً واستقرارًا في الداخل، ونصرًا وفتحًا في الخارج، ومع اتساع رقعة دولته كان عمر حاكمًا عظيمًا لن يَجُد الزمان بمثله فلقد استطاع أن يسوس شعوبًا متنافرة بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب وبين الفرس والروم والقبط.

كما ظهرت هذه العبقرية في إقامة نظام في الحكم غير مسبوق، ورقابته الصارمة لولاته وحسن انتقائهم واختيارهم وهي مَلكة أدركها بحصافة[1] رأيه وصدق ظنه فكان يقول دومًا: "من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينيه"، فانتدب القادة ورؤساء الجيوش وأشرف على ميادين قتال متعددة.

---

(١) الحصافة: استكمال العقل وسداد الرأي

وقال عنه نيكلسون[1] المؤرخ الإنجليزي في كتابه "تاريخ العرب الأدبي": "كان عمر ورعًا متقشفًا، لا يخشى في القيام بواجبه لومةَ لائم، ولا يحابي أحدًا فيه، متحمسًا للحق إلى حد الصلابة رغم عطفه على الضعفاء، كما كان قاضيًا شديد النزاهة نحو غيره وبخاصة على نفسه..

ولا غرو[2] فقد ولد حاكمًا بطبيعته ورجلاً في كل خطوة من خطوات حياته"[3]. فقد وهبه الله تعالى مواصفات القائد الفذ بتكوينه الفطري الذي ورثه عن أبوه الخطاب وجده نفيل وعن جده لأمه هشام بن المغيرة قائد قريش في كل حروبها، كما صقلها بالممارسة الفعلية وبالتوجيه النظري والعملي الذي تلقاه في مدرسة رسول الله ﷺ فازدادت خبراته الحربية وكان أبرز مستشاري مجلس الحرب في عهد الخليفة أبي بكر ﷺ.

لقد كان عمر بارعًا في حشد الجيوش ودفعها إلى ساحات الحروب، ويجيد تطبيق مبادئ الحرب وتحقيق مبدأ الكفاءة في حشد القوات وتدريبها ويجيد تقصى تحركات العدو واستطلاع أعداده ومواقع تجمعاته. لقد أجاد إدارة المعارك بفطرته وموهبته وما اكتسبه بالتعلم من رسول الله ﷺ وما استقاه من تعاليم مستمدة في روحها من القرآن الكريم فقد كان الصحابة أكثر البشر فهمًا لمعاني كتاب الله وأحكامه وأقدر على تنفيذ شرائعه فكان النصر حليفًا لهم.

ويقول اللواء أحمد كمال الطوبجى في كتابه "لن تلق مثل عمر": "لقد استطاع عمر أن ينفذ الاستراتيجية التي رسمها للفتوح الإسلامية وهو أن يحقق الوحدة السياسية لبلاد العرب ويحافظ على قوة الإسلام بها فأجلى اليهود إلى الشام والنصارى إلى العراق بعد أن عوضهم عن ممتلكاتهم ولم يبق في شبه الجزيرة العربية سوى الإسلام، وبذلك استطاع أن يوازن بين الروح العربية والروح الإسلامية، وأرسى دعائم الوحدة العربية

---

(1) Nekleson.

(٢) لا غرو: لا عجب.

(٣) لن تلق مثل عمر لأحمد كمال الطوبجي نقلاً عن المصدر المشار إليه في النص.

الإسلامية داخل جزيرة العرب والتي استخدمها بعد ذلك كركيزة لما بعدها من فتوح، فقد كان الجيش الإسلامي- نظرًا لفتوحاته وتوسعاته- في حاجة لإنشاء قواعد عسكرية ثابتة لتدريب الجند وإقامتهم فأنشأ الجابية وكانت أول قاعدة عسكرية للإسلام ثم أنشأ الكوفة والبصرة كقاعدتين أماميتين لانطلاق جيوش الفتح الإسلامي نحو الشرق، والموصل للانطلاق إلى أذربيجان، ثم أصبحت مدن فارس قواعد أمامية للانطلاق إلى تخوم الصين شرقًا والسند جنوبًا وسيبيريا شمالاً، ومدن الشام كقاعدة للانطلاق نحو الغرب، والفسطاط بعد فتح مصر كقاعدة للانطلاق إلى إفريقيا.

وخصص عمر في كل قاعدة أربعمائة فارس مقاتل احتياطي تحت الاستدعاء لأي موقف طارئ على أن يبقى فيها مدة لا تزيد عن أربعة أشهر كي يعود ذويه، كما كان المتطوعين للجهاد يتوافدون على الجيش عند الحاجة دونما ضغط أو إكراه كما زود كل قاعدة باحتياجاتها الإدارية والمعدات كما أقام نظام تأمين اجتماعي للجنود وعائلاتهم وتشدد في مراقبة قادتهم لضمان نيلهم لحقوقهم فصار الجندي يبذل كل جهده[١].

لقد كان عمر بحق يمتلك قدرة عسكرية غير معهودة من قبل ولا مسبوقة وقيادة فذة لا يقوم لها ندّ أو نظير حتى أن رستم قائد الفرس الشهير قال قولته المشهورة: "إن عمر هو هازمي في الميدان" وذلك رغم أنه لم يلتق به ولم يره قط، لقد كان عمر قائدًا داهية وعبقرية فذة في مجال الحروب، وسياسيًا بارعًا في مجال السلم، وأصدق وصف له هو قول النبي ﷺ: "لم أرعبقريًا يفرى فريه[٢] "[٣].

(١) لن تلق مثل عمر لأحمد كمال الطوبجي.
(٢) يفرى فريه: يحذو حذوه.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

علي بن أبي طالب ﷺ

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشي الهاشمي. ابن عم النبي ﷺ وصهره على ابنته فاطمة وأبو السبطين الحسن والحسين وهو والد جميع ذرية النبي ﷺ إلى يوم القيامة، وهو أول من أسلم من الصبيان وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخفاء الراشدين وأحد الستة أصحاب الشورى.

شخصية متميزة اتسمت بجميع مقومات البطولة ولا عجب في ذلك فقد تولته عناية الله منذ مولده فقد تربى في بيت النبوة ونشأ في كنف رسول الله ﷺ فرضع الإيمان من منابعه ودرج على لا إله إلا الله. ويقول ابن إسحاق: ''كان مما أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام وهكذا رضي الله تعالى لعلي أن يولد في الإسلام قبل الإسلام، وأن يربى في حجر رسول النبوة قبل النبوة فكان ذلك حاجزًا عن الجاهلية وأباطيلها وكان هذا موضع فخره واعتزازه فكان يقول: وضعني رسول الله ﷺ في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه ويمسني جسده، كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه.. وكنت أتبعه إتباع الفصيل[1] إثر أمه، يرفع لي كل يوم من أخلاقه عَلَمًا ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الهدى والرسالة وأشم ريح النبوة''[2].

يقول العقاد: ''لقد كان طفلاً مبكرَ الإنماء سابقًا لأنداده في الفهم والقدرة، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئًا من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة''[3]. وأسلم عليٌّ على الأرجح وعمره عشر

---

(١) الفصيل: ولد الناقة.
(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق.
(٣) عبقرية الإمام للعقاد.

سنين، ولازم الرسولَ ﷺ ولم يفارقه في سلم أو حرب، وفي حل أو سفر، ولما قُبض ﷺ ولي غسله وواراه قبره الشريف.

لقد عُرف شجاعًا قويًا منذ نعومة أظفاره وظهرت أول مواقفه يوم أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة بينا كان عليٌّ فتىً صغيرًا واتفقت كلمة قريش على قتل الرسول ﷺ-فأخبره الوحي بعزم قريش وأمره بالهجرة ليلاً وألا يبيت في فراشه فوقع اختياره ﷺ على ربيبه عليّ بن أبي طالب فأمره أن يبيت في فراشه ويتسجي[1] ببرده الحضرمي الأخضر وكانت رجالات قريش تحيط ببيت النبي ﷺ إحاطة السوار بالمعصم، فخرج النبي ﷺ بعد أن طمس الله أبصارهم فأصبحوا ليجدوا عليًا في الفراش رابطَ الجأش وكانت هذه أولى بطولاته في الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ ببصيرته النافذة يرى في عليٍّ الشجاعة والقوة إلى جانب ما جُبل عليه من الفراسة والخبرة وحسن التصرف، لذا كان رسول الله ﷺ يسند إليه بعض المهام الاستطلاعية حيث تتوافر فيه المقومات التي تهيأه لهذا العمل من الشجاعة والجرأة وبعد النظر وخفة الحركة والقدرة على المناورة والتصرف السليم واليقظة، ومن هذه المهام أنه ﷺ أرسله قبل غزوة بدر يستطلع تحركات قريش فانطلق هو والزبير وسعد بن أبي وقاص فأدركا أسيرين من قريش قام النبي ﷺ باستجوابهما فعرف عدد الإبل التي تُنحر في معسكر المشركين فقدر عددهم بدقّة.

أما في القتال فكان عليٌّ شخصية متميزة ليس لها مثيل في ميادين الحرب والطعان وكان سيفًا بتَّارًا يمزق أعداء الله تمزيقًا فما صارع أحدًا إلا صرعه حتى أصبح اسمه ينتصر قبل سيفه، وكان قويًا مكين البنيان عريض المنكبين لهما مشاش- وهو رأس العظم- كمشاش السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجًا.

قال عنه أحمد بن حنبل ﷺ: "لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلى من الشجاعة والفروسية".

---

(١) تَسَجَّى: تدثَّر وتغطى.

ويقول العقاد في ذلك: ''لقد كانت ''أداب الفروسية'' هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة، وهى تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة هي ''النخوة'' التي كانت طبعًا في عليّ فُطِرَ عليها وأدبًا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران لأن الغلبة في الشجاع أنفة تنزهه عن كل ما يخجله ويشينه ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلمًا وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية''[١].

لقد كان مقدامًا لا يتأخر عن الصف الأول فلما حذره أحد أصحابه ليتراجع لأن العدو يترصده، فقال: ''أبالموت تخوفوني؟ والله ما أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت عليّ''.

وقد شارك مع رسول الله ﷺ معاركه كلها فشهد بدرًا ودفع إليه رسول الله ﷺ برايته فيها، وتصدى هو وصاحبيه حمزة وعبيده بن الحارث ﷺ لثلاثة من صناديد قريش وهم: عتبة وشيبة والوليد بن عقبة الذين خرجوا للبراز يختالون فلم يمهل عليٌّ وحمزة صاحبيهما حتى قتلاهما واختلف عبيدة مع صاحبه فأصاب كل منهما الآخر، ثم حمل عليٌّ وحمزة على الكافر فذففاه[٢] واحتملا عبيدة مصابًا، واحتدم القتال وتساقطت هامات الكافرين بسيف عليٌّ التياه مما أثار عليه حنق الكافرين فكان على رأس المستهدفين يوم أحد.

فقد دعا جبيربن مطعم قبيل أحد عبده الحبشي وحشي فقال له: إن قتلت محمدًا فأنت حر، وإن قتلت عليًّا فأنت حر، وإن قتلت حمزة فأنت حر. فقال وحشي: أما محمد فسيمنعه أصحابه، وأما عليٌّ فرجل حذر كثير الالتفاف في الحرب، ولكني سأقتل حمزة. ودار القتال يوم أحد قويًا عنيفًا وقد تجلت بطولته في بدايتها عندما خرج أبو سعيد بن أبي طلحه العبدرى[٣] حامل لواء المشركين وكان أحد المغاوير المعروفين

---

(١) عبقرية الإمام للعقاد.
(٢) ذفَّفَ الجريح: أي أجهز عليه.
(٣) نسبة لبنى عبد الدار قومه.

بالشجاعة والقوة فنادى: "أنا قاصمُ من يبارزني! يا أصحاب محمد! زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار كذبتم واللات، لو تعلمون ذلك حقًا لخرج إليَّ بعضكم"، فخرج إليه عليٌّ فبارزه و لم يمهله إذ صرعه في الحال وأطاح برأسه.

وانطلق فرسان الإسلام يحصدون رقاب أعدائهم ثم انقلب ميزان المعركة بمخالفة أوامر النبي فانهزم المسلمون وفروا منكسرين وأُصيب النبي ﷺ وكاد يُقتل فهرع إليه عليٌّ في خفة الطير فكان أقرب الناس منه يقاتل عنه أشد القتال حتى أصابته ست عشرة ضربة وطعنة، ثم أخذ النبي ﷺ بين يديه فداوى جراحه وانحاز بالنبي ﷺ إلى شعب الجبل حتى أمَّنوه.

ثم أرسله الرسول ﷺ في عملية استطلاعية جديدة لينظر القومَ حال انصرافهم، وقال ﷺ: "اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوا لأسيرن إليهم فيها ثم لأنا جزنهم"، وخرج عليٌّ فوجدهم قد جنَّبوا الخيل وركبوا الإبل فعلم الرسول ﷺ أنهم لا يريدون كيدًا[1].

وقال ابن إسحاق: لما انتهى رسول الله ﷺ من القتال ناول سيفه لابنته فاطمة فقال: "اغسلي عن هذا السيف دمه يا بنية فوالله لقد صدقني اليوم، وناولها عليٌّ سيفه فقال: وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم، فقال ﷺ: "لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي[2]. وأنشد عليٌّ:

أفاطمُ! هاك السـيفُ غـيرُ ذمـيم	**فلسـتُ برعديـد[3] ولا بلئـيمِ**
لعمري لقد قاتلتُ في حـبِّ أحمـد	**وطاعـةِ رب بالعبـادِ رحـيمِ**
وسيفي بكفـي كالشـهابِ أهـزُّه	**أجذبـه مـن عـاتق وصـميمِ**

(١) السيرة النبوية لابن هشام وسيرة ابن إسحاق.
(٢) ابن إسحاق في السير.
(٣) رعديد: جبان.

فمازلت حتى فـضَّ ربي جمـوعهم وحتى شفينا نفـس كـل حلـيمِ

ويوم الخندق إذ خرج المشركون بحدهم وحديدهم في عدد هائل بلغ عشرة آلاف مقاتل وقد عرف جمعهم باسم الأحزاب لدخول قبائل مناوئة في حلفهم ضد المسلمين وكانت أعدادهم على التفصيل: أربعة آلاف من قريش تحت لواء عثمان بن طلحة، وألف وثمانمائة من الفرسان وراكبي الجمال تحت لواء أبي سفيان بن حرب، وسبعمائة من بنى سليم تحت قيادة سفيان بن شمس، وألف ومائتين من بنى أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد، وألف من فزارة تحت قيادة عيينة بن حصن، وأربعمائة من أشجع تحت قيادة مسعود بن دخيلة، وأربعمائة من بنى مرة تحت قيادة الحرث بن عوف، وكانت القيادة العامة لأبى سفيان بن الحرب، وحشد النبي ﷺ ثلاثة آلاف ودفع لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولاء الأنصار لسعد بن عبادة وجعل على المدينة ثلاثمائة محارب يحرسونها وأمر بحفر خندقًا حول المدينة وظل النبي ﷺ وأصحابه خلف الخندق يمنعون عنه المشركون بالنبل حتى أعجزوهم عن عبوره بعد أن بلغ من المسلمين الجهد. (أنظر خريطة رقم (٦)) .

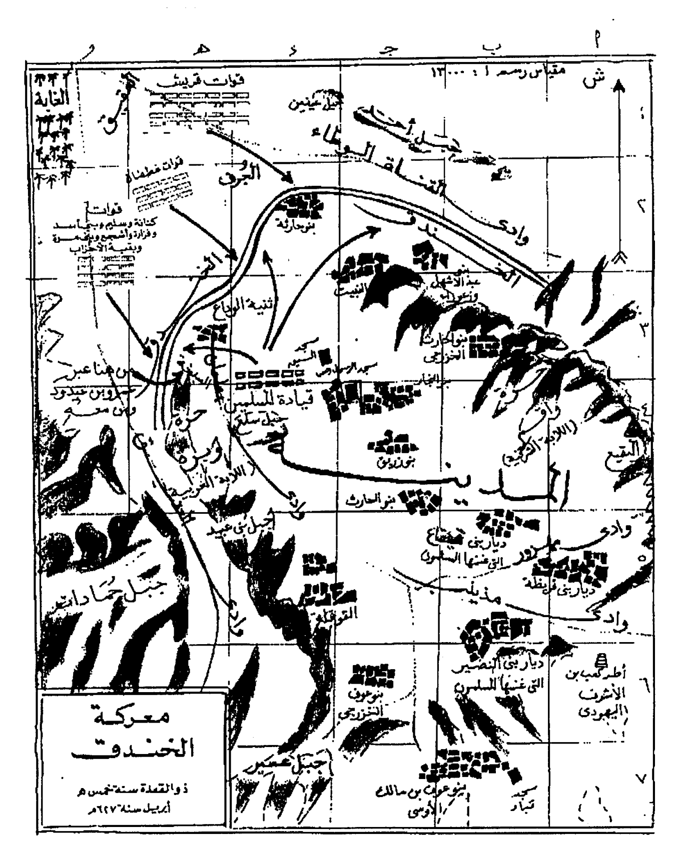
وأثناء ذلك خرج بعض فرسان العرب منهم عمرو بن عبد وُدّ[١] وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب المخزومى وضرار بن الخطاب وكانوا قد تهيأوا للقتال ولبسوا دروعهم وخرجوا على خيلهم ومروا بمنازل كنانة ثم أقبلوا حتى وقفوا على الخندق[٢]، فلما رأوه قالوا: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!" ثم أتوا مكانًا من الخندق ضيقًا فضربوا خيلهم فاقتحمت منه وجالت في السبخة بين الخدق وسلع فلما رآهم المسلمون تصدى لهم على بن أبى طالب في نفر من المسلمين وأقلت الفوارس تعنق[٣] نحوهم فأحاطوا بهم .

---

(١) كان عمرو بن عبد وُدّ من أشجع فرسان العرب وكانوا يعدونه بألف فارس وكانت الجزيرة العربية كلها تعرفه وتهابه قاتل المسلمين يوم بدر وجُرح فلم يشهد أحد فخرج يوم الخندق مُعَلِّمًا ليُرى مشهده.

(٢) بلغ طول الخندق نحو ٣٠٠٠ مترًا وعرضه (٧- ١٠) مترًا وعمقه (٣- ٥) مترًا، وارتفاع الساتر الترابي على ضفة المدينة ٢ متر، وقد استمرت مدة الحفر ٦ أيام واشترك فيه ١٥٠٠ رجلاً.

(٣) عنقت الخيل: أسرعت.



خريطة رقم (٦)
(أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٩ د. حسين مؤنس)

وقال ابن إسحاق: خرج عمرو بن عبد وُدّ وهو مقنع بالحديد- يتحدى وكان مشهورًا بالخيلاء والعُجب فتحرك يمشي متباهيًا وواثقًا أن أحدًا لن يجرؤ على منازلته- فنادى من يبارز؟ فقام عليٌّ ﷺ فقال: أنا لها يا نبي الله! فقال ﷺ: "إنه عمرو؛ اجلس!" ثم نادى عمرو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يؤنّبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قُتل منكم دخلها؟ أفلا تُبرزون إليّ رجلاً؟ فقام عليٌّ ﷺ وقال: أنا يا رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: "اجلس!"، ثم نادى الثالثة وصاح متفاخرًا متباهيًا:

ولقـــد بححـــتُ مـــن النـــدا ء بجمعكـــم هـــل مـــن مبـــارز
ووقفـــتُ إذ جَـــبُنَ المُشجِّـــ ـــعُ وقفـــةَ الرجـــلِ المنـــاجز
وكـــــــــذاك إني لم أزل متســـرعًا قبـــل الهزاهـــز[1]
إن الشــــجاعةَ في الفـــتى والجـــودَ مـــن خـــيرِ الغرائـــز

ولم يطق عليٌّ الصبر فألح في الخروج وقال: "يا رسول الله أنا له". فقال ﷺ: "إنه عمرو!"، فقال عليٌّ ﷺ: "وإن كان عمرًا".

ويقول العقاد في كتابه "عبقرية الإمام": "وكأنه لا يعرف مَنْ يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلىءٌ بها واثقٌ فيها في غير كلفة ولا اكتراث- وأمام إصراره وصدق جهاده أذن له النبي ﷺ ثم أدناه منه وقبّله بين عينيه وألبسه عمامته، وقال: "امض له فخرج عليٌّ يجيبه:

لا تعجلـــــن فقـــــد أتـــــا ك مجيـــبُ صـــوتك غـــيرُ عـــاجز
ذو نيَّـــــــه[2] وبصـــــــيرة والصـــدق منجـــى كـــل فـــائز
إني لأرجـــــــو أن أقيـــــــ ـــم عليـــك نائحـــة الجنـــائز

---

(١) الهزاهز: الحروب والشدائد.
(٢) هكذا في السيرة النبوية لابن هشام وفي بعض المصادر "نبهة".

مـــــن ضـــــربة نجـــــلاء[1] يبقـــي ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

فما إن سمعه عمرو حتى وقع في نفسه عجب شديد وأيُّ عجب أن يخرج له شابٌ مبارزًا وهو يعرف أنه عمرو بن عبدوُد وهو من هو.

ويقول ابن إسحاق: فقال عمرو: ''من أنت؟'' قال: ''أنا عليٌّ''. قال: ''ابن عبد مناف؟'' قال: ''أنا على بن أبي طالب''. فقال: ''يا ابن أخي! من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك''. فقال عليٌّ ﷺ: ''لكنى- والله!- لا أكره أن أهريق دمك''، فغضب عمرو فاقتحم عن فرسه[2] وسلَّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليٌّ ﷺ مغضبًا، فاستقبله عليٌّ بدرقته[3] فضربه عليها فقدَّها[4] وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجَّه وضربه عليٌّ ﷺ على حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج[5]،- ورسول الله ﷺ يرقب القتال ويرفع أكف الضراعة لله تعالى ويقول: ''اللهم إنك أخذت منى حمزة يوم أحد وعبيده بن الحارث يوم بدر فاحفظ اليوم عليًّا''- وسمع الرسول ﷺ التكبير فعرف أن عليًّا قتله وخرجت خيل المشركين منهزمة، ثم احتز عليٌّ ﷺ رأسه وقال:

أعليَّ تقـــتحمُ الفـــوارسُ هكـــذا عـــنى وعنـــهم أخـــروا أصـــحابي
اليـــوم يمـــنعني الفـــرار حفـــيظتي ومصمم في الرأس لـــيس بنـــابي[6]

إلى أن قال:

عَبَدَ[7] الحجارة من ســـفاهة رأيـــه وعبـــدتُ رب محمـــد بصـــوابي

---

(١) نجلاء: واسعة.
(٢) اقتحم عن فرسه: نزل عنه.
(٣) الدرقة: ترس من الجلد ليس به خشب.
(٤) قَدَّه: قطعه.
(٥) العجاج: الغبار.
(٦) الجبان.
(٧) هكذا في البداية والنهاية والدلائل وحياة الصحابه وذكرت في بعض المصادر (نصر الحجارة).

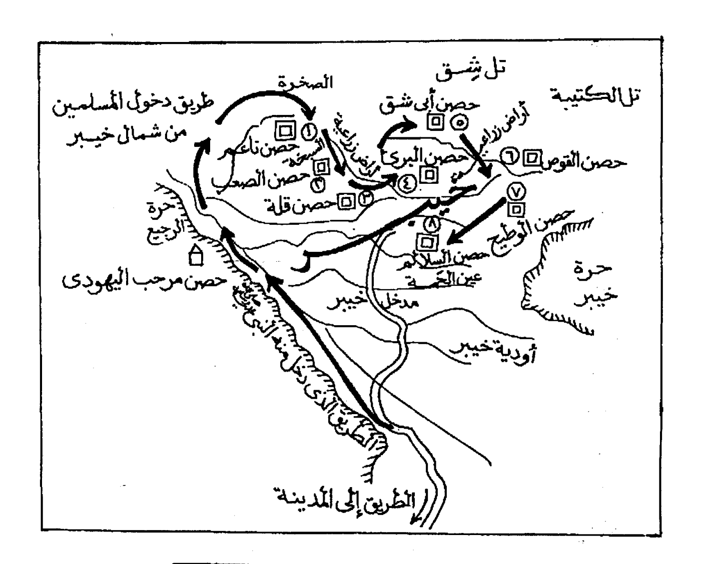
فصدرت[١] حين تركته متجندلاً[٢] كالجذع بين دكادك[٣] وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني كنتُ المُقطَّر[٤] بزَّني[٥] أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الأحزاب[٦]

ثم بعث المشركون يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال ﷺ: "ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية"، فلم يقبل منهم شيئًا[٧]. (انظر خريطة رقم (٧)).

أما عن غزوة خيبر[٨] فقد روى البخاري في التاريخ الكبير والهيثمى في مجمع الزوائد وأحمد في المسند أن رسول الله ﷺ- عشية هذه الغزوة- قال: "لأدفعن الراية غدًا إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه"- فتطلع الصحابة جميعًا حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: ما أحببتُ الإمارة إلا ذلك اليوم[٩]- فلما أصبح رسول الله ﷺ غدوا كلهم يرجون أن يعطوها، فقال رسول الله ﷺ: "أين على بن أبي طالب؟" فقالوا: هو يشتكي عينيه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ فأعطاه الراية، ونصر الله تعالى المسلمين تحت رايته.

---

(١) صدر: رجع.
(٢) طريح الأرض.
(٣) دكادك: أرض غليظة بها رمال متلبدة.
(٤) المُقطَّر: الساقط.
(٥) نزعه عنه.
(٦) البداية والدلائل وحياة الصحابة.
(٧) البداية والنهاية لابن كثير.
(٨) مدينة ذات حصون ومزارع تبعد ستون أو ثمانون ميلاً عن المدينة يسكنها اليهود وحصونها ٨ حصون وقد وقعت أحداث هذه الغزوة في المحرم سنة ٧هـ .
(٩) رواه مسلم في صحيحه.



فتح خيبر (محرم ٧هـ)

١- فتح حصن ناعم بعد حصار ٣ أيام .
٢- فتح حصن الصعب بعد قتال شديد .
٣- فتح حصن القلة بعد حصار ٣ أيام .
٤- فتح حصن البرئ (حصن نذار) .
٥- فتح حصن القموص بعد حصار ٢٠ يوماً .
٦- استسلام حصنى السلالم والوطيح
بعد حصار ١٤ يوماً بغير قتال .

خريطة رقم (٧)

فعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب ﷺ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من حصن خيبر خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجلٌ من يهود، فطاح تُرْسُه من يده، فتناول عليٌّ بابًا كان عند الحصن فترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ، ويقول أبو رافع ﷺ: "فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم، نَجْهَد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه"[١].

وعن جابر بن سمرة ﷺ أن عليًا حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون ففتحوها وأنه جرّب فلم يحمله إلا أربعون رجلاً[٢]. سبحان الله فأيُّ قوة تلك وأيُّ شجاعة، ومن بطولاته كذلك في خيبر قَتْلُه واحدًا من أصحاب حصون خيبر .

فعن سلمة بن الأكوع ﷺ أنه ذكر رجوعهم من غزوة بني فزارة فقال: "فلم نمكث إلا ثلاثًا حتى خرجنا إلى خيبر، قال: فقدمنا خيبر فخرج مرحب اليهودي وهو يخطر بسيفه فخرج له عامر فَقَتَلَهُ مرحب وأنشد:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح[٣] بطلٌ مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عليٌّ وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدة[٤] كليث غابات كريه المنظرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة[٥]

---

(١) رواه ابن هشام في سيرته وابن إسحاق في المغازي وابن عساكر في تاريخه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف وقال: حسن ورواه الهندي في الكنز.

(٣) مدجج بالسلاح.

(٤) من أسماء الأسد.

(٥) كانت العرب تقول: أكيلكم بالسيف كيل السندة أي أقتلكم قتلاً ذريعًا.

قال: فضرب مرحبًا ففلق رأسه فقتله[١] وروى أحمد في مسنده أن عليًّا قال: "لما قتلتُ مرحبًا جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ". ثم برز له عامر وكان طويلاً بائن الطول طوله خمسة أذرع وكان عليه درعان فخرج وهو مقنَّع بالحديد فقال من يبارزه فضربه عليٌّ فأطنَّ ساقه ثم أجهز عليه[٢].

وهكذا لازم عليٌّ رضي الله عنه الرسول ﷺ في كل مشهد ولم يتخلف عن غزوة غزاها إلا تبوك خلَّفه رسول الله ﷺ في أهله[٣]. كما أرسله رسول الله ﷺ في سرايا كثيرة فبعثه إلى بني سعد بفدك[٤] في مائة رجل وبعثه في سرايا إلى طيء واليمن وكانت معه إحدى رايات المهاجرين الثلاث يوم فتح مكة، وبعد وفاة النبي ﷺ لازم خليفته الصديق أبا بكر رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه ولم يدخر نصحًا أو رأيًا لصالح المسلمين وظل هكذا في خلافة عثمان رضي الله عنه .

قال الطبري في تاريخه: ولما قُتل عثمان أتاه الصحابة يبايعونه يقولون لا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك، ولا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ. فقال: "لا تفعلوا فإني أكون وزيرًا خيرًا من أن أكون أميرًا"، فلما تمسك الناس به صعد المنبر وقال: "إني قد كنت كارهًا لأمركم فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم".

وما إن تولى الخلافة حتى أطلت الفتن واختلف الصحابة وتقاتلوا[٥]، وهنا

(١) رواه مسلم في صحيحه والبيهقى واللفظ له.
(٢) أصحاب الرسول ﷺ لمحمد المصري.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٤) فدك: قرية قرب خيبر.
(٥) والصحابة الذين وقعوا في هذه الفتنة كلهم أصحاب آخرة وليسوا أصحاب دنيا، وإنما هم مجتهدون في الرأي فما اختلفوا معه إلا لأنهم كانوا يريدون قَتَلَةَ عثمان قبل أن يبرد دمه ويفر قتلته فيدفعوا عن المدينة أذاهم بعد أن استطالوا فيها وأحالوها بحرًا من الدماء، فخرج الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عليه ثم خرج عليه وليُّ الدم معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه يطلب ثأر عثمان رضي الله عنه، وكان عليٌّ رضي الله عنه يرى أن ينتظر حتى يستتب له الأمر فيأتي بهم كما أراد أن يمنع شق عصى الطاعة الذي وقع فيه مخالفيه، لكن كلاهما كان على الحق لقول النبي ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة". [رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وأحمد في مسنده والهيثمى في الزوائد والبيهقى وغيرهم]، وأفضل ما قيل في ذلك ما ذكره العلامة البيجورى رحمه الله في شرح هذا الخلاف إذ قال: افترق الصحابة في هذا الخلاف ثلاث فرق، فرقة اجتهدت=

ظهرت شجاعة الإمام عليٍّ ﷺ، وأرى أن هذه الشجاعة تجسدت في حزمه فلم يكن يفرق بينه وبين معارضيه إلا شعرة، حتى أن بعض الصحابة اعتزلوا القتال كسعد بن أبي وقاص ﷺ الذي قال: "لا أقاتل حتى تأتوني بسيف يعرفُ الحقَ من الباطل".

لكنّ عليًا كان أعرف الناس بالحق فخرج عليه طلحة بن عبيد الله والزبير ومعهم عائشة ﷺ وأنصارهم يطالبون بقتلة عثمان ﷺ فاقتتلوا في وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين (٦٥٦م) وقُتل من الفريقين ثلاثة عشر ألفًا، ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ﷺ في أهل الشام فاقتتلوا في وقعة صفين في صفر سنة سبع وثلاثين (٦٥٧م) وقُتل من الفريقين نحو سبعون ألفًا.

لقد حارب عليٌّ في الجمل وصفين في حزم قاطع لم يتردد برهة فقط كان له من العلم والفقه والحكمة ما جعله يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسْود في حالك الظُلَم فكان عليٌّ يقول: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين"[١].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "عليٌّ أقضانا"[٢].

كما بشر الرسول ﷺ بما سيحدث من فتن وأخبر أن الحق سيكون لمن يقاتل الخوارج منهما أي أن الحق كان في صف عليٍّ ﷺ فقال ﷺ: "تَمْرُقُ مارقةٌ عند فرقة المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق"[٣]. فكانت الفرقة المارقة هى الخوارج والطائفة الأولى بالحق هم أصحاب عليٍّ. وكان عليٌّ شديد المرؤة فقد أمر جنده ألا يقتلوا يوم صفين والجمل مدبرًا ولا يجهزوا على جريح وكان يصف أعداءه فيقول هم أخواننا بغوا علينا وصلى على من مات منهم ومن أصحابه على السواء وكان إذا ذكر طلحة

= فظهر لها الحق مع على فقاتلت معه وفرقة اجتهدت فظهر لها الحق مع معاوية فقاتلت معه، وفرقة توقفت واعتزلتهما فالمصيب بأجرين والمخطئ بأجر ولم يخرج واحدٌ منهم عن كونه عدلاً لأنهم مجتهدون (شرح السنة).

(١) رواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي ورواه الهندي في كنز العمل.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٣) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده والهيثمى في الزوائد والبيهقى في الدلائل والبغوى في شرح السنة.

والزبير رضي الله عنهما يقول أرجو أن يجمعنا الله بهم في الجنة ويتحقق فينا قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقُتل عليٌّ يوم الجمعة لثلاث عشرة أو سبع عشرة بقيت من رمضان سنة أربعين (٦٦٠م) وهو خارج لصلاة الصبح قتله أحد الخوارج عدو الله عبد الرحمن بن ملجم عليه من لعائن الله ما يستحقه، وكان عُمْرُ الإمام عليٍّ يومها سبعًا وخمسين أو ثمان وخمسين رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف، القرشي الزهري. أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد أصحاب الشورى الستة، كان يكنى أبا إسحاق، وكان يلقب بفارس الإسلام، وهو أحد الرماة المذكورين من أصحاب الرسول ﷺ، أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه في صدر الدعوة بعد ستة أو بعد أربعة سبقوه، وكان عمره يوم أسلم سبع عشرة سنة، هاجر مبكرًا ولازم النبي ﷺ في جميع مشاهده.

ومن مناقبه أنه أول من رَمَى بسهم في سبيل الله، فقد بعثه رسول الله ﷺ في سرية في ستين من المهاجرين تحت إمرة عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى جانب من الحجاز يدعى رابغ فلما بلغوا ماءً بالحجاز إلى بطن رابغ بأسفل ثنية المرة وكان عندها عكرمة بن أبي جهل يقود مائتين من قريش فلما تراءت الفئتان قفل المشركين عائدين و لم يلق المسلمون كيدًا، لكن سعدًا رماهم بسهم وكان هذا أول قتال في الإسلام فكان يفتخر بذلك دائمًا ويقول: إني لأول المسلمين رمى المشركين بسهم وقال في ذلك:

ألا هل أتى رسولَ الله أني ... حميتُ صحابتي بصدور نبلي

أذود بها أوائلهم ذيادًا ... بكل حزونة[1] وبكل سهل

فما يعتد رامٍ في عدو ... بسهم يا رسول الله! قبلي[2]

وهو كذلك صاحب أول دم أهريق في الإسلام حيث كان في أصحاب رسول الله ﷺ في شعب مكة فخرجت جماعة من المشركين حاولت منعهم عن الصلاة، فضرب سعدٌ رجلاً منهم بلحى[3] جمل فشجَّه فكان أول دم لمشرك يريقه مسلم[4].

---

(١) الحزونة: الأرض الوعرة.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه والكندهلوى في حياة الصحابة وذكر ابن الأثير في أسد الغابة مثله.

(٣) اللحى: عظام الفكين.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام والمغازى لابن إسحاق.

وقد تعرف النبي ﷺ فيه منذ حداثة إسلامه على شجاعته وقدرته الحربية الفريدة وتلمَّس مواطن البطولة في نفسه، فأرسله في العام الأول للهجرة في سرية وعقد له رايته وأمّره على ثمانية فيهم المقداد بن عمرو ﷺ ليستطلعا عيرًا لقريش بوادي الخرار[١] وكانت هذه أولى عملياته الحربية التي أظهر فيها بوادر نبوغه كقائد عسكري فذ فقد كان يكمن بالنهار ويسير بالليل فيضمن في تحركات جنده أمرين: السرية التامة وذلك بالتحرك ليلاً بعيدًا عن أعين المراقبين، والأمر الآخر هو المحافظة على أمن القوات المتحركة وسلامتهم فلو أنه تحرك نهارًا في هذه الصحراء القاحلة شديدة الحر لأجهد جنده وأنهك قواهم وبدد طاقتهم في غير موضعها وهو ما يحرص على تجنُّبه قادة الجيوش المعاصرة.

وقد وصل سعد بسريته إلى الموضع المحدد فلم يلق كيدًا لأن قريشًا كانت قد تجاوزته بيوم أو يومين. وشهد بدرًا وأبلى يومها بلاءً حسنًا فعن ابن مسعود ﷺ قال: "كان سعد ﷺ يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل"[٢]. واستشهد أخوه عمير يومها.

وفي غزوة أحد كان من الفرسان الذين أجهزوا على حَمَلَة لواء قريش وكانوا عشرة من آل طلحة تعاقبوا عليهم ورمى سعد آخرهم بسهم فصرعه وبقى لواء الكافرين منطرحًا حتى أخذه رجل من المشركين يُدعى صؤاب فقُتل عليه، ولما انكشف المسلمون منهزمين كان ممن ثبت مع النبي ﷺ وذاد عنه بروحه .

فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أُفرد[٣] يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.."[٤]، وكان الرجلين من قريش هما طلحة بن عبيد الله، وفارس الإسلام سعد بن أبي وقاص ووقف الرجلان سدًّان منيعان أمام الكافرين وقاما جبهة

(١) وادي الخرَّار: وادي بالمدينة.
(٢) رواه البزار في مسنده والهيثمي في الزوائد بإسنادين أحدهما متصل والآخر مرسل ورجالهما ثقات.
(٣) أُفرد: صار منفردًا وحيدًا.
(٤) رواه مسلم في صحيحه.

وحدهما للدفاع عن الرسول ﷺ وكانا من أمهر رماه العرب فتناضلا حتى أجهضا مفرزة[١] المشركين التي أرادت النبي ﷺ بسوء.

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ نثل[٢] لسعد كنانته، وقال ﷺ: "ارم فداك أبي وأمي" .

وعن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص، قال له يوم أحد: "ارم فداك أبي وأمي"[٣]. ودعا له رسول الله ﷺ يومها فقال: "اللهم أستجب لسعد إذا دعاك"[٤]. وقال ﷺ: "اللهم أجب دعوته وسدد رميته"[٥] فكان سعد ﷺ يمتلك سلاحين غاية في القوة دعوة منه لا ترد فكان إذا أقسم على ربه أبره فينصره في كل موضع، ورمية بسهمٍ لا تخيب فكان سهمه يصيب من عدوه في كل رمية مقتلاً .

فعن ابن شهاب قال: قَتَلَ سعدٌ ﷺ يوم أحد بسهم واحد ثلاثة، رمى به فَرُدَّ عليهم فرموه به، فأخذه فرمى به سعد ﷺ الثانية فقتل، فَرُدَّ عليهم فرمى به الثالثة فقتل، فعجب الناس مما فعل سعد ﷺ فقال: "إن النبي ﷺ أنبلنيه"[٦].

وقال الزهري: "رمى سعد يوم أحد بألف سهم". وشهد بعدها الخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وكانت معه يومئذ إحدى رايات المهاجرين الثلاث[٧]. وبعد وفاة النبي ﷺ انطلق سهمًا ماضيًا يرمى نحور العدو، وما إن تولى عمر الخلافة حتى عهد إليه بفتح العراق وكان الفرس قد عانوا تكرار الهزائم على أيدي المسلمين[٨] فأخذوا الأمور

---

(١) المفرزة: هي مقدمة الجيش.
(٢) نثل: نثر.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما والترمذي في سننه والبيهقي في سننه وفي الدلائل.
(٤) رواه الترمذي في سننه وابن سعد في الطبقات والطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الدلائل والحاكم في المستدرك والهيثمي في الزوائد.
(٥) رواه البزار والهيثمي.
(٦) رواه ابن عساكر في تاريخه وذكره صاحب حياة الصحابة.
(٧) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٨) كان للمثنى بن حارثة السبق في قتال الفرس فتقدم إليهم في ثمانية آلاف من قومه من البحرين حتى بلغ بلاد =

مأخذ الجد ونحُّوا خلافاتهم ووحَّدوا صفوفهم فولَّوا يزدجرد العرش وأسند القيادة الحربية لرستم فحشد الحشود وجعل على المقدمة الجالينوس في أربعين ألفًا وعلى الميمنة الهرمزان وعلى الميسرة مهران بن بهرام، وبقى هو في مركز القيادة وأصبح بذلك قوام جيش فارس مائة وعشرون ألفًا تتقدمهم الأفيال وعلى رأسها ثلاثة أفيال ضخمة ووصل الجيش إلى القادسية ولما أحس أهل السواد[١] من الفرس بتعزيز قواتهم بدأوا في التمرد على المسلمين بها ولما علم أمير المؤمنين عمر ﷺ أعد العدة للأمر وهو يعلم أن المسلمين مقدمون على مرحلة فاصلة في العراق فحشد جيش المسلمين واستنفرهم للجهاد وتأهب للخروج بنفسه على رأس ذاك الجيش .

فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه أن عمرَ بن الخطاب أجمع أمره أن يخرج بنفسه لقتال الفرس فنهاه عبد الرحمن بن عوف ﷺ والمسلمين، فقال عمر: ''أشيروا عليَّ إذن برجل!''، فقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ''وجدته''. قال عمر: ''من هو؟''، قال: ''الأسد في براثنه سعد بن مالك''، ومالأه[٢] أولو الرأي[٣].

وعلى هذا فقد اجمع المسلمون على سعد وهكذا جرى رأي عمر بن الخطاب ﷺ الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه[٤]. ووقع الاختيار في نفوس المسلمين جميعًا

= فارس ففتح القطيف وبلغ مضّب دجلة والفرات وهاجم مدينة الأبلة، ثم أرسل الخليفة أبو بكر، خالد بن الوليد على رأس ألف أميرًا فانضم إليه المثنى بجيشه ليفتح العراق من الجنوب وسيّر عياض ابن غنم في ثمانية آلاف لفتحه من الشمال فأدركه خالد عند دومة الجندل بعد أن عجز عياض عن التقدم فانضم إلى خالد بجيشه، وتقدم خالد فهزم الفرس في خمس عشرة معركة، ثم أسند أبو بكر القيادة للمثنى بن حارثة بعد أن دفع بخالد إلى الشام، فهزم المثنى الفرسَ في عدة معارك أبرزها بابل ولما قُبض الخليفة الصديق وتولى من بعده عمر أسند القيادة لأبى عبيد بن مسعود الثقفي فهزم الفرس في النمارق والقاطية وباروسما ثم خاض معركة الجسر فانهزم فيها المسلمون وقتل القائد أبو عبيد ثم تولى المثني بن حارثة فثأر من الفرس في معركة البويب وهزمهم في سوق الخنافس والأبنار وبادوريا وقطربل وسوق بغداد وتكريت.

(١) منطقة وسط العراق بين دجلة والفرات وحدها حتى مدينة الموصل وسميت سوادًا لأن العرب تسمى الخضرة الشديدة سوادًا. (معجم البلدان ٣/٣٠٩)

(٢) مالأه: ساعده وعاونه.

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري وحياة الصحابة للكندهلوى.

(٤) روي أحمد في مسنده بإسناد صحيح، والبزار في مسنده والترمذي في سننه والهيثمى في الزوائد وابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

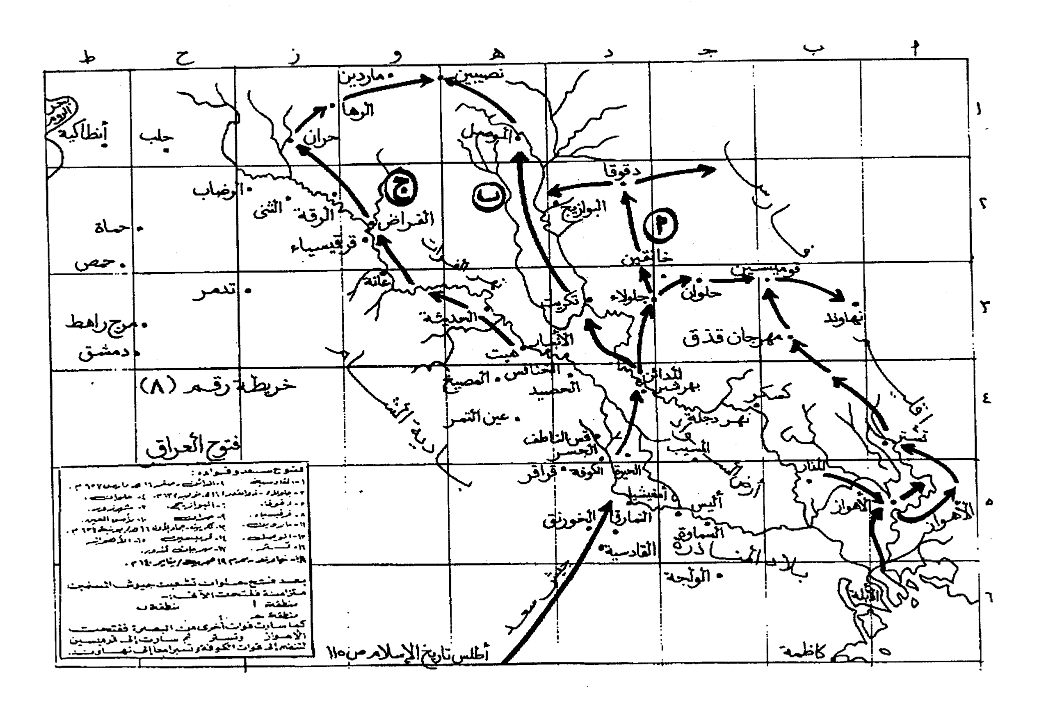
موضع التقدير، وتولى سعد بن أبي وقاص القيادة العامة بالعراق ليخوض أشرس قتال خاضه المسلمون في مواجهة الجيش الفارسي.

فأخذ سعد يعبئ جيشه ويعد نفسه للمعركة الفاصلة فأرسل إليه رستم يبغي أن يرسل إليه رجالاً من عقلاء المسلمين يحادثهم فأرسل إليه المغيرة بن شعبة ﷺ فدخل عليه عالي الرأس مرفوع الجبين لم ترهبه مظاهر القوة أو العظمة وتكلم وملؤه ثقة بربه فدعاه إلى الإسلام فأعرض واستكبر، ثم دعا كسرى وفدًا من المسلمين فسار إليه النعمان بن مقرن وفرات بن حيان وعمرو بن معد يكرب والأشعث بن قيس ﷺ فعجب لمنظرهم إذ رآهم رجالاً عجافًا أرديتهم على عواتقهم وسياطهم في أيديهم ونعالهم في أرجلهم وخيولهم ضعيفة فقال لهم يزدجرد بصلف وغرور: "ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أتراكم اجترأتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا؟"، فأجابه النعمان برد قاطع: "إن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم".

فغضب يزدجرد ورد عليهم بأغلظ القول بما عُهد عنه من كبرياء وغرور، ثم دعاه النعمان ثانيةً فلم يقبل، فقال النعمان: "إذن اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسلم فتنجي نفسك!"، فانفجر يزدجرد غاضبًا وقال: لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، فلم تزعزع تهديداته الجوفاء إيمانهم ولم تنل من ثبات جنانهم[1] وانصرفوا من مجلسه كلهم ثقة في الله وأنه سيؤتى محمدًا ما وعده من فتح ممالك كسرى وقيصر، وهل يهزم جيش فيه مثل هؤلاء؟! كلا والذي خلق السماء والأرض..

---

(١) الجنَان: القلب.



خريطة رقم (٨)
فتوح العراق
أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٠
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
تدمر
مرج راهط
دمشق
الرضاب
الرقة
الثنى
الفراض
قرقيسياء
حران
الرها
ماردين
نصيبين
الموصل
دقوقا
البوازيج
خانقين
جلولاء
حلوان
تكريت
الحديثة
هيت
الأنبار
المدائن
بهرسير
نهاوند
مهرجان قذق
تستر
الأهواز
الحيرة
الكوفة
قراقر
عين التمر
الخنافس
المصيخ
الحصيد
الخورنق
القادسية
الولجة
أليس
كاظمة

وفي آخر السنة الخامسة عشرة وأوائل السنة السادسة عشرة من الهجرة (٦٣٦م) كانت معركة القادسية التي حشد المسلمون فيها تحت إمرة سعد ثلاثون ألفًا بينهم ثلثمائة وبضعة عشر صحابيًا وسبعون بدريًا، وعبأ الفرس مائة وعشرين ألفًا يقودهم قائدهم الفدرستم ويتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً[١].(انظر الخريطة رقم (٨)) .

واقترب الوعد الحق وأصبح القتال وشيكًا لكن سعد أصابه مرض مفاجئ فانتشرت في جسده الدمامل حتى أعجزته عن الحركة و لم تمكّنه من الجلوس فكان مكبًا على وسادة تحت صدره يتكئ عليها، وأخذ لنفسه مكانًا مشرفًا يطل على ساحة القتال وأسند القيادة إلى خالد بن عُرفطة الليثى[٢]، ثم خطب في الناس فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: "إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خُلف، قال جل ثناؤه ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج[٣] فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم وقد جاءكم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعز مَنْ وراءكم فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ولا يقرِّبُ ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتُوبقوا آخرتكم"[٤].

ثم استدعى جماعة من أصحاب الرأي والشجعان كالمغيرة بن شعبة، وعاصم بن عمرو، وطليحة الأسدى، وعمرو بن معد يكرب، وعروة بن زيد الخيل، وبشير بن ربيعة الخثعمى، وأمرهم أن يخطبوا في الناس فيلهبوا حماسهم ويستثيروا حفيظتهم فلا يهولنَّهم عدد الفرس وعتادهم، ويحققوا لهم المثل الأعلى في الفداء، وكان يقول فيهم:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري وابن كثير في البداية والنهاية، وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن المسلمين كانوا بين السبعة والثمانية آلاف والفرس أربعين أو ستين ألفًا معهم سبعون فيلا.

(٢) خالد بن عُرفطة ، الليثى: كان حليفًا لبنى زهرة، أسلم وسكن الكوفة وحارب مع سعد الفرس وشهد القادسية وفتح المدائن. توفى بالكوفة عام ٦٠هـ.

(٣) الحِجَّة: السنة.

(٤) حياة الصحابة للكندهلوى.

"ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر الله يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد". ودعا الشعراء أمثال الشماخ والحُطيئة وعبدة بن الطيب ليحرضوا المسلمين بأشعارهم على الفداء، وأمر بقراءة سورة الأنفال فَقُرئت في كل الكتائب وجميع المواقع فاجهشت الأعين بالدمع ورقت القلوب .

وكان سعد قد قال لرجاله: "إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع[1] نعالكم! فإذا كبرتُ الثانية فتهيئوا! فإذا كبرتُ الثالثة فشدوا النواجز على الأضراس[2] واحملوا!"، وما إن فرغ القراء من قراءة سورة الأنفال حتى كبرَّ سعد بن أبي وقاص ﷺ، وكبرَّ وراءه من يليه ثم كبرَّ الثانية فكبرَّ الناس وراءه، ثم كبرَّ الثالثة فهاجت النفوس للقتال وتحرقت أكباد المسلمين للقاء العدو، ثم كبرَّ الرابعة فبدأ الزحف وبرز أهل الشجاعة يحمِّسون رجالهم وكان أول من خرج غالب بن عبد الله الأسدى للمبارزة وهو يرتجز:

قـــد علمـــتْ واردةُ المســـالح[3] ذاتُ اللبان[4] والبنان الواضـــح
أني سِمام[5] البطـــل المشـــايح[6] وفارجُ الأمـــرِ المهـــمِ الفـــادح

فالتقى بهرمز فأسره وقاده إلى سعد ثم عاد إلى المعركة يباشر القتال، فتأمل أخي المسلم تلك القوة التي تكمن في هؤلاء الجبال إذ يبرز جندي مسلم فيأسر أحد قادة الفرس في أول جولة قبل أن يشتد القتال؟! ثم خرج عاصم بن عمر يرتجز:

قد علمت بيضاء صفراءُ اللَّبب[7] مثل اللُّجين[1] إذ تَغَشَّاه الـــذهب
أني امرؤ لا من تعيبـــه الســـبب مثلي على مثلك يُغريـــه العَتـــب

---

(١) الشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم.
(٢) النواجز: أصول الأسنان.
(٣) المسالح: الجماعة المسلحة المعدة للقتال.
(٤) اللبان: الصدر.
(٥) جمع سُم وهو المادة القاتلة.
(٦) أشاح بالسيف: أي لوَّح به.
(٧) موضع القلادة من الصدر.

فأسر رجلاً على بغلة كان خبَّاز رستم قد أعدله طعامًا، ودبَّتْ المنافسة في قلوب الرجال وبدأ القتال عنيفًا هادرًا، وسعد يخطب في الناس بملء فيه فتسرى الحمية في دمائهم سريان النار في الهشيم وهو يدير المعركة ويلقى الرقاع إلى قواده بالأوامر، وهو لا يفتر عن الدعاء، وتقدم الجيش الإسلامي كالطوفان والإعصار يتقدمه أبطال الإسلام.

فهذا عمرو بن معد يكرب يبطش بالفرس ويحصد الرقاب، وهذا طليحة بن خويلد في قبيلته بنى أسد يحبسون الفيلة لكنها عادت فحملت عليهم فتساقط منهم الشهداء، فتصدى لها عاصم بن عمرو ومن معه فاستدبروها وقطعوا وضنها[٢] فارتفع عويلها وألقت بركبانها وولت تطأ جند الفرس حتى صارت وبالاً عليهم، ومع غروب شمس اليوم انتهى القتال في أول أيام القادسية الذي عُرف بيوم أرماث، وكانت محصلته خسائر فادحة مُنى بها جيش الفرس وخاصة في سلاح الفيلة مما حال دون مشاركتها في اليوم التالي.

كما قُتل عددٌ كبيرٌ من جنودهم ومع شروق شمس اليوم الثاني وهو يوم أغواث وصلت أمداد أمير المؤمنين وذلك من جيوش المسلمين المنتصرة بدمشق وفحْل ببلاد دمشق وكان قوامهم ألف تحت إمرة فارس العرب القَعقاع بن عمرو الذي أبلى في هذا اليوم بلاء الأبطال، وظهرت بطولة أبي محجن الثقفي التي أذهلت الفرس وبهرت المسلمين حتى ظن الجميع أنه مَلَكٌ من السماء يقاتل، واندحر الفرس في ذلك اليوم وقُتل منهم عشرة آلاف وقُتل ذو الحاجب أحد أكبر قادتهم.

ثم أقبل اليوم الثالث يوم عماس وفيه احتدم قتال عنيف حيث وصل مددًا آخر للمسلمين من ستة آلاف من جيوش الشام تحت إمرة هشام بن عتبة، وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة ودفعوا بها في المعركة، كما وصلت إمدادات كبيرة دعمت

---

(١) اللجين: الفضة.

(٢) الوضن: حزام عريض يشد به الرحل على الدابة.

صفوف الفرس لذا فقد بلغ القتال ذروته وزاد ضغط الفرس بالفيلة التي تزيد قوة الواحد منها على عشرات الرجال ففتكت بالمسلمين وفرَّت منها خيول المسلمين حتى أن راكبوها كانوا إذا عجزوا عن ردِّها ترجَّلوا عنها وآثروا الموت تحت أقدام الفيلة على الفرار وثبتوا أمامها ثبات الجبال .

ولاحظ سعد أن أخطرها وأشدها ضراوة هما فيلان كانا غاية في الضخامة أحدهما أبيض والآخر أجرب فأمر فرميت بالرماح في أعينها وضربت مشافرها[١] بالسيوف فألقت بأنفسها في النهر وتبعتها باقي الفيلة فتخلص المسلمون من هذا السلاح الرهيب، واستمر القتال ضاريًا حتى أسدل الليل أستاره فتوقف القتال وفاء[٢] الفريقان كلٌ إلى معسكره وكانت هذه الليلة رغم ظلمتها الحالكة نورًا أشرق شمسه بالنصر للمسلمين.

وقد دُعيت هذه الليلة بليلة الهرير وقد حدث فيها للفرس ما لم يكن في الحسبان إذ هاجم المسلمون معسكرهم في غَرَّة[٣] منهم فما إن زحف القعقاع بمن معه حتى قال سعد: ''اللهم اغفر له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذن''، ثم كبَّر سعد ثلاث تكبيرات فلما كبَّر الأولى زحفت بنو أسد فقال سعد: ''اللهم اغفر لهم وانصرهم''، ثم كبَّر الثانية فزحفت بجيلة والنخع وكندة وأهل النجدات، ولما كبَّر الثالثة تلاحق الجيش الإسلامي كله في هجوم شامل على جميع قطاعات العدو وسعد واقفًا يدعو الله طوال الليل وكان رستم لما وجد أن قادته لا تصل لمستوى قادة المسلمين في المبارزة والمطاردة أمر جيشه أن يخرج مزاحفة في ثلاثة عشر صفًا وألا يخرج أحدٌ منهم للمسلمين في مبارزة.

- واستمر القتال حتى ظُهْر اليوم التالي بلا توقف وتهاوى الجيش الفارسي الضخم تحت سيوف المسلمين واستطاع القعقاع ومن معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة

---

(١) خراطيمها.

(٢) فاء: رجع.

(٣) غَرَّة: غفلة في يقظة.

في قلب الجيش الفارسى حتى اتربوا من رستم وأنزل الله نصره وأيد المسلمين بجنده فأرسل الريح فأثار الغبار على الفرس وأطاح بفرش رستم، وكان رستم قد نصب سريره في مكان مشرف على القتال ففر هاربًا أمام زحف المسلمين وألقى بنفسه في النهر فاندفع إليه هلال بن عُلّفة فقتله ثم صعد إلى سريره وهو يقول: "قتلتُ رستم وربِّ الكعبة"(١).

وانكشف الفرس لما عاينوا مقتل قائدهم وفر الهرمزان والفيرزان ولم يثبت من الفرس سوى الجالينوس ببعض جنده لكنه لم يستطع الصمود فأمر جنده بعبور النهر وأثناء اندفاعهم مذعورين والمسلمين في أثرهم انهار بهم الهدم وغرق منهم ثلاثون ألفًا وكانوا مقترنين بالسلاسل فتبعهم المسلمون وقتلوا الجالينوس وغنموا راية الفرس العظمي، وسري الحماس في جيش المسلمين حتى اندفعت النساء إلى ساحة القتال تجهز على الفرس .

وقيل بلغ من فزع جنود الفرس ورعب قلوبهم أن المسلم كان يأمر الفارسي فيأتيه فيضرب عنقه. وهكذا انهزم الفرس في هذه المعركة الفاصلة وقُتل من المسلمين في ليلة الهرير وصباحها ستة آلاف من المسلمين.

ويقول الشيخ محمود المصري في كتابه "أصحاب النبي": إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا مقاومة أعنف مما لقوه من الفرس في القادسية حتى استمر القتال أيامًا أربعة وخسر المسلمون فيها أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قواتهم.

ويقول الطبري في تاريخه: لما قتل المسلمون رستم، زحفوا حتى فتحوا مدينة بَهُرَ شير وهى المدينة التي يقع بها منزل كسرى وكان كسرى قد فرو جندُهُ بسفنهم فعبروا نهر دجلة إلى المدائن فطلب سعد السفن ليعبروا فيها إلى الفرس فلم يقدروا على شيء منها ووجدهم قد ضموا السفن وكان البحر مادًّا يرمى بزبده فعزم أن يقتحم دجلة

---

(١) وقيل قتله قيس بن مكشوح.

ليقاتلهم ووقف على شاطئ النهر يخطب في جنده فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ''إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، قد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني عزمت على قطع هذا البحر إليهم''، فقالوا جميعًا: ''عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل''، فشكَّل سعد كتيبة قوامها ستمائة رجل يقودها عاصم بن عمرو سمَّاها كتيبة الأهوال وأمرهم بالوصول إلى الشاطئ الآخر للنهر وقال: ''من يبدأ ويحمى لنا الفراض- والفراض هي ثغور المخاضة وهو ما يسمى في المصطلح العسكري الحديث اسم رأس الجسر-، وأردفها بكتيبة أخرى يقودها القَعقاع بن عمرو سمَّاها الكتيبة الخرساء على أن تتبع الأولى وتعاونها.

ويقول الأستاذ محمد فرج: ''وهذا ما يشبه في عصرنا الحديث قوات الصاعقة التي تقوم بعمليات تضعف كيان العدو''[1]. وهنا يُبرِزُ سعدٌ سلاحًا غاية في القوة حسم به الموقف، ألا وهو سلاح الدعاء فما إن دعا الله وأقسم عليه حتى أبره وظهرت كرامة عظيمة وهبها الله سعدًا وجيشَه فما إن ولجوا النهر حتى صارت صفحة الماء كأنها أرضًا لهم وامتلأ النهر بالخيل والرجال فلم يعد يُرى ماؤه ثم اقتحم سعد وسلمان الفارسي رضي الله عنهما صفحة الماء وسعد يردد: ''حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليَّه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تقلب الحسنات''.

وقال سلمان: ''ذُلِّلت لهم والله البحور كما ذُلِّل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرُجُنَّ منه أفواجًا كما دخلوا أفواجًا''، وصدق سلمان فعبر المسلمون ولم يغرق واحدٌ منهم، فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ''ديوانا.. ديوانا'' وهى تعني بالفارسية مجانين مجانين، وقالوا: ''والله ما تقاتلون إنسًا بل تقاتلون جنًا''، وفى رواية للأعمش وبعض أصحابه قال: انتهيتُ إلى دجلة وهى مادَّة والأعاجم

---

(١) شخصيات عسكرية إسلامية.

خلفها فقال رجل من المسلمين باسم الله ثم أقحم[١] فرسه فارتفع على الماء وقال من خلفه باسم الله باسم الله ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء فلما نظر إليهم الأعاجم قالوا: ''ديوان.. ديوان'' أي شياطين شياطين ثم ذهب الفرس على وجوههم[٢].

ووصف ابن كثير في البداية والنهاية هذا العبور فقال: ''كان يومًا عظيمًا وأمرًا هائلاً وخطبًا جليلاً خارقًا باهرًا، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه لم يُر مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع''.

وقال الشيخ محمود المصري في ''أصحاب الرسول'': ''سبحان الله!! نهر هادر لا يقل عمق مياهه عن ستة أمتار تخضه الخيول سباحة وعلى رأسها الفرسان يقاتلون''، حقًا إن هذا أمر غريب يوقع في النفس العجب، لكن سرعان ما يتبدَّدُ هذا العجب كتبدد ظلمة الليل مع بزوغ الشمس، وأي شمس هذه إنها شمس الإيمان.. الإيمان بأن الله ناصر جنده.. وأيُّ جند.. إنهم رجال الإسلام وحملة كتابه وحماه عرينه من كبار الصحابة كسعد وسلمان والمقداد ومنهم أصحاب الجنة من أهل بدر والحديبية، ومن ورائهم جميعًا الخليفة عمر إمام العدل وثالث هذه الأمة في الفضل بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ.

وهل يُهزم جمعٌ فيه أمثال هؤلاء الذين يقوم الواحد فيهم مقام أمة كاملة؟! الذين لو أقسم أحدهم على الله لأبره ولو واجهتهم الجبال لزالت أمامهم، ودخل سعدٌ المدائن[٣] عاصمة دولة الفرس الساسانية فاتحًا منتصرًا ثم ولج القصر الأبيض وإيوان كسرى وهو يرتل قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٩] .

---

(١) أقْحَمَ فرسه: دفع به وأدخله.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تاريخه المعروف "بتاريخ الأمم والملوك".

(٣) مدينة كبيرة تقع شرق نهر دجلة وتتكون من ٧ مدائن متجاورة بناها أنوشروان بن قُباذ وجعلها عاصمة لملكته.

وخرَّ لله ساجدًا، وغنم المسلمون غنائم لم يُسمع بمثلها قط من الذهب والجوهر والحرير[١]. وفرَّ يزد جرد بن كسرى من المدائن إلى حُلوان فجمع عسكره فالتقى به سعد في جلولاء عام ستة عشر (٦٣٧م) فهزمه هزيمة ساحقة وقُتل من الفرس مائة ألف وتتبع المسلمون فلولهم في خانقين ثم فتح المسلمون حلوان وفرضوا على أهلها الجزية بعد أن أبوا دخول الإسلام، أما عدو الله يزد جرد فاعتصم بالجبال في الشرق وظل شريدًا بعد زوال ملكه يهيم على وجهه حتى قتله أحد أتباعه في طاحونة. ومكَّن الله للمسلمين في الأرض ونصرهم وحقق لهم وعد نبيه ﷺ.

رحم الله سعدًا الذي سأل عنه عمر بن الخطاب ﷺ يومًا فقيل: "متواضع في خبائه، عربيٌّ في نَمِرته، أسدٌ في تاموره[٢]. وتوفي في عهد معاوية ﷺ سنة أربع أو خمس وخمسين في العقيق وحمل على رقاب الرجال فدفن في البقيع وكان عمره ثلاثًا وثمانين[٣].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ودلائل النبوة للبيهقي وتاريخ الخلفاء للسيوطي وتاريخ ابن خلدون وأسد الغابة لابن الأثير وسير أعلام النبلاء للذهبي.

(٢) عرينة.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وأسد الغابة لابن الأثير.

طلحة بن عبيد الله ﷺ

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيِّم بن مُرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، القرشي التيمي. كان يُكنى أبا محمد ولقب بطلحة الخير وطلحة الفياض، كان من المهاجرين الأولين والعشرة المبشرين بالجنة.

أسلم مبكرًا وقال في ذلك: حضرتُ سوق بُصري[١] فإذا راهب في صومعته يقول: "سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟"، قال طلحة: "قلتُ نعمَ؛ أنا". فقال: "هل ظهر أحمد بعد؟" قلتُ: "ومن أحمد؟"، قال: "ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء، مَخْرجه من الحرم ومهاجرة إلى نخل وحَرَّة[٢] وسباخ[٣] فإياك أن تُسبق إليه!" قال: "فوقع في قلبي ما قال"، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة فقلتُ: "هل كان من حدث؟" قالوا: "نعم، محمد بن عبد الله ﷺ الأمين تنبَّأ وقد تبعه ابن أبي قحافة". قال: فخرجت حتى دخلتُ على أبي بكر ﷺ فقلت: "اتبعت هذا الرجل؟" قال: "نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق!"، فأخبره طلحة بما قال الراهب. فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم، وأخبر الرسولَ ﷺ بما قال الراهب فسره رسول الله ﷺ[٤].

وبعدها تحمَّل أشد ألوان التعذيب في سبيل دين الله الذي آمن به بكل خلجات نفسه، فعن مسعود بن خراش ﷺ قال: بينا نحن نطوف بين الصفا والمروة إذ أناس كثير يتبعون فتىً شابًا موثقًا بيده في عنقه. قلتُ: "ما شأنه؟" قالوا: "هذا طلحة بن عبيد

---

(١) بُصري: موضع بالشام قرب حوران.
(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء مدببة.
(٣) السباخ: أرض ذات ملح رطبة.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

الله صبأ''، وامرأة وراءه تدمدم[١] وتسبُّه. قلت: ''من هذه؟'' قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أمه[٢].

وروى الحاكم والبيهقى أنه لما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية[٣] فشدهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنوتيم فلذلك سُمي أبو بكر وطلحة القرينين.

لم يشهد طلحة بدرًا لأن رسول الله ﷺ بعثه هو وسعيد بن زيد رضي الله عنهما يتحسسان خبر العير قبل خروج النبي ﷺ بعشر ليال فخرجا حتى بلغا الحوراء فلم يزالا مقيمين هناك حتى انقضت بدرًا، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره[٤].

ويوم أحد خرج المشركون للثأر من هزيمتهم يوم بدر[٥]، في ثلاثة الاف مقاتل من قريش وحلفائها والأحابيش، وكان سلاح النقليات في الجيش ثلاثة آلاف بعير وسلاح الفرسان مائتا فرس وكانت القيادة العامة لأبى سفيان بن حرب وقيادة الفرسان لخالد بن الوليد يعاونه عكرمة ويحمل اللواء بنو عبد الدار وتوجها إلى المدينة فخرج إليهم النبي ﷺ في ألف مقاتل فيهم مائة دارع وخمسون فارسًا وعسكر الجيش الإسلامي بالشعب من جبل أحد في عدوة الوادي. (أنظر خريطة رقم (٩))

---

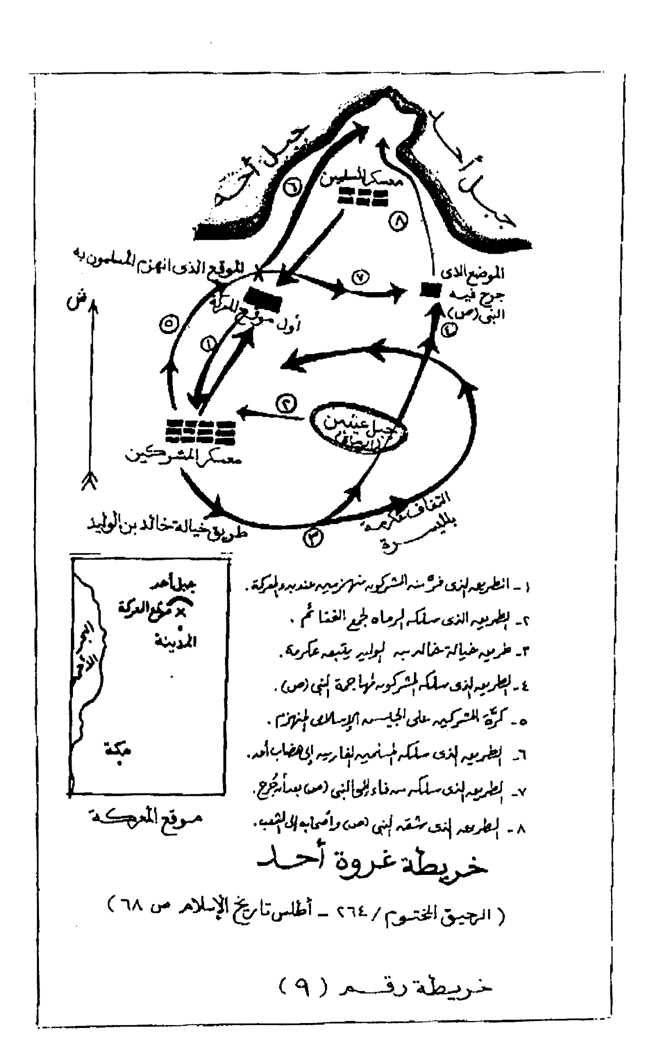
(١) دمدم عليه أي كلمة مغضبًا.

(٢) رواه البخاري في التاريخ وذكره ابن حجر في الإصابة.

(٣) كان يُدعى أسد قريش.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٥) أقبلت قريش في جيش جرار فبات الصحابة ليلة الجمعة في المسجد عليهم السلاح خوفًا على رسول الله ﷺ وحرس الصحابة المدينة من جميع وجوهها حتى الصباح.



خريطة غزوة أحد

(الرحيق المختوم / ٢٦٤ - أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٨)

خريطة رقم (٩)

فاستقبل النبي ﷺ بجيشه المدينة وجعل ظهره إلى هضاب جبل أحد واختار خمسين من الرماة المهرة وجعل قيادتهم لعبد الله بن جبير ﷺ وأمرهم بالتمركز على جبل يبعد مائة وخمسين مترًا جنوب شرق معسكر المسلمين وأمرهم ألا يغادروا مواقعهم أبدًا حتى يأذن لهم وبدأ القتال صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ثلاث هجريًا (٦٢٤م) وأسقط المسلمون حملة اللواء العشرة الذين تعاقبوا عليه وهُزِمَ المشركون هزيمة ساحقة وفروا منهزمين .

فعصى الرماه أمر النبي ﷺ وغادوا مواقعهم فالتف خالد وسيطر على حبل الرماة وهاجم المسلمين من خلفهم وصاح صيحة عرف منها المنهزمون بتحول الوضع فعادوا ليهاجموا المسلمين فأصبحوا محاصرين من الأمام والخلف ففر بعضهم إلى المدينة وانطلق بعضهم يحتمي بهضاب أحد أما الذين ثبتوا فوقعوا في ارتباك شديد وفوضى حتى وقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض وأُشيع أن رسول الله ﷺ قُتل ولما عاين النبي ﷺ ما حاق بالمسلمين من هزيمة قرَّر في شجاعة بالغة أن يجمع جيشه فوقف ينادى في المسلمين وكان يعلم أن المشركين قد يصلون إليه قبل المسلمين .

وبالفعل فقد أقبل عليه المشركون يريدون قتله فهذا عتبة بن أبي وقاص يرميه بحجر فيكسر رباعيته اليمنى وتَكْلَم[1] بسببه شفته السفلى، وهذا عبد الله بن شهاب الزهري يشج جبهته وابن قمئة يضربه على خوزته فتدخل حلقتي المغفر الحديديتين في وجنتيه الشريفتين ويضربه على عاتقه ضربة وجد النبي ﷺ ألمها شهرًا، ثم يسقط في حفرة حفرها أبو عامر الفاسق فتدمى ركبتاه وفى هذه اللحظات الحرجة من حياة رسول الله ﷺ تظهر بطولات أصحابه الذين استماتوا في الدفاع عنه ﷺ .

وأكثر الصحابة دفاعًا عن النبي ﷺ في هذا اليوم هو طلحة بن عبيد الله الذي أظهر بطولة خارقة في التصدي لقريش في هذا المقام وفوَّت عليهم فرصة سانحة لتحقيق

---

(١) كَلَمَ: جُرِحَ.

مأربهم بقتله ﷺ فقد نافح[1] عن النبي ﷺ بكل ما آتاه الله من قوة .

فقد روى مسلم في صحيحة عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أُفرد[2] يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش[3] فلما رهقوه قال ﷺ: ''من يردُّهم عنَّا وله الجنة- أو قال: هو رفيقي في الجنة؟'' فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل ثم رهقوه أيضًا فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة- كان آخرهم عمارة بن يزيد بن السكن[4] فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ- .

وأما الرجلان فقد صارا وحدهما جبهة تحمى النبي ﷺ وكانا من أمهر رماة العرب فتناضلا حتى أجهضا مفرزة[5] المشركين سعد يرمى بسهامه أما طلحة فأصدق ما يُذكر له ما رواه جابر ﷺ قال: ''لما كان يوم أحد وولّى الناس، كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً، منهم طلحة- وفى رواية: وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله- فأدركهم المشركون، فقال النبي ﷺ: ''من القوم؟'' قال طلحة: ''أنا''، قال ﷺ: ''كما أنت''. فقال رجلٌ: ''أنا''. قال ﷺ: ''أنت''، فقاتل حتى قُتل، ثم التفت فإذا المشركون، فقال ﷺ: ''من لهم؟'' قال طلحة: ''أنا''. قال ﷺ: ''كما أنت''، فقال رجل من الأنصار: ''أنا''، قال ﷺ: ''أنت''، فقاتل حتى قُتل. فلم يزل كذلك حتى بقي مع النبي ﷺ طلحة، فقال ﷺ: ''من للقوم؟'' قال طلحة: ''أنا''، فقاتل طلحة، قتال الأحد عشرة- وفى رواية: فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله- حتى قطعت أصابعه- وفى رواية: حتى أصيبت أنامله- فقال: حَسٍّ[6]. فقال رسول الله ﷺ: ''لو قلتَ: باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون''، ثم رد الله

---

(١) نافح: كافح ودافع.

(٢) أُفرِدَ: صار وحيدًا.

(٣) هما طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص رضي الله عنهما.

(٤) هكذا اسمه في السيرة النبوية لابن هشام.

(٥) المفرزة: مقدمة الجيش.

(٦) كلمة تقال عند إحساس الإنسان بالألم لما يصيبه من حرق غفلة.

المشركين[١]. وزاد البيهقى والنسائي: "حتى تلج بك في جو السماء".

وعن عائشة وأم إسحاق ابنتي طلحة قالتا: "جُرح أبونا يوم أحد أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجة مربعه، وقطع نَساه- تعنى العِرْق- وشُلت أصبعه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغَشْىُ ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيته، مشجوج في وجهه قد علاه الغشى وطلحة محتمله يرجع به القهقرى[٢]، كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه حتى أسنده إلى الشِّعَب"[٣]. وكان يومها ﷺ يرتجز:

نحـــن حمـــاة غالــــب ومالـــــك ... نـــذبُّ عـــن رســـولنا المُبَـــارَك

نضرب عنــه القــوم في المعــارك ... ضرب صَفّاح الكوم[٤] في المَبَــارِك

وهكذا وقف يدافع عن النبي ﷺ وهو لا يملك نفسه من الإعياء مما ناله من أذى لكنه لم يبالى وتماسك في عزم الجبال فقال النبي ﷺ فيه: "من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة"[٥].

وعن الزبير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أوجب[٦] طلحة"[٧]. وقال ﷺ: "من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله". ثم أقبل الصحابة إلى النبي ﷺ وكان أول من عرفه هو كعب بن مالك ﷺ قال: "عرفتُ عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بصوتي: يا معشر المسلمين! أبشروا فهذا رسول الله ﷺ! فلما عرفه المسلمون عطفوا[٨] عليه كما تعطف الناقة على فصيلها،

---

(١) رواه النسائي في سننه ورجاله ثقات، والذهبي في سير الأعلام، وروى البيهقى وأبو داود الطيالسى مثله وذكره ابن كثير في البداية وابن حجر في الفتح.
(٢) رجع للخلف.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات والذهبي في سير الإعلام
(٤) الكوم: جمع كوماء وهى الناقة ضخمة السنام.
(٥) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٦) أي قام بواجبه أو وجبت له الجنة.
(٧) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٨) عطف: مال وانحنى.

ونهضوا إليه فيهم أبو بكر وعمر وعلى والزبير والحارث بن الصمة وأبو عبيدة ﷺ[١].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال أبو بكر الصديق ﷺ: ''لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ، فكنتُ أول من فاء إلى النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجل يقاتل عنه ويحميه، قلتُ: كُن طلحة فداك أبي وأمي، كُن طلحة فداك أبي وأمي فلم أنشب[٢] أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني فدُفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعًا''، فقال النبي ﷺ: ''دونكم أخاكم فقد أوجب''. قال: ''فأقبلنا على طلحة نعالجه وقد أصابته بضع عشرة ضربة''[٣].

وروى ابن سعد في الطبقات أن رسول الله ﷺ قال: ''عليكم صاحبكم- يريد طلحة- وقد نُزف فلم ينظر إليه''. وهكذا كان أبو بكر ﷺ إذا ذُكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله لطلحة[٤].

فقد روى موسى بن طلحة رضي الله عنهما أنه رجع يوم أحد بخمس وسبعين أو سبع وثلاثين ضربة ربِّع[٥] فيها جبينه وقُطع نَساه[٦] وشُلَّت إصبعه التي تلي الإبهام[٧]. وما انصرف رسول الله ﷺ يوم أحد حتى قال لحسان بن ثابت ﷺ: ''قل في طلحة!'' فقال حسان بن ثابت ﷺ:

وطلحة يوم الشعَبِ آسى محمدًا ... على ساعة ضاقت عليه وشُقت
يقيه بكفيه الرماح وأسلمتْ ... أشاجعُه[٨] تحت السيوف فَشُلّت

---

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء.
(٢) لم ألبث.
(٣) رواه ابن حبان في صحيحة وذكره ابن القيم في زاد المعاد، والمباركفورى في الرحيق المختوم.
(٤) رواه أبو داود الطيالسى عن عائشة رضي الله عنها.
(٥) أصيب بُجرح مربع.
(٦) عرق النُسا.
(٧) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٨) الأشاجع: الأصابع.

وكـــان أمـــام النـــاس إلا محمـــدًا أقام رحى الإسلام حـــتى اســـتقلت

وقال أبو بكر ﷺ فيه:

حمى نـــبي الهـــدى والخيـــل تتبعـــه حتى إذا ما لقوا حامى عن الـــدين
صبرًا على الطعن إذ وَلَّت حمـــاقم والناس من بين مهـــدى ومفتـــون
يا طلحة بن عبيد الله! قد وجبـــت لك الجنان وزُوجت المهـــا العـــين

وقال عمر ﷺ فيه:

حمى نبي الهدى بالســـيف منصـــلتًا لما تولى جميع النـــاس وانكشـــفوا[1]

وقد قُتل طلحة ﷺ يوم الجمل حيث أُصيب بسهم مجهول وقيل قتله مروان بن الحكم رماه بسهم فوقع في ركبته فما زال يترف حتى مات فلما بلغ عليٌّ أمره قال: "بشروا قاتل طلحة بالنار!"، فلما مرَّ عليه عليٌّ مسح وجهه ولحيته وقال: "ليتني متُ قبل هذا بعشر سنين"[2].

وكان ذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين (٦٥٦م) وهو ابن أربع وستين سنة وقيل ابن ثنتين وستين سنة ودفن بقنطرة قرة ثم نقل ودفن في داره في الهجريين بالبصرة وقبره مشهور بها.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه ومنتخب الكنز وفيه سليمان بن أيوب الطلحى فيه نظر ووثقه ابن حبان وذكره في الثقات.

(٢) رواه الهيثمى في المجمع والطبراني بإسناد حسن.

الزبير بن العوام ﷺ

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، القرشي الأسدى. وهو ابن عمة النبي ﷺ فأمه صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، حواري[١] الرسول ﷺ وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى.

وهو أول من سَلَّ سيفًا في سبيل الله فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: "نفحت"[٢] نفحةٌ من الشيطان أن رسول الله ﷺ أُخذ بأعلى مكة، فخرج الزبير وهو غلام ابن اثنتي عشرة سنة، بيده السيف فمن رآه عجب وقال: الغلامُ معه السيف! حتى أتى النبي ﷺ فقال: "مالكَ يا زبير؟" فأخبره، وقال: أتيتُ أضربُ بسيفي من أخذك فدعا له ولسيفه[٣]. وفي رواية- خرج الزبير يشتد في الأزقة[٤] حتى أتى النبي ﷺ وهو بأعلى مكة والسيف في يده. فقال له النبي ﷺ: "ما شأنك؟" قال: "سمعت أنك أُخذت". فقال النبي ﷺ: "ما كنتَ تصنع؟" قال: كنت أضرب بسيفي هذا من أخذك. فدعا له رسول الله ﷺ ولسيفه، وقال: "انصرف!".

فكان أول سيف سُلَّ في سبيل الله[٥]. كما رواه سعيد بن المسيب ﷺ بقوله: إن أول من سَلَّ سيفًا في الله الزبير بن العوام ﷺ، بينا هو ذات يوم قائم إذ سمع نغمة: قُتل

---

(١) ذكر الذهبي في سير الأعلام أن الحواري هو خالصة الإنسان وصفية المختص به كأنه أُخلِص ونقّي من كل عيب، وتحوير الثياب هو أن تبيض وتغسل ومنه سمي أصحاب عيسى الحواريون لأنهم كانوا بيض الثياب وقيل لأنهم ناصروا عيسى عليه السلام..

(٢) نفخ وصرخ.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية ورجاله ثقات وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة والذهبي في سير الإعلام.

(٤) الأزقة: جمع زقاق وهو السكة.

(٥) رواه أبو نعيم في الدلائل والهندي في كنز العمال وذكره ابن عساكر في تاريخه وابن حجر في الإصابة.

رسول الله ﷺ، فخرج متجردًا بالسيف صلتًا[1]؛ فلقيه النبي ﷺ، فقال: ''مالك يا زبير؟'' فقال: ''سمعت أنك قتلت''. قال: ''فما أردتَ أن تصنع؟'' قال: أردت- والله!- استعرض أهل مكة. فدعا له النبي ﷺ بخير[2].

وليس عجيبًا أن يكون الزبير صاحب أول سيف يُشهر في الإسلام وقد تربى على الفروسية وشبَّ على حياة الضرب والطعان فكانت أمه صفية رضي الله عنها تقحمه في كل خطر وتحاول أن تنمِّي في نفسه روح الجهاد فكانت تبدو في صورة المُعَنِّفَةُ القاسية على ولدها حتى لامها بعض أعمامه فأجابته قائلة:

من قال أني أضربه فقد كذب إنما أضربه كي يلبَّ

ويهزم الجيش ويأتي بالسَّلَب

فكان قويًا بطلاً وهو في سن الصبا فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: قاتل الزبير بمكة وهو غلام، رجلاً فكسر يده وضربه ضربًا شديدًا فمُرَّ بالرجل على صفية وهو يُحْمَل، فقالت: ''ما شأنه؟'' قالوا: قاتل الزبير. فقالت:

كيف رأيت زبرا آأقطًا[3] حسبته أم تمرا أم مُشْمَعِلاً[4] صقرا؟[5]

أسلم في حداثة سنة،على يد أبي بكر[6] يرى ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى أن عمره يوم أسلم ست عشرة سنة، وقيل أسلم وهو ابن ثمان سنين وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة[7].

---

(١) مشهرًا.

(٢) ابن عساكر في تاريخه.

(٣) الأقط: نوع من اللبن المحمض كالجبن.

(٤) مُشْمَعِل: منتشر متفرق.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٦) أسلم على يد أبي بكر الصديق خمسة من العشرة المبشرين بالجنة وهم: عثمان وطلحة والزبير وابن عوف وسعد ﷺ.

(٧) رواه أبو نعيم والحاكم والهيثمي والطبراني عن أبي الأسود وهو حديث مرسل إلا أن رواته ثقات.

وتحمَّل الزبير ﷺ في سبيل دين الله أشد العذاب فعن أبي الأسود أنه قال: "كان عم الزبير يُعَلِّق الزبير في حصير ويُدَخِّنُ عليه بالنار، وهو يقول: "ارجع إلى الكفر!"، فيقول الزبير: "لا أكفر أبدًا"[١].

وشبَّ الزبير ﷺ فارسًا قويًا وهبه الله مقومات البطولة من قوة الجسم وشجاعة القلب، فقد كان طويلاً بائن الطول إذا ركب خطت رجلاه الأرض[٢]. وجاهد إلى جوار النبي ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ وأولها بدر فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: "شهد الزبير بدرًا وهو ابن تسع وعشرين سنة"[٣]. وعن هشام بن عروة قال: "لم يكن مع النبي ﷺ يوم بدر غير فرسين أحدهما للزبير"[٧]. فكان فارسًا من بين فارسين على ميمنة جيش المسلمين،

ومن فرط شجاعته وصبره على القتال كانت الملائكة تتشبه به في المعارك فعن هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنهما قال: "كانت على الزبير رَيْطة[٤] صفراء معتجرًا بها يوم بدر"، فقال النبي ﷺ: "إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير"[٥].

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: "كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء فنزل جبريل على سيماء الزبير"[٦].

وروى ابن سعد في الطبقات أن الزبير ﷺ يُعْلَمُ بعصابة صفراء، وكان يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بُلْق عليها عمائم صُفر.

وقد قال عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير في تشبه الملائكة بالزبير ﷺ:

جَدِّي ابنُ عمةِ أحمدٍ ووزيرُه   عند البلاء وفارسُ الشقراءِ

---

(١) رواه أبو نعيم والحاكم والهيثمي والطبراني عن أبي الأسود وهو حديث مرسل إلا أن رواته ثقات.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والهيثمي في المجمع.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٤) الريطة: ملاءة من قطعة واحدة.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٦) رواه الطبراني والهيثمي وقال مرسل إسناده صحيح.

وغَـــداة بـــدر كـــان أولَ فـــارسٍ   شهد الوغى في اللاَّمــةِ الصــفراء
نزلت بســـيماه الملائــكُ نُصــرة   بـــالحوض يـــوم تألُّـــبِ الأعـــداء

ومن بطولاته الفريدة يوم بدر ما رواه عروة عن الزبير رضي الله عنهما قال: "لقيتُ يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يُرى إلا عيناه وكان يكنى أبا ذات الكرش فحملتُ عليه بالعنزة[1] فطعنته في عينه فمات"، قال الزبير: "لقد وضعتُ رجلي عليه ثم تمطيت فكان الجهد أن نزعتها يعنى الحربة فلقد انثنى طرفها"[2].

ويظهر لنا هذا الموقف شجاعته وحسن تصرفه مع دقته البالغة في إصابة عينه من بين دروعه الكثيفة وكان من قوته في الرمية أن انثنت هذه العنزة في رأسه. وظلت العنزة مصدرًا للفخر حتى أن الرسول ﷺ سأله إياها فأعطاه الزبير إياها، فلما قُبض أخذها الزبير فطلبها أبو بكر فأعطاها إياه فلما قُبض أبو بكر سألها عمر فأعطاه إياها فلما قُبض عمرُ أخذها ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها فلما قُبض وقعت عند آل على، فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قُتل[3].

ويوم أحد ثبت مع النبي ﷺ وبايع على الموت وكانت له بطولات مجيدة، فقد روى ابن إسحاق أن طلحة بن أبي طلحة العبدرى[4] حامل لواء المشركين يوم أحد وكان أشجع فرسان قريش وكان المسلمون يسمونه كبش الكتيبة وكان راكبًا على جمل فدعا إلى البراز– معه رمح طويل يقاتل به بمهارة فائقة– فأحجم عنه الناس؛ فبرز إليه الزبير بن العوام ﷺ ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وقال: "إنَّ لكل نبيٍّ حواريًا، وحواريَّ الزبير"، ثم قال ﷺ: "لو لم يبرز إليه لبرزتُ أنا إليه لما رأيتُ من إحجام الناس عنه"[5].

---

(١) رمح صغير مدبّب الطرفين.
(٢) سيرة ابن هشام.
(٣) رواه البخاري في صحيحة عن عروة.
(٤) نسبة لبنى عبد الدار قومه.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير وحياة الصحابة للكندهلوى والسيرة الحلبية.

وتروى زوجته أسماء رضي الله عنها الحادثة فتقول: أقبل رجل من المشركين وعليه السلاح، حتى صعد على مكان مرتفع من الأرض فقال: من يبارز؟ فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم: ''أتقومَ إليه؟'' فقال له الرجل: إن شئت يا رسول الله! فأخذ الزبير ﷺ يتطلع. فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: ''قم يا ابن صفية!'' فانطلق إليه حتى استوى معه فاضطربا ثم عانق أحدهما الآخر، ثم تدحرجا فقال رسول الله ﷺ: ''أيهما وقع الحضيض[١] أول فهو المقتول، فدعا النبي ﷺ ودعا الناس، فوقع الكافر، ووقع الزبير على صدره فقتله[٢].

ويوم الخندق أظهر شجاعة خارقة وهو يدفع المشركين عن اجتياز الخندق فما استطاع المشركون أن يجوزوه إلا من ناحية واحدة حيث قام ثلاثة بذلك، فأتى عليٌّ بن أبي طالب على أحدهم وأجهز الزبير على آخر فعن ابن إسحاق قال: خرج نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى[٣] يوم الخندق فسأل المبارزة، فخرج إليه الزبير بن العوام ﷺ فضربه فشقه باثنتين حتى فلَّ في سيفه فَلاًّ، وانصرف وهو يقول:

إني امـــرؤ أحمـــي وأحتمـــي   عـــن الـــنبيّ المصـــطفى الأمـــي[٤]

عن أبي الزناد قال: ''ضربه الزبير على مغفره، فقطعه إلى القَربوس[٥]''[٧].
وروى البخاري ومسلم في صحيحهما وأحمد في مسنده أن النبي ﷺ جمع له أبويه يوم الخندق فقال: ''ارم فداك أبي وأمي''. وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: ''من يأتينا بخبر بني قريظة؟'' فقال الزبير: ''أنا''، فذهب على فرس، فجاء يخبرهم. ثم قال ﷺ الثانية، فقال الزبير: ''أنا''، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبي ﷺ: ''لكل نبيٌّ حواري وحواريَّ الزبير''[٦].

---

(١) الحضيض: ما سفل من الأرض.
(٢) رواه الطبري والهندي وذكره صاحب حياة الصحابة.
(٣) ذكره الذهبي في سير الأعلام أنه عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير وحياة الصحابة للكندهلوى.
(٥) القَربوس: مقدم السرج ومؤخره.   (٧) سير الأعلام للذهبي.
(٦) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد في مسنده وابن ماجة في سننه والطبري في الكبير والترمذي في سننه

وفي غزوة خيبر كانت له بها صولات وجولات وخاصة عند حصن ناعم وكان حصنًا منيعًا يعد خط الدفاع الأول لخيبر، فلما حاصرها المسلمون خرج صاحب الحصن مرحب اليهودي الذي كانوا يعدونه فيهم بألف فارس فقتله عليٌّ بن أبي طالب ﷺ ثم برز أخوه ياسر وكان فارسًا مدحجًا بالسلاح فأمر النبيُّ ﷺ الزبير فتصدى له فقتله[١]. وفي فتح مكة كان الزبير على المُجَنِّبَة[٢] اليسرى وكانت معه إحدى رايات المهاجرين الثلاث[٣]. ويوم حنين ظهر شاهرًا سيفه واضعًا رمحه على عاتقه عاصبًا رأسه بملاءة حمراء فقاتل المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم وهكذا جاهد هذا البطل مع النبي ﷺ أعظم الجهاد وذاد[٤] عنه في مواطن عدة حتى قال فيه حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ:

هو الفارس المشهور والبطل الـــذي	يصولُ إذا ما كان يـــومٌ مُحَجَّـــلُ
إذا كشفت عن ساقها الحرب حَشَّها	بأبيضِ سبَّاقٍ إلى المـــوتِ يُرْقِـــلُ[٥]
وإن امــــرءًا كانـــت صــــفيةُ أمُّـــهُ	ومـــن أســـدٍ في بيتـــها لَمُؤَثَّـــلُ[٦]
له مـــن رســـول الله قُـــربى قريبـــةٌ	ومن نُصرةِ الإِســـلام مجـــدٌ مؤثَّـــلُ
فكم كربـــةٍ ذَبَّ الـــزبير بســـيفه	عن المصطفى واللهُ يُعطـــي فيجـــزل
ثناؤك خـــيرٌ مـــن فعـــالِ معاشـــرٍ	وفعلُك يا ابـــن الهاشميـــة أفضـــلُ

وبعد عهد النبي ﷺ ظل علي العهد به شجاعًا سبَّاقًا إلى ميادين الجهاد لا يحجم عن خطر طالما كانت في ركابه عزة الله والمسلمين فانبرى سهمًا في جعبة الإسلام ينطلق في نحور أعدائه .

وابن سعد في الطبقات والحميدى في مسنده.
(١) الرحيق المختوم وحياة الصحابة.
(٢) المُجَنِّبة : جناح الجيش.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٤) ذاد: دفع وطرد.
(٥) أرقل: أسرع.
(٦) عند الحاكم في المستدرك المرفل وهو العظيم المبجل.

ففي يوم اليرموك كان أسدًا هصورًا يطيح برقاب أجناد الروم ويحصدهم حصدًا فعن هشام عن أبيه عروة ﷺ أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: "ألا تشدُّ فنشدُّ معك؟"، قال: "إني إن شددتُ، كذبتم"، فقالوا: "لا نفعل". فحمل عليهم حتى شق صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلاً، فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضُربها يوم بدر قال عروة ﷺ: "كنتُ أدخِل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير"[1].

وعندما دخل عمرو بن العاص مصر طال حصاره لها وشق ذلك عليه فأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يستمده فأرسل إليه عمر ﷺ يقول: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف، منهم الزبير بن العوام، وبلغ هذا المدد عمرو بن العاص عند حصن باب أليون (بابليون) وكان حصنًا منيعًا تحصن به الروم، وقد فُتح هذا الحصن بفضل شجاعة الزبير ﷺ وذلك أنه لما طال الحصار على المسلمين ضاقوا ذرعًا وكان أكثرهم ضيقًا الزبير ﷺ فقام في الناس خطيبًا فقال: "إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين"، وتقدم ليلاً إلى الحصن ووضع سلمًا على سوره وتسلَّق فلما أصبح على رأس الحصن شهر سيفه وكبَّر فانطلق المسلمون إلى رأس الحصن كالإعصار وقذف الله الرعب في قلوب الروم فاستسلموا وطلبوا الصلح وهم صاغرين[2].

وقُتل الزبير ﷺ وهو ابن أربع وستين سنة[3]. قتله عمرو بن جرموز غيلة[4] وهو قائم يصلي، ورُوى أنه لما جئ برأسه إلى علي بن أبي طالب، قال عليٌّ: "تبوَّأ يا أعرابي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وذكره ابن كثير في البداية والنهاية والذهبي في سير الأعلام وقال الذهبي: هذه الوقعة هي اليمامة لأن عبد الله بن الزبير كان معه وهو ابن عشر سنين وليست اليرموك وقال ابن كثير لا مانع عندي أن يكون ذلك قد جرى في الوقعتين.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٤) قتله غيلة أي على غفلة منه.

مقعدك من النار''، قال: حدثني رسول الله ﷺ: ''أن قاتل الزبير في النار''[١]. وجلس عليٌّ وأصحابه يبكونه، ودُفن بوادي السباع على بعد سبعة فراسخ من البصرة، وقالت عاتكة بنت زيد إحدى زوجاته في رثائه:

غدر ابنُ جرموزٍ بفــارسِ بُهْمَــةٍ[٢] يوم اللقاء وكــان غــير مُعَــرِّدِ[٣]
يــا عمــرو لــو نبَّهتــه لوجدتــه لا طائشًا رعش البنــان ولا اليــدِ
تكلتك أمــك إن ظَفَــرْتَ بمثلــه فيما مضى ممــا تــروح وتغتــدى
كم غمــرةٍ قــد خاضــها لم يثنــه عنها طرادُك يا ابن فقع الغَدفــدِ[٤]
واللهِ ربِّــك إن قتلــتَ لمســلمًا حلــتْ عليــك عقوبــةُ المُتَعَمِّــدِ

حقًا لقد سدادًا للثغور مدافعًا عن دين الله تعالى، أبلى في سبيل نشر دينه أعظم البلاء، وكم من مشهد دمى فيه في سبيل نصرة الدين حتى كان على بن زيد يقول فيه: ''كان يُرى الزبير وفى صدره أمثالُ العيون من الطعن والرمي''[٥]. فجزاه الله عن جهاده وحُسْنِ صحبته فسيح الجِنَان في رفقه النبي العدنان ﷺ.

---

(١) رواه أبو داود الطيالسى في مسنده وابن سعد في الطبقات وروى مثله الحاكم في المستدرك.
(٢) البُهْمَة: الشجاع وقيل الفارس الذي لا يُدرى من أين يؤتى لشدة بأسه.
(٣) المُعَرِّد: الهارب الفار.
(٤) إشارة إلى الذليل والفقع نوع أبيض من ردئ الكمأة والغدفد هي الأرض الخشنة.
(٥) أبو نعيم في الحلية والذهبي في سير الإعلام.

حمزة بن عبد المطلب ﷺ

حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشي الهاشمي. عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاع، كان يكنى أبا عمارة وُلد قبل النبي ﷺ بسنتين وقيل بأربع، أسلم في العام الثاني للبعثة النبوية. رجلٌ لم يَجُد الزمانُ بمثله، ولم يكن ليقوم له في زمانه ندًّا[1] أو شبيهًا، فهو بطلٌ مغوار وصاحبُ نفس تأصّلت على الشجاعة والفُتُوَّة، فاستحق بذلك ما وصفه به رسول الله ﷺ بأنه أسدُ الله وأسدُ رسوله ﷺ.

وقد ظهرت شجاعته جلية حتى قبل إسلامه فقد عاد يومًا من رحلة صيد متوشحًا قوسه فطاف بالكعبة فلقيته مولاةٌ لعبد الله بن جدعان وأخبرته بما نال به عدو الله أبو جهل من محمد ﷺ من أذى، فتملكه غضبٌ شديد وأخذ يبحث عنه لا يقف له أحد حتى أبصره جالسًا عند الصفا والمروة في مجلس من أشراف قريش فرفع القوس فضربه به فشَجَّه شجةً منكرة، وقال: ''أتسبُّه وأنا على دينه، فَرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت!''، فما استطاع أن يرده عنه أحد، وكانت هذه هي بارقة النور التي أشرقت في نفسه بالإسلام، وكان إسلامه منعة شديدة للإسلام. فعن ابن إسحاق قال: ''لما أسلم حمزة علمتْ قريش أن رسول الله ﷺ قد امتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه''[2].

ولقد أصبح حمزة قوة هائلة رجحت به كفة الإسلام وكدأب النبي ﷺ أن يتلمس مواضع البطولة في نفوس أصحابه فيجليها ويبرزها على خير ما فيها ومن هنا حظي حمزة بإعجاب ابن أخيه محمد ﷺ الذي سَبَرَ غوره[3] واستشفَّ مواضع العظمة

---

(١) الند: المثيل أو الشبيه.

(٢) رواه الطبراني في معجمه والحاكم في المستدرك والهيثمي في المجمع وهو مرسل إلا أن رواته ثقات، وذكره ابن هشام في سيرته والذهبي في سير الإعلام وابن الأثير في أسد الغابة.

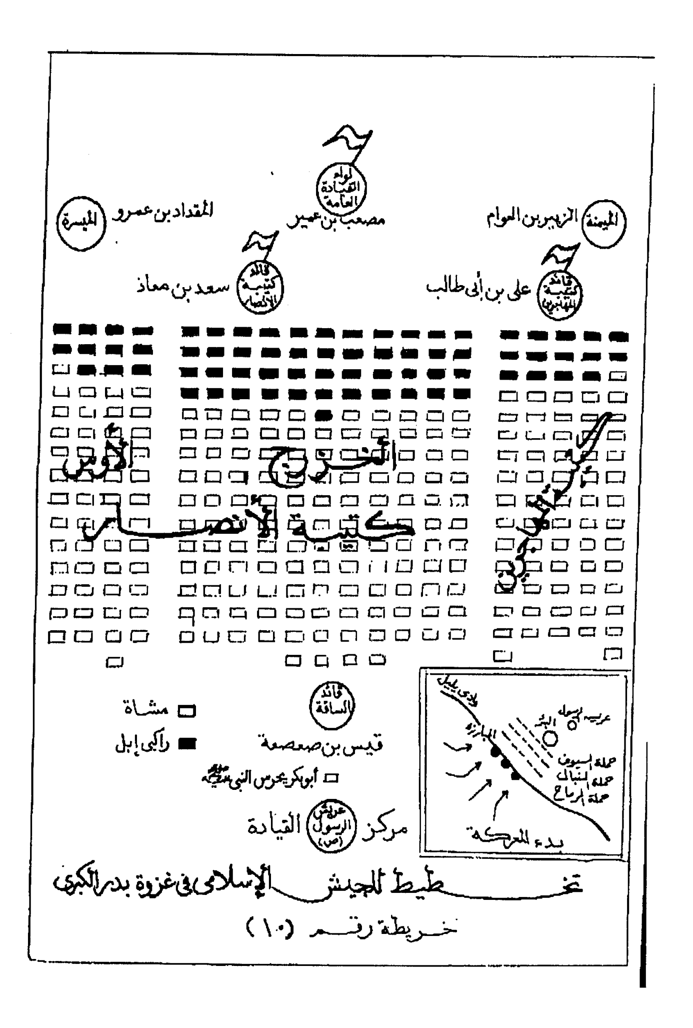
(٣) سبر غوره: تبين حقيقته وسره.

في نفسه فكنَّ له قدره وعرف فضله، لذا فقد عقد له الرسول ﷺ أول لواء في الإسلام وأمَّره على أول سرية ولم يكن ليقوم لهذا الشرف سواه ﷺ. فما إن عاد النبي ﷺ من الأبواء حتى أرسله ﷺ في رمضان في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢م) على ثلاثين راكبًا من المهاجرين- وكانت أولُ سرية في الإسلام- لاعتراض عيرًا لقريش قادمة من الشام يقودها أبو جهل وكان قوامها ثلاثمائة رجل فالتقوا على ساحل البحر من ناحية العيص[1] فتراءى الفريقان ولم يَهُلْهُ[2] أن عدوه يبلغ عشرة أمثاله فأقدم على القتال بمن معه لولا أن حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفًا لكليهما، فانصرف الفريقان ولم يلق المسلمون كيدًا وذكر حمزة في ذلك شعرًا قال فيه:

بأمر رسول الله أول خافق ... عليه لواءٌ لم يكن لاح من قبلي
لواءٌ لديه النصرُ من ذي كرامة ... إلهٌ عزيزٌ فعلهِ أفضل الفعلِ
فلما تراءينا أناخوا فعقَّلوا ... مطايا وعقَّلنا مدى غرض النبلِ
فقلنا لهم: حبل الإله نصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبلِ
فثار أبو جهل هنالك باغيا ... فخاب ورد الله كيدَ أبي جهلِ
وما نحن إلا في ثلاثين راكبا ... وهم مائتان بعد واحدة فضلِ[3]
فيا آل لؤى لا تطيعوا غواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهلِ
فإني أخاف أن يُصَبُّ عليكم ... عذابٌ فتداعوا بالندامة والثكلِ

(أنظر خريطة رقم (١٠) .

(١) العيص: موضع على ساحل قريش كانت تسلكه قريش للتجارة.
(٢) هاله: أفزعه.
(٣) أي ثلاث مائة.



تخطيط الجيش الإسلامى فى غزوة بدر الكبرى

خريطة رقم (١٠)

وتمر الأيام ليأتي يوم الفرقان يوم التقى الجمعان يوم بدر: المسلمون في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣ أو ٣١٤ أو ٣١٧رجلاً) كالآتي: بضع وثمانين رجلاً من المهاجرين (٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ رجلاً)، وواحد وستون من الأوس، ومائة وسبعون من الخزرج وكان معهم سبعون بعيرًا وفرسان للزبير والمقداد، وكان لواء القيادة العامة لمصعب بن عمير وقُسِّمَ الجيشُ إلى كتيبتين أحدهما للمهاجرين قائدها عليٌّ والأخرى للأنصار وقائدها سعد بن معاذ، وجعل على الميمنة الزبير وعلى الميسرة المقداد بن عمرو وعلى الساقة قيس بن أبي صعصعة.

أما قريش فكان قوم جيشها نحو ألف مقاتل[1] معهم مائة فرس وستمائة دارع وجمال كثيرة، وكان القائد العام للجيش هو أبو جهل الذي حثَّ هذا الجيش على القتال بطرًا وغرورًا. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال: ٤٧] وكانت المواجهة الحاسمة بين الإسلام والكفر عند بدر وكانت هذه الغزوة في ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة (١٥ مارس ٦٢٤م) وبرز رجال الإسلام يذبُّون عنه بغي المشركين وكان في مقدم الركب أسد الله حمزة ﷺ فما إن تقدم أعداء الله إلى مواقع المسلمين حتى برز لهم رجال الإسلام يدافعون عن دينهم دفاع الأبطال.

وكان أولُ المشركين خروجًا هو الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق، فقال: "أعاهد الله لأشربن من حوضهم[2] أو لأهدمنَّه أو لأموتن دونه"، فتقدم نحوه فلقيه حمزة فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ[3] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب[4] رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض

---

(١) كان جيش المشركين ألف وثلاثمائة ثم انسحب بنو زهرة وكانوا ثلاثمائة.
(٢) عفي المسلمون آبار المياه عدا بئرًا واحدًا صنعوا حوله حوضًا.
(٣) أطنَّ: قطع وبتر.
(٤) شخب دمه: نزل بغزارة.

حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض[١].

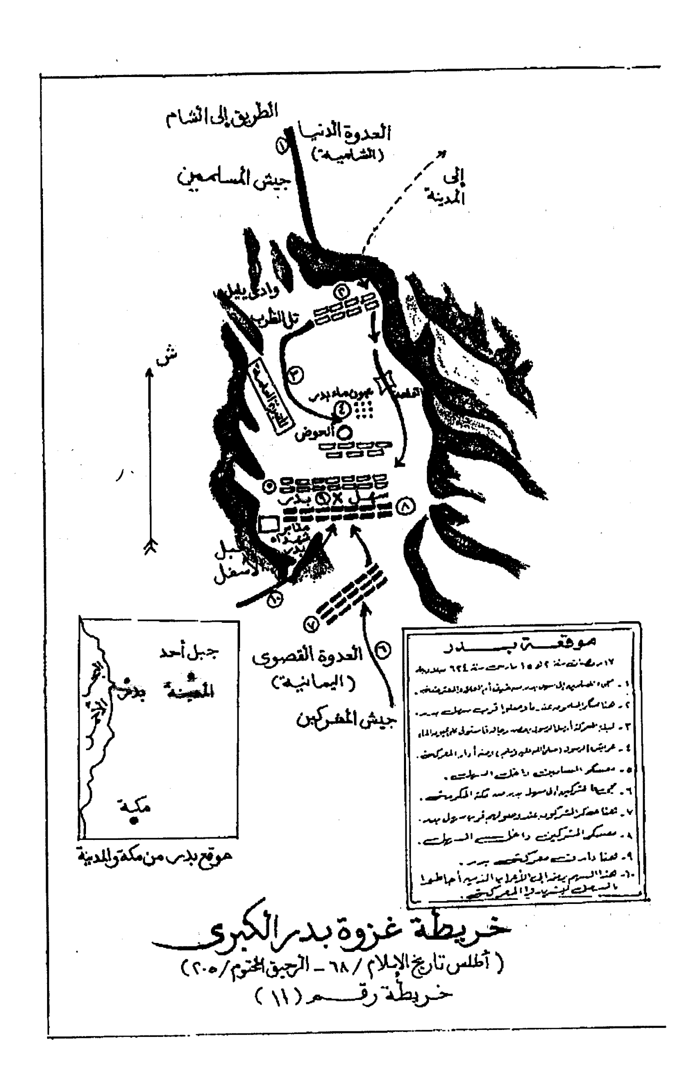
ثم خرج من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد بن عتبة فنادوا: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا!''[٢] ،فقال رَسُولُ الله ﷺ: ''قم يا حمزه بن عبد المطلب! قم يا على بن أبي طالب! قم يا عبيدة بن الحارث!'' فبرز حمزة لشيبة، وبرز عليٌّ للوليد وبرز عبيدة لعتبة[٣]. ولم يمهل حمزة وعليُّ صاحبيهما حتى قتلاهما، واختلف عبيدة مع صاحبه فأثبت كلٌّ منهم صاحبه فحمل حمزة وعليُّ على المشرك فأجهزا عليه ثم احتملا عبيدة إلى صفوفهم وكانت هذه المبارزة إيذانًا لا تِّقاد نار المعركة. (انظر خريطة رقم (١١) .

فاندفع المسلمون لنصرة دينهم فأنزل الله نصره على المؤمنين الذين صبروا وصابروا واستبسلوا في القتال وتجلت شجاعتهم في أعظم صورها، وأبلى حمزة أعظم البلاء وأعمل في المشركين القتل والتنكيل حتى هدَّهم هدًّا.

فعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال لي أميه بن خلف[٤]: ''يا عبد الإله! من الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره يوم بدر؟''، قلتُ: ''ذلك عم رسول الله ﷺ؛ ذاك حمزة بن عبد المطلب ﷺ''. قال: ''ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل''[٥]. وعادت قريش تجر أذيال الخيبة والهزيمة تمتلأ قلوب رجالها حقدًا وضغينه على ذلك الرجل الذي فعل بهم الأفاعيل وزاد حنقها عليه وهى تراه يعلى الإسلام في كل موضع يضعه فيه رسول الله ﷺ وفى كل مهمة يوكلها له.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان البستى.
(٢) خرج لهم ثلاثة من الأنصار هم عوف ومعوذ بن الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: قوم من الأنصار. فقال المشركون: أكفاء كرام ما لنا بكم حاجة وإنما نزيد بنى عمنا.
(٣) هذا ما ذكره ابن إسحاق وابن هشام في سيرهما وكذلك ابن حبان في السيرة وأخبار الخلفاء، أما في رواية أحمد وأبو داود أن عبيدة بارز الوليد، وعلى بارز شيبة وحمزة بارز عتبة وكذلك في سير الإعلام للذهبي.
(٤) كان قد أسره عبد الرحمن بن عوف وكانا يتحدثان أثناء سيرهما إلى معسكر المسلمين.
(٥) رواه البزار من طريقين أحدهما صحيح ورواه الهيثمى في المجمع.



خريطة غزوة بدر الكبرى
(أطلس تاريخ الإسلام / ٦٨ - الرحيق المختوم/٢٠٥)
خريطة رقم (١١)

ومنها اللواء الذي عقده له النبي ﷺ لحرب يهود بني قينقاع فحاصرهم المسلمون خمسة عشر ليلة ثم أجلوهم إلى أذرعات[١]. ولقد علمت قريش حق العلم أنها لن تقتل حمزة في حرب أو براز أبدًا، ولن يتاح لها الثأر منه إلا غيلة فنسجت مؤامرة لاغتياله أثناء المعركة وأسندت ذلك إلى وحشي[٢] وكان عبدًا حبشيًا لجبير بن مطعم فحرَّضه على قتل حمزة بعمه طعيمة ووعده بالعتق إن فعل.

وخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة في جمع غفير وخرجت معهم النساء لتثير حفيظتهم وتبعث في نفوسهم الحمية وكانت من بينهن هند بنت عتبة- وكانت يومها مشركة- التي خرجت لتثأر من حمزة الذي أحرق كبدها على أبيها وأخيها وولدها وكانت قد أغرت وحشي بالمال الكثير وكانت إذا مرت به يومها تقول: "ويها أبا دسمة، اشفِ واشتفِ!"، تحرضه على قتل حمزة ﷺ، ووقف وحشي عن كثب[٣] يراقب المعركة ولاهم له سوى حمزة ينتظر له غَرة فيقذفه بحربته، وما إن بدأ القتال حتى اندفع أسد الله فقتل أرطأة بن عبد شرحبيل بن هشام ثم هاجم حامل الراية عثمان بن أبي طلحة[٤] فضربه على عاتقة ضربة- هائلة- بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته، ثم تعاقب من حملة الراية بقية العشرة من بني عبد الدار فَقُتلوا الواحد بعد الآخر على أيدي الزبير وحمزة وطلحة وعليٍّ وعاصم بن ثابت فارتبكت صفوف المشركين وأخذهم المسلمون كل مأخذ وفعل بهم حمزة الأفاعيل .

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: "كان حمزة يقاتل يوم أحد بين يدي الرسول ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسدُ الله"[٥]. وكان وحشي أثناء ذلك متواريًا خلف حائل يراقب حمزة.

---

(١) أذرعات: موضع بأطراف الشام.
(٢) أسلم ﷺ بعد غزوة الطائف ثم قتل مسيلمة الكذاب في معركة اليمامة ثم شهد اليرموك وأبلى فيها أحسن البلاء.
(٣) عن قرب.
(٤) أخذ الراية بعد مقتل أخيه طلحة بن أبي طلحة الذي قتله الزبير.
(٥) رواه ابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

وروى ابن إسحاق أن وحشي قال في ذلك: ''خرجتُ أنظر حمزة، حتى رايته في عُرض[1] الناس مثل الجمل الأورق[2] يهدّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء وما يُليق[3] فوالله إني لأتهيأ له إذ تقدمني إليه سبَّاع بن عبد العزى الخزاعي، فلما رآه حمزة قال: هلم إليَّ يا ابن مقطِّعةُ البظور[4] ثم ضربه حمزة، فوالله لكأن ما أخطأ رأسه، ما رأيتُ شيئًا قط كان أسرع من سقوط رأسه فهززت حربتي حتى رضيتُ عنها، دفعتها عليه فوقعت في ثُنّته[5] حتى خرجت بين رجليه فوقع، فذهب لينوء[6] فغُلب فتركته وإياها حتى إذا مات قمتُ إليه فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ولم يكن لي حاجة غيره''[7]. ثم أقبلت هند بنت عتبة فبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها فلم تسيغها فلفظتها وقطعت أذنه وجدعت أنفه ومثلت به.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: فقد رسولُ الله ﷺ يوم أحد حمزة ﷺ حين فاء الناس من القتال. قال فقال رجل: رأيته عند تلك الشجرة، وهو يقول: أنا أسد الله وأسد رسوله. اللهم! إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء- لأبي سفيان وأصحابه- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء- من انهزام المسلمين- فسار رسول الله ﷺ نحوه. فلما رأى جبهته بكى، ولما رأى ما مُثّل به شهق، ثم قال: ''ألا كفن؟'' فقام رجل من الأنصار فرمى بثوب. قال جابر: فقال رسول الله ﷺ فيه: ''سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة، حمزة''[8].

وقال ﷺ: ''لولا أن تحزن صفية وتكون سُنَّةً من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير''، ثم أقبلت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها-

---

(١) عرض الشيء جوانبه وناحيته.

(٢) الأورق من الإبل ما اختلط فيه البياض والسواد.

(٣) يقال سيف لا يُليق شيئًا أي لا يمر بشيء إلا قطعه.

(٤) وكانت أمه ختَّانة تختن النساء.

(٥) أسفل البطن إلى العانة.

(٦) ينهض متثاقلاً.

(٧) رواه ابن هشام في سيرته وذكره ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب والذهبي في سير الأعلام.

(٨) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي.

وكان حمزة أخاها لأبيها وأمها- فقال الرسول ﷺ لابنها الزبير ﷺ: "القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها!"، فقال الزبير: "يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي!"، فقالت: "ولم؟! وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك، لاحتسبن ولأصبرن إن شاء الله". فقال النبي ﷺ للزبير: "خَلِّ سبيلها!".

وصلى النبي ﷺ عليه يجيء برجل من المسلمين فيصلِ عليه فيُرفع ويترك حمزة حتى صلى عليه سبعين صلاة، ثم دفن مع ابن أخته عبد الله بن جحش رضي الله عنهما.

رحم الله حمزة ﷺ كان شجاعًا صابرًا في الجهاد، صادقًا في طلب ما عند الله من الأجر والثواب، فما إن أقبلت قريش لقتال المسلمين يوم أحد، وصعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا: رأيتُ كأني في درع حصينة ورأيتُ كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبته[1] ورأيت بقرًا تذبح ورأيت كأني مردف كبشًا"، فقال الناس: "يا رسول الله فما أولتها؟"، قال ﷺ: "أما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها وأما انقصام سيفي عند ظُبته فقتل رجل من أهل بيتي- وكان حمزة ﷺ- وأما البقر المذبوح فقتلى من أصحابي وأما مردف كبشًا فكبش الكتيبة[2] نقتله إن شاء الله".

وقام بعض المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول فرأى عدم الخروج والبقاء بالمدينة، فقام حمزة ومعه بعض الصحابة كسعد بن عبادة والنعمان بن مالك وغيرهم فقالوا: "إننا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنًا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فأظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشرٌ كثير قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا"، وكانوا قد لبسوا لباس الحرب ووقف حمزة وكان صائمًا يوم الجمعة فقال: "والذي أنزل عليك الكتاب- يا رسول الله- لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي"، فخرج يوم السبت صائمًا ومات وهو صائم.

---

(١) ظُبة السيف: حده.

(٢) هو عثمان بن أبي طلحة حامل لواء المشركين وكان المسلمون يسمونه كبش الكتيبة.

قال رسول الله ﷺ: "رأيتُ الملائكة تغسل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب"[(١)] ومن كرامات الله عليه أن حفظه ميتًا فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما أراد معاوية أن يجرى عينه التي بأحد كتبوا إليه: إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، قال: فكتب: انبشوهم! قال: فرأيتهم يُحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام وأصابت المسحاة[(٢)] طرف رجل حمزة فانبعثت دمًا وكأنه قد مات الآن[(٣)] .

وهكذا قد حفظ الله أجسادهم وحرم على الأرض أن تأكلها، كما بدلهم خيرًا منها في الجنة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلها ومشربها ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عند الحرب ولا يزهدوا في الجهاد. قال الله: أنا أبلغ عنكم فأنزلت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾[(٤)] [آل عمران: ١٦٩] .

هذا كله إلى جانب ما ينتظره هو ورفاقه الشهداء من فضل وكرامة يوم القيامة وفى الجنة.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وحسنه الألباني.
(٢) آلة للحفر.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٤) رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه وروى مسلم مثله في صحيحه، وقال الأرنؤوط رجاله ثقات.

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، القرشي الهاشمي، عم النبي ﷺ كان أسن منه وولد قبله بثلاث سنين. أسلم قبل الهجرة على أرجح الأقوال لكنه كتم إسلامه وخرج مع قومه يوم بدر مكرهًا لذا نهى النبي ﷺ أصحابه على قتله، وكان قد أُسر يومها. وأعلن إسلامه قبل فتح مكة.

قال الذهبي: "كان من أطول الرجال وأحسنهم صورة وأبهاهم مع الحلم الوافر والسؤدد[1]، وكان يمنع الجار ويبذل المال[2] ويعطي في النوائب، وكان أجهر الناس صوتًا"، قال الضحَّاك بن عثمان الحزمي: "كان يكون للعباس الحاجةُ إلى غلمانه وهم بالغابة فيقف على سلع (جبل بالمدينة) وذلك في آخر الليل، فيناديهم فيسمعهم وبين الجبل والغابة نحو من تسعة أميال، وقيل كان للعباس راعٍ يرعى له على مسيرة ثلاثة أميال، فإذا أراد منه شيئًا صاح به فأسمعه حاجته"[3].

ويوم حنين ثبت فيه مع النبي ﷺ مع قلة من ثبتوا معه أمام هجمة هوازن وغطفان، فما إن دخل جيش المسلمين وادي حنين حتى فاجأتهم كمائن المشركين حيث قذفوا المسلمين بالنبل والحجارة فَفَرَّت الخيل براكبيها في جفلة[4] حيوانية محمومة وكان الوادي شديد الانحدار فتدافع المسلمون يركب بعضهم بعضًا فلما رأى النبي ﷺ ذلك انحاز جهة اليمين وهو يقول: "هلموا إليَّ أيها الناس! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله!" فلم يبق معه سوى عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته، وانطلق يركز بغلته قِبَل الكفار وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، وأبو سفيان آخذ بلجام بغلته والعباس آخذ بركابه، فأمر رسول الله ﷺ عمه العباس أن ينادي وكان

---

(١) الشرف والمجد.
(٢) ينفقه بسخاء.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(٤) الشرود والنفار.

جهير الصوت قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: "أين أصحاب السَّمُرَة؟"[١]، قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقرة على ولدها، فقالوا: لبيك يا لبيك[٢].

وقال صاحب حياة الصحابة: "ما إن سمعوا النداء حتى أقبلوا نحو رسول الله ﷺ في خفة الطير حتى أن الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلى سبيله حتى اجتمع لرسول الله ﷺ مائة فقاتلوا وتلاحقت كتائب المسلمين إلى موقع النبي ﷺ، فقال ﷺ: "الآن حمى الوطيس" ثم أخذ ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: "شاهت الوجوه"، وأنزل الله النصر على المؤمنين وقُتل من ثقيف وحدها سبعين رجلاً وأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦] .

ومن مواقفه وبطولاته ما رواه جابر ﷺ، قال: لقد بعث رسول الله ﷺ يوم الطائف حنظلة بن الربيع ﷺ إلى أهل الطائف، فكلمهم، فاحتملوه ليدخلوه حصنهم فقال رسول الله ﷺ: "من لهؤلاء؟ وله مثل أجر غزاتنا هذه". فلم يقم إلا العباس بن عبد المطلب ﷺ حتى أدركه في أيديهم، قد كادوا أن يدخلوه في الحصن، فاحتضنه العباس ﷺ- وكان رجلاً شديدًا- فاختطفه من أيديهم؛ وأمطروا على العباس ﷺ بالحجارة من الحصن. فجعل النبي ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبي ﷺ[٣].

(١) شجرة الحديبية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخه والهندي في الكنز وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

صفية بنت عبد المطلب ﷺ

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشية الهاشمية. عمة النبي ﷺ وشقيقة حمزة لأبويه. كانت أمها من بني زهرة، تزوجها الحارث أخو أبي سفيان بن حرب فتوفي عنها ثم تزوجها العوام أخو السيدة خديجة بنت خويلد فولدت له الزبير والسائب[١] وعبد الكعبة ويقول الذهبي: ''والصحيح أنه ما أسلم من عمات النبي ﷺ سواها''[٢].

وقد ربَّت صفية أبناءها على الجهاد والخشونة وعلى برى السهام وضرب السيوف فخرج من أبنائها أبطالاً كالزبير بن العوام ﷺ، ومن مواقفها العظيمة في الإسلام أنها أول امرأة قتلت مشركًا فأثناء حصار المسلمين لبني قريظة وكان النبي ﷺ قد جعل صفية والنساء في حصن حسان بن ثابت ﷺ، فعن هشام عن أبيه عنها أنها رضي الله عنها قالت: كان حسان معنا فمر بنا يهودي فجعل يطيف بالحصن، فقلت لحسان: ''إن هذا لا آمنة أن يدل على عورتنا، فقم فاقتله''. قال حسان: ''يغفر الله لك! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا''[٣].

وروى عبَّاد هذه الواقعة فقال: وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا أحد يدافع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، إذ أتانا آت. قال: فقالت صفية: فأخذتُ عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن[٤]. وكانت قد احتزت رأسه فألقته من فوق الحصن فتدحرجت حتى وصلت

---

(١) صحابي شهد بدرًا والخندق واستشهد يوم اليمامة ولا عقب له.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) كان حسان لا يحسن القتال وكان مسنًا.

(٤) رواه ابن منده وابن سعد والبيهقى وزاد فيه (هي أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين) ورواه ابن عساكر والبزار والهيثمى، كما ذُكر في البداية والنهاية والإصابة وسيرة ابن هشام وسير أعلام النبلاء وحياة الصحابة.

إليهم فلما رآها اليهود قالوا: علمنا أن محمدًا لم يترك النساء وحدهن لقد ظنوا أن بالحصن جيشًا من المسلمين و لم يعلموا أنها امرأة لكنها ليست كأي امرأة فوالله لو كانت كل النساء مثلها لفضلت النساء على الرجال وهذا كقول الشاعر:

فلو كـــان النســـاء كمـــا ذكرنـــا لفُضلت النســـاء علـــى الرجـــال
وما التأنيث لاسم الشمس عيـــبٌ ومـــا التـــذكيرُ فخـــرٌ للـــهلال

وقد توفيت صفية رضي الله عنها في سنة عشرين ولها بضع وسبعون سنة ودفنت بالبقيع.

المقداد بن الأسود ﷺ

المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة، القضاعى الكندي البهرانى. صحابيٌّ جليل وفارسٌ مقدام أصله من اليمن، وكان يُعرف بالمقداد بن الأسود نسبة إلى الأسود بن عبد يغوث الزهري الذي ادعاه[١]، وقيل كان حليفًا له[٢]. من السابقين الأولين في الإسلام .

فعن ابن مسعود ﷺ قال: ''أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمَّار وأمه سميه وصُهيب وبلال والمقداد بن عمرو ﷺ، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس[٣].. وصفه من رآه أنه كان طوالاً آدمَ وكان مهيبًا.

لازم رسول الله ﷺ وشهد معه جميع المشاهد وقد كان صادق الإيمان كريم النفس، فما إن جمع الرسول ﷺ أصحابه يستشيرهم في أول قتال مع المشركين يوم بدر، حتى انبرى قائلاً: ''يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٤] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه''، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به[٥].

ثم خرج المسلمون يوم بدر فكان المقداد ﷺ على ميسرة جيش المسلمين ولم

---

(١) تبناه.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) رواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه والحاكم في المستدرك وقال الذهبي صحيح الإسناد ورواه أبو نعيم في الحلية وابن أبى شيبة في المصنف وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٤) موضع جهة اليمن.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام.

يكن مع النبي ﷺ يوم بدر غير فرسين أحدهما للزبير والآخر للمقداد. وعُرِفَ المقداد بفارس رسول الله ﷺ.

وفى عهد الخليفة الصديق أبي بكر رضي الله عنه أظهر بطولات رائعة في معاركه مع الروم لاسيما في اليرموك، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه يعرف له قدره فجعله في مكان بارز من الجيش ليشد أزر المسلمين ويحقق لهم المثل الأعلى كما كان قارئًا لهذا الجيش يقرأ عليهم القرآن فيترل على قلوبهم بالبرد والسلام فيقّوى عزائمهم ويشدَّ أزرهم.

كما أسهم الرجل إسهامًا جادًا في فتح مصر، فلما أبطأ فتحُ مصر على عمرو بن العاص توجه إلى أمير المؤمنين يستمده على الروم فبعث إليه ما طلب مشفوعًا برسالة من أمير المؤمنين قال فيها: "إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجلٌ بمقام ألف منهم: المقداد بن عمرو"، فما إن وصل المدد وفيه المقداد وأبطال المسلمين وما إن دعا الداعي: يا خيلَ الله أركبي، حتى انطلقوا يقاتلون في سبيل الله ويتسابقون على الشهادة، فشارك في فتح حصن بابليون ثم وجهه عمرو بن العاص على رأس فرقة صغيرة ففتح قرية توته[1] ودميرة ثم اتجه إلى دمياط ففتحها وبنى بها مسجدًا عرف بجامع الفتح وهو يعرف الآن بجامع أبي المعاطى.

أما على ساحة العراق وقد احتدم بها القتال، فلما استشعر عمر الخطر من جانب الفرس قبيل القادسية قرر أن ينقله من ساحة الشام إلى ساحة العراق، فأطاع المقداد أمر القائد الأعلى وانتقل سريعًا إلى العراق، وبالفعل كان الرجل عند ظن قائدة، واستطاع أن يزلزل قلوب الفرس وكان النصر حليفًا لجند الله تعالى.

وظل المقداد رضي الله عنه يجاهد لرفعة دين الله تعالى حتى حان الأجل فمات سنة ثلاث وثلاثين بالجُرف[2] فحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان عمره يوم مات سبعين سنة[3].

---

(١) مكانها الآن كوم ابن سلام شرق المطرية بالدقهلية، الآن.
(٢) الجُرْف: مكان قرب المدينة.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.

زيـد بـن حارثـة ﷺ

زيد بن حارثة بن شراحيل- أو شرحبيل- بن كعب بن عبد العُزى بن يزيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان. مولى النبي ﷺ حيث آثر جوار النبي ﷺ على أبيه وقومه. وبلغ من شرف نفسه ما ذكره الإمام الذهبي عنه، قال: "هو الأمير الشهيد النبوي المسمى في سورة الأحزاب، ولم يُسَمِّ الله تعالى في كتابه صحابيًا باسمه إلا زيد بن حارثة، وهو سيد الموالى وأسبقهم إلى الإسلام وحِبُّ رسولِ الله ﷺ وأبو حِبِّه[1] وما أحب النبي ﷺ إلا طيبًا"[2].

ومن هذا يتضح فضل هذا الصحابي الجليل على اللهِ تعالى ورسولهِ ﷺ، كما كان من الرماة المعدودين والفرسان الشجعان والقادة المغاوير. وكان أول من استخدم كلمة السر في الحرب حيث قال صاحب المواهب: "كان شعار المسلمين في إحدى سراياه: أمت أمت وقد جعلوا هذه الكلمة علامة بينهم يتعارفون بها لأجل ظلمة الليل[3] .

وكان النبي ﷺ قد أرسله في جمادى الآخرة من السنة السادسة (٦٢٧م) على رأس خمسة عشر للإغارة على بني ثعلبة لأنهم قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة في سرية ذي القصة وكانوا يقيمون بالطرف[4] لكن بني ثعلبة علموا بقدوم المسلمين لقتالهم ففروا هاربين.

شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية وحنين واستخلفه النبي ﷺ على المدينة عندما خرج ﷺ في غزوة المريسيع[5]. لقد كان زيدٌ محبولاً على الجندية

(١) أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) السرايا الحربية في العهد النبوي نقلاً عن شرح المواهب للزرقاني.

(٤) الطرف: اسم ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

(٥) المعروفة بغزوة بني المصطلق.

مفطورًا على إمارة الجيوش، لذا كان النبي ﷺ يؤمِّره على كل سرية يبعثه فيها ويقول فيه إنه كان خليقًا بها، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمرَّه عليهم ولو بقي بعده لاستخلفه[١].

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: "غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات[٢] يؤمِّره رسول الله ﷺ علينا"[٣].

وذكر الواقدى: "خرج زيد بن حارثة أميرًا على سبع سرايًا"[٤]. أرسله النبي ﷺ في سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة (٦٢٩م) على رأس ثلاثة آلاف لقتال الروم فاجتمع عليه من الروم وحلفائهم جيشًا هائلاً قوامه مائتي ألف مقاتل، فلم يهب كثرة عددهم وعتادهم واندفع في طاعة الله ورسوله بجيشه الصغير الذي لا تتجاوز نسبته (١,٥%) من جيش الروم بمعنى أن الواحد من المسلمين يواجه أكثر من ستة وستين من الروم. وقاتل بالمسلمين في بسالة الليوث وصمود الجبال حتى أرهقوا الروم، وظل القائد البطل يتقدم الصفوف ويشق صدور أعداء الله حتى أرهقوه بكثرتهم واجتمعوا عليه وتساقطت عليه الضربات والطعنات حتى شاط في رماح القوم أي تمزق أشلاءً كثيرة تناثرت على نصال السيوف والرماح.

قال ﷺ: "أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبطون[٥] في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليه ربهم، فإذا ضحك ربك إلى عبده في موطن فلا حساب عليه"[٦].

وبينما رسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه إذ أتاه الوحي ونعي جبريل ﷺ

---

(١) رواه النسائي في سننه وأحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة في المصنف وذكره ابن الأثير في أسد الغابة والذهبي في سير الأعلام.

(٢) يقصد بالغزوة هنا السرية أو البعث.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وقال: إسناده صحيح ووافقه الذهبي.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٥) يتلبطون: يتمرغون.

(٦) رواه أحمد والطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع.

إليه زيدًا وخليفتيه على القيادة، فنعاهم رسول الله ﷺ وعيناه تذرفان، فعن أبي ميسرة قال: لما بلغ رسول الله ﷺ قتل زيد وجعفر وابن رواحة قام ﷺ فذكر شأنهم فبدأ بزيد، فقال: "اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد ثلاثًا، اللهم اغفر لجعفر وعبد الله بن رواحة"[١]. وكان سنُ زيد عندها خمس وخمسين سنة، وظل النبي ﷺ يذكره ويعلى شأنه ويعظم جهاده بعدها طويلاً في كل معرض.

ولما بعثَ الرسول ﷺ لقتال الروم في العام العاشر (٦٣١م) أمَّر على الجيش أسامة بن زيد ﷺ وكان حديث السن وكان الجيش يضم كبار الصحابة كأبي بكر وعمر، فتحدث الناس في ذلك وتعجب بعضهم وأنكر بعضهم فردَّ رسول الله ﷺ ردًّا قاطعًا حيث قال: "إن تطعنوا في إمارته، فقد طعنتم في إمارة أبيه، وايمُ الله إن كان لخليقًا بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن ابنه هذا لأحب الناس إليَّ بعده"[٢].

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات ورجاله ثقات إلا أنه حديث مرسل لأن أبو ميسرة وهو عمرو بن شر حبيل الهمداني تابعي.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وأحمد في مسنده والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وطرف الحديث (أن رسول الله ﷺ أمّر أسامة على قوم، فطعن الناس في امارته فقال ﷺ الحديث...).

جعفر بن أبي طالب ﷺ

جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، القرشي الهاشمي. ابن عم رسول الله ﷺ وأخو على بن أبي طالب، كان أسن من عليٍّ بعشر سنين. من المسلمين الأولين هاجر إلى الحبشة وكان رئيس وفد المسلمين وخطيبهم أمام النجاشي.

ثم هاجر من الحبشة إلى المدينة فوافي المسلمين وهم بخيبر بعد فتحها ففرح رسول الله ﷺ بمقدمه فرحًا شديدًا، فعن الشعبي قال: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر تلقاه جعفر فالتزمه رسول الله ﷺ وقبَّل بين عينيه وقال: "ما أدرى بأيهما أنا أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر"[(١)]. فلقد كان النبيُّ ﷺ يحبه وينزله منزلة كريمة من نفسه، وكان ﷺ يقول إذا رأى جعفرًا: "أشبه خَلقُك خَلْقي وأشبه خُلُقُك خُلُقي، فأنت مني ومن شجري"[(٢)].

وهذه أعظم شهادة لجعفر ﷺ من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يحبونه ويجلونه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب- يعني في الجود والكرم"[(٣)].

أرسله رسول الله ﷺ في سرية مؤته وجعل له الإمارة إن أُصيب زيد بن حارثة وكان عدد الروم يومها هائلاً يفوق المسلمين عشرات المرات فتكاثروا على المسلمين فقُتل زيد فأخذ جعفر الراية وأخذ يقاتل قتال الأبطال حتى أرهقه القتال ولم يستطع أن

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد لكنه مرسلٌ وذكره ابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في الإصابة.

(٢) رواه أحمد في مسنده ورجاله ثقات.

(٣) رواه أحمد في مسنده.

يتقدم خطوة بفرسه لازدحامهم عليه، فاقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها لتسبقه إلى الجنة- وكان أولُ من عقر فرسًا في الإسلام- وأخذ يقاتلهم مترجِّلاً وهو يرتجز:

يـــا حبـــذا الجنـــةُ واقترابهـــا طيبـــةٌ وبـــاردٌ شـــرابُها

والـــرومُ روم قـــددنا عـــذابُها علـــيَّ إن لا قيتـــها ضـــرابها

فاجتمعوا عليه فظل يقاتلهم حتى قطعوا يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعوا شماله، فاحتضنها بعضديه[1]، فلم يزل رافعًا إياها حتى قُتل فمات عليها.

قال الواقدى: ''ضربه رومي ضربة قطعته نصفين''.

وروى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ''فقدنا جعفرًا يوم مؤته فوجدنا بين طعنة ورمية بضعًا وتسعين، وجدنا ذلك فيما أقبل من جسده[2]. وعنه ﷺ قال: ''جمعتُ جعفرًا على صدري يوم مؤتة، فوجدتُ في مقدم جسده بضعًا وأربعين من بين ضربة وطعنة''[3].

كما روى البخاري في المغازى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل قال: ''فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره- يعني ظهره''.

فللَّه درُّ هذا البطل وأيُّ بطل هذا.. فقد صمد لهذه الطعنات وهو يقاتل صابرًا محتسبًا لم يستدبر عدوه ولم يفرْ لكنه ثبت كالطود الشامخ حتى نفذت إحدى هذه الطعنات التسعين منه إلى مقتل. فأثابه الله عن ذراعيه إذ بترتا جناحين في الجنة يطير بهما أنَّى شاء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ''رأيتُ جعفر بن أبي

---

(١) العضد: ما بين المرفق والكتف.

(٢) رواه البخاري في صحيحه وأبو نعيم في الحلية والحاكم في المستدرك وابن سعد في الطبقات.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

طالب مَلَكًا في الجنة، مضرجة قوادمه[(١)] بالدماء، يطير في الجنة"[(٢)]. لذا سمي بجعفر الطيار أو بجعفر ذي الجناحين.

وكان ابن عمر إذا سلّم على عبد الله بن جعفر قال: "السلام عليك يا ابن ذي الجناحين"[(٣)]. وكان عمره عندما نال الشهادة بضع وثلاثون سنة.

وعن أسماء بنت عميس زوجته رضي الله عنها قالت: "لما أُصيب جعفر وأصحابه دخل رسول الله ﷺ فقال لي: "ائتني ببني جعفر!"، قالت فأتيت بهم، فشمهم وذرفت عيناه، وقال فيه حسان بن ثابت يرثيه:

رأيتُ خيـار المـؤمنين تـواردوا ... شعوب[(٤)] وقد خُلِّفتُ ممـن يُـؤخَّرُ

فـلا يبعـدنَّ الله قتلـى تتـابعوا ... بمؤتة منـهم ذو الجنـاحين جعفـرُ

وزيـدٌ وعبـدُ الله حـين تتـابعوا ... جميعًـا وأسـباب المنيـة تخطـرُ

وكنا نرى في جعفـر مـن محمـد ... وفاءً وأمرًا صـارمًا حيـث يُـؤمرُ

فلا زال في الإسلام من آل هاشـم ... دعائم عـز لا تـزول ومَفْخَـرُ[(٥)]

---

(١) القوادم: ريشات مقدم الجناح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصححه والطبراني من طريق أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده جيد وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الفتح والذهبي في سير الأعلام.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

(٤) الشّعوب: من أسماء الموت.

(٥) الإصابة لابن حجر.

عبد الله بن رواحة ﷺ

عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة، الأنصاري الخزرجى. كان يكنى أبا عمرو أحد النقباء وواحد من شعراء الإسلام المعدودين ذاد بشعره عن حياض الإسلام والمسلمين.

شهد بدرًا وأبلى فيها أحسن البلاء، وقد بعثه النبيُّ ﷺ في سرية من ثلاثين راكبًا إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله[١].

كان مجاهدًا صادق العهد مع ربه لا يبغى إلا وجهه تعالى، امتلأ قلبه وفاضت روحه حبًّا للجهاد وتوقًا له رغبة فيما عند الله. أرسله رسول الله ﷺ في سرية مؤتة في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة (٦٢٩م) وحشد ثلاثة آلاف وأسند إليه القيادة بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ﷺ. فقال ﷺ: "إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس"[٢]. وخرج المسلمون لوداعهم داعين الله لهم بالنصر وسلامة العودة لكن عبد الله بن رواحة كان يبغى ما هو أسمى وأعلى ألا وهو الشهادة فردَّ قائلاً:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فَرَغ[٣] تقذف الزبدا[٤]

أو طعنة بيديّ حران مُجْهِزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يُقال إذا مرُّوا على جدثي[٥] ... أرشده الله من غازٍ، وقد رشدا

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات وابن هشام في سيره والطبري في تاريخه والذهبي في سير الأعلام.

(٢) السير والمغازى لابن إسحاق والبداية والنهاية لابن كثير وحياة الصحابة للكندهلوى.

(٣) واسعة.

(٤) الحشا.

(٥) قبري.

وانطلق القادة الثلاثة يقودون الجيش يقطعون القفار والمفازات وينهبون الأرض ويتسابقون إلى الجهاد، ومضى المسلمون حتى نزلوا "معانًا" من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل "مآب" من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليه من لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ مائة ألف منهم، فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان ينظرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له- فقام البطل الشجاع عبد الله بن رواحة فشجّع الناس- وقال: "يا قوم! والله! إن التي تكرهون للذي خرجتم من أجله تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة"[1].

فبثّ هذا البطل في المسلمين روح الحماسة والفداء فاندفعوا يتسابقون على الشهادة فقتل زيدٌ ثم جعفرُ وأخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد- وكان قد تملك نفسه بعض التردد لما رأى من مقتل صاحبيه وشدة بأس الروم وتكاثر أعدادهم بهذه الصورة المفزعة لكنه قهر الخوف داخله وهزم هوى نفسه فسجل انتصارًا في ساحة نفسه وميدان هواه قبل أن يسطره في ميدان المعركة بسيفه وهذا هو مبلغ الشجاعة- فقال لنفسه مرددًا:

أقسمتُ يا نفسْ! لتنزلنه ... لتنزلن طائعة أو لتكرهنه

مالي أراك تكرهين الجنة ... إن أجلب الناس وشدوا الرنة

لطالما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم قال مشجعًا نفسه:

يا نفس! إن تُقتلي تموتي ... هذا حمام[2] الموت قد صليت

---

(١) رواه ابن إسحاق في سيرته وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

(٢) عند غيره حياض.

وما تمنيت فقد أعطيتِ إن تفعلي فعلهما[1] هُديتِ

فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق[2] من لحم، فقال: "شد بهذا صلبك! فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت"، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة[3] في ناحية الناس. فقال- مخاطبًا نفسه-: "وأنت في الدنيا!"، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل[4].

---

(١) أي صاحبيه زيد وجعفر.

(٢) العرق: هو العظم الذي أخذ عنه معظم اللحم.

(٣) الازدحام وشدة المعركة.

(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وأبو نعيم في الحلية والهيثمي في الزوائد وقال: رجاله ثقات، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية والكندهلوى في حياة الصحابة.

أبو دجانة ﷺ

سِماك بن خَرَشَة بن لَوْذان بن عبد وُدّ بن زيد، الأنصاري الخزرجي الساعدى. من أبطال المسلمين الشجعان وفرسان الصحابة المغاوير.

شهد مع النبي ﷺ بدرًا وأبلى فيها أحسن البلاء، ويوم أحد كانت له فيها مواقف عظيمة حيث آثره رسول الله ﷺ على غيره فأعطاه سيفه.

فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال: ''من يأخذ هذا السيف؟'' فأخذ القوم؛ فجعلوا ينظرون إليه فقال ﷺ: ''من يأخذه بحقه؟''، ففلق به هام المشركين[1].

وعن الزبير بن العوام ﷺ قال: عرض رسول الله ﷺ سيفًا يوم أحد، فقال: ''من يأخذ هذا السيف بحقه؟'' فقام أبو دجانة سِماك بن خَرَشَة ﷺ فقال: ''يا رسول الله! أنا آخذه بحقه''. قال: فأعطاه إياه. فخرج واتبعته؛ فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه[2] وهتكه[3]. وفي رواية أخرى عنه ﷺ أن أبا دجانة ﷺ قال: ''أنا آخذه يا رسول الله بحقه! فما حقه؟''، قال ﷺ: ''أن لا تقتل به مسلمًا ولا تفر به عن كافر''. قال: قلت: ''لأنظرن إليه اليوم كيف صنع؟''، قال: ''فجعل لا يُرفع له شيءٌ إلا هتكه وأفراه''[4].

وروى ابن إسحاق وابن حبان والزهري أن رسول الله ﷺ لما سأل: ''من يأخذ هذا السيف بحقه؟'' فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة سِماك بن خَرَشَه أخو بني ساعدة. فقال: ''وما حقه؟''، قال ﷺ: ''أن تضرب به العدو حتى ينحني''. قال أبو دجانة: ''أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه''.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات.
(٢) أفراه: شقه ومزقه.
(٣) رواه البزار والهيثمى ورجاله ثقات.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

وعن الزبير بن العوام ﷺ قال: "وجدتُ في نفسي حين سألتُ رسولَ الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة ﷺ؛ وقلت: أنا ابن صفية عمته ﷺ ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله؛ فأعطاه أبا دجانة ﷺ وتركني، والله! لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته. فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه. فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت؛ وهكذا كانت تقول فيه إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنـــا الـــذي عاهـــدني خليلـــي ونحـــن بالســـفح لـــدى النخيـــل
أنا لا أقوم الـــدهر في الكيـــول[١] أضرب بســـيف الله والرســـول[٢]

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعًا يختال في الحرب وكان يعلم بعصابته الحمراء فكان إذا عصبها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت وما إن عصبها حتى جعل يتبختر بين الصفين[٣] فقال رسول الله ﷺ حين رآه: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن"[٤]...

ثم نعود مع الزبير ﷺ ليكمل لنا قصته، قال- وقد انطلق في إثره يرقبه: "فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله. وكان في المشركين رجلٌ لا يدع جريحًا إلا ذفف عليه[٥]، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة ﷺ، فاتقاه بدرقته، وضربه أبو دجانة ﷺ فقتله"[٦].

وعن كعب بن مالك ﷺ قال: "كنتُ فيمن خرج من المسلمين فلما رأيت مَثْل[٧] المشركين بقتلى المسلمين قمتُ فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة[٨] يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[١]. قال: وإذا

---

(١) الكيول: آخر الصفوف، وهو يعني أنه لا يقاتل في المؤخرة أبدًا بل يتقدم الصفوف.
(٢) السيرة لابن هشام والبداية والنهاية.
(٣) أي بين جيشي المسلمين والمشركين.
(٤) رواه البيهقي في الدلائل وذكره ابن هشام في سيرته وابن كثير في البداية.
(٥) أجهز عليه.
(٦) رواه ابن هشام في سيرته وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.
(٧) التمثيل بالقتلى وتشويههم.
(٨) أداة الحرب من سلاح ولباس.

رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنتُ من ورائه. ثم قمت أقدِّر المسلم والكافر ببصرى؛ فإذا الكافر أفضلهما عدَّة وهيئة. قال: فلم أزل انتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه وتفرَّق فرقتين ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة''[٢].

وظل أبو دجانة يحارب بسيفه حتى حمي الوطيس واشتدت رحى الحرب وأنزل الله النصر وانكشف المشركون حتى أنه لم يكن بين أخذ المسلمين هندًا[٣] وصواحبها إلا شيء يسير وهنَّ يولين مدبرات حتى انكشفت خلاخيلهن، لكن الرماة عصوا أمر النبي ﷺ وغادروا أماكنهم فانقلبت الدائرة على المسلمين فانكشفوا وأحاط المشركين بالرسول ﷺ يبغون قتله فأقبل عليه أبو دجانة وكان ممن ثبت مع الرسول ﷺ واستمات في الدفاع عنه حتى هانت عليه نفسه التي بين جنبيه.

فعن قتادة بن النعمان ﷺ قال: ''كنت نصبتُ وجه رسول الله ﷺ يوم أحد أقي وجه رسول الله ﷺ بوجهي، وكان أبو دجانة سِماك بن خَرَشَة موقيًا لظهر رسول الله ﷺ بظهره حتى امتلأ ظهره سهامًا[٤]. وظل أبو دجانة يحتضن رسول الله ﷺ ويجعل من نفسه ترسًا يقيه النبل وهو ثابت لا يتحرك حتى كثر فيه النبل ووصفه من رآه بأن ظهره صار كالقنفذ من السهام.

وهكذا كان الصحابة يحبون رسول الله ﷺ ويفدونه بأرواحهم وكم كانت دهشة المشركين والحيرة قد أخذت منهم كل مأخذ وكل منهم يسأل نفسه؟ ما هذه الروح التي يدافع بها الصحابة عن النبي ﷺ مضحين بأنفسهم ومستعذبين كل تضحية في سبيل ذلك؟ وأيُّ حبٌ هذا؟ .

---

(١) الغنم المذبوحة.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير.

(٣) هند بنت عتبة وقد خرجت من النساء تحمسهن وكانت يومها مشركة.

(٤) رواه الهيثمى في الزوائد وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

وفى خيبر أبلى أعظم البلاء وقتل أحد فرسان اليهود فنفله الرسول ﷺ سلبه ودرعه وسيفه .

ويوم حنين خرج رجل من هوازن يركب جملاً أحمر ومعه رمح طويل فأكثر في المسلمين القتل فثبت له أبو دجانة وضرب عرقوب جمله فسقط المشرك فأجهزة عليه عليٌّ رضي الله عنهما[١].

ويوم اليمامة أخطر حروب الردة وأشرسها على الإطلاق، أبلى أحسن البلاء، فلما انكشف المسلمون في أول هذه المعركة- نظرًا لجموع بني حنيفة الهائلة- إذ برجل من المسلمين يصيح: "أخلصونا! أخلصونا!"، فأخلصوا أربع مائة رجل من الأنصار يتقدمون صفوف المشركين ما يخالطهم أحد، يقدمهم أبو دجانة وعباد بن بشر والبراء بن مالك ﷺ حتى انتهوا إلى باب الحديقة فقاتلوا أشد القتال[٢].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: "رمي أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة فانكسرت رجله فقاتل وهو مكسور الرجل"[٣]. فقد اقتحم الحديقة وظل يقاتل صابرًا محتسبًا يتسامى على آلام جسده، فانطلق كالسهم الثاقب لا يلوى على شيء سوى رأس الضلال مسيلمة الكذاب، فاقبل إليه حتى طعنه بسيفه طعنه قاتله لكن أحد المشركين عاجله بسيفه من الخلف بطعنة نافذة فسقط أبو دجانة ﷺ مضرجًا في دمائه ﷺ بعد أن أدَّى واجبه تجاه دين الله رحمه الله تعالى، فما إن دخل عليه الناس وقد احتملوه إلى معسكر المسلمين حتى وجدوا وجهه يتهلل فرحًا فقيل له: "لم وجهك يتهلل يرحمك الله؟"، قال: "ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنتُ لا أتكلم فيم لا يعنيني، وكان قلبي للمؤمنين سليمًا"[٤].

---

(١) أصحاب النبي ﷺ لمحمود المصري.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي وأسد الغابة لابن الأثير.

(٤) حياة الصحابة .

البـــراء بـن مالـك ﷺ

البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر، الأنصاري النَّجاري. أخو خادم النبي ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنهما. الصحابي الجليل والبطل الكرَّار فهو أشجع فرسان الصحابة، ومضرب المثل في الشجاعة والتضحية بالنفس حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب لأحد أمراء جيشه: "لا تستعملوا البراء بن مالك على جيش فإنه مهلكة، من المهلكة يقدم بهم"[(١)].

وقد اشتهر بشجاعته في المبارزة وقدرته فعن أنس ﷺ قال: قال البراء ﷺ: "قد قتلتُ مائة منفردًا سوى من شاركت فيه"[(٢)]. وكان بجانب شجاعته مستجاب الدعاء ينصره دعاؤه كما ينصره سيفه قال رسول الله ﷺ فيه: "رُبَّ أشعث أغبر لا يؤبه له[(٣)]. لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك"[(٤)].

وكانت أول مُشاهده مع النبي ﷺ يوم أحد، كما بايع تحت الشجرة وقد تجلَّت شجاعته يوم اليمامة فلما شدَّ مسيلمة وإتباعه على المسلمين نادى خالد بن الوليد قائد المسلمين، البراءَ وقال: "قم يا براء!" فركب البراء فرسه وقال: "يا أهل المدينة لا مدينة لكم اليوم إنما هو الله وحده والجنة"، ثم تميز من الأنصار أربعمائة باعوا أنفسهم لله خرجوا على رأسهم البراء بن مالك حتى فتح الله عليهم وهُزم جيش مسيلمة فتراجعوا سريعًا إلى حديقة عالية الجدران فأوصدوا أبوابها عليهم فأعجز ذلك المسلمين الذين لم يستطعوا فتح أبوابها أو اعتلاء جدرانها، وهنا ظهرت شجاعة بطل المسلمين البراء بن مالك .

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات عن ابن سيرين والحاكم في المستدرك، وذكره ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) رواه البغوى بإسناد صحيح والطبراني بمعناه والهيثمى ورجاله رجال الصحيح والحاكم بمعناه وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وذكره الذهبي في سير الأعلام.

(٣) لا يلقي اهتمامًا ولا يُلتفت إليه.

(٤) رواه مسلم في صحيحه والهيثمى في الزوائد والخطيب البغدادي في تاريخه.

فعند الذهبي في سير الإعلام وابن إسحاق في السير أن المسلمين زحفوا إلى المشركين حتى ألجؤوهم إلى الحديقة (حديقة الموت) وفيها عدو الله مسيلمة. فطلب البراء من أصحابه أن يحتملوه على تُرس على أسنة رماحهم ويلقوه في الحديقة، فاقتحم إليهم وشد عليهم وقاتل حتى افتتح باب الحديقة[١].

وعن محمد بن سيرين ﷺ أن المسلمين انتهوا إلى حائط قد أُغلق بابه في رجال من المشركين. فجلس البراء بن مالك ﷺ على تُرس فقال: ارفعوني برماحكم، فألقوني إليهم. فرفعوه برماحهم، فألقوه من وراء الحائط فأدركوه وقد قتل منهم عشرة[٢]. واستطاع أن يقاتلهم حتى فتح باب الحصن وحده ودخل المسلمون يكبرون.

ويقول ابن كثير في ذلك: كان قذف البراء بن مالك كرامة تشبه معجزة قذف إبراهيم في النار بالمنجنيق فأنجاه الله منها[٣].

وجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحًا وأقام خالد بن الوليد شهرًا يداوى جراحه وكان يمرضه بنفسه[٤]. لقد كان بطلاً شجاعًا لا يهاب الموت ولا يحجم[٥] عن خطر يقسم على ربه فينصره ويجرى على يديه الكرامات فيبدو كما لو كان يقهر المحال.

وكانت له في فتوحات فارس صولات وجولات فعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ﷺ قال: "بينما أنس بن مالك وأخوه رضي الله عنهما عند حصن من حصون العدو يعنى الحريق وكان بتستر فكانوا يلقون كلاليب[٦] في سلاسل محماه، فتعلق بالإنسان فيرفعونه إليهم، ففعلوا ذلك بأنس، فأقبل البراء حتى تراءى في الجدار ثم قبض بيده على السلسلة، فما برح حتى قطع الحبل، ثم نظر إلى يده، فإذا عظامها

---

(١) سير أعلام النبلاء والإصابة والاستيعاب.
(٢) رواه البيهقى وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.
(٣) البداية والنهاية.
(٤) ابن حجر في الإصابة وابن عبد البر في الاستيعاب والذهبي في سير الأعلام.
(٥) أحجم عن الشيء: تراجع عنه.
(٦) جمع كلوب وهو حديدة معوجة الرأس.

تلوح[١] قد ذهب ما عليها من اللحم، وأنجى الله أنس بن مالك بذلك"[٢]. وفي رواية: عَلَقَ بعضُ تلك الكلاليب بأنس بن مالك ﷺ. فرفعوه حتى أقلّوه من الأرض؛ فأتى أخوه البراء فقيل له: أدرك أخاك وهو يقاتل الناس، فأقبل يسعى حتى نزا[٣] في الجدار؛ ثم قبض بيده على السلسلة وهي تُدار، فما برح يجرهم ويداه تُدَخِّنان- أي تحترقان من السلسلة المحماة- حتى قطع الحبل[٤].

ومن مواقفه العظيمة أنه بارز مرزبان الزَّارة[٥] فصرعه وأخذ سلبه[٦]، قيل أن البراء صرعه وقطع يديه وأخذ سواريه ومنطقته، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: كنا لا نُخَمِّسُ في السلب، وإن سلب البراء بلغ مالاً وأنا خامسه، فكان أول سلب خُمِّسَ في الإسلام وهكذا ذكره في معجم ما استعجم وذكره يا قوت الحموى في معجم البلدان وظل يقاتل في سبيل الله حتى استشهد سنة عشرين من الهجرة يوم فتح تُستر[٧]. قتله الهرمزان وكان البراء على ميمنة أبي موسى الأشعري يوم تُستر فقُتل على بابها الشرقي ودفن بها.

وعن أنس ﷺ قال: إن البراء لقي زحفًا من المشركين وقد أوجف[٨] المشركون في المسلمين فقالوا: "يا براء! أقسم على الله!"، فقال: "أقسمتُ عليك يا رب لَمَا منحتنا أكتافهم[٩] فمنحوا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس[١٠] فأوجفوا في

---

(١) تظهر.
(٢) رواه الطبراني وذكره ابن حجر في الإصابة.
(٣) قفز.
(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن.
(٥) الزارة: قرية كبيرة بالبحرين بها عين ماء مشهورة انحاز بعض المرتدين إليها فحاربهم المسلمون تحت إمرة العلاء بن الحضرمي وحاصرهم ونزلوا على صلحه..
(٦) وذلك في سنة اثنتي عشرة للهجرة.
(٧) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء: تُستر هي أعظم مدن خوزستان ويقع فيها قبره وهي مدينة مشهورة بصناعة الثياب والعمائم ثم فتحها عمر بن الخطاب وجعلها من أرض البصرة لقربها منها.
(٨) أوجف فيه: أي اندفع بين صفوفه بعنف وقوة.
(٩) منح كتفه: أي انهزم.
(١٠) بلدة في خوزستان فيها قبردانيال النبي ﷺ وبها أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان وقيل بناه أردشير بن بهمن. (معجم البلدان ٣/٣١٩)

المسلمين. فقالوا: "أقسم يا براء على ربك!"، فقال: "أقسمتُ عليك يا رب لَمَا منحتنا أكتافهم وألحقني بنبي ﷺ"، ثم حملوا، فانهزم الفرس وقُتل البراء شهيدًا[١].

وقيل استشهد يوم العقبة، فعن أنس ﷺ قال: "لما كان يوم العقبة بفارس وقد زوى[٢] الناس قام البراء ﷺ، فركب فرسه وهى تزجى[٣]، ثم قال لأصحابه: "بئس ما عودتم أقرانكم عليكم!"، فحمل على العدو، ففتح الله على المسلمين، واستشهد البراء يومئذٍ[٤].

رحمه الله وغفر له وجزاه الجنة مع رفقة الخير محمد ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وألحقنا الله تعالى بهم.

---

(١) رواه الترمذي في السنن والحاكم في المستدرك وصححه، والبيهقى.
(٢) انكمش.
(٣) أزجى الفرس: ساقه برفق.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك.

أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه

زيد بن سهل بن الأسود بن حِرام بن عمرو بن زيد بن مناة بن عدى بن عمرو بن مالك، الأنصاري الخزرجى النَّجَّاري. صاحب رسول الله ﷺ وهو من بنى أخواله. شهد بيعة العقبة وكان أحد النقباء الاثني عشر. كان من خيره المجاهدين وفى مقدمة الفرسان ومن الرماة المعدودين وهو القائل:

أنـــا أبـــو طلحـــة واسمـــي زيـــد   وكـــل يـــوم في ســـلاحي صـــيد

لقد كان شجاعًا لا يجبن له في الحروب صولات وجولات، قال فيه رسول الله ﷺ: "لصوتُ أبي طلحة في الجيش خير من فئة"[1]. وفى رواية عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "صوتُ أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل"[2].

شهد مع النبي ﷺ بدرًا وأبلى بها بلاءً حسنًا، ويوم أحد ثبت مع رسول الله ﷺ وجعل من جسده درعًا له ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: "لما كان يوم أحد انهزم ناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يديه مجوِّبًا[3] عليه بجحفة[4] وكان راميًا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة. وكان الرجل يمر معه الجُعبة[5] من النبل، فيقول ﷺ: "انثرها لأبي طلحة" ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: "يا نبي الله، بأبي أنت، لا تُشرف، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك"[6].

وفى رواية أخرى لأنس أن أبا طلحة كان يرمى بين يدي رسول الله ﷺ يوم

---

(١) رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه بسند صحيح ورواه ابن سعد في الطبقات عن جابر رضي الله عنه بلفظه.
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات عن أنس رضي الله عنه وإسناده حسن بالشواهد ورواه الحاكم في المستدرك والألباني في الصحيحة.
(٣) مجوِّبًا عليه: مُترسًا عليه.
(٤) الجحفة: الترس.
(٥) الجعبة: وعاء السهام.
(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي.

أحد وكان راميًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رَمَى أبو طلحة رفع بصره ينظر أين يقع سهمه فكان يدفعُ صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول: يا رسول الله، هكذا، لا يصيبك سهم(١).

ويوم حنين ثبت مع رسول الله ﷺ في قلة لا تتعدى المائة في وجه عدة آلاف من المشركين، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: "من قتل قتيلاً فله سلبه" فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم(٢).

وبعد وفاة النبيُّ ﷺ ظل يجاهد في سبيل ربه حتى بلغ مبلغ الشيوخ لكن لم يثنه كبر سنه عن الجهاد، وروى أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة: ٤١] فقال: "لا أرى ربنا إلا يستنفرنا شبابًا وشيوخًا، يا بَنّي جهزوني جهزوني!"، فقالوا له: يرحمك الله! لقد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر رضي الله عنه حتى مات، ومع عمر رضي الله عنه حتى مات، فدعنا نغزوا عنك. قال: "لا، جهزوني!"، فغزا البحر فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه بها وهو لم يتغير(٣).

وقيل دفن بالمدينة، وكان موته سنة أربع وثلاثين أو اثنتين وثلاثين وصلى عليه عثمان . وقيل مات عام إحدى وخمسين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات وكلاهما بإسناد صحيح.

(٢)رواه أبو داود في سننه والدارمى في سننه وابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وإسناده صحيح.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات بنحوه مطولاً، والبيهقى والحاكم بمعناه مختصرًا، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأبو يعلى مختصرًا، وقال: رجاله رجال الصحيح وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب والذهبي في سير الأعلام والكندهلوى في حياة الصحابة

سلمة بن الأكوع ﷺ

سلمة بن عمرو بن الأكوع، صحابي جليل كان من الشجعان والفرسان المغاوير وكان يسبق الخيل عدوًا. أول مشاهده الحديبية ثم بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، فعنه ﷺ قال: "بايعت النبي ﷺ ثم عَدَلْتُ إلى ظل الشجرة[١] فلما خف الناس قال ﷺ: "يا ابن الأكوع! ألا تبايع؟" قال: قلتُ: "قد بايعت يا رسول الله!"، قال أيضًا: فبايعته الثانية، ثم سُئل- بعد ذلك- على أيِّ شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: "على الموت"[٢].

لقد كان سلمة ﷺ جنديًا نذر نفسه لنصرة دين الله وإعلاء كلمته وله وقعة في الإسلام توضح مدى بطولته وتبرز مقدرته وشجاعته التي يعجز عنها البيان لذا أتركُ أعماله تحدِّثُ عنه.

فعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: "قدمنا المدينة زمن الحديبية مع رسول الله ﷺ فخرجت أنا ورباح ﷺ غلام النبي ﷺ وخرجتُ بفرس لطلحة بن عبيد الله ﷺ أريد أن أنديه[٣] مع الإبل. فلما كان بغلس[٤] أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله ﷺ، فقتل راعيها، وخرج يطردها هو وأناس معه في خيل. فقلتُ: يا رباح! اقعد على هذا الفرس، فالحقه بطلحة! وأخبر رسول الله ﷺ أنه قد أُغير على سرحه! قال: ثم اتبعت القوم معي سيفي ونبلي، فجعلتُ أرميهم وأعقر[٥] بهم، وذلك حين يكثر الشجر، فإذا رجع إليَّ فارس منهم جلست له في أصل شجرة ثم رميت، فلا يقبل إليَّ فارس إلا عقرت به، فجعلت أرميهم وأنا أقول:

---

(١) شجرة الحديبية.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي والترمذي في سننهما والبيهقي وابن سعد في الطبقات.

(٣) أسقيه.

(٤) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلط بنور الصبح.

(٥) اقتلهم.

أنـــــا ابـــــن الأكـــــوع   واليـــوم يـــوم الرضـــع[1]

قال: فألحق برجل منهم فأرميه وهو على راحلة، فيقع سهمي في الرجل حتى انتظم كتفه[2]، فإذا كنت في الشجر أحرقتهم بالنبل، فإذا تضايقتْ الثنايا علوتُ الجبل فرديتهم بالحجارة، فمازال ذلك شأني وشأنهم أتبعهم، وارتجز حتى ما خلق الله شيئًا من ظهر[3] رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري فاستنقذته من أيديهم، ثم لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحًا وأكثر من ثلاثين بُردة يستخفُّون[4] منها، ولا يلقون من ذلك شيئًا إلا جمعته على طريق رسول الله[5] ﷺ حتى إذا امتد الضحى أتاهم عيينة بن بدر الفزارى[6] مددًا لهم وهم في ثنية ضيقة، ثم علوت الجبل فأنا فوقهم. فقال عيينة: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[7] ما فَارَقَنَا بسحر[8] حتى الآن وأخذ كل شيء بأيدينا وجعله وراء ظهره. فقام إليَّ نفرٌ منهم أربعة فصعدوا في الجبل. فلما أسمعتهم الصوت، قلت: أتعرفوني؟ قالوا: ومن أنت؟ قلتُ: أنا ابن الأكوع والذي كرَّم وجه محمد ﷺ[9] لا يطلبني رجل منكم فيدركني وأطلبه فيفوتني. قال: فما برحت مقعدي ذلك حتى نظرتُ إلى فوارس رسول الله ﷺ يخللون الشجر، وإذا أولهم الأخرم الأسدى وعلى أثره أبو قتادة- رضي الله عنهما- فارس رسول الله ﷺ وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي، فولَّى المشركون مدبرين- وقتل عبدُ الرحمن بن عيينة، الأخرمَ الأسدى، ثم قام له أبو قتادة فقتله- ثم إني خرجت أعدو في أثر القوم حتى ما

---

(١) أي يوم هلاك اللئام.

(٢) توسطه.

(٣) يُقال للدواب والإبل ونحوه.

(٤) يتخففون من حملها.

(٥) الطريق الذي يوصل إلى رسول الله ﷺ والذي سيسلكه إليه لما يبلغه الأمر.

(٦) عيينة بن حصن، الفزارى: أسلم بعد الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم شهد حنينًا والطائف، وبعد موت النبي ﷺ ارتد وتبع طليحة بن خويلد. أسره أبو بكر فتاب فأطلقه أبو بكر. (أسد الغابة ٣١٨/٤).

(٧) البارحة: أي أمس.

(٨) السحر: آخر الليل قبيل الفجر.

(٩) يقسم بالله تعالى.

أرى من غبار صحابة النبي ﷺ شيئًا، ويعرضون- أي الكافرون- قبل غيبوبة الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له "ذو قرد"، فأرادوا أن يشربوا منه فأبصروني أعدو وراءهم فعطفوا[1] عنه، وأسندوا في الثنية "ثنية ذي بئر" وغربت الشمس وألحق رجلاً فأرميه، قال: ثم خلّفوا فرسين فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي أجليتهم عنه "ذو قرد"[2]. قال: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ خلّني فأنتخب من أصحابك مائة، فآخذ على الكفار بالعشوة فلا يبقى مخبر إلا قتلته. فقال: "أكنتَ فاعلاً ذلك يا سلمة؟"، قال: قلتُ: نعم والذي أكرمك. فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيت نواجذه في ضوء النهار. قال: فلما أصبحنا، قال رسول الله ﷺ: "خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالنا سلمة"، فأعطاني رسول الله ﷺ سهم الفارس والراجل جميعًا[3].

سبحان الله! هل سمعتم عن جيش قوامه رجلٌ واحد، فأيُّ قوة هذه.. وأيُّ شجاعة تلك، وهل هذا عمل يطيقه فرد أم كتيبة مجهزة من الجند؟! وكيف لرجل أن يتصدى لجيش بكامل عدده وعدته يقاتلهم يومًا وليلة، فتارة يصعد الجبل فيقذفهم بالحجارة، وتارة يرميهم بالنبل بين الأشجار، وتارة يبارزهم فيأخذ أسلابهم ويزجر ثلاثين رجلاً من أعدائه يسوقهم كالقطيع المذعور.

وعاش سلمة بن الأكوع حتى تجاوز التسعين عامًا، ومات بالمدينة سنة أربع وسبعين على الصحيح[4].

(١) مالوا عنه.

(٢) كان النبي ﷺ قد خرج بنفسه فيما عرفت بغزوة ذي قرد (الغابة) في ثمانية من أصحابه لرد اعتداء عيينة بن حصن في جمادى الأولى ٦هـ.

(٣) رواه مسلم في صحيحة وأحمد في مسنده وذكره ابن كثير في البداية والنهاية والكندهلوى في حياة الصحابة والطبرى في تاريخه (١١٢/٣).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي.

أبو قتادة الأنصاري ﷺ

أُختلف في اسمه فقيل اسمه الحارث بن ربعي، وقيل اسمه النعمان، وقيل عمرو، عُرف بفارس رسول الله ﷺ. قد تصدى لرأس المشركين مسعدة الفزارى[١] عندما أغار على سرح أهل المدينة فقتله فنفله رسول الله ﷺ فرس مسعدة وسلاحه[٢]، وقال النبيُّ ﷺ فيه: ''خير فرساننا أبو قتادة''[٣]. وكان ذلك زمن الحديبية في العام السادس للهجرة (٦٢٧م) .

وشهد هذا الصحابي مع النبي ﷺ أحدًا والحديبية والخندق واختلف في شهوده بدر، ثم جاهد في عهد عمر ﷺ جهاد الأبطال وأسهم في فتح بلاد فارس.

فعن عبد الله بن عبيد بن عمير أن عمرَ بعث أبا قتادة فقتل ملك فارس بيده وعليه مِنطقة[٤] قيمتها خمسة عشر ألفًا فنفلها إياه عمر[٥].

قال الذهبي: توفي وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

---

(١) عند ابن كثير في البداية والنهاية والكندهلوى في حياة الصحابة اسمه عبد الرحمن بن عيينة الفزارى.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) رواه مسلم في صحيحة وأحمد في مسنده والطبراني وإسناده حسن.

(٤) المنطقة: ما يتمنطق به كالحزام ونحوه.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات ورجاله ثقات.

أبو حدرد الأسلمي ﷺ

صحابي جليل عُرف بالشجاعة والقوة حتى أن رسول الله ﷺ أرسله سرية في رجلين فقاتل القوم مع الرجلين وقتل زعيمهم واستاق إبلهم وأموالهم إنه أبو حدرد الأسلمي ﷺ.

أسلم مبكرًا وشهد مع رسول الله ﷺ جميع مشاهده وقد أرسله رسول الله ﷺ معه رجلين لقتال أحد البطون أو القبائل التي تجمعت لحرب النبي ﷺ فهزمهم وسلب متاعهم.

فعن أبي حدرد الأسلمي ﷺ قال: أقبل رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس- أو قيس بن رفاعة- في بطن عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسًا على محاربة رسول الله ﷺ وكان ذا اسم وشرف في جشم. قال: فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين، فقال ﷺ: "اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم".

قال أبو حدرد: "فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف حتى إذا جئنا قريبًا من الحاضر[1] مع غروب الشمس، فكمنتُ في ناحية، وأمرتُ صاحبَيَّ فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم"، وقلت لهما: "إذا سمعتماني قد كبَّرت وشددتُ في العسكر، فكبِّروا وشدُّوا معي، فوالله! إنَّا كذلك ننتظر أن نرى غَرة أو نرى شيئًا، وقد غشينا الليلُ حتى ذهبتْ فحمةُ العشاء[2] وقد كان لهم راع قد سرح في ذلك البلد فأبطأ عليهم، وتخوَّفوا عليه. فقام صاحبهم رفاعة بن قيس، فأخذ سيفه فجعله في عنقه- أي علقه في عنقه- قال: وخرج حتى مرَّ بي. فلما أمكنني نفحته بسهم فوضعته في فؤاده،

(١) الحاضر: الغرض أو الهدف.
(٢) أي اشتد سواد الليل من وقت العشاء.

فوالله!ما تكلم فوثبت إليه فاحتززتُ رأسه، ثم شددتُ ناحية العسكر وكبرتُ، وشدَّ صاحباي وكبَّرا، فوالله! ما كان إلا النجا ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم، وأبنائهم، وما خفَّ معهم من أموالهم، واستقنا إبلاً عظيمة وغنمًا كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ وجئتُ برأسه أحمله معي"[1].

(١) رواه أحمد في مسنده وسمي راويه عنده عبد الله بن أبي حدرد وذكره ابن كثير في البداية والنهاية والكندهلوي في حياة الصحابة.

أبو عقيل الأنيفي ﷺ

صحابي جليل من الأنصار آمن بالله وشهد للنبي ﷺ فحسن إسلامه وشهد كثير من مشاهد النبي ﷺ ولما مات النبي ﷺ وسرت فتنة الردة في الجزيرة كالنار في الهشيم ثبت مع من ثبت وانبرى للجهاد يوم اليمامة فأبلي أعظم البلاء، وعن جعفر بن عبد الله بن أسلم الهمداني ﷺ قال: ''لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جُرح أبو عقيل الأنيفي ﷺ رُمِيَ بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده، فشطب[١] في غير مقتل، فأخرج السهم- ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه- وهذا أول النهار وجُرَّ إلى الرَّحْل. فلما حمى القتال- وانهزم المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهنٌ من جراحة- سمع مَعن بن عدى ﷺ يصيح بالأنصار: الله! الله! والكرة على عدوكم، وأعنق[٢] معن يقدم القوم، وذلك حين صاحت الأنصار: أخلصونا! أخلصونا! فأخلصوا رجلاً رجلاً يُمَيَّزون''.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فنهض أبو عقيل يرتد قومه، فقلت: ''ما يريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال[٣]؟''، قال:''قد نوَّه المنادى باسمي''. قال ابن عمر: فقلت: ''إنما يقول يا للأنصار! لا يعنى الجرحى''. قال أبو عقيل:''أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوًا''. قال ابن عمر رضي الله عنهما: ''فَتَحَزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجردًا[٤] ثم جعل ينادى: يا للأنصار! كرّة كيوم حنين، فاجتمعوا جميعًا يقدمون المسلمين دُرْبَة[٥] دون عدوهم فاقتحموا على عدوهم الحديقة، فاختلطوا

---

(١) شطب السيف أو السهم جسمه: أي ترك فيه أثرًا.
(٢) أعنق: أسرع.
(٣) أي ما فيك نزل الأمر بالقتال لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].
(٤) ليس عليه درعًا ولا خوذة.
(٥) شجاعة.

واختلفت السيوف بيننا وبينهم، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقع على الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل- حتى كان النصر- وقتل عدو الله مسيلمة،

قال ابن عمر: فوقعتُ على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: "يا أبا عقيل! فقال: لبيك- بلسان ملتاث[1]- لمن الدبرة[2]؟"، قال: قلتُ: "أبشر! ورفعت صوتي: قد قُتل عدوا لله، فرفع أصبعه إلى السماء بحمد الله ومات- برحمة الله-"، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فأخبرت عمر ﷺ، فقال عمر: "رحمة الله! ما زال يسأل الشهادة ويطلبها وإن كان ما علمتُ من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم الإسلام"[3].

وهكذا نرى أعظم آيات الفداء والتضحية في سبيل الله من بطلٍ لم تمنعه إصابته وعذره عن الجهاد و لم تثبته جراحاته فتحمل ما لا تطيقه الجبال من أجل نصرة دين ربه وفى سبيل إدراك الشهادة تلك الغاية التي طالما اشتهاها وسعى إليها حتى رزقه الله إياها وهذا هو الفوز العظيم.

لقد نصر الله المسلمين يوم اليمامة ذلك اليوم الذي برز فيه الكفر كلُّه للإسلام فتصدى له ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقُتل يومها من المسلمين جمعٌ وفير نحسبهم عند الله تعالى شهداء[4]، ولولا أبو عقيل ومن على شاكلته من جند الله يومئذ لكان قد قُضى على لا إله إلا الله وما كان أحدٌ ليعلم ما كان سيؤل إليه[5] شأن الإسلام، لكنى أقول إن الله ناصر دينه فهو من وهبه رجالاً مخلصين يرفعون رايته ويعلون مكانته ويقهرون أعداءه؛ رجالٌ كأبي عقيل.

(١) متلجلج.
(٢) الدبرة: أصلها بالياء (الديرة) أو الدائرة، يُقال لمن الدائرة للمنتصر وعلى من الدائرة أي الهزيمة.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.
(٤) قُتل من المسلمين ١٢٠٠ رجل منهم ٤٥٠ صحابيًا.
(٥) سينتهي إليه.

سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه

صحابي جليل لا يعرفه كثير من الناس رغم علمه وفضله، فقد كان أعلم الناس بكتاب الله وأنداهم صوتًا وأقرأهم للقرآن حتى أن رسول الله ﷺ قال فيه: خذوا القرآن عن أربعة: زيد بن ثابت وأبي الدرداء وابن أم عبد- أي عبد الله بن مسعود وهذا الصحابي، إنه سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما[1].

وقد اختُلف في اسمه فقيل سالم بن عتبة بن ربيعة وقيل سالم بن معقل، وقيل أنه فارسي من أهل اصطخر، لكنه يعد من الأنصار لأنه عتيق لامرأة من الأنصار من بني عبيد تزوجها أبو حذيفة لذا عرف بمولى أبي حذيفة.

وسالم مع علمه وفقهه لم يكن لينشغل عن الجهاد، وأبت عليه نفسه أن يضيع أجر أحدهما، فلازم النبي ﷺ في كل وقعة وكان من خيرة المجاهدين يتقدم الصفوف ويقاتل في كل موقعة يطلب الشهادة وفي يوم اليمامة انكشف جيش المسلمين عند بدء المعركة فتقدم زيد بن الخطاب رضي الله عنه براية المسلمين فَقُتل وسقط اللواء من يده فأسرع سالم رضي الله عنه فحمله فقال له نفر من المسلمين: "يا سالم إنا نخاف أن نُؤتى من قِبَلك!"، قال: "بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قِبَلي"، وقاتل أشد القتال، واستمات على الراية وهي في يده ثم قال لما رأى من المسلمين انكسارهم: "ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ"، ثم حفر حفرة لنفسه وقام فيها يُقاتل فقطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره فقُطعت يساره فاعتنق الراية وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقي الله تعالى شهيدًا أخلص النية لله وقام بالقرآن بحقه علمًا وعملاً فجمع الله له ثوابهما معًا رضي الله عنه وأرضاه، وبمثل جهاد سالم وزيد بن الخطاب ومن معهم تنزل النصر

---

(١) الحديث رواه: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي.

وزُلزلت الأرض بالكافرين وانتصر المسلمون وقمعوا فتنه الردة، وتمر السنوات وإذ بعمر بن الخطاب ﷺ مطعونًا على فراش الموت لم ينس سالمًا، فأخذ يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "لو كان سالمًا حيًّا ما جعلتها شورى".

معاذ بن عمرو بن الجَمُوح ﷺ

معاذ بن عمرو بن الجموح بن كعب، الأنصاري الخزرجي السلمي. شهد بيعة العقبة وبدرًا أحدًا، وهو قاتل زعيم المشركين وفرعون هذه الأمة أبي جهل. شارك يوم بدر وكان حديث السن فلما بدأت المعركة اتجه عزمه نحو قائد المشركين أبي جهل لما بلغة عنه من إيذاء النبي ﷺ بالقول والفعل.

فعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفتُ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن[1]، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا مِنْ صاحبه: ''يا عم! اربي أبا جهل!''، فقلت: ''يا ابن أخي ما تصنع به؟''، قال: ''عاهدتُ الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه''. وقال له الآخر سرًا مِنْ صاحبه مثله. قال فما سرني أنني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه، فشدُّوا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه''[2].

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما والحاكم في المستدرك والبيهقي عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فغمزني أحدهما فقال: ''يا عماه أتعرف أبا جهل؟''، فقلت: ''نعم، وما حاجتك إليه؟''، قال: ''أُخبرت أنه يسبُّ رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي[3] سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبتُ لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضًا مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ''ألا تريان هذا صاحبكم الذي تسألاني عنه؟''، فابتدراه

---

(١) ذكر البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس ﷺ، وكذلك الذهبي في سير الأعلام أن قاتلا أبي جهل هما ابني عفراء ولم يسمُّوهما، وفى رواية للبخاري وفى سيرة ابن هشام سمَّاهما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء وهذه الرواية أصح.

(٢) رواه البخاري في صحيحه وزاد فيه وهما ابنا عفراء.

(٣) الظل.

بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه. فقال: ''أيكما قتله؟'' قال كل منهما: أنا قتلته. قال ﷺ: ''هل مسحتما سيفيكما؟'' قالا: لا. قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: ''كلاهما قتله''.

وفي رواية معاذ بن عمرو بن الجموح التي ذكرها ابن إسحاق قال معاذ: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة[١] حوله المشركون يحفظونه وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلَص إليه، قال: فلما سمعتهم جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه[٢] بنصف ساقه، فوالله ماشبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة[٣] النوى حين يضربها. قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها[٤] ثم مر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قُتل[٥].

ويقول الذهبي فيه وعن قتاله وهو مبتور الذراع: ''هذه والله هي الشجاعة، لا كآخر من خدش بسهم فينقطع قلبه وتخور قواه''[٦].

وهذه الروايات وإن كانت تبرز الاختلاف حول من قتل أبا جهل أهو معاذ بن عمرو بن الجموح ومعه معوذ بن عفراء سويًا أم كلاهما قتله على حدا، لكن هذا الاختلاف لا يصل إلى حد التناقض فلا تعارض بين الروايات فقد تختلف الرواية من وجهة نظر قائلها فكلا الفتيان ضربه فأثبته وهو يظن أنه قتله حتى جاءه ابن مسعود ﷺ

---

(١) الحرجة: الشجر الملتف الكثيف لا يوصل إليه وجمعه أحراج.
(٢) أطنها: أطاح بها وبترها.
(٣) آلة كالرحى تفصل النوى عن العجوة.
(٤) داس عليها بيده ثم جذبها حتى قطعها.
(٥) رواه البخاري في صحيحه وابن هشام في سيرته، ورواه صاحب مشكاه المصابيح وكذلك حياة الصحابة.
(٦) سير أعلام النبلاء.

فوبخه وأجهز عليه واحتز رأسه وأتى بها إلى النبي ﷺ[1]. وهكذا قضى الله على زعماء المشركين في بدر وأذاقهم الخزي والهوان واقتص للمسلمين منهم.

وظل معاذ بن عمرو بن الجموح يجاهد في سبيل الله وعاش إلى زمن عثمان بن عفان.

---

(١) روي البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده والهيثمى في المجمع ورجاله ثقات عن عبد الله بن مسعود أن الرسول ﷺ قال: "من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟" ثم أجهز عليه واحتز رأسه فلما رآها النبي ﷺ كبّر وقال: "الحمد لله مات فرعون هذه الأمة".

عبد الله بن أنيس ﷺ

عبد الله بن أنيس، الأنصاري. كان يكنى أبا يحيى. صحابيٌّ جليل من الأنصار شهد العقبة وأحدًا واختُلف في شهوده بدرٍ.

وهو رجلٌ من طراز عجيب لم يكن الخوف يعرف طريقه إلى قلبه قط، فقد كان شجاعًا جريئًا مطيعًا لله تعالى ولرسوله ﷺ أرسله الرسول ﷺ: لقتل عدو الله سلام ابن أبي الحقيق اليهودي الذي كان يؤذي النبي فقتله، كما أرسله رسول الله ﷺ يوم الخامس من المحرم في السنة الرابعة للهجرة (٦٢٥م) سريةً وحدَهُ لقتل سفيان بن خالد الهذلي- وكان يقيم بعُرنة[1]- لأنه كان يجمع الجموع لقتال المسلمين ويؤلب عليهم القبائل .

ويقول ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ لما أرسله لقتل خالد الهذلي قال عبد الله بن أنيس ﷺ: "يا رسول الله ﷺ انعته لي حتى أعرفه!"، فقال ﷺ: "إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدتَ له قشعريرة"[2]، فقال عبد الله بن أنيس- متعجبًا: وكنتُ لا أهاب الرجال، فقلت: "يا رسول الله ما فرقتُ[3] من شيء قط. فقال ﷺ: "آية ما بينك وبينه ذلك". قال: فخرجتُ متوشحًا سيفي، حتى إذا كنتُ ببطن عُرَنَة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش وهو في ظُعُن[4] له يرتاد لهن منزلاً فعرفته بنعت رسول الله ﷺ وشعرتُ بالخوف منه فقلت: "صدق رسول الله ﷺ". فلما انتهيت إليه قال: "ممن الرجل؟"، فقلتُ: "رجلٌ من خزاعة". قال: "فجلستُ معه حتى إذا هدأ الناس وناموا اغترته فقتلته- لقد انتصر على نفسه وهزم

---

(١) موضع قرب جبل عرفات.
(٢) أي خفته.
(٣) يفرق: يخاف.
(٤) جمع ظعينة وهى المرأة في هودج.

الخوف داخله وتغلبت الشجاعة المتأصلة في نفسه على هذا الإحساس العارض، فأنفذ أمر رسول الله ﷺ .

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يغلّبون مراد الله ورسوله على مرادهم ويقدمون أوامره على هواهم ويطيعونه ولو ماتوا في سبيل هذا الأمر وقال في ذلك شعرًا:

تركتُ ابن ثور كالحُوار[١] وحولـه ... نوائح تفرى[٢] كل جيب[٣] مُقَـدَّد

تناولته والظُعـن خلفـي وخلفـه ... بأبيض[٤] من مـاء الحديـد مهنـد

أقول له والسيف يعجـم رأسـه: ... أنا ابن أنيس فارسًا غـير قُعْـدُد[٥]

أنا ابن الذي لم يُنزِل الدهرُ قـدره ... رحيبُ فناء الـدار غـير مُزَنَّـد[٦]

وقلتُ له: خـذها بضـربة ماجـد ... حنيف علـى ديـن الـنبي محمـد

وكنـتُ إذا هـمَّ الـنبيُّ بكـافرٍ ... سبقتُ إليـه باللسـان وباليـد[٧]

– قال: وأخذت رأسه- ثم اختبأ بغار فلما عجزوا عن إدراكه وأمن الطريق خرج فكان يسير ليلاً ويتوارى نهارًا حتى قدم المدينة. قال: فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد فلما رآني قال: "قد أفلح الوجه". قلتُ: "أفلح وجهك يا رسول الله"، ثم وضعتُ الرأس بين يديه وأخبرته خبري ثم قام بي رسول الله ﷺ فأدخلني بيته فأعطاني عصا فقال: "أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس"، ثم قال ﷺ: "هي آية بيني وبينك يوم القيامة".

---

(١) الحُوار: ولد الناقة.

(٢) تفرى: تمزق.

(٣) الجيب فتحه القميص عند العنق للدلالة على النياحة والبكاء.

(٤) السيف الهندي.

(٥) لئيم دينئ.

(٦) بخيل.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام والبداية والنهاية (ابن كثير).

قال ابن إسحاق: فَقَرَنَها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أهلَهُ أن يدرجوها في كفنه فضُمت في كفنه ثم دفنا جميعًا[١].

وكانت منيته[٢] في أشرف موضع فقد نال الشهادة في ساحة القتال يوم اليمامة رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.
(٢) المنية: الموت.

هشام بن العاص رضي الله عنه

هشام بن العاص بن وائل، القرشي السهمي، شقيق عمرو بن العاص رضي الله عنهما وكان أحدث من عمرو سنًّا. أسلم مبكرًا في مقتبل الدعوة، ولقي ألوان العذاب من أبيه العاص ابن وائل وأخيه عمرو، حتى تمكن من الفرار فهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية[١] فأقام في كنف النجاشي ينعم بالأمان.

فلما بلغه هجرة النبي ﷺ إلى يثرب عاد إلى مكة والتقى بعمر بن الخطاب وعياش بن ربيعة رضي الله عنهما فتعاهد ثلاثتهم على الهجرة سويًا لكن العاص بن وائل أدرك ابنه فقيَّده وسجنه وظل يسومه العذاب وطال حبسه وعذابه لكنه نجح في الفرار بدينه حتى وصل إلى رسول الله ﷺ ولازمه في كل موطن وظلَّ يجاهد في سبيل الله تعالى فلما أشرق نور الإسلام في قلب أخيه عمرو أقبل عليه وتلازما في كل قتال.

فقد روي البخاري في التاريخ وابن سعد في الطبقات وأحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: "ابنا العاص مؤمنان". وفي يوم أجنادين رأى هشام من المسلمين بعض الانكسار فكشف عن رأسه وألقى خوزته وتقدم صفوف العدو وهو يقول: "يا معشر المسلمين إن هؤلاء القلقان[٢] لا صبر لهم على السيف فاصنعوا كما أصنع"وأظهر بطولة خارقة وهو يشق صفوفهم ويعمل السيف في رقابهم وهو ينادي: "يا معشر المسلمين إليَّ إليَّ! أنا هشام بن العاص، أمن الجنة تفرون؟"، وكرَّ المسلمون على الروم وصدقوا الحملة فانهزم الروم وفرُّوا من أمامهم فاندفع المسلمون يطلبونهم وانتهوا إلى ثلمة[٣] لا يجوزها مسلم إلا قُتل فهجم هشام رضي الله عنه فقتل ووقع في هذه الثلمة فسدها بجسده فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يطئوا جسده بالخيل .

---

(١) كانت بعد الهجرة الأولى بشهور وكان بها ٨٣ رجلاً و ١٨ امرأة.
(٢) وهو القلق الذي يشعر بعدم الاستقرار والأمان.
(٣) ثلمة: حفرة في الأرض.

وهنا يقول البطل الثاني عمرو بن العاص الذي يقدم مراد الله تعالى على عاطفته: "أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه إليه، وإنما هي جثة فأوطئوه الخيل!"، فأوطأه عمرو ثم تبعه الناس حتى قطّعوا جسده إربًا فلما انتهت المعركة ورجع المسلمون منتصرين إلى معسكرهم، قفل إليه عمرو راجعًا فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه في نطع[1] فواراه[2]، ولما بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أمره قال: "رحمه الله فنعم العون للإسلام".

وظل عمرو بن العاص ﷺ يحمل ذكرى أخيه الحبيب إلى قلبه وبينما هو يومًا في مجلس من الناس إذ به يسمعهم يقولون: "هشام بن العاص أفضل أم أخوه عمرو بن العاص؟"، فقال عمرو ﷺ: "إني شهدت أنا وهشام اليرموك فبات وبتُّ ندعوا الله أن يرزقنا الشهادة فلما أصبحنا رُزقها وحُرمتها، فهل بعد ذلك فضل؟"[3].

نعم لقد فاز هشام برضي الله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤]، وكانا ممن قال تعالى فيهم ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]

فقد ظل عمرو ينتظر ويواصل الجهاد بعد ما قضى أخاه هشام نحبه في الله، رضي الله عنهما وجمعهما في مستقر رحمته.

---

(١) كساء من الجلد.
(٢) الإصابة لابن حجر (٦/٤٢٤) وأسد الغابة لابن الأثير (٥/٣٧٦).
(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة (٦/٤٢٣) نقلاً عن ابن المبارك في الزهد.

خالد بن الوليد رضي الله عنه

قائد فذ وقمة سامقة[١] من قمم الجهاد والبطولة، ورجلٌ عقمت النساءُ أن يلدن مثله فلم ولن يَجُدْ الزمان بمثله فهو أستاذ الحروب والمعارك بلا منازع، وباتفاق جميع أهل السير والتاريخ من المسلمين وأهل الغرب المنصفين، وهو القائد الوحيد على مر التاريخ الذي لم يُهزم في معركة دخلها قط.

قال فيه الأستاذ محمد حسين هيكل: "لقد كان خالد عبقريًا في الحرب لا يُغلب، آتاه الله موهبتها، كان بطلاً مقدامًا وفارسًا مغوارًا، كان له من سلامة الحكم وسرعته ما يجنبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام، وكان مداورًا في الحربُ ألهم سرها، وتجلى له ما جلّ ودقّ من أمرها.

سماه رسول الله ﷺ سيف الله حين تولى أمر مؤتة، وبقي خالدٌ سيفُ الله في كل وقائعه إلى أن مات"[٢].

ولقد ظل الرجلُ ولازال يمثل أسطورة في ساحات القتال وميادين المعارك، فقد كان قائدًا كشفت المعارك عن بطولة أصيلة في نفسه وعن قدرة عسكرية تتحكم فيه، وفن حربي فاق به العسكريين في كل الأزمنة والعصور، يخوض المعارك فيبتكر تكتيكات حربية حتى أنها لتدَرَّس في المعاهد والأكاديميات العسكرية الحديثة، ويسيطر على قواته أعظم ما تكون السيطرة ويوجهها خير وأفضل توجيه.

حارب الإسلام فكان خصمه العنيد ثم انضوى تحت رايته فكان سنده القوى ودرعه المتين، واجه في حروبه عربًا وفرسًا ورومًا ثلاثة أجناس متباينة فقهرهم جميعًا حتى صار اسمه ينتصر قبل سيفه، وأقولها بصدق: ما من أحد من قادة المعارك ومسيري الجيوش إلا ونهل من منابعه وتتلمذا على يديه.

---

(١) سامقة: عاليه مرتفعة.

(٢) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل.

قال عنه الشيخ الذهبي: "سيف الله وفارس الإسلام، وليث المشاهد السيد الإمام الكبير قائد المجاهدين"[١] إنه البطل والفاتح المظفر خالد وما أدراك من هو ؟! إنه رجل سمّاه النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى سيف الله الذي سله على الكافرين فأيُّ قوة هذه وأيُّ عظمة تلك التي حازها هذا البطل؟! .

ويقول الأستاذ العقاد في "عبقرية خالد": "لقد صحب خالدُ النبيَّ ﷺ ثلاث سنوات فقط، فكيف سماه النبيُّ ﷺ سيف الله في هذه المدة القصيرة؟! وكيف سمَّاه بهذا اللقب قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يقهر ممالك الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام؟! وقبل هذه الأعمال الجسام التي استحق من أجلها هذا اللقب؟! إنما هو البصر العلوي الذي يلمح هذه القدرات في معادنها في حين ينظر الناس فيرون خالدًا مرتدًا في مؤتة أو مأخوذًا مع الخيل وهى تُوَلِّى في حنين أو صانعًا في سرية بنى جذيمة ما يبرأ منه رسول الله ﷺ[٢]، ورغم ذلك فقد رآه النبي ﷺ ببصيرته النافذة والوحي الصادق- بما أراه ربه- أنه جدير بهذا النعت: سيف الله، وهو ما رآه النبي ﷺ يوم جاءه خالدٌ مبايعًا، فقال ﷺ: "الحمد لله الذي هداك يا خالد. وقد كنت أرى لك عقلاً".

وبعد هذه المقدمة المتواضعة التناول أبدأ بالحديث عن خالد: نشأته وبيئته وإسلامه ونبذة عن بطولاته وانتصاراته وفتوحاته. هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، القرشي المخزومي. أمه لُبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ وأخت لُبابة الكبرى أم الفضل زوج العباس رضي الله عنهما. نشأ نشأة الشرف والسؤدد[٣] والثراء.

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) أرسله رسول الله ﷺ إلى بنى جذيمة بعد فتح مكة ليدعوهم إلى الإسلام ويستوثق من نيتهم وكان معه ٣٥٠ من المهاجرين والأنصار وبنو سليم وأمرهم الرسول ﷺ بعدم القتال والدعوة بالحسنى فلما أقبلوا مالت بنو جذيمة للقتال فقاتلهم خالد وأسرف في القتل فأنكر النبي ﷺ فعله ودفع النبي ﷺ دية القتلى حتى رضوا.

(٣) السؤدد: الشرف.

والفتى هو ابن الوليد بن المغيرة واحد من سادات قريش وأغنى أبناء زمانه فقد روى سفيان الثوري أنه كان يملك من الذهب ألف ألف دينار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال وكان يملك البساتين والكروم والتجارة والخدم والجواري والعبيد، وهو أحد الرجلين الذين أخبر الله تعالى في كتابه ما قالته قريش فيهم ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]. لذا سمي الوليد بالوحيد كما لقب بريحانة قريش وكان لكبريائه في جوده ولجوده في كبريائه ينهي أن تُوقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج.

ويقول العقاد: ''وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم خالد، كما انعكس هذا الموروث جليًّا في شخصية أخيه الوليد بن الوليد الذي وقع أسيرًا يوم بدر وكان مشركًا فانتظر حتى فداه أبوه بالمال فلما عاد إلى أهله أعلن إسلامه فعجب المشركون لأمره فسألوه: ''هلا أسلمت قبل أن تُفْتَدى؟!''، فقال: ''كرهت أن يُظَنَّ بي أنني جزعت من الأسار''، وصبر على التعذيب والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبي ﷺ ماشيًا على قدميه، وإن كان أبوه وأخوه وقتها على طرفي النقيض إلا أن الشخصتين تنمّان[2] عن حزم وصرامة وثبات على المبدأ مهما كانت الخطوب''[3].

نشأ خالد منذ نعومة أظفاره على الفروسية والحرب حتى رشّحه أبوه لقيادة الخيل وإن لم يكن أكبر أبنائه وبذلك يكون قد ورث ما لبني مخزوم من قيادة الأعنه[4] وهو ما اشتهرت به فقاد فرسان قريش يوم أحد وأخذ المبادرة فيها بعد انكشاف المسلمين. وعلى الرغم من ثرائه فقد عاف[5] حياة النعومة والترف وراض نفسه على

(١) القريتين هما مكة والطائف والرجلين هما عروة بن مسعود رضي الله عنه وكان وقتها كافرًا، والوليد بن المغيرة عليه لعنة الله.

(٢) نمَّ عن: أظهر وكشف.

(٣) عبقرية خالد للعقاد.

(٤) الخيل.

(٥) عافه: كرهه فتركه.

الخشونة، وتعود عيشة الشظف[1] وحياة البداوة، وكان طويلاً بائن الطول عظيم الجسم والهامة مهيب الطلعة يميل إلى البياض وكان أكثر الناس شبهًا بعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حتى كان غير المدقق يخطأ بينهما ومن هنا نتبين مدى عظمة هذا الرجل في صفاته الخُلُقية والخَلْقِيَّة.

وقد نشأ خالد عن أبٍ شديد الكراهية للإسلام وضحى في سبيل هذه العداوة بماله وولده[2]. وظل يكيد للإسلام حتى مات عليه لعنة الله تعالى، فورث خالد عن أبيه هذا الميراث من العداوة والضغينة للإسلام فلما بلغ مبلغ الزعامة تجرَّد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة، فلم تمضِ سنتان على موت الأب حتى قاد الميمنة في وقعة أحد المشهورة وتَولَّى الهجمة الشرسة التي مالت بكفة النصر إلى جانب المشركين، وفى هذه المعركة تجلت عبقريته الحربية مبكرًا فما إن نزل عند جبل أحد حتى لفت نظره الهضبة[3] التي عُرفت فيما بعد بجبل الرماة ورأى فيها أهمية بالغة لكسب المعركة وعلم بذكائه المعهود أن النصر لمن يملك هذا الجبل إلا أن خالدًا كان يواجه جيشًا يقوده رسول الله ﷺ أرجح البشر عقلاً وأبلغهم حكمة إلى جانب ما خصه الله به من الوحي والتأييد فكان للنبيِّ ﷺ السبق عليه في السيطرة على الجبل، ولم يكن خالد مشاركًا في القتال لكنه كان يقف بخيله يرقب ساحة المعركة عن كثب يتحين الفرصة لانتزاع الجبل، وعلم الرسول ﷺ ذلك فشدد على الرماة وأغلظ في التشديد لكن الرماة ما إن عصوا أوامره وغادروا أماكنهم لجمع الغنائم حتى انتهز خالد الفرصة وكان رجلاً يملك أعصابه ترفض نفسُه الهزيمة ولا يتملكه يأسٌ قط ويبغى النصر دائمًا فكرَّ خالد بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل- صاحب الميسرة- فداروا من وراء ظهر المسلمين وقد حملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم ثم مزقوا صفوف المسلمين الذين اختلطوا

---

(١) الشظف: الشدة والضيق.

(٢) سعى الوليد بن المغيرة في بداية دعوة الإسلام مع وفد قريش إلى أبى طالب عم النبي ﷺ ليسلمهم محمد ﷺ على أن يعطوه بدلاً منه عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي كان يُوصف بأنه أجمل فتيان قريش وأنهدهم فلما رفض عم النبي ﷺ سعى ليعطيه شطر ماله في سبيل تخليه عن دعوته.

(٣) جبل عينين.

وصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضًا من العجلة والدهش، وقتل من المسلمين يومها سبعين.

وبعد وقعة أحد أصبح خالدٌ هو قائد قريش الأثير لذا أسندوا إليه يوم الخندق قيادة أغلظ كتائبها وأكبرها والتي كانت موكلة بالقضاء على النبي ﷺ. وما إن جاءت قريش حتى فوجئت بالخندق، ويقف خالد للمرة الثانية عاجزًا أمام عظمة النبي ﷺ ومقدرته الحربية الفذة، لكنه لم ييأس وظل يُطَوِّف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقًا يُقْحِمُ منه الخيل وكاد خالد أن يأخذ المسلمين يومها غرة لولا حرس من المسلمين يقودهم أسيد بن حضير رضي الله عنه[1] الذي تنبَّه له وفوَّت عليه الفرصة واضطر النبي ﷺ أن يخصص كتيبة من رجاله لصدِّ خالد عن اجتياز الخندق فظل يناوشهم طوال اليوم حتى فاتتهم الفرائض يومهم كله، لكن الله أرسل الريح ففرَّقت شمل الأحزاب فانصرفوا خائبين بخفي حنين[2] .

ولما انسحبت قريش كان خالد وعمرو بن العاص على ساقة[3] الجيش في مائتي فرس مخافة أن يتعقبهم المسلمون.

ثم عاد خالد ليتصدى للمسلمين في عام الحديبية وكان رسول الله ﷺ قد خرج معتمرًا في ألف وخمسمائة من المسلمين وظن المشركون أنهم جاءوا للقتال فندبوا خالدًا في مائتي فارس لقتال المسلمين قبل بلوغهم مكة فدنا خالد بجيشه من المسلمين حتى تراءى الجمعان فصلى الرسول ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ولما صالح النبي ﷺ قريشًا ودخل مكة في عمرة القضاء تغيَّب خالد عن جوار البيت حتى لا يرى الرسول ﷺ والمسلمين يدخلون مكة، وهكذا كانت كراهية خالد للإسلام بعد كراهية أبيه.

---

(١) أسيد بن حضير، الأنصاري الأشهلي من السابقين للإسلام شهد بيعة العقبة الثانية شهد أحدًا وما بعدها من مشاهد وشهد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بيت المقدس وتوفي عام ٢٠هـ ودُفن بالبقيع.

(٢) مثل يقال لمن لم يحصل نفع أو فائدة في عمله.

(٣) الساقة: المؤخرة.

وتمر أيامٌ وتتوالى أحداثٌ ما كانت لتمر على رجلٍ بمثل حصافته[١] إلا وأعمل فيها تفكيره وبحثها بعقله، فقد شاهد خالد انقسام بيت المغيرة إلى معسكرين: معسكر آبائه وأجداده وما كانوا عليه، ومعسكر الدين الجديد، وكيف دخل أخواه الأثيرين إلى نفسه هشام والوليد معسكر الإسلام، وكيف سمع من قبل أبوه يمدح في القرآن حتى ظن أهله أنه أسلم رغم عداوته الشديدة له.

ويوم عمرة القضاء عندما شاهد خالد المسلمين وهم قيام للصلاة خاشعين وكيف جال في خاطره أن يُغيرَ[٢] عليهم فصدَّته رهبةُ الصلاة فقد قال خالد: "فهممنا أن نغير عليه- ﷺ - ثم لم يُعزم لنا، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف فوقع ذلك مني موقعًا، وقلتُ الرجل ممنوع"، ثم مرت الأيام ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول ومنهم أبيه.

ويقول العقاد: وتهيأ الجو للسؤال: فيم هذا العداء والنضال؟! أمِنْ أجلِ الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره؟ ومن أين لمحمد ذلك النصر بعد النصر؟ ومن له تلك المهابة التي تَرُدُّ عنه الأعين والأيدي من قريب؟ ومن أين لمحمد بين أصحابه ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع؟... وبعد هذه الأسئلة المتداخلة التي تصارعت في نفسه حانت اللحظة الحاسمة لوزن الأمور ومراجعته لحاضره ومصيره وإذ برجلين قد انتهيا في ساعة واحدة إلى رأيٍ حاسم في مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام، وعلما أين يقف الديدنان المتناجزان[٣] من حق النصر وعوارض الهزيمة، إنهما عبقريا قريش وقائديها الفذين: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وكان إسلامه هو الرد المنطقي على رسالة أخيه الوليد التي كان نصها: ".. إني لم

---

(١) الحصافة: رجحان العقل.
(٢) أغار عليه: هاجمه.
(٣) تناجز القوم أي تقاتلوا وسفكوا الدماء.

أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام لا يجهله أحد؟ – وقال–: سألني رسول الله ﷺ: ''أين خالد؟''، فقلتُ: يأتي الله به. فقال ﷺ: ''ما مثل خالد يجهل الإسلام''.. فاستدرك يا أخي ما فاتك منه فقد فاتك مواطن صالحة''.

وأخرج الواقدي عن خالد ﷺ أنه قال: ''كان مع النبي ﷺ أخي الوليد بن الوليد فكتب إليَّ يدعوني للإسلام. قال: فلما جاءني كتابه نشطتُ[1] للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني وأري في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجتُ في بلاد خضراء واسعة''. فقلتُ: ''إن هذه الرؤيا!''، فلما قدمتُ المدينة قلتُ: لأذكرنها لأبي بكر ﷺ، فقال: ''مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنتَ فيه من الشرك''، ثم خرج خالد باحثًا عن مَنْ يصحبه إلى النبي ﷺ فيبايعه فلقي عثمان بن طلحة فصحبه. قال: فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال عمرو: ''مرحبًا بالقوم!''، فقلنا: ''وبك''. فقال: ''إلى أين مسيركم؟''، فقلنا: ''وما أخرجك؟'' فقال: ''وما أخرجكم؟''، قلنا: ''الدخول في الإسلام وإتباع محمد ﷺ''. قال: ''وذاك الذي أقدمني''. فاصطحبنا جميعًا حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا. فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فَسُرَّ بنا.

قال خالد: فلبست من صالح ثيابي ثم عمدتُ إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي الوليد، فقال: ''أسرع إلى رسول الله ﷺ! قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم''، فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فمازال يتبسم إليَّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فردَّ عليَّ السلام بوجه طلق. فقلتُ: ''إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله''. فقال: ''تعالَ''، ثم قال: ''الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أري لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير''. قلتُ: يا رسول الله! إني قد رأيتُ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا للحق فادع الله أن يغفر لي. فقال ﷺ: ''الإسلام يَجُبُّ[2] ما كان قبله''. قلتُ: ''يا رسول الله! على ذلك''. قال ﷺ: ''اللهم أغفر لخالد ابن الوليد

---

(١) نشط البعير: خف وأسرع.
(٢) يَجُبُّ: يهدم.

كل ما أوضع(١) فيه من صد عن سبيل الله''. قال خالد: ''وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ'' وقال خالد: ''وكان قدومنا في صفر سنة ثمان''، قال: ''والله! ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حزبه''(٢).(٣).

ويقول الأستاذ العقاد حديثًا يحمده عقل الأريب اللبيب إذ يقول في عبقرية خالد: ''لقد تنقّل خالد في نظرته للإسلام من الإصرار إلى القتال إلى الموادعة إلى الموازنة إلى الترجيح إلى الإجابة، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هي موضع العجب لأنها كانت ستخالف طبائع الأمور. ولم يكن تسليمه تسليم العاجز ولا الجازع المتخاذل فيوم أسلم إلى معسكر الدين الجديد كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله، وكأنه كان يقول في قراره ضميره: أيهزمني أحد إلا وله مدد من النبوة؟ أيعلو سيفٌ على سيفي وليس له سرٌ من السماء؟ فبلغ نهاية الإيمان بنفسه يوم بلغ بداية الإيمان بالله''(٤).

وما إن أسلم خالد حتى صار سيفًا مشهرًا يذل الله تعالى به الكافرين، فعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ''نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين''(٥).

ويقول ابن الأثير في أسد الغابة: ''ولم يزل خالد من حين أسلم يولّيه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب''. وما إن أسلم خالد حتى عوّل(٦) رسول الله إليه أعمالاً تنمُ عما سبره رسول الله ﷺ من غوره(٧) فوضعه في اختبار بعد

---

(١) أوضع الرجل بعيره: أي جعله يسرع في سيره.
(٢) حزبه: همه وشغله.
(٣) البداية والنهاية وتاريخ ابن معساكر مطولاً وكنز العمال وحياة الصحابة.
(٤) عبقرية خالد للعقاد.
(٥) رواه أحمد في مسنده والهيثمي في الزوائد وقال: رجاله رجال الصحيح.
(٦) عوّل عليه: اعتمد عليه.
(٧) سبر غوره: تبين حقيقته وسره.

اختبار ليصقل معدنه ويجلو بريق نفسه فتأخذ بالأبصار، فأسند إليه قيادة الأعنَّة[١] يوم فتح مكة ولم يحدث قتال إلا من صوب خالد وذلك لأن صفوان بن أمية وسهيلَ بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل جمعوا له فمنعوه ورشقوه بالنبل فبطش بهم خالد وقتل منهم ثلاثين رجلاً من قريش وهذيل فلما علم النبي ﷺ - وكان قد نهى عن القتال- قال: ''ألم أنه عن القتال؟'' قالوا: ''إنه خالد قوتل فقاتل''. فقال ﷺ: ''قضاء الله خير'' ثم قال: ''لا تُغزى مكة بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة''[٢]. (أنظر الخريطة رقم (١٢)).

وهكذا أثبت خالد أن الإسلام في قلبه أعز وأغلى من أصحابه وأهله وبني جلدته. ثم دفع به الرسول ﷺ في محك آخر وابتلاء أعز وأصعب فقد بعثه لهدم بعض أصنام العرب فأمره أن يهدم العُزَّي[٣] ثم أرسله لهدم وُد بدومة الجندل ثم ليهدم اللات[٤].

وهكذا كان رسول الله ﷺ يربِّي أصحابه وكأنما أراد أن يترع كل ما علق في قلبه تجاهها فيزيلها منه قبل أن يهدمها بمعوله.

ويوم حنين جعله الرسول ﷺ قائدًا للفرسان وكانوا مائتي رجل من بني سليم فلما انهزم المسلمون أول الأمر تدافعت الخيل والمسلمون في الشعاب شديدة الانحدار وحاول خالد أن يثبت فثنى عنان فرسه وقاتل حتى سقط مثخنًا بالجراح لا يقوى على النهوض[٥].

---

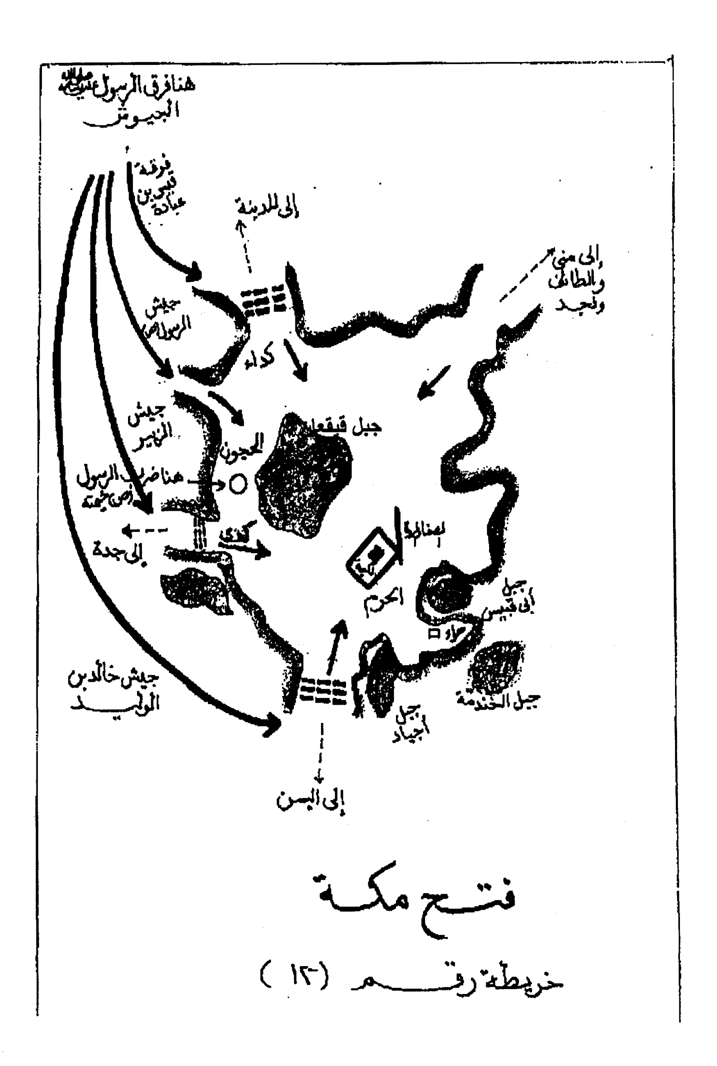
(١) الأعنَّة: الخيل.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم في صحيحه وأحمد في مسنده ثلاثتهم عن مطيع بن الأسود، ورواه أحمد والترمذي والحميدي عن الحارث بن مالك واللفظ له.

(٣) العُزَّي: أكبر أصنام قريش وكانت كنانة ومضر يعظموه وكان سدنتها هم بنو شيبان من بنى سليم.

(٤) اللات: بيت كان لأهل ثقيف يتعبدون به ويهدون له ويضاهونه بالبيت الحرام وأصله كان حجرًا يعجن عليه رجل العجين فلما مات ادعى عمرو بن لحي أنه غاب في الصخرة وأمر بعبادتها فعُبدت.

(٥) بعد فتح مكة أعدت بعض القبائل المتغترصة من الأعراب كهوازن وثقيف جيشًا لقتال المسلمين فالتقوا في وادي حنين وكانت الدائرة أول الأمر على المسلمين وذلك لأنهم استقلوا بشأن خصومهم كما كان جيش المسلمين يضم عددًا كبيرًا من الطلقاء الذين لم يتثبتوا من دينهم كما كانت شمس الصباح في مواجهة أعين المسلمين عندما دخلوا وادي حنين كما كان المشركون قد سبقوهم إلى ميدان المعركة فكمنوا لهم بين شعاب الجبال وكان الوادي شديد الانحدار فما إن دخل المسلمون الوادي حتى فاجأهم المشركون بالحجارة والنبال وهاجموهم فانهزم المسلمون وتدافعوا يركب بعضهم بعضًا ثم برز النبي ﷺ بشخصه الكريم وانحاز جهة اليمين ونادي في المسلمين حتى ثبت معه نحو مائة قاتلوا المشركين فهزموهم وغنموا غنائم لا تحصى.



فتح مكة

خريطة رقم (١٢)

وروى الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: "رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين يتخلل الناس، يسأل عن رحل خالد، فَدُل عليه، فنظر في جرحه وحسبت أنه نفث فيه"[١]. وبعدها قام النبي ﷺ بمداوة جراح خالد بنفسه حتى شفى ﷺ وخرج مع النبي ﷺ في حصار الطائف لمطاردة فلول المنهزمين من حنين. ولعل أهم المواقف وأبرزها في ميدان عبقرية خالد الحربية ما جرى يوم مؤتة[٢] الذي أظهر قدراته غير المسبوقة وحكمته في الحرب وحسن قيادته وكان هذا أول اختبار حقيقي لخالد وإن لم يولّه الرسول ﷺ القيادة لأنه كان على الأرجح أحدثهم عهدًا بالإسلام وكان بالجيش من كان خليقًا بالإمارة كزيد بن حارثه فجعل الرسول ﷺ القيادة له وجعلها من بعده لجعفر بن أبي طالب ثم لعبد الله بن رواحة وجهزهم بثلاثة آلاف وتوجهوا لقتال الروم فنزلوا معانًا وأقاموا بها ليلتين وأعد لهم هرقل جيشًا جرارًا قوامه مائتي ألف فعسكروا بمآب وتعاهد المسلمون على الجهاد واشتد القتال فقُتل القادة الثلاث ثم سقطت الراية فأخذها ثابت بن أقرم من بني عجلان ﷺ ونادي في أصحابه: "يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجلٍ منكم". قالوا: "أنت". قال: "لا ما أنا بفاعل". فاتفقوا على خالد ابن الوليد، وما إن تولى خالد القيادة حتى تجلت عبقريته ليسطر أولى صفحات عبقريته الحربية فصدق فيه قول الرسول ﷺ: ".. حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم"[٣].

كيف لرجل مهما بلغت حنكته ودرايته في فن القيادة أن يواجه محنة كالتي واجهها خالد؟! رجلٌ أسندت إليه قيادة جيش قليل العدد والعدة يواجه جيشًا هائلاً عرمرم[٤] يزيد ست وستون ضعفًا عن جيش المسلمين، فَتَكَ بقادته الثلاثة الواحد تلو

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٢) أرسل الرسول ﷺ سرية مؤتة لتأديب الروم والغساسنة وذلك لأنه ﷺ أرسل وفدًا إلى ذات الطلح بالشام يدعوهم للإسلام وكان الوفد ١٥ رجلاً فقتلوا جميعًا عدا رئيسهم، ثم أرسل الرسول ﷺ الحارث بن عمير الأزدى إلى هرقل رسولاً فقتله شر حبيل ابن عمرو الغساني.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

(٤) جيش عرمرم: أي هائل ضخم.

الآخر، ومعنويات المسلمين منهارة وديارهم بعيدة فلا أمل في إمدادات ولا موارد، ولا أمل في نصر أو حتى فكاك، بل أصبح المسلمون يومها ريشةً في مهب الريح. ومع هذه الصورة القاتمة بل الحالكة السواد يتولى خالد- الذي لم يكن في عداد القادة ولم يكن يتوقع القيادة- ولنرى ماذا فعل.

ما أن تولى القيادة حتى فكر في خطة للانسحاب وهو الأمر الذي ليس له بديل في مثل هذا المقام بالغ الخطر، لكن الارتداد المأمون غير ميسر لكل من أراده إلا إذا أوقع المنسحب في روع عدوه أنه لا ينوى عليه لذا فقد عمد إلى الهجوم كأول أجزاء خطته المرسومة. وأبلى خالدٌ في هذه المدافعة بلاءً لم يبله قط في حروبه الكبرى على كثرتها حتى كُسِرَتْ في يده تسعة أسياف فعنه ﷺ أنه قال: "انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقى في يدي إلا صفيحة يمانية"[1]. وفى رواية أخرى قال: "لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية"[2].

ونجح في الصمود أمام جيش الروم طوال النهار حتى أسدل الليل أستاره فانفضَّ الاشتباك بين الجيشين وفى هذه الليلة فكر في مكيدة تدخل الرعب في نفوس الروم ليحجموا عن مطاردة المسلمين لأن الإفلات من براثنهم حتمًا سيكون بالغ الصعوبة إذا انكشف المسلمون فبدَّل مواقفَ الجيش تحت جناح الليل فنقل الميمنة إلى الميسرة والميسرة إلى الميمنة والساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة، فتغيرت الرايات والوجوه وأمر طائفة من المسلمين أن تقف خلف الجيش تنتظم في صف طويل فإذا طلعت الشمس يثيروا الغبار ويكثروا الجلبة فلما انبثق نور الصباح وجد الروم والغساسنة وجوهًا غير الوجوه ورايات غير الرايات وسمعوا جلبة شديدة ورأوا غبارًا يملأ الأفق فظنوا أن مددًا جاء المسلمين، وكانوا قد ذاقوا منهم أمرَّ القتال بغير مدد وهم قلة فلما تراءا الجيشان تناوشا ساعة أبلى فيها المسلمون أحسن البلاء وتراجعوا رويدًا رويدًا مع حفظ نظام الجيش، وبذلك استطاع أن يشقَّ لنفسه طريقًا وسط تكتل الروم

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) رواه البخاري في صحيحة وابن أبي شيبه في المصنف والحاكم في المستدرك وابن سعد في الطبقات.

فلم يتبعهم الروم ظنًّا منهم أن المسلمين يدبرون لهم مكيدة يستدرجونهم بها إلى الصحراء.

ويقول الأستاذ العقاد في ذلك: "كان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت غطاءً صالحًا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير، ولو أن خالدًا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العاقبة أيما سوء ولتعرضت الدعوة الإسلامية لمحنة لا يُعرف مداها لأن هذا الجيش إذا كُتبت عليه الهزيمة ولم يعد سالمًا لكان ذلك مدعاة للسخرية والاستهانة فقد بعث به الرسول ﷺ لتأديب أعدائه وإثبات الهيبة والمنعة، لكن هذا القائد نجح في العودة بالجيش بعد أن أبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التي لم تقدر على تمزيقه ولا إصابته وكانت إصابة الروم بسقوط هيبتهم أعظم مما ابتلى به المسلمون بمقتل بعض قادتهم وهذا نصرٌ يحسب للمسلمين.

كما عُرف خالدٌ منذ ذلك اليوم بلقبه الذي أضفاه عليه النبي ﷺ وهو سيف الله وأنبأ عما في نفسه من قدرات سوف يكون لها فيما بعد ميادين ومحافل، كما سمَّى النبي ﷺ ذلك الجيش بالكرار ونهى عن وصفهم بالفرار، وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار التي تُضْفَى على القادة لأنهم نجحوا في خطة ارتداد لا محيص منها وتلك هي السُّنَّةُ النبوية التي تسبق النظم العصرية إلى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في الارتداد كقيمة النجاح في التقدم وإحراز النصر"[1].

ويَعْقِدُ الأستاذ محمد فرج في كتابه "شخصيات عسكرية إسلامية" مقارنة بين خالد بن الوليد في سرية مؤتة وبين القائد روميل في الحرب العالمية الثانية ذلك القائد الألماني الذي أصبح اسمه على كل لسان كقائد محنك يجيد فن التخطيط والمراوغة والتقدم والانسحاب حتى استحق لقب ثعلب الصحراء، وكيف استطاع أن يتلاعب بالجيش الثامن البريطاني يتقدم ويكيل له الضربات ثم ينسحب دون أدنى خسارة.

---

(١) عبقرية خالد للعقاد.

ويقول الأستاذ محمد فرج: وبالمقارنة نجد أن خالد له السبق عليه إذ يتقدمه بنحو ألف عام كما أن روميل قائدًا تخرَّج في أكاديمية عسكرية توافر له فيها الاحتكاك بالقادة والجند ومارس بعدها الحرب ضابطًا صغيرًا حتى صار قائدًا، أما خالد فقد زُجَّ به في مركز القيادة لجيش لم يكن مُدرَجًا ضمن قادته ولم يكن مستعدًا لقيادته، كما أن روميل أمضي نحو ثلاث سنوات يواجه قوات الحلفاء هزمها في معارك متتالية فارتفعت معنوياته ومعنويات جنده بينما جيش خالد محطم المعنويات مكسور قُتل قادته الثلاثة في ساعة واحدة ويحاصره عدوه الذي يزهو بكثرته وبالنصر الذي قارب إدراكه. ولا يفسر لنا نجاح خالد في مهمته إلا أنه كان مفطورًا على الجندية والقيادة بجميع حالاتها فقد رَّجح خالد فكره الصائب على سيفه الصارم وبحكمة وتقدير سليم سعى إلى انسحاب آمن وهو ما يعرف في الحرب الحديثة بالانسحاب الوقائي. لقد كان هذا الانسحاب أول انسحاب من نوعه يكون منظمًا فقد كان معروفًا أن المنسحبين يهرولون مذعورين كلٌ ينجو بنفسه على غير هدى لا يربطهم تعاون أو تدبير أو خطة، بلا ضابط ولا رابط ولا نظام، أما انسحاب المسلمين فقد كان غايةً في التنظيم قد قام خالد فيه بعملية تعرف في التكتيك العسكري الحديث بالتخفيف ففي أثناء التحرك بالانسحاب كان جزء من القوات المتحركة يتقهقر إلى مؤخرة الجيش بينما يتابع الجيش حركته فيصل إلى الموقع الجديد جزء قليل بينما يكون الجزء الآخر قد اتجه للخلف، وبذلك يُتاح للجيش دفاعٌ مستمر من الخلف وغطاء دائم لتحركهم، وظلت تجرى عملية التخفيف هذه حتى انسحب الجيش بكاملة بنجاح ليس له مثيل في تاريخ الحروب كلها ولم يُقتل من المسلمين سوي اثني عشر فقط وهو عدد ضئيل بالنسبة لخطورة هذه العملية أي أن نسبة الخسائر لا تزيد عن (٠,٤%) في حين قُتل عدد لا يحصى من الروم. وإذا أراد المؤرخون أن يصلوا لدرجة الإنصاف لجعلوا من هذا الانسحاب معجزة بالمقاييس العسكرية قديمًا وحديثًا[1].

---

(١) شخصيات عسكرية إسلامية: محمد فرج.

ويقول الشيخ المباركفوري: "كان لهذه المعركة أثر كبير لسمعة المسلمين فقد ألقت الدهشة والحيرة في العقول لأن الروم كانت وقتها أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن قتالها وجلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير مع ذلك الجيش العرمرم ثم الروح[١] من الغزو من غير أن تلحق بهم خسارة تذكر من عجائب الدهر وتؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله وأن صاحبهم رسول الله حقًا وصدقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين قد جنحت بعد هذه المعركة للإسلام فأسلمت بنوسليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرهم، وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، وكانت توطئة[٢] وتمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية وفتح الأراضي النائية البعيدة"[٣].

ولما قُبض النبي ﷺ وثارت الجزيرة العربية ثورة الردة المحمومة، انبرى راسخو الإيمان من القادة والجند يجاهدون في سبيل الله وعلى رأسهم سيف الله الذي سُلَّ من غمده مشهرًا لقمع جذوة هذه الفتنه المُلمة[٤]. فقد شهد خالدٌ حروب الردة من بدايتها إلى نهايتها حيث وقع عليه اختيار الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فعوَّل عليه[٥] أمر القتال وأسند إليه أشرس هذه المعارك فأرسله أولاً على أربعة آلاف إلى بزاخة من أرض بني أسد لقتال طليحة بن خويلد الأسدي الذي تنبأ وجمع حوله نحو ألف وأربعمائة من بني أسد وقيس وحلفائهم وفي هذه المعركة كرَّ طلحة بمن معه على المسلمين كرَّة عنيفة فانكسرت الميمنة والميسرة وجاء رجلٌ من بني طئ إلى خالد ينصحه بالتراجع من يومه ليعتصم بجبال طئ فأنكر عليه وقال القائد البطل: "لا أعتصم اليوم بغير الله"، فترجَّل عن فرسه وقاتل على قدميه ليبعث القدوة في نفوس أصحابه .

---

(١) الرجوع والإياب.
(٢) التوطئة: المقدمة أو التمهيد.
(٣) الرحيق المختوم.
(٤) الملمة، النازلة الشديدة.
(٥) أسند إليه.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "لقد رأيتُ خالدًا يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى لِيمَ[1] في ذلك. وبعد قتال مرير قُتل خاصة طليحة وهزم جنده وفر طليحه لائذًا بنفسه بعد أن سقطت هيبته من أعين أتباعه وعلموا كذبه وادعاءه حتى قال أحد أتباعه يومها: "إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله وإنا لنلقي قومًا كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه".

ثم انطلق إلى بني تميم فقتل زعيمهم مالك بن نويرة وقد وُجِّه له يومها لومًا عنيفًا من عمر بن الخطاب ﷺ وبعض الصحابة لقتل هذا الرجل وزواجه بامرأته وقد دافع بعض المنصفين عن خالد فقالوا قتله بعد أن أقر بالكفر وأقام عليه الحجة، وقيل أن خالدًا قال لجنده أدفئوا الأسرى- وقد كانت ليلة باردة- وكانت هذه العبارة تعني في لهجة بعض قبائل العرب القتل فقتلوهم لكني أردُّ على من عاب عليه شدته في القتل والأخذ على أيدي الكافرين ولا أري في ذلك حقّ للائم وقد وصفه الرسول ﷺ بسيف الله فإذا أخذ كافرًا فقتله فكأنما قتله الله بخالد فقول رسول الله صدقًا لا يتبدل ولا يتغير فوصفه خالدًا لازمة لا تنفك فهو ﷺ لم يكن يصف موقفًا وقفه وإنما كان يصف شخصه وهذا ما فهمه أبو بكر ﷺ لما لِيمَ في خالد فقال: "ما كان لي أن أغمد سيفًا أشهره الله تعالى".

ثم قاد وقعةً واحدة ترجح بها حروب الردة جميعًا، وحربًا تعد من حروب الإسلام الحاسمة في صدر الإسلام ألا وهى وقعة اليمامة التي خاض غمارها بعد هزيمة اثنين من كبار قادة المسلمين: عكرمة بن أبي جهل وشر حبيل ابن حسنة وكان الخليفة أبو بكر ﷺ قد أرسل أولهما وأرسل في أثره الثاني وأمرهما ألا ينفردان بالهجمة وأن يجتمعًا فيحاربا سويًّا فتعجل عكرمة فهزمه مسيلمة ونُكبَ جيشُه نكبةً شديدةً فلما علم الصديق بذلك أصدر أوامره بتوقف شر حبيل عن التقدم حتى يوافيه جيش خالد الذي أمره بالتوجه إلى اليمامة على الفور وخرج يودعه وهو يقول: "إن أظفرك الله بأهل

---

(١) وُجِّه إليه اللوم.

اليمامة فإياك والإبقاء عليهم! أجهز على جريحهم واطلب مدبرهم واحمل أسيرهم على السيف وهوِّل فيهم القتل واحرقهم بالنار! وإياك أن تخالف أمرنا!''، وذلك لأن أبا بكر استشعر خطرهم الذي استفحل بعد هزيمة عكرمة وشر حبيل.

وبالفعل لقد كانت اليمامة أخطر المعارك التي خاضها المسلمون على الإطلاق وذلك لكثرة عدد أعدائهم بصورة مفزعة حيث بلغ المائة ألف كان منهم أربعون ألف مقاتل على أقل تقدير يقودهم مسيلمة الداهية واسع الحيلة الذي كان يمتلك أسلوبًا ساحرًا في استهواء النفوس وجمع الناس حوله وكان يستعين بما تيقنه من صناعة الشعوذة والحيل في ادعائه للنبوة فجمع حوله ضعاف النفوس واستطاع بذلك حشد جيش كبير اتجه به إلى عقرباء في طرف أرضه. فخرج إليه خالد بجيش لا يزيد عن ثمانية آلاف وذلك بعد أن انضم إليه جيش شر حبيل ومددًا آخر بقيادة سليط بن قيس الأنصاري جعله ردءًا له ثم وافاه مددٌ آخر بقيادة جرير بن عبد الله البجلي.

وعلى الرغم من قلة الجيش الإسلامي إلا أنه كان غنيًا بالرجال الأفذاذ الذين يقوم الواحد فيهم مقام المئات بل الألوف أمثال: البراء بن مالك وأبو دجانة وأبو حذيفة ومولاه سالم وزيد ابن الخطّاب وثابت بن قيس ﷺ أجمعين، ونشب قتال عنيف لم يُرَ مثله وانهزم المسلمون أول الأمر حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد فصمد لهم بنفسه وجعل يسوقهم حتى ردهم بسيفه، وكان لابد لهذه الموجة أن تنحسر ليكون النصر لمن يملك الثبات حيث تتضح معادن الرجال، فقد استطاع خالد القائد الصلب أن يمتص الضربة بمرونة يُحسد عليها واستعد بالرد الحاسم فبادر إلى تنظيم جيشه من جديد فميَّز بين المهاجرين والأنصار، والأعراب كل بني أب على راية، وصاح في المسلمين: ''أيها الناس تمايزوا لنعلم بلاءَ كلِّ حيٍّ ولنعلم من أين نؤتى!''.

وهكذا أشعل القائد الخبير حماسة جنده فاستمات كلُّ جندي ليستحق شرف الراية التي يقاتل تحتها، وتقدم خالد أمامهم ليجعل من نفسه قدوة لهم فحمل على القوم حتى تجاوز الصفوف حتى بلغ مسيلمة فعرض عليه التوبة وهو يروغ منه كالثعلب، ثم اقتحم

خالد صفوف العدو لا يلتفت وراءه وهو يقول لبعض أصحابه: "أحموا ظهرى لا أوتين من خلفي!"، فسرت روح البطولة في الجند كسرى النار في الهشيم فهذا ثابتُ بن قيس تحنَّط ولبس أكفانه تحت لأمته[١] ثم حفر لنفسه حفرة إلى أنصاف ساقيه وقاتل حتى قُتل.

وهذا زيد بن الخطاب يقسم: "والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي"، وقاتل حتى قُتل وكان هذا آخر كلامه في الدنيا، وهذا أبو حذيفة يصيح قائلاً: "يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال!"، ثم سقط مضرجًا في دمائه.. وفى نصف ساعة أو نحوها قُتل من جيش مسيلمة ثمانية آلاف وسَقَطَ الباطلُ أمام ضربات الحق فانكشف الكافرون وفر مسيلمة وأمر أتباعه بدخول الحديقة[٢] فدخلوها مذعورين أغلقوا أبوابها دونهم لكن الطوفان الإسلامي الكاسح كان لا يقف له شيء وبرزت شجاعة البراء بن مالك الذي صاح في المسلمين: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم من فوق سورهم فرفعوه على الرماح واسقطوه داخل الحديقة فظنه بنو حنيفة ملكًا أو شيطانًا وظل يقاتلهم بسيفه حتى فتح باب الحصن ليندفع السيل الإسلامي العرم وقاتل أبو دجانة وقد كُسرت ساقه واستمات المسلمين في القتال حتى قتلوا مسيلمة وكبير أعوانه محكم بن الطفيل[٣] وسقط عدد هائل قتلى من الجانبين حتى سميت هذه الحديقة بحديقة الموت فقد بلغ عدد القتلى على أقل تقدير نحو أربعة عشر ألفًا من بنى حنيفة، وألف ومائتي شهيد من المسلمين كان من بينهم عدد كبير من أهل بدر ومن حملة القرآن مما دفع الخليفة الصديق إلى التفكير في جمع القرآن، لكن نسبة شهداء المسلمين كانت بجانب قتلى المرتدين لا تتجاوز ستة في المائة (٦%) كدليل على النصر الساحق الذي أحرزه خالد بجيشه.

وبهذا تم لخالد واجبُهُ على خير وجه في قمع الرِّدَّة وبذلك سلمت الجبهة الداخلية من أعداء الإسلام بعدما تبين المؤمنين من أهل الزيغ والنفاق فخرج عن المسلمين ما

---

(١) اللأمة: لباس الحرب.

(٢) كانت حديقة لمسيلمة فسيحة الأرجاء منيعة الجدران.

(٣) كان يعرف "بحمار اليمامة" وكان يقود الجيش.

شامهم كما تطرد النار خبث الحديد كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧]. واستعدت جيوش الإسلام لسحق أعدائهم في الخارج ليستطيع المسلمون في سبع سنين فقط أن يقوّضوا[١] ملك بلاد فارس ويزيلوا سلطان الروم عن الشام ومصر.

ثم وجهه الخليفة أبو بكر لقتال الفرس، فسار خالد إلى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة (٦٣٣م) فأتم في سنة واحدة ما عجز عنه الروم في أجيال متعاقبة فلقد لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة موقعة لم يهزم قط، ولم يخفق في واحدة منها.

ويقول العقاد: ''كان يسير بجيشه أبدًا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجئ فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل[٢] كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة، ولم يخطئ قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهمية، ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفًا وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء فإذا أرسل بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف منهم إلى موقع يغنون فيه فإن طرأ في خلال المسير ما ليس في الحسبان فمعوّله في هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق[٣] في انقضاضه على فرائسه فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا الشام ولا الجزيرة العربية مع اختلاف هذه الميادين واختلاف البشر واختلاف الظروف والأحوال''. حتى وصفه عمرو بن العاص داهية العرب في معاركه فقال أنه في أناة[٤]القطاة[٥] ووثبة الأسد.

وقد بلغت هيبته في نفوس أعدائه بما تردد من وصفه بأنه سيف الله حتى ظن بعض قادة الروم أن الله أنزل على نبيه ﷺ سيفًا من السماء فأعطاه خالدًا فهو يحارب به فينتصر''[٦].

(١) قوّض: هدم.
(٢) الاعتماد.
(٣) من أنواع الصقور سريعة الطيران.
(٤) الأناة: التمهل.
(٥) طائر يشبه الحمام.
(٦) عبقرية خالد للعقاد.

لقد كان خالد شديد الثقة بنصرة ربه وصِدْقَ رسوله ﷺ واثقًا بقدرته وقدرة رجاله فأرسل إليهم الرسل قبل أن يطأ أرضهم وبمنطق الواثق بدأ رسالته إليهم بقوله: "الحمد لله الذي فضَّ خدمكم وفرَّق جمعكم وأوهن بأسكم وسلب أموالكم وأزال عزكم- ثم قال:-قد واللهِ أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة".

ولقد كان خالد يحارب بهيبته قبل أن يحارب بسيفه وكان ذلك أول فضل يحسب له في ميزانه فقد كان اسمه يسبقه إلى إعدائه فيزلزل كيانهم ويملِّك الرعب من نفوسهم فقد قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيرته إليهم: "أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرًا[1] منه، ولا أَصْمَدَ في حرب، ولا يرى وجهَ خالد قومٌ أبدًا قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه". ومثلما عمل في نفوس أعدائه من بث الفزع والرعب، كان يعمل عمله في نفوس أتباعه فيبث الثقة والطمأنينة في جنده.

فإن الجندي ما إن ينضوي تحت لوائه حتى يوقن بيمن طائره فيسرع إلى طاعة أمره عالمًا بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه، كقول الشاعر:

إذا قال سيف الله كـــرُّوا علـــيهم ... كررتُ بقلبِ رابطِ الجأش صـــارم

وكانت أول معاركه بالعراق هي وقعة كاظمة التي لقن فيها هرمز أسطورة الفرس درسًا لن ينساه وذلك أن هرمز علم بمقدم خالد إلى كاظمة التي انتظره بها فحشد قواته وأمرهم فحفروا الخنادق واستعدوا للقائه لكن خالد العبقري أراد أن ينهلك عدوه ويعمِّي عليهم خبره فأوهمهم إنه متجه إلى كاظمة ثم تجاوزها بجيشه إلى الحفير[2] وقسَّم جيشه إلى ثلاث فرق كي لا يعلم عدوه وجهته وكان هرمز قد بث عيونه فلما ظن أنه سيترل بالحفير تحرك إليها بكل جيشه وأمرهم بحفر الخنادق وهكذا أرهق جنده بكثرة التحرك وأعمال الحفر وكانت الفرصة سانحة لخالد أن يترل بجيشه كاظمة بعد خلوها من الفرس ويستغل ما بها من استحكامات ويحتل مكانًا يتمركز به

---

(١) حسن الفأل.

(٢) مدينة شمال كاظمة.

ولما جاءه الفرس هزمهم هزيمة ساحقة وقَتَلَ هرمز وعدد كبير من جنود الفرس الذين كانوا يقيدون أنفسهم بالسلاسل لذا عُرفت "بذات السلاسل".

وعن أوس: "لم يكن أحد أعدى للعرب من هرمز فلما فرغنا من مسيلمة أتينا ناحية البصرة فلقينا هرمز بكاظمة فبارزه خالد فقتله، فنفله الصديق سلبه، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم"[١]. وكان خالد قد أمر بزنة السلاسل فكانت وقر بعير"[٢]. ثم تحرك إلى الأبلة ففر الفرس لما علموا بتحرك خالد إليهم ثم التقى بهم في معركة المذار حيث واجهه جيشًا كثيفًا بلغ قوامه ثمانون ألفًا يقودهم ثلاثة قادة هم "قرباس" و"الأنوشجان" و"قباذ" فأمر خالد فخرج لهم من جيشة ثلاثة: معقل بن الأعشى فقتل قرباس، وعاصم بن عمرو فقتل الأنوشجان وعدى بن حاتم الطائي فقتل قباذ وقُتل من الفرس ثلاثون ألفًا.

ثم واجه جيشًا هائلاً لهم يقوده "الأندرزغر" في الوَلَجَة فقسم جيشه ثلاث فرق حاربهم بأحدها فزعزعهم ودمر مقاومتهم ثم أمر فانقضت الفرقتان الباقيتان فحصرتا الفرس بين فكي كماشة من الخلف وحاصرهم بفرقته من الأمام فأباد الجيش الفارسي ومات قائدهم عطشًا بعد أن فر هاربًا.

ثم قاتلهم في أليس فأجرى النهر بدمائهم وكانت واحدة من أخطر معاركه بالعراق فقد بلغ قوامهم مائة وخمسين ألفًا وقد استعانوا بنصارى العرب من بكر وتغلب وغيرهم من نصارى الحيرة وكان قائد الفرس في المعركة "بهمن جاذوية" واستعمل خالد سلاح المباغتة فانقض عليهم قبل أن يخرجوا له فشتت شملهم لكن مددًا كبيرًا أتاهم فثبتوا واشتدت الحرب حتى أن خالدًا قال: "ما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أليس".

ثم توجه خالدٌ إلى ربه بالدعاء وقال: "اللهم إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألاَّ استبقي منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أُجرى نهرهم بدمائهم"، وحمل عليهم خالد بجيشه

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(٢) ألف رطل.

حتى هزمهم وفرُّوا هاربين فنادي خالدٌ في المسلمين: "الأسر الأسر.. لا تقتلوا إلا من امتنع ثم ضرب أعناقهم في النهر يومًا وليلة دون أن يجرى النهر دمًا، فقال له أصحابه لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجرِ دماؤهم، إن الدماء لا تزيد أن تترقق، أرسل عليهم الماء تبرَّ بيمينك! فأمر بفتح الماء في النهر فجرى دمًا وصار الدم أحمر قانٍ ثلاثة أيام لذا عُرف بنهر الدم[٣]، فتسامع بذلك أهل فارس ورأوه بأعينهم فارتعدت فرائصهم.

وكان الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ يتابع أنباء العراق ويُخبَرُ بانتصارات خالد فيقول قولته الرائعة: "يا معشر المسلمين عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[١].. أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد".

وهكذا عجز الفرس أمام الطوفان الإسلامي الهادر حتى أن كسرى الفرس أرسل يستنجد بملك الصين فأرسل إليه ملك الصين يعتذر ويقول: "يا أيها الكسرى لا قبل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها".

وبعد وقعة أليس هزمهم في أمغيشيا وكانت تبعد عن أليس بأربعين كيلومتر ففروا هاربين أمامه حيث هزمهم بالرعب وبعد الوقعتين الأخيرتين غنم المسلمين سفنا للفرس فأركب خالد جيشه فيها ليكفيهم مشقة الطرق لكن الفرس أغلقوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء فتوقفت السفن فأرسل خالد جنده إليها فأطلقوا الماء بعد قتال عنيف بالحيرة (عاصمة المناذرة) فاستكمل المسلمون رحلتهم بحرًا وهذا موقف يبرز عظمة خالد القائد الفذ فخالد شأنه شأن جيشه بدو لا عهد له بالبحر والسفن.

لكن الرجل كما يقول العقاد: "كان يقابل في الحرب عوارض شتى تدخل في الحسبان أو تكون على غير حسبان فيتصرف فيها جميعًا تصرف الرجل الذي خُلقَ للتقلب في أجواء الحرب كما خُلقَ السمك للتقلب في الماء فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه"[٢].

---

(١) الخرذولة: القطعة الكبيرة من اللحم.

(٢) عبقرية خالد للعقاد.

وبعدها سلمت له الحيرة بلد النعمان كلها وقضى بذلك على دولة المناذرة حيث استسلمت له مقابل دفع الجزية ١٩٠ ألف درهم سنويًا وبعد ثماني وقائع (كاظمة- ذات السلاسل- الأبلة- المذار- الولجة- أليس- أمغشيا- الحيرة). (أنظر خريطة رقم (١٣)). قهر فيهن الفرس جاءه أمر الخليفة بوقف الزحف وأن ينتظر حتى يوافيه عياض ابن غنم بجيشه وذلك لعلم أبي بكر ﷺ أن فلول العرب المنهزمة قد تجمعت في دُومة الجندل بين الشام والعراق مما زاد من مشقة عياض أن يمتلك زمام الأمر فخشي أن يحاصر المسلمون بين الفرس والروم، ومكث خالد بن الوليد سيف الله في غمده منهيًا عن القتال نحو سنه، وكانت أشد السنوات عليه قسوة حتى أنه سماها عام نساء.

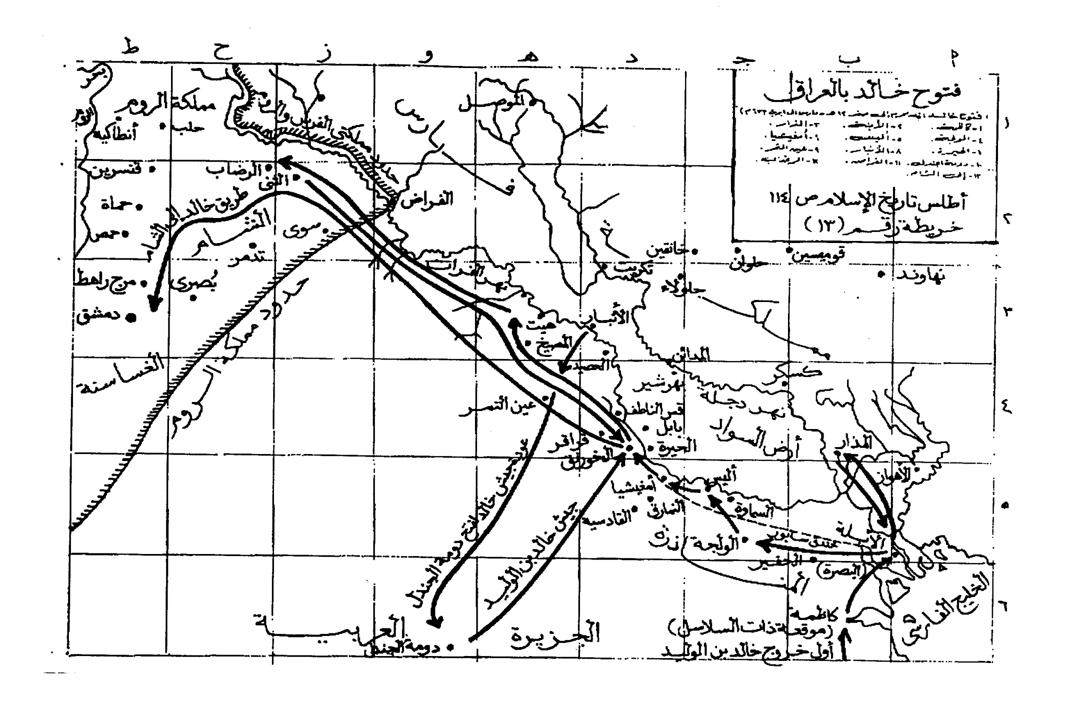
ثم أصدر الخليفة أبو بكر ﷺ أوامره لخالد بمباشرة القتال، فلقي الفرس في الأنبار[١] فتحصنوا بحصونهم وضربوا حولها الخنادق ورشقوهم بالنبل من خلف حصونهم مستهزئين بالمسلمين يظنون أنهم في مأمن من خالد وجيشه فطاف خالد بالخندق وتلمس أضيق موضع فيه ثم أمر بالإبل العجاف فنُحرت وأُلقيت به فسدته وصنعت بذلك طريقًا عبر عليه بجيشه حتى اقتحم عليهم حصنهم.

لقد كان خالدٌ قادرًا على استغلال الأرض بما يفيده في المعركة بقدر ما يضر عدوه، وكان يحرص على جمع المعلومات عن عدوه فيعلم عنه أكثر مما يعلمه عدوه عنه، وكانت المفاجأة والخديعة عاملين لا يفارقان خَلَده[٢] عندما يضع أي خطة، وكان يجيد إخفاء نواياه في تحركاته وكان بارعًا في تلمس نقاط الضعف من عدوه.

---

(١) سميت هذه الوقعة "ذات العيون" لأن خالد طاف بالخندق وقال لرجاله: إني أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب فارموا أعينهم ولا توخُّوا غيرها فرموا الفرس ففقئ ألف عين يومئذٍ (تاريخ الطبري ٤/٤٥) والأنبار مدينة على الفرات غرب بغداد كانت تسميها الفرس "فيروزسابور" أول من عمرها وسكنها من الفرس، جددها وأقام بها أبو العباس السفاح أول خلفاء العباسيين ومات بها (معجم البلدان ١/٣٠٥).

(٢) الخَلَد: البال.


فتوح خالد بالعراق
أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٤
خريطة رقم (١٣)
مملكة الروم
حلب
أنطاكية
قنسرين
حماة
حمص
مرج راهط
دمشق
بصرى
تدمر
سوى
الرضاب
الفراض
الموصل
فارس
تكريت
خانقين
حلوان
جلولاء
قوميسين
نهاوند
الأنبار
هيت
الحصيد
المدائن
بهرشير
نهر دجلة
أرض السواد
بابل
الحيرة
عين التمر
الخورنق
أمغيشيا
القادسية
الولجة
المذار
البصرة
كاظمة
(موقعة ذات السلاسل)
أول خروج خالد بن الوليد
الخليج الفارسي
دومة الجندل
الجزيرة العربية
الغساسنة
حدود مملكة الروم
طريق خالد إلى الشام
جيش خالد بن الوليد

ومن أبرز أساليبه في القتال أنه كان يركز على قائد أعدائه فيحمل عليه لينال منه فيفتَّ ذلك في عضد القوم[١] فينهزموا مثلما جرى في وقعة عين التمر فقد كان عُقَّه بن عُقَّه قد حشد له من عرب تغلب وإياد جيشًا كثيفًا فما إن التقيا حتى قال خالد لصحبه: "أكفونا ما معه فإني حامل عليه بنفسي!"، فانقض عليه ثم احتضنه وحمله أسيرًا وهزم جيشه.

ثم علم خالد أن جيوش الفرس والعرب تستعد للقتال في منطقة الفراض وهى مدينة محصورة بين دولتي الروم والفرس، فتجهز لقتالهم وكان هذا هو اتجاهه المتوقع في طريق فتوحاته لكنه فاجأ الجميع وغير خطته فانقض على أعدائه بدُومة الجندل وكان يفصله عنها مسيرة أسبوعين فقطعها في أقل من عشرة أيام فحصرها بين جيشه وجيش عياض بن غنم وأعمل فيهم السيف لأن أعداءه بها نكثوا عهودهم مع المسلمين.

ويقول الأستاذ محمد فرج: "وعلى هذا يكون خالدٌ أولَ من استخدم تكتيك جديد لم يكن يُستخدم قبلها في الحرب وهو حصار عدوه بين فكي الكماشة ليصحح بذلك مارسخ في الموسوعات والمراجع الحربية والتي تشير إلى أن الألمان أول من استخدموا هذا التكتيك في الحرب العالمية الثانية"[٢].

ثم انقض على الفراض بنفس سرعته إلى دومة الجندل فهزم أهلها وقتل من الفرس وحلفائهم نحو مائة ألف وبعد أن خلص من الفراض لم يكن قد بقي على موسم الحج سوي أسبوعين وفى عزمة خالدية جديدة انتقل من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز فأدى الفريضة دون أن يعلم أحد إلا بعض خاصته، ولم تكن في الحقيقة هذه مغامرة بقدر ما كانت ثقة في نفسه وفى رجاله، ويكفى أن من بينهم رجال كالمثنى بن حارثة والقعقاع بن عمرو وغيرهم من القادة المغاوير الذين يصلح الواحد منهم لفتح الأرض قاطبة وليس بقعة بعينها.

---

(١) فَتَّ في عضده: أوهنه وأضعفه.

(٢) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

ولما علم أبو بكر بما فعل عاتبه عتابًا رقيقًا ونهاه عن ذلك، ثم عَنَّ[1] للخليفة أبي بكر الصديق أمرًا رآه بنظرته الثاقبة وحكمته البالغة، هو أن ينقل خالدًا إلى جبهة الشام فيضرب به الروم كما سبق وأن ضرب الفرس وذلك لأنه رأى أن في جيش المسلمين وقواده كفاية للمثابرة على الفتح بعد مرحلة التمهيد والتدويخ التي قادها خالد بنجاح، كما أن الوضع في الشام أصبح يكتنفه الخطر وذلك لتفرق جيوش المسلمين واستعداد الروم الهائل مما دفع هرقل إمبراطور الروم ليقول: "والله! لأنسين أبا بكر ألا يورد خيله أرضنا مرة أخرى". فقال أبو بكر قولته الخالدة: والله! لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"، وأرسل لخالد يأمره بالتوجه إلى ساحة الشام فقال: ".. فليهنك[2] أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتُخْذَل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المنُّ وليُّ الجزاء".

ثم أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ قائد الجيوش بالشام يخبره بمقدم خالد عليه قائدًا، ويقول: ".. سلام الله عليكَ. أما بعد.. فقد ولَّيتُ خالدًا قتال العدو في الشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع! فإني لم أبعثه عليك ألاَّ تكونَ عندي خيرٌ منه، ولكنني ظننتُ أن له فطنة في الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام".

وما كان من خالد المؤمن المهذب إلا أن بعث بكتاب لأبي عبيدة قبل أن يأتيه فقال فيه: "أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها. والله ما طلبتُ ذلك قط أو أردته إذ وليته، فأنت على حالك الذي كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرًا.. فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك".

وهكذا كان الصحابة أصحاب نفوس سامية متجردة لله تعالى لا تسعي إلى منصب أو زعامة، لا تسعي إلا لإعلاء كلمة الله تعالى فحسب ومن هنا كانوا يُنْصَرون.

---

(١) عَنَّ له: بداله وظهر له.

(٢) هنيئًا لك.

وكان الروم قد تجمعوا بالشام في جيش كثيف بلغ قوامه مائتين وأربعين ألفًا يقوده ثلاثة من أكبر قادتهم وهم: ''تيودريك''، و''الفيقار بن نسطوس الدارقصي''، و''جرجة''، حيث حشدوا جموعهم بمنطقة اليرموك في مواجهة جيوش المسلمين الأربعة والتي يبلغ قوامها ثلاثين ألفًا عليها أبو عبيدة وعمرو بن العاص وشر حبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان والقيادة العامة لأبي عبيدة، وكان الوضع حرجًا فكتبوا يستمدون أبا بكر ويلتمسون عنده الرأي فأصدر أمره لخالد بالتوجه إليهم بقوله: ''سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا!'' ونظر خالد فإذ المسافة بينه وبين الشام نحو خمسمائة أو ستمائة ميل ووجد أمامه أربعة طرق توصله إلى الشام وكان يعلم جيدًا حرج وضع المسلمين وأن الوقت ليس في صالحهم لذا كان عليه أن يقطع المسافة في أقل وقت من أقصر الطرق وأكثرها أمانًا فيتجنب أية مناوشات أو قتال قد يؤخر وصوله أو يكبده خسائر هو في غنى عنها، وبذلك يصل في حالة بدنية ونفسية جيدة وهو ما يسمي في حروب اليوم ''المحافظة على الغرض''.

لذا نظر وقدَّر واختار أقصرها وأوعرها وأنآها عن عدوه وكان بالطريق مفازة[1] مهلكة فنهاه الدليل عن خوضها وقال: ''إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال. والله! إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرور''. فقال خالد: ''ويحك إنه والله إنْ لي بدٌّ من ذلك، إن القوة تأتي على قدر النية وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه من معونة الله''.

ثم سار خالد بعشرة آلاف فخرج من الحيرة في ربيع الأول سنة ثلاث عشرة (٦٣٤م) وأغار على عين التمر ثم على جموع تغلب وكلب على ماء يسمي قراقر ثم اجتاز في خمسة أيام فقط صحراء قاحلة مجدبة حتى وصل إلى سوي وبها جموعٌ من الروم ففاجأهم لأنهم لم يتوقعوا أن يأتيهم من هذا الطريق الوعر ثم أتي أراك وتدمر فالغوطة ثم مرج راهط فبصري فغسان حتى وصل دمشق فأطل على المسلمين ناشرًا

(١) صحراء قاحله.

راية سوداء للنبي ﷺ تسمى العُقاب[1] وكان ذلك في ربيع الآخر ليكون قد قطع الطريق في ثمانية عشر يومًا حيث كان يطوى مسافة اليومين في يوم واحد ليضيف عزمة خالدية جديدة إلى عزماته.

ووصل خالد إلى ميدان القتال بينما كان المسلمون على شاطئ اليرموك الأيسر والروم على الأيمن منه، والمسلمون في جيوش متفرقة، فخطب في الجند: "هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده.. لا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة- أي الروم- وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإنَّ مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به الذي ترون أنه الرأي". فتساءل القوم: فما الرأي؟ فقال خالد: "إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم.. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا، فإن هؤلاء قد تميئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردُّهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها.. فهلموا نتعاور[2] الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم، وأسألكم أن تعطوني الإمارة في اليوم الأول.."

وهكذا نرى من أخلاق خالد فصلاً جديدًا في كتاب بطولته، فقد أبى أن يأخذ القيادة التي أوكلت إليه إلا بعد أن يستأذن القادة الذين وافقوا عن طيب خاطر فسرت روحٌ من المحبة والتآلف في جيش المسلمين. وما إن تولى خالد القيادة حتى أظهر فنون عبقريته وبراعته في الحرب، فقد قسَّم جيشه إلى كَراديس[3] بلغت نحو ثمانية وثلاثين كردوسًا لأن الكراديس أصلح الطرق للنفاذ إلى الصفوف وأدعاها للتنافس بين القادة

---

(١) العقاب: طائر جارح يعد ملك الكواسر وهو أكبر من الصقر وأشد منه.
(٢) نتبادل.
(٣) جمع كردوس وهي كلمة يونانية معناها الكتلة أو الكتيبة.

والجند حيث جعل كل كردوس مؤلفًا من ألف رجل وأسند قيادة كل منها إلى رجل من الشجعان كالقعقاع بن عمرو، وعياض ابن غنم، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، ثم أسند قيادة كراديس القلب لأبي عبيدة، وكراديس الميمنة لعمرو بن العاص، وكراديس الميسرة ليزيد بن أبي سفيان، وجعل للجيش مقدمة أسند قيادتها لقبات بن أشيم .

ويقول الأستاذ السيد فرج: وهكذا حشد خالد جيشه إيمانًا منه بأهمية الحشد كمبدأ من أهم مبادئ الحرب فاجتمع له ستة وثلاثين ألفًا منهم ألف صحابي ومائة بدري، وبذلك يكون له السبق على غيره من القادة وهذا ما قال فيه جولتز: ''تتضمن الخطط الحربية الحديثة لجميع الدول قبل اشتباك قواتها مع قوات العدو، القيام بعمليتي التعبئة والحشد''[1].

ويذكر الأستاذ محمد فرج: أن هناك تشابهًا بين خالد بن الوليد في اليرموك، وبين مونتجمري في معركة العلمين. حيث تسلم مونتجمري قيادة الجيش الثامن البريطاني بعد تكبده خسائر فادحة طوال ثلاث سنوات من الألمان، وكانت أشد هذه الهزائم في يونيو ١٩٤٢ عندما أعد روميل كمينًا له عند جسر النر..ان حيث دمر عددًا كبيرًا من الدبابات البريطانية، فما إن تولى مونتجمري القيادة حتى حشد قواته فبعدما أمدته القيادة العليا بالجند والمعدات، قسَّم جيشه إلى فيالق ثلاثة والفيلق إلى ثمان فرق وحدد لكل منها أهدافها ومحور تحركاتها، على أن تتعاون معًا بشكل كامل، ثم شحذ الروح المعنوية لجيشه وكان يقول: ''الجنرالات مادتهم الخادم الأولى هي الرجال، فالمعارك تكسب أولاً وبصفة رئيسية في قلوب الرجال فإن النصر يعتمد على تدريبهم وشجاعتهم وتصميمهم على النصر أو الموت''.

وهذا ما فعله خالد أيضًا لكن مع الفارق الهائل في الإعداد المعنوي الذي يُعوِّل[2]

---

(١) محمد ﷺ: تعليماته وأوامره في ساحة القتال: للسيد فرج.
(٢) عَوَّل على: اعتمد على.

في الإسلام على عقيدة راسخة وتأييد من الله. ولقد كان خالد في حاجة ماسة لتقوية الروح المعنوية وتجهيز نفسية المحاربين وشد أزرهم لينسيهم ما كان قد علق بذاكرتهم من خشية الروم، فقد كان هذا ثالث لقاء مع الروم بعد مؤتة وتبوك، فالأولى منهما قد انحاز خالد بالجيش بعد أن أبلوا أشد البلاء، والثانية رأوا فيها جموعهم الهائلة لكنهم لم يجدوا منهم كيدًا. لقد كانت بالفعل معركة فاصلة في تاريخ كلٍّ من المسلمين والروم، فانتصار المسلمين يعنى دحر الروم وزوال ملكهم ونزع أيديهم من الأماكن المقدسة التي اغتصبوها، كما كانت هزيمة المسلمين تعني تبديد الجيش الأكبر الذي لا تتسع الطاقة لإعداد جيش مثله كما تعني زوال هيبتهم عند الروم مما يتبعه من احتمالات مهاجمة الروم لديار الإسلام[١].

لهذا أشعل خالد الروح المعنوية في جنده فأخذ يذكّرهم بالله وبغزوات رسول الله ﷺ وذكرَّهم بغزوة بدر التي كان من بينهم من شهدها وأخذ يذكرهم بحروبه مع الفرس وكيف قهرهم هو رجاله، وأخذ يحبب إليهم الشهادة. وجعل للجيش قاضيًا هو أبا الدرداء ليحكم فيه بشرع الله وينقّيهم من ذنوبهم التي تعد أخطر عليهم من أعدائهم، وجعل المقداد بن الأسود قارئًا فعلا صوته بالترتيل وهو يقرأ عليهم سورة الأنفال، وجعل أبو سفيان بن حرب واعظًا كان يدور بين الكراديس فخطب فيهم: "الله إنكم ذادة[٢] العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا اليوم من أيامك، أنزلْ نصركَ على عبادك".

وأمر القَعقاع وعكرمة أن ينبشا القتال فبرزا في قلب الجيش يرتجزان، وخرجت نساء المسلمين كأسماء بنت أبي بكر وهند بنت عتبة وأم حكيم زوج عكرمة خلف الجيش، وكان قد أمرهم أبو عبيدة أن يحملن أعمدة الخيام ويجعلن الحجارة في أيديهن فإذا رأين أحد المسلمين منهزمًا ضربن وجهه، فقال خالد لهن: "يا نساء المسلمين! عليكن بالسيوف فأيما رجل أقبل عليكن منهزمًا فاقتلته".

---

(١) شخصيات عسكرية إسلامية: لمحمد فرج.
(٢) حماة.

وأثناء الإعداد للقتال سمع خالد رجلاً من المسلمين يقول: ''ما أكثر الروم وأقل المسلمين''- فقد كان جيشهم يزيد عن خمسة أضعاف المسلمين- فغضب خالد وقال قولة الواثق: ''بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال''.

و لم تقتصر جهوده على رفع معنويات جنده بل تعدى ذلك إلى محاولة تحطيم نفسيه أعدائه فانتهز فرصة مواجهته لقائد الروم ''جرجة'' ودعاه للإسلام فأجابه- ودخل الإسلام وحارب يومها في صفوف المسلمين وأبلى بلاءً حسنًا حتى نال الشهادة- ثم برز قائد الروم ''ما هان'' فقال لخالد: ''قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع فإن شئتم أعطيناكم المال والطعام والكساء وترجعون إلى بلادكم''. فقال خالد: ''إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت، ولكنا قوم نشرب الدماء وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم فجئنا لذلك''.

وهكذا نرى قوة خالد وعزمه وعزم جنده على القتال، واصطف الجيش الإسلامي ينتظر الأمر بالهجوم وإذ بجندي في القلب ينادي قائده أبا عبيدة فيقول: ''يا أبا عبيدة إني عزمتُ على الشهادة فهل لك من حاجة أبلغها إلى رسول الله ﷺ ؟''. فأجابه أبو عبيدة ﷺ: ''إذا لقيتَ رسول الله ﷺ فقل له: ''إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا''.

كانت المعركة في الثاني عشر من رجب سنة خمس عشرة (٦٣٦م)، واختار خالد يوم الهجوم وكان يومَ ريحٍ سموم محملة بالتراب واختار ساعة الصفر في حمارة القيظ[١] ليكون شديدًا على الروم وأصدر الأمر بالهجوم.. يا خيل الله اركبي! واندفع المسلمون في قتال شرس مستميت، لكن لكثرة الروم، تزعزعت القلة أمام الكثرة لكن سرعان ما انحسرت موجة الضلالة وثبت العقيدة فبرز عكرمة بن أبي جهل ﷺ في أربعمائة من المهاجرين وبايعوا على الموت واندفعوا يخترقون صفوف الروم لا يقوم في

(١) شدة القيظ.

وجوههم قائم وصبروا على القتال حتى قُتل عكرمة ومعظم فرسانه واستمات المسلمون في القتال وحمي الوطيس[١].

وروي سعيد بن المسيب عن أبيه قال: خمدت الأصوات يوم اليرموك والمسلمون يقاتلون الروم إلا صوتُ رجلٍ يقول: "يا نصرَ اللهِ اقترب، يا نصرَ اللهِ اقترب"، فرفعت رأسي فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد رضي الله عنهما".

وعن جبير بن الحويرث قال: "حضرتُ اليرموك فلا أسمع إلا نَقْفَ[٢] الحديد إلا أنني سمعتُ صائحًا يقول: يا معشر المسلمين يومٌ من أيام الله أبلوا الله فيه بلاءً حسنًا، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه"[٣].

وكان خالد أثناء القتال يحمس جنده فيلجَ[٤] صفوف الروم بنفسه يطعن يمنة ويسرة. واعتمد خالد في خطته أن يعزل بين خيل الروم ومشاته وبالفعل ضيق الخناق على خيل الروم فعجزت عن الجولان فولت هاربة، وتراجع مشاتهم إلى الخنادق فأحاط بهم المسلمون وانقضوا عليهم ففروا هاربين وتساقطت أعداد كبيرة منهم في هوة الواقوصة (وادي الرقاد) لأنهم كانوا يقيدون أنفسهم بالسلاسل الخمسة والستة منهم حتى لا يفرون وكان ذلك وبالاً عليهم حتى أُحصي من سقط في الوادي منهم بنحو ثمانين ألفًا فرادى وجماعات، وبلغ من بعضهم اليأس أن قعدوا في أماكنهم ينتظرون القتل، وهكذا نصر الله جنده وكُسر الروم في الشام فلما بلغ هرقل الخبر وهو في حمص، ارتحل إلى الشام وهو يقول: "سلامًا عليكِ يا سوريا.. سلامًا لا لقاء بعده".

وبعد هذه البطولات المذهلة التي رسمها خالد انتصارًا بعد انتصار، ليثّبت أقدامه فوق ذُرى التاريخ والأحداث ولينتزع لنفسه مكانة بارزة بين القادة والعظماء، لنتأمل معًا عبر هذه الصفحات عواملَ بطولته وعناصر تفوقه وأسباب حسمه لكل معركة دخلها .

(١) اشتدت الحرب.
(٢) صوت كالطرق.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(٤) ولج: دخل.

يقول العقاد: ''لقد حُسمتْ كثيرٌ من المعارك لأسباب لا تُحصي كطول رماح المنتصرين أو وجود الفرسان في الوسط أو على الجانبين أو غير ذلك من العوامل، وهى أسباب عدة يقوم عليها النصر في موضع ويقوم عليها الفشل في موضع آخر فللنصر عوامل وأسباب حاول الخبراء أن يجمعوها في قاعدة موجزة فيقولون كلامًا يسهل الإطلاع عليه لكنه كلام يقرأه القائدان معًا فيبوء أحدهما بالنصر والآخر بالهزيمة، وقصاري ما يقال أن القائد الموفق هو الذي يلمح وجود فروق بين ميدان وميدان وبين معركة ومعركة فيعمد إلى العمل اللازم في الوقت اللازم بالقدر اللازم، وخالد بن الوليد لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال من شجاعة ونشاط وجَلَد ويقظة وحضور بديهة وسرعة ملاحظة وقوة تأثير، فكان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها وكأنه يضع فنون الحرب التي يجمعها الخبراء في عصرنا بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات''.

ويستعرض العقاد أهم الكتب التي وضعت في فنون الحرب ويقارن بينها وبين فكر خالد العسكرى وخططه الحربية فيظهر ما كان له من السبق ويتضح أن جميع ما وُضع في هذه الكتب وكأنما هو تلخيص وسرد لما تم على يديه من بدائع الابتكارات.

فمثلاً في كتاب ''فن الحرب اليوم''[1] تأليف: الأميرال باكون، والجنرال فلو، ومارشال الطيران باتريك بلايفير، قال السادة المؤلفين- من قادة البحر والبر والجو- أن السلاح الذي كان يسيطر على الميدان نوعان: السلاح المقذوف: كالنبل والسهام أو طلقات الرصاص والمدافع والصواريخ في العصر الحديث، والسلاح الضارب: كالسيف والرمح والهراوة[2]، وقالوا: يُعد الصف هو أنسب الأوضاع ملاءمة للسلاح المقذوف لأنه يحتاج إلى مدي مكشوف، وتُعد الكراديس أنسب الأوضاع ملاءمة للسلاح الضارب لأن الضرب لا يصل إلى عمق الجيش إلا باستخدام الكراديس، كما أن السلاح الضارب لأن فيه التحام يستلزم عن غيره الاستطلاع وكتمان التحركات والسرية الشديدة .

(1) War fare Today.

(٢) الهراوة: عصا غليظة.

قال العقاد: "وكان خالد لا يفوته شيء من أساليب التنظيم فكان يحارب بالصفوف حيث تغني الصفوف، وبالكراديس حيث لا تغني إلا الكراديسُ وكان لا يدخل معركة إلا وقد استطلع جميع تحركات عدوه مع إخفاء وجهته فيعرف عن عدوه ما لا يعرفه عدوه منه".

وفي كتاب "الأسلحة وفنون التعبئة "[١] للكاتب ونترنجهام[٢] يقول مؤلفه: "إن التفوق في سرعة الحركة أو في قوة الإصابة وتركيزها أو في تدابير الوقاية والتي تعتبر جميعها سببًا مباشرًا لإنتزاع النصر بالمفاجأة أو التركيز في الموضع الحاسم في الوقت اللازم".

ويقول العقاد: "كان خالد يستخدم السرعة والمباغتة في حروبه لذا استحق لقب أستاذ السرعة في الحرب هكذا سماه هانز برج المارشال الجوي الألماني، وكان يضمن مفاجأة خصمه بسرعة حركته واقتحامه للطرق الصعبة الوعرة والصحاري القاحلة، كما كان يري ببصيرته النافذة أن يركز ضربته على موقع القوة من خصمه فيركز على القادة فإذا تمكن منهم في أولى جولاته كانت كثرة جند العدو معونه على الهزيمة لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات، كما كان دائمًا يضمن حسن الوقاية حيثما حارب وظهره للصحراء أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم أو بتأمين ظهره ببعض جيشه".

وفي كتاب "فن سوق الجيوش "[٣] للكاتب ليدل هارت الخبير الحربي المشهور الذي قال فيه: "الحرب مثل المصارعة إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم باستنفاد قوتك استنفادًا قليلاً لا يناسب الجهد الكبير الذي يلقاه خصمك، ولا يتم النصر بذلك إلا إذا رجحت قواتك بشكل كبير على عدوك، وإلى جانب هذا فإن الإخلال النفسي والمادي هو المقدمة للقضاء عليه نهائيًا".

---

(1) Weapons and tactics, by: Wintring ham.

(٢) ونترنجهام كان يعمل محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة.

(3) The Stratagy of Indirect approach.

ويقول العقاد: "إن الإخلال بالتوازن لدى الخصم كان هو الغاية التي يهدف إليها خالد إما بمهاجمة العدو من جبهتين أو ثلاث أو بالكمين أو بالهجوم من مكان غير متوقع. فالخطط التي تزلزل الأقدام وتخل بالتوازن معروفة منذ أقدم العصور لكن القدرة حق القدرة هي معرفة الوقت والوسيلة وكيفية التنفيذ متى عَرفتَ الوقت والوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى معرفة القواد الملهمين".

ويقول صاحب كتاب "فن الحرب "[1] لمؤلفه آرثر برني الخبير العسكري مستعرضًا أساليب القتال لدى الشعوب القديمة أن الفرس كانت طريقتهم في الحرب أن يمطروا العدو سهامًا ثم يجرفوه بحملة من الفرسان وقد أفلحت هذه الطريقة مع الميديين أصحاب الأقواس والليديين أصحاب الرماح الراكبة، ومع أصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين لكنها فشلت مع اليونانين بسبب ضعف فرق المشاة الفرس وتفوق جنود الأغريق ذوى السيوف القصيرة والدروع الصغيرة".

ويقول العقاد: "إن الذي خيَّب طريقة الفرس مع اليونانيين هو الذي خيبها مع العرب من أيام ذي قار حتى أيام خالد فالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة للمشاة أتاحت للمسلمين النصر حتى على فرق الفيلة فقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أجدى ضروب القتال مع الجيوش الكبيرة كالفرس والروم وخاصة مع الجندي الذي ينافح عن عقيدة ويفرض كلمته في ساحة القتال بقوة إيمانه. لذا لم يلق الفرس والروم إلا في التحام، وإن كان أحيانًا يلجأ لأسلوب الحصار في فتح المدن والحصون حيثما قضت الحاجة.

ويقول ونترنجهام في كتابه "الأسلحة وفنون التعبئة"[2]: "إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغيير ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك مرفوع النسب إلى السماء فإنها تنتظم على سُنَن فحواها أن التغيير لا ينبغي أن يحدث وأن

---

(1) The Art of war.

(2) Weapons and tactics.

العادات المأثورة كلها حسنة لذا فقد رسخت لديهم أصول رجعية للحرب لا جديد فيها ولا تطوير''.

وفي ذلك يقول العقاد: ''لو أنصف صاحب هذا الكتاب لأشار إلى الدولة الرومانية مثلما أشار إلى الفرس لأنها كانت على نفس الروح وتحكمها نفس الأساليب، أما خالد فكان يقاتل بالقريحة[1] الملهمة أناسًا قد رثَّت[2] عقائدهم كما رثَّت ملكاتهم العسكرية فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان كما لو كانوا يعدون ديوانًا للتشريفات. في حين كان خالدٌ يضع لكل ساعة خطتها فإذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركة جدوى المشاة تَرَجَّل على قدميه، وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة قاتل بها فيميز الناس إلى كراديس ومجموعات''. وكانت مادة القتال لديه من جند وسلاح تغنيه وتلبيه، فكان جنده يصبرون على الشدِّة ولا يروعهم شيء فكل واحدٍ منهم متصلٌ بربه بحبلٍ من إيمانه فهم أصحاب عقيدة يقاتلون عنها، ويصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معتادون على الكر بعد الفر وعلى الاجتماع بعد التفرق، فهم يعدون النكوص ضربًا من التحفز للوثوب، أما خصومه فكانوا كحجارة الدمى المرصوصة إذا سقط أولها لحق به آخرها.

ويقول العقاد: ''لقد كانت لدى خالد وجنده إن صح التعبير ما يسمي بغريزة الميدان''. ولله درُّ العقاد إذ يقول: ''لقد رُزق خالد الجندية في طرازها الأول ورُزق منها وحده ما يكفي العشرات من القادة البارزين''[3].

وبعد ما حلَّقنا في سماء عظمته وحسن قيادته نعود إلى أرض الأحداث، فبعد أن تم للمسلمين النصر في اليرموك، توفي أبو بكر ﷺ راضيًا مرضيًا واستخلف عمر بن الخطاب ﷺ، وحدث ما لم يكن في الحسبان فما إن تولى عمر ﷺ حتى عزل خالدًا وأسند القيادة لأبي عبيده على أن يكون خالدٌ أميرًا للواء الذي كان عليه أبو عبيدة.

---

(١) الملكة التي يستطيع بها الإنسان الإبداع.

(٢) بليت.

(٣) عبقرية خالد للعقاد.

فأذعن خالد الجندي المطيع لقائده الأعلى وحارب تحت إمرة أبي عبيدة، وقيل إن رسالة عمر وصلت أبا عبيدة فأخفاها وحارب هو تحت إمرة خالد بن الوليد رضي الله عنهما، وسواء أصحت هذه الرواية أو تلك فالنتيجة واحدة هي قلوب متجردة لله تعالى أينما اتجهت أدركها نصر الله وتأييده.

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل: ''لقد كان يوم عزله عن إمارة الجيش من أمجد أيامه. وليس يقف مجده في ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه، فقد كان هذا النصر واحدًا من عشرات، وإنما أكبر مجده يومئذ أنه انتصر على نفسه فلم يضعف عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدينه ولم ينهنه[1] من قوة بأسه وعظيم صموده لواجبه فقد رضي إمارة أبي عبيدة طائعًا وسار تحت لوائه وإذ النصر يسير في ركابه وإذا المسلمون والروم يتحدَّثون بفعاله وكأنه القائد الأول، وكأنه النصر تجسد رجلاً، وكيف لا وهو سيف من الله لا غالب له''[2].

وحارب خالد تحت قيادة أبي عبيدة في حصار دمشق وكان أكثر القادة شجاعة فلما سمع بما عزم عليه قائد الروم ''توذر'' من التسلل ليلاً ليفاجئ المسلمين بدمشق أسرع إليه في خفة النمر وبغتة وثبته ففاجأه وقتله وبدَّد جيشه، وحدَّد له أبو عبيدة باب دمشق الشرقي فحاصره وشدَّد عليه الحصار ثم عزم على قهره فخطب في جنده: ''إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا!''، فاندفع هو وجنده فتسلقوا جدرانه حتى دخلوه فاتحين[3].

ثم حضر وقعة فحْل وأبلى فيها بلاءً حسنًا في قتال دام من الليل إلى الليل بغير توقف حتى هزم الروم وأصاب قائدهم ''سقلار بن مخراق'' وقتل من جيشه ثمانية آلاف، ثم كان خالد طليعة الجند في حصار حمص، ويوم قنسرين ضرب أروع الأمثلة

---

(١) نهنه: أي زجره وكفه عنه.

(٢) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل.

(٣) تذكر المصادر أن المدينة سلمت صلحًا وذلك لأن قائد الجيش أبا عبيدة دخل المدينة من جهة بعد أن استلمت في حين دخلها خالد في الوقت نفسه من جهة أخرى مقتحمًا ثم نزل على حكم أبي عبيدة.

في الشجاعة والبطولة فحاصر حصون الروم بها، وقال: "لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا"، وفاجأهم قبل أن يباغتوه فدكَّ حصونهم وقتل قائدهم "ميناس" الذي كان يعد أعظم رجلٍ في المملكة بعد هرقل.

ثم جاء العزل الثاني[1] لخالد وكان عن إمارة قنسرين وعن الحياة العسكرية بصفة عامه. ولقد جاء خالد بانتصار جديد لا يقل عظمة ورفعة عما أنجزه من بطولات، وسواء في العزل الأول والثاني فقد كان انتصاره على نفسه فيهما يعد نجاحًا وتفوقًا لم ولن يناجزه فيه غيره ولن يقوي عليه أقرانه في أي عصر. لقد كان هذا الانتصار في ميزان خالد يُنبئ عن طيب نفسه وصدق نيته وصفاء طويته، فقد جاء ليؤكد أن أقوي دوافعه على الجهاد كان هو الإيمان الصادق بالله فلا فرق عنده في كونه قائدًا أو جنديًا طالما يؤدي واجبه لنصره دينه وإعلاء كلمة ربه.

ولقد خاض في هذا الأمر كثير من المؤرخين ورجال التاريخ غير المنصفين في محاولة للنيل من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما فحاولوا أن يردُّوا ذلك إلى حقد أو خلاف قديم حدث بينهما لكن هذا بلا شك ليس سوي ثمة افتراء فكيف لقلوب تجردت لله وأخلصت له في مسعاها فنصرها الله بتقوها أن تكون بهذا السوء وهذه الضلالة. لكننا إذا أنصفنا وعرفنا للرجلين قدرهما لفطنا إلى كذب هذه الأقوال الزائفة ولفهمنا الدوافع المنطقية التي دعت عمر ﷺ لفعل ذلك.

ويقول العقاد في ذلك: "لقد تلاقى صواب التاريخ وصواب ابن الخطاب ها هنا بإسناد الأمر إلى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور، ففي ميدان الشام وبعد اليرموك كان أبو عبيدة أحق بالموقف الجديد من خالد لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال[2] الأحقاد وضمد الجراح وتقريب القلوب حيث يتسع المجال لهوادة أبي عبيدة ويضيق بضربات خالد، فكان أبو عبيدة هو الرجل المناسب في وقته المناسب فهو رجل يسرع

---

(١) كان بين العزلين: الأول عن القيادة العامة والثاني عن الجيش كله نحو أربع سنوات.
(٢) انتزاع.

إلى المسالمة إذا فتحت أبوابها كما أنه لا يبطئ عند الحرب إذا وجبت أسبابها لكنه إلى المسالمة أقرب".

ويضيف العقاد: "فما نظن أحدًا تفوته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التي انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة، إلى والٍ حاكم ليست له مهمة قائد عسكري يجري الأمر فيها على سُنَّة السطوة العسكرية وتحطيم قوي الأعداء بضرباته الطاحنة كشأن خالد. كما كان عمر يعرف لأبي عبيدة فضله وسبقه على غيره وقد كان هذا دأب عمر في المفاضلة بين الرجال باختلاف سابقتهم في الإسلام، وعلى هذا تكون ولاية أبي عبيدة سنَّةٌ عمرية معروفة ولا يصح أن تكون مجرد قضية بين الفاروق وخالد"[1].

ومما يدل على عظمة خالد وصدق بلاءه في الخطوب وحسن تقديره للأمور مع التماس العذر لغيره بحيث يقع في نفسه دائمًا موقع الرضا، أنه لم يضغن[2] على عمر بن الخطاب، وفى سنوات العزلة التي قضاها لم يعمل عملاً ولم يقل كلمة واحدة تدل على حقد أو ضغينة بل كان يسعى بكل جهده لإطفاء أي فتنة، فقد سمع رجلاً يقول له بعد عزله صبرًا أيها الأمير فإنها الفتنة، فقال له خالد بملء فيه: "أما وابن الخطاب حيٌّ فلا".

ولما جاءه أبو عبيده بأمر أمير المؤمنين لينصِّف[3] ماله لدرجة أنه أخذ إحدى نعليه، قال بمنطق المؤمن المطيع: "ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين فاصنع ما بدا لك!"، وكان يقول: "والله لو وُلِّي عليَّ عبدٌ أسودٌ لسمعت له وأطعت مادام يقودني بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ".

ولما حضر خالدٌ إلى عمر معزولاً قال له الفاروق: "يا خالد! والله إنك عليَّ

---

(١) عبقرية خالد للعقاد.

(٢) يضغن: يحقد.

(٣) نصَّف: قسَّم.

لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد على شيء!''، وأرسل إلى الأمصار يعلنون باسم أمير المؤمنين: ''إني لم أعزل خالدًا عن سخط ولا عن خيانه، ولكن الناس فُتنوا به فخشيتُ أن يوكلوا إليه ويُبتلوا وألا يكونوا بعرض فتنة''.

وذلك هو عمر الذي قطع شجرة الحديبية لئلا يفتتن الناس بها.. عمر الذي يغلق الباب أمام أي فتنة ويسد أي ذريعة للباطل.. عمر الذي لما قُتل أطلت الفتنة برأسها. وما كان حساب الفاروق لخالد حالة فردية فقد كان يحاسب ولاته ويقسوا عليهم في الحق الذي استحق أن يكون أولى الناس به فهو على لسانه وقلبه، العدل الذي ظل ديدنه[1] في حياته كلها.

ولعلنا نستبين موقف الرجلين في أعظم لحظة صدق يقفها الإنسان ألا وهي في مرض الموت والإنسان يقف على أعتاب دار الحق ليلقي خالقه، فهذا خالد في مرض وفاته يقول لأبي الدرداء رضي الله عنهما: ''لقد كنتُ وجدتُ على عمرَ في نفسي في أمورٍ لَّما تدبرتها في مرضي هذا وحضرني من الله حاضر عرفتُ أن عمرَ كان يريدُ الله بكلِ ما فعل فلما قاسمني مالي رأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة وممن شهد بدرًا وكان يغلظ عليَّ وكانت غلظته على غيري نحوًا من غلظته عليَّ فرأيته لا يبالي لوم لائم في غير الله''.

ولما توفي خالد رحمة الله عليه جعل وصيته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب، أما عمر ففي لحظات وفاته كان يقول: ''لو أدركت خالدًا ثم وليته ثم قدمتُ على ربي فقال لي: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلتُ: سمعتُ عبدك وخليلك يقول لخالد: سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين''.

وهكذا كان الرجلان يتبادلان كل حب وتقدير. وأحسن ما قال العقاد في هذا المقام: ''إن الفاروق إنما ختم دورًا ختمه القدر وانقضت به الأحداث فلم يكن بعد القمة التي ارتفع إليها خالد في ضربته للروم مرتقي لراقٍ ولعل مجده الباذخ كانت تعوزه

---

(١) دأبه وعادته.

قمة من نوع آخر هي قمة التحمل والإخلاد[1] إلى الواجب يوم عزله فهي والله لتحسب له إلى جانب قمة الظافر الجسور ولولا عزله لما كنا سنبصر بين هذه القمم قمة العظيم الصابر المطيع"[2].

ويقول العقاد: "لعمري إن سيف الله قد استحق هذه التزكية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهرًا فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنًا في سيرة خالد، إن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر وأناة فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة ولو شاء بعضَ ذلك لكان له مطمع فيه وهو الرجل الذي طبقت شهرته الآفاق[3] بين المسلمين وغير المسلمين، نعم إنه لا فتنة وابن الخطاب حي كما قالها خالد لكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفاخر وليس كل إدراك بالذي يغلب الهوى ويقمع النزوات فقد عرفه الناس في ميدان القتال حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، ولم يبقَ إلا أن يعرفوه في ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور كأنما تأبى عليه عظمته ألاّ يدع موضعًا إلا سطر فيه نصرًا وفخرًا"[4].

وبعد عزل خالد بقي في حمص نحو أربع سنوات إلى أن مات بها سنة واحد وعشرين ولم يتجاوز بعد الخامسة والخمسين ولم يخلّف الفارس الذي قهر دولتي الفرس والروم سوى فرسه وغلامه وسلاحه.

ويقول العقاد: "لا جرم[5] أن أكبر الأسى لتلك النفس في ساعة الموت أن تموت على الفراش كما قال خالد: "لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يُقدر لي إلا أن أموت على فراشي ولقيتُ الزحوف وما في جسدي شبرٌ إلا فيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وهآنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموتُ البعير فلا نامت أعين

---

(١) الركون.
(٢) عبقرية خالد للعقاد.
(٣) ذاعت شهرته.
(٤) عبقرية خالد للعقاد.
(٥) لا محاولة ولابد.

الجبناء، ثم قال: عليكم بالجهاد"[١].

وأقولها لعل الله أراد له خير الجزاء على فعاله العظام ونصرة دين خالقه فحفظه الله من الموت في ساحات القتال ليحفظ جنده فلا تقع لهم هزيمة بموته، ثم يكون موته على فراشه ولعله يدرك بصدق نيته ميتة الشهداء كما أخبر بذلك النبي ﷺ لمن طلبها بصدق.

فقد روي الإمام مسلم في صحيحه عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن قال رسول الله ﷺ: "من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه منازل الشهداء، وإن مات في فراشه".

ولما علم عمرُ بموته قال في أسي: "رحم الله أبا سليمان! كان على غير ما ظنناه به ونكّسَ مرارًا وهو يسترجع كلما رفع رأسه". ثم قال: "كان واللهِ سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة[٢]، ما عند الله خير له مما كان فيه، لقد عاش حميدًا ولقي الله سعيدًا"، ولما اجتمعن بناتُ عمه يبكينه قيل لعمر: "أرسل إليهن فانههن!"، فقال عمرُ: "دعهن يبكين على أبي سليمان، على مثل أبي سليمان تبكي البواكي".

---

(١) عبقرية خالد للعقاد.

(٢) سليم طيب الطبع.

عمرو بن العاص رضي الله عنه

واحد من أبطال الإسلام الذين قل أقرانهم وندر أمثالهم وأكفاؤهم. شخصية جذابة كلما اتجه إليه باحث تكشَّف فيه نواحٍ جديدة من النبوغ والعبقرية فقد جمع بين الشجاعة والثبات في الميادين بما حباه اللّٰه من قوة وشدة وبين سعة الحيلة وحسن التدبير وعمق التفكير. ذلك الرجل الذي نظر إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: "ما ينبغي لمثله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا"[١].

إنه عمرو بن العاص داهيةُ العرب[٢] ومضرب أمثالها في الفطنة والدهاء والحزم، وأجمل الناس حديثًا وأفصحهم بيانًا فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأي الرجلُ يتلجلج في كلامه يقول: "سبحان اللّٰه. خالقُ هذا وعمرو بن العاص واحد"[٣].

أبوه هو العاص بن وائل أحد زعماء قريش وصناديدها وأشرافها، قال فيه عبد اللّٰه بن جدعان إنه يعتز بنفسه كأن الدنيا لم تُخلق إلاّ له، وكان يُعد من حكام قريش وأغني أغنيائها، وقد واجه الدعوة الإسلامية بعنف ولم يدع بابًا من أبواب الصدِّ عن سبيل اللّٰه ومحاربة دينه وإيذاء رسوله ﷺ إلا وَلَجَهُ حتى مات كافرًا عليه لعنة اللّٰه تعالى.

وأمُّه سلمى بنت حرملة من بني عذرة خطفها العرب فبيعت بعكاظ واشتراها عبد اللّٰه بن جدعان فوهبها العاص فولدت له عَمرًا.

ولقد نشأ عمرو بن العاص وقد ورث عن أبيه عداوة الإسلام فكان سفير قريش إلى النجاشي لردِّ المهاجرين إلى الحبشة وبذل في سبيل ذلك كل حيلة لكن مهمته باءت بالفشل رغم أواصر الصداقة التي كانت تجمعه بالنجاشي. وعلى الرغم من كراهيته

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه والذهبي في سير الأعلام.

(٢) كانت العرب تحصي دهاتها أربعة وجعلوا لكل واحد منهم خاصية، فقالوا: معاوية بن أبي سفيان للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلات، وزياد بن أبيه لكل صغيرة وكبيرة.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر وسير الأعلام للذهبي.

الشديدة للإسلام وقتها إلا أنه لم يشارك في بدر، ولم يكن له دورًا يذكر يوم أحد والخندق، فقد وهبه الله من رجاحة العقل واستشفاف الأمور ما جعله يراقبُ الأحداث عن كثب فيري بعقله الراجح ارتفاع شأن الإسلام والمسلمين، وكانت بداية التحول في حياته عند انصرافه مع قومه المخذولين يوم الخندق.

فقد روي ابن إسحق عن عمرو بن العاص ﷺ قال- بعد انصراف الأحزاب في جمع من قريش-: "إني رأيتُ أمرًا فما ترون فيه؟"، قالوا: "وما رأيت؟"، قال: "رأيتُ أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظَهَرَ محمدٌ على قومنا كنا عند النجاشي فإنا إن نكن تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عُرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير"، قالوا: "إن هذا الرأي". قال عمرو: "فاجمعوا لنا ما نهدي له فكان أحبَّ ما يهدي إليه- أي النجاشي- من أرضنا الأدم[1] فجمعنا له أدمًا كثيرًا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله! إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى النجاشي في شأن جعفر وأصحابه".

قال عمرو: "فدخل عليه ثم خرج من عنده". قال: "فقلتُ لأصحابي هذا عمرو بن أمية لو دخلتُ على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه فإذا فعلتُ رأت قريش أني قد أجزأت[2] عنها حين قتلتُ رسول محمد". قال: "فدخلت عليه فسجدتُ له كما كنت أصنع". فقال النجاشي: "مرحبًا بصديقي، هل أهديت لي من بلادك شيئًا؟"، قال: قلتُ: "نعم، أيها الملك! قد أهديتُ لك أدمًا كثيرًا". ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه. ثم قلتُ له: "أيها الملك! إني قد رأيتُ رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا". قال: "فغضب ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فرقًا[3]. ثم قلتُ: "أيها الملك! والله! لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألته".

---

(١) الأدم: الجلد.
(٢) أجزأ عنه: أغني عنه.
(٣) خوفًا.

قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر[١] الذي كان يأتي موسي فتقتله؟''، قال: قلتُ: ''أيها الملك! أكذلك هو؟''، قال: ''ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسي بن عمران على فرعون وجنوده''. قال: قلتُ: ''أفتبايعني له على الإسلام؟'' قال: ''نعم''. فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجتُ على أصحابي وقد حال عما كان عليه وكتمتُ أصحابي إسلامي .

ثم خرج عمرو إلى رسول الله قبيل فتح مكة فلقي خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ﷺ فتسارُوا على الإسلام وتوجهوا إلى الرسول ﷺ مبايعين فبايع خالد ثم تقدم عمرو للمبايعة- فقال رسول الله ﷺ: ''يا عمرو! بايع فإن الإسلام يَجُبُّ[٢] ما كان قبله، وإن الهجرةَ تجبُّ ما كان قبلها''. قال: فبايعته ثم انصرفت[٣].

وكان إسلامه في العام الثامن الهجري. وكان إسلامه بعد تفكير طويل واقتناع تام وإيمان صادق ويتجلي ذلك واضحًا في قول الرسول ﷺ ''أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص''[٤]. وفى قوله: ''إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة''. فقال عمرو: يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال، بل أسلمت رغبةً في الإسلام. فقال ﷺ: ''يا عمرو! نعمًا بالمال الصالح للمرء الصالح''[٥].

وأراد الرسول ﷺ أن ينقي قلبه عن كل شائبة ويهذب نفسه ويسد عليه أي

---

(١) الوحي

(٢) يجبُّ: يهدم.

(٣) رواه أحمد في مسنده والطبراني عن عمرو ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية، والكندهلوي في حياة الصحابة وروي البيهقي مثله من طريق الواقدى.

(٤) رواه أحمد في مسنده والترمذي في سننه وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٥) رواه أحمد في مسنده بإسناد جيد والبخاري في الأدب المفرد وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وابن عساكر في تاريخه وذكره ابن حجر في في الإصابة والكندهلوي في حياة الصحابة، وأخرج الطبري مثله في الأوسط والكبير وكذلك أبو يعلى في مسنده.

ذريعة لشك أو ريب، فأرسله في سرية لهدم سواع[1] فهدمه، ثم أرسله النبي ﷺ إلى عمان ليدعو أميريها الأخوين "جيفر" و"عبَّاد" إلى الإسلام وترك عبادة النار فتحرك عمرو إلى عمان بلا جيش أو سلاح معتمدًا في هذا العمل على حسن بيانه ورصانة حجته، وأتم الله له ما أراد فأسلما وأسلمت بلدهما.

أما عن أول عهده بالقتال تحت راية لا إله إلا الله كان بعد أشهر قليلة من إسلامه حيث أرسله رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة إلى بلاد بليٍّ وعذرة من قضاعة[2] في ثلثمائة من المهاجرين والأنصار منهم ثلاثون فارسًا ومما يبرز تقدير رسول الله ﷺ لرجاحته في الميزان العسكري وقدراته الحربية المتميزة أن جيشه كان يضم خيار الصحابة وأصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار الذين تقدم إسلامهم، وهي ثقة لابد وأن تكون في محلها لأنها نابعة في نفس من لا ينطق عن الهوى النبي ﷺ.

وسار عمرو بجيشه حتى وصل على مشارف القوم فأرسل عيونه فعلم أن قضاعة تعد له جيشًا جرارًا، فأرسل بطلب المدد من الرسول ﷺ فأمده بمائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وعليهم أبو عبيدة ابن الجراح أمير. وتعد هذه المعركة برغم صغر حجم القتال فيها، ذات أهمية عسكرية حيث ظهرت فيها أمورًا عكست مدى كفاءة عمرو القيادية. أولها توحيد القيادة بعد بلوغ المدد إياه، وهذا مبدأ بالغ الأهمية وعميق الأثر فلم يسجل التاريخ أن معركة دارت وفيها جيش يقوده أكثر من قائد، فما إن وصل المدد بقيادة أبي عبيدة حتى عرض أن يظل كل منهما على مدده فرفض عمرو إلا أن تكون القيادة لأحدهما، فقال أبو عبيدة: "يا عمرو ليست لك الإمامة فقد بعثني رسول الله ﷺ أميرًا"، وقال عمرو: "بل أمرني رسول الله يا أبا عبيدة، وإنما أنت مدد، وقد أصبحت أنت ومن معك جزءًا من جيشي". فقال له أبو عبيدة: "ولكنهم كبار الصحابة!". فقال عمرو: "ولكنا في جهاد يا أبا عبيدة تتساوي

---

(١) صنم لهذيل تبعد ٣ أميال عن مكة.

(٢) تقع وراء وادي القرى بينها وبين المدينة ١٠ أيام.

فيه السيوف والمقامات وأنت وهم تحت إمرتي لأنكم مدد لي وسوف أؤم الناس''. فقال أبو عبيدة بلينه وسماحته المعروفة: ''يا عمرو! إن رسول الله ﷺ قال لي لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك''[١]، وقَبِلَ بقيادة عمرو.

وكانت ثانية المشكلات التي جابهت ذلك الجيش هي برودة ليل الصحراء فأراد المسلمون أن يوقدوا نارًا ليستدفئوا فرفض عمرو، قال: ''لا يوقد أحدٌ نارًا إلا قذفته فيها''. فشق ذلك على الصحابة حتى أن عمر بن الخطاب غضب وأسرَّ بذلك لأبي بكر رضي الله عنهما فقال الصِّدِّيق أبو بكر: ''دعه إن رسول الله ﷺ لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب''. فسكت عمر. وبالفعل كان عند ظن الرسول ﷺ قائدًا بارعًا استطاع بسيره ليلاً وكمونه نهارًا أن يكفي جيشه العيون والمتربصين ليضمن السلامة والسرية لتحركاته من ناحية وأن يوفر عليه الجهد ويكفيه مشقة شمس الصحراء المحرقة.

ويقول الأستاذ محمد فرج: ''وهذا ما تنتهجه الجيوش الحديثة حرصًا على قواتها وهو ما يعرف في المدارس العسكرية الحديثة باسم نظرية ''سلامة القوات''.

ثم نجد عمرو يرفض بإصرار متابعة فلول المنهزمين وأمر جنده فقال: ''اثبتوا ولا تتبعوا الفارين!'' وأنذر بأشد العقاب. ولما رجع المسلمون شكوا إلى رسول الله ﷺ فدعي عَمْرًا فأقر بما حدث وساق مبرراته فقال أنه لم يوقد النار خشية أن ينكشف جنده أمام العدو وهو ما يعرف في الحروب الحديثة باسم ''السلامة الحربية'' أو مبدأ ''الوقاية'' وهو ما يتفق مع مناهج المدارس العسكرية الحديثة حيث يمنع القادة جندهم وفقًا لها من إشعال أعواد الثقاب وأحيانًا يمنعون جندهم من استخدام أدوات معدنية تلمع أثناء الظلام وإن كانت الرتب النحاسية[٢].

وأما عن مطاردة الفارين فقال عمرو: ''كنا نحارب في بلادهم يا رسول الله وقد خفت أن يكون لهم مددٌ فينقض على المسلمين إذا تبعوهم وبعدوا عن مواقعهم''.

---

(١) الطبري في تاريخه (١٥٧/٣).

(٢) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

فاستحسن الرسول ﷺ رأيه وأقره عليه، وكانت هذه المعركة "ذات السلاسل".

وبعد وفاة النبي ﷺ قاد أبو بكر ﷺ سفينة الإسلام في بحر لُجّي متدافع الأمواج فعقد النيَّة على الجهاد واستعان بقادة الإسلام وقطعًا وقع اختياره على عمرو ليكون في طليعة الفتوح إلى الشام، فجمع أبو بكر أصحابه ومستشاريه وذكر لهم أن رسول الله ﷺ كان قد صرف عزمه إلى بلاد الشام لولا أنه قُبض. فأذعن المسلمون لإرادة النبي ﷺ ولرأي خليفته أبي بكر ﷺ واجتمعوا على تسيير الجيوش إلى الشام لنشر دين الله فيها.

وأرسل أبو بكر ﷺ لعمرو بقضاعة رسالة يخبره برغبته في الاستعانة به في فتوح الشام وقال فيها: "أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك إلاّ أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك.." فرد عمرو ردًا قاطعًا: "إني سهمٌ من سهام الله وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارمِ بها شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي".

وهكذا أطاع عمرو قائده الأعلى وسار على رأس جيش من أهل مكة والطائف وهوازن وكلاب وكان عدته تسعة آلاف متجهًا إلى فلسطين. وانطلقت بحذائه ثلاثة جيوش أخرى الأول إلى الجابية وعليه أبو عبيدة، والثاني إلى دمشق وعليه يزيد بن أبي سفيان، والثالث إلى وادي الأردن وعليه شر حبيل ابن حسنة، وأسند أبو بكر القيادة العامة لأبي عبيدة.

وخاض عمرو بجيشه معاركًا كثيرة فلقي الروم في مائة ألف فهزمهم في "غمر العربات" وأسر ستمائة و لم يُقتل من جيشه سوى سبعة أفراد فقط (أي نسبة ٠,٠٧% من جيشه فقط) وهي نسبة مذهلة قلما تحدث في قتال.

ثم لقي الروم في مائة ألف أخرى تحت قيادة البطريق "روبيس" فقسم عمرو جيشه فجعل الضحَّاك على الميمنة وسعيد بن خالد على الميسرة، وأبو الدرداء على الساقة وبقي هو وأهل مكة في القلب وحمل عليهم فقتل منهم خمسة عشر ألفًا وقُتل من

المسلمين نحو مائة وثلاثين (أي ٠,٤ ١% من جيشه) .

وفي يوم اليرموك كان ممن أشار على خالد باجتماع الجيوش وكان أول من بايعه على القيادة يومها، وعندما رأي الروم قد نزلوا مكانًا فسيحًا محصورًا بين النهر والبحيرة والوادي وجيش المسلمين، قال: ''أيها الناس! أبشروا حُصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير، والله لقد سمعتُ أن المسلمين سيفتحونها كفرًا كفرًا[1] وقصرًا قصرًا فلا تهولنكم جموعهم ولا عُدَدَهم فإنكم لو صدقتم الحملة تطايور تطاير الجحول''[2].

وكان عمرو على كراديس الميمنة وثبت يومها ثبات الجبال أمام هجمة الروم التي تكسرت على صخرة الإسلام وهزمهم المسلمون شر هزيمة.

كما شارك في حصار دمشق وخصص له أبو عبيدة أحد أبوابها، ويوم فحْل قاد أحد جناحي الجيش، وأبلي بلاءً حسنًا في حصار بيسان حتى سلمت المدينة.

ولعل أهم معاركه وأخطرها في الشام هي معركة أجنادين[3] التي واجه فيها الداهية ''أرطبون'' أقدر قادة الروم وأكثرهم دهاءً وعقلاً ولما علم عمر بن الخطاب ﷺ بمواجهة الرجلين قال لأصحابه: ''رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج''، واستطاع عمرو بذكائه المعهود أن يدخل معسكر الروم بنفسه ليجمع عنهم المعلومات حيث دخل في هيئة رسول للمسلمين واستطاع بالحيلة أن يفلت من براثنهم بعدما ساورهم الشك في أنه عمرو نفسه، واستطاع عمرو أن يجمع معلومات تفيد بأن أرطبون يركز قواته في الرملة وإيلياء ويضع حاميات له في نابلس ويافا وسبسطية كما يعتمد في إمداد قواته على ثغر قيسارية فرأي عمرو أن يقطع عليه إمداداتها وأرسل إلى

---

(١) الكفر: القرية.

(٢) الجحول: أسراب النحل.

(٣) أجنادين: ذكر الدكتور أحمد شلبي في كتابه "موسوعة التاريخ الإسلامي" أنها وقعت عام ١٣هـ قاد المسلمين بها خالد بن الوليد وكان المسلمون ٣٠ ألفا، وقاد تيود ور أخو هرقل جيش الروم في ١٠٠ ألف وقُتل من الروم نصف الجيش. وأنها كانت بعد اليرموك وهذا ما تتفق عليه معظم المراجع.

عمر ﷺ يخبره بالأمر فبعث أمير المؤمنين جيشًا عليه معاوية بن أبي سفيان ففتحها وقتل من جند الروم ثمانين ألفًا، وبذلك قضي على إمدادات الروم ليتفرغ عمرو لأرطبون الذي التقي معه على أرض المعركة وكانت واحدة من أقوى المعارك التي خاضها المسلمون مع أعداء الله الروم وانهزم الروم هزيمة ساحقة وفَرَّ أرطبون إلى بيت المقدس وهو يقول: خدعني الرجل إنه أدهى الخلق جميعًا". ولما بلغ الخليفة عمر بن الخطاب أخبارَ انتصار المسلمين هلل قائلاً: "غلبه عمرو. غلبه عمرو".

ثم حاصر عمرو بن العاص بيت المقدس تحت راية أبي عبيدة وشدد الحصار مما دفع أرطبون إلى الفرار ببعض جنده إلى مصر بعد أن سلم مفاتيح المدينة إلى الأسقف صفرنيوس الذي تولى مفاوضة المسلمين ثم قام بتسليم مفاتيح المدينة لعمر بن الخطاب ﷺ بعدما تبين صفاته المذكورة في كتبهم.

أما مصر التي آل إليها أرطبون فأصبحت هدفًا لا يغيب عن بال عمرو بن العاص. فلطالما زار عمرو مصرَ ولطالما فُتن بها حَلَمَ بفتحها حتى أنه قال في وصفها: "مصر تربة غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ويخط وسطها نهر ميمون[1] الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان.. بينما هي درة بيضاء إذ هي عنبرة سوداء وإذ هي زبر جدة خضراء[2] فتعالى الله الفعال لما يشاء الذي يُصْلِحُ هذه البلاد وينميها ويُقِرُّ قاطنها فيها".

وكما كان عمر يتطلع وقتها شوقًا لمصر كانت مصر يشرئب[3] عنقها تطلعًا للإسلام الذي أشرقت شمسه في سماء الكون، فقد كانت مصر تئن تحت نير[4] ظلم الرومان وترزح[5] تحت وطأة الضرائب والمكوس التي فرضوها على كل شيء وتعدَّت

---

(١) ميمون: مبارك.
(٢) يقصد تحول حالة أرض مصر قبل وبعد الفيضان من لون الرمال البيضاء إلى الطمي الأسمر إلى لون الخضرة.
(٣) اشرأب: مدعنقه متطلعًا.
(٤) النير: خشبه مستعرضة تربط برقبة الثور لجر المحراث.
(٥) زرح: ناء وثقل.

طاقة المصريين، كما عانت من القهر والاضطهاد الديني فقد كان "قيرس" حاكم مصر الروماني يفرض مذهبًا مسيحيًا على النصارى بمصر ويجبرهم قسرًا على اعتناقه وقد اجتاح البلاد بموجات من الظلم والتنكيل دامت نحو عشر سنين مما جعل أكثر الرهبان والقسيسين يفرون بدينهم إلى الصحراء، وهكذا تزامن شوق مصر لعدل وسماحة الإسلام مع حب عمرو لها ورغبته في نشر دين الله بها.

لكن الحقيقة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لم تكن تتجه نيَّته لفتح مصر لأسباب عدة منها: أن الشام لم تكن قد سلمت تمامًا للمسلمين بل ظل شمالها يناوئ المسلمين وخاصة قيسارية، كما أن المسلمين كانوا قد ابتلوا أثناء ذلك بمجاعة شديدة عام الرمادة وأصاب الطاعون أهل عمواس[1].

لكن عمرو الذي لا يفلُّ[2] له عزم كان يلح في فتح مصر وكانت له دوافعه القوية المقنعة: كالقضاء نهائيًا على دولة الروم في مصر فتضعف شوكتهم وذلك لأن دولة الروم كالطائر ومصر والشام له بمنزلة الجناحين فإذا كسر المسلمون هاذين الجناحين عجزت وتقوض ملكها. كما أن أرطبون قد فرَّ إلى مصر ليحشد جيشًا يعاود به الهجوم على المسلمين لينتزع الشام من جديد.

كما أن مصر غنية بثرواتها فهي خصبة التربة موفورة الغلال تذخر بأكبر الأسواق التجارية مما يجلب الخير للمسلمين ويعينهم على مجابهة القحط والمجاعات مثلما جرى في قصة يوسف عليه السلام وإخوته في مصر، هذا علاوة على رغبة عمرو في رفع العناء عن كاهل أهلها لتكون ميدانًا جديدًا لنشر الإسلام.

وظل عمرو يلح في طلبه على أمير المؤمنين وليرفع عنه العناء وليكفيه مشقة فتح جبهة جديدة عرض عليه أن يتحرك إلى مصر بما لديه من جند وكانوا أربعة آلاف،

---

(١) طاعون وقع سنة ١٨هـ بالشام مات فيه ٢٥- ٢٦ ألفًا من بينهم كبار الصحابة كأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وسهيل بن عمرو رضي الله عنهم.

(٢) فَلَّ عزمه: ضعف ورهن.

فوافق أمير المؤمنين لما لمح من عزمه وإصراره وإن كان لا يزال لديه ثمة تردد فقد كان يخشى من مغبة[١] ذلك لأنه يري في هذا الفتح مغامرة غير مأمونة العواقب لذلك أرسل إلى عمرو رسولاً بعد أن كان قد أطلقه نحو مصر فوافاه مبعوث أمير المؤمنين برسالته قرب رفح، فعلم عمرو بذكائه أن الخليفة ربما كان يأمره فيها بالعودة فتعمد أن يرجئ استلام الرسالة حتى يدخل مصر وبالفعل دخل العريش وكان ذلك في يوم عيد الأضحى سنة ثماني عشر هجريًا (٦٣٩م) وواصل طريقه فلما وصل قرب الفَرَمَا أمر بفض الرسالة فإذ بالأمور تتكشف لتوافق تمامًا ما توقع وإذ بأمير المؤمنين يأمره بالعودة بجيشه ما لم يكن قد دخل مصر وإن كان قد دخلها فليمضِ على بركة الله. لتبدأ مرحلة جديدة من الفتوحات الميمونة. (انظر خريطة رقم (١٤)) .

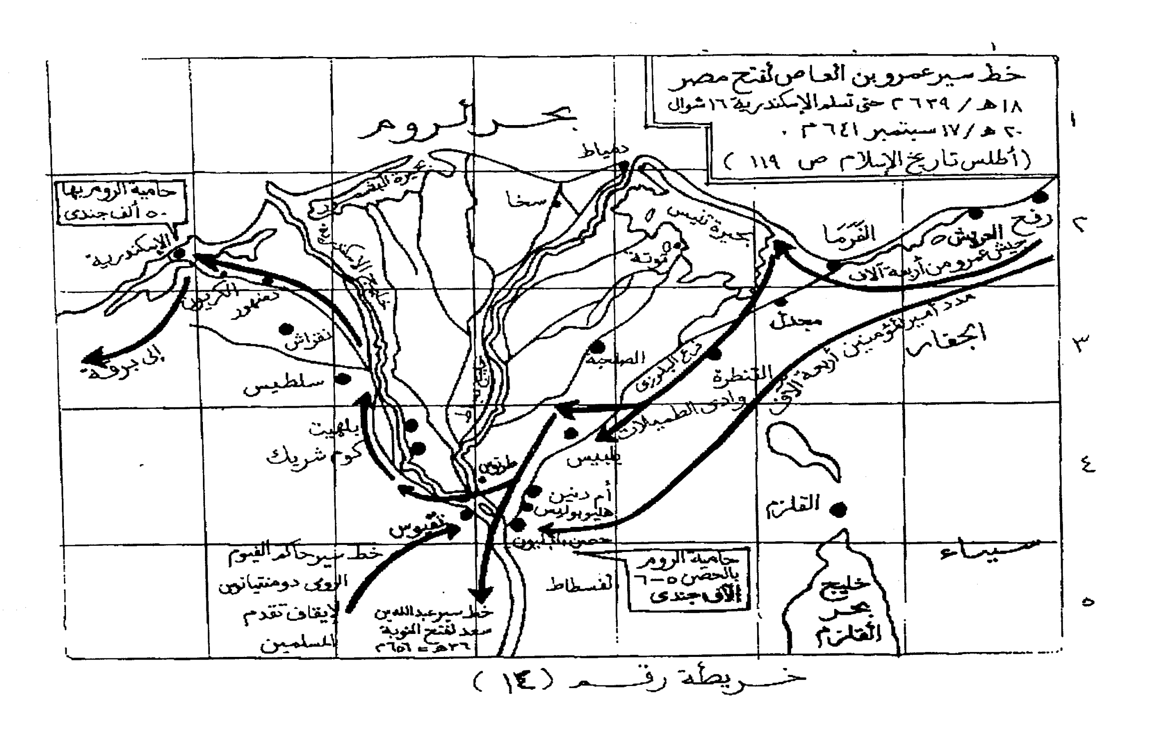
وتحرك عمرو على رأس أربعة آلاف في سنة ثماني عشر (٦٣٩م) نحو الفَرَمَا[٢]، فحاصرها عمرو قرابة الشهر وضيق عليها الخناق فخرجت حاميتها لقتال المسلمين فهزمهم المسلمون فولوا منسحبين إلى باب حصنهم لكن عمرو سبقهم إليه فهزمهم واقتحمه في الثاني عشر من المحرم سنة تسع عشرة (١٢ يناير ٦٤٠م) ثم أمر بهدم الحصن وإحراق سفن الروم الرأسية بالمرفأ ليؤمِّن ظهره بعد تقدم جيشه.

وكان جيش الروم يعلم بتقدم المسلمين لكنه اكتفي بحامية الفَرَمَا استهانة بقدرات المسلمين الحربية لذا فكان سقوط هذه الحامية إيذانًا بسقوط ما بعدها.

---

(١) المغبة: عاقبة الشيء وآخرته.

(٢) كانت الفَرَمَا ذات أهمية لكونها مفتاح مصر من الشرق وكانت تشرف على الطريق الممتد من الصحراء إلى مصر كما أنها كانت تمتلك ناصية البحر ويجرى عليها فرع من النيل اسمه البلوزى الذي كان يبدأ بعد ستة أميال من جنوب الوجه البحري ويمر بما يُعرف الآن بالشرقية ويصب في البحر المتوسط على مسافة ٢٥ ميلاً شرق ما يعرف الآن ببور سعيد وكان هذا الفرع واحد من سبعة أفرع للنيل.


خط سير عمرو بن العاص لفتح مصر
١٨ هـ / ٦٣٩ م حتى تسلم الإسكندرية ١٦ شوال
٢٠ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤١ م .
(أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٩)
بحر الروم
دمياط
سخا
بحيرة تنيس
تونة
الفرما
رفح
العريش
جيش عمرو من أربعة آلاف
مجدل
مدد أمير المؤمنين أربعة آلاف
الجفار
الصالحية
القنطرة
وادي الطميلات
بلبيس
أم دنين
هليوبوليس
القلزم
سيناء
خليج بحر القلزم
حامية الروم بالحصن ٥-٦ آلاف جندي
الفسطاط
خط سير عبد الله بن سعد لفتح النوبة ٣١ هـ = ٦٥١ م
خط سير حاكم الفيوم الرومي دومنتيانوس لإيقاف تقدم المسلمين
نقيوس
كوم شريك
سلطيس
نقراش
دمنهور
الإسكندرية
حامية الروم بها ٥٠ ألف جندي
إلى برقة
١
٢
٣
٤
٥
خريطة رقم (١٤)

ثم تحرك الجيش الإسلامي فمر بالقنطرة والصالحية حتى وصل إلى بلبيس فالتقي عمرو من جديد بأرطبون وكان على اثني عشر ألفًا فسحقهم المسلمون وقُتلُ منهم نحو ألف قتيل وأُسر ثلاثة آلاف، ثم تقدم المسلمون حتى بلغوا أم دنين[1] فحاصر عمرو حاميتها ومنع عنها المدد وقاتل المسلمون بها أعنف القتال حتى فتحها الله على أيديهم في جمادى الثانية سنة تسع عشرة (٦٤٠م) ثم تقدم عمرو إلى هليوبوليس واشتبك مع الروم بها في حرب ضروس طبق فيها خطة حربية تنم عن عبقرية حربية فذة فقد وضع كمينين قوام كل منهما خمسمائة جندي وضع الأول عند قلعة الجبل (موقع القلعة الحالي) والثاني عند أم دنين (موقع الأزبكية الحالي) وأمرهما بعدم التدخل حتى يشتد القتال، وتقدم عمرو بباقي جيشه حتى بلغ موضع العباسية الآن واشتبك مع الروم وحمي الوطيس ثم أطبق الكمينين من الخلف والجانبين فهاجما مؤخرة الروم وبذلك حاصر المسلمون الروم ووضعوهم بين فكي كماشة حتى ظنوا أن ثلاثة جيوش تحاربهم فانهزموا وقُتل منهم عددٌ كبير، وفرت قلة منهم إلى مصر العليا.

ثم تحرك المسلمون إلى حصن بابليون[2] وكان واحدًا من أمنع حصونهم ارتفاع أسواره ستين قدمًا وسمكها ثمانية عشر قدمًا، كما كان يتولى مهمة الدفاع عنه اثنان من كبار قادة الروم هما: "أودوقيانوس" وأخيه "درمنتيانوس" وتحت إمرتيهما ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف مقاتل وكان بالحصن الكثير من المؤن والسلاح والمجانيق وكان يحيط بالحصن خنادق قد ملأتها مياه الفيضان. وحاصر عمرو الحصن وطال أمد الحصار وباءت كل محاولات فتحها بالفشل فطلب المدد من أمير المؤمنين فأمده بأربعة آلاف من خيرة رجاله فيهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن أبي سرح ومسلمة بن مخلد ﷺ فقدموا على عمرو في التاسع من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة (٦٤٠م) وشدَّد عمرو الحصار بعد أن جاءه

(١) موقع الأزبكية الآن.

(٢) بابليون (باب إليون): أصل هذا الحصن قلعة أقامها بختنصر ثم أقام عليها الإمبراطور ترجان حصنًا على أصل القلعة القديمة.

المدد وزادت قوة جيشه وطال الحصار سبعة[1] أشهر وأظهر الزبير خاصة وأبطال المسلمين عامة شجاعة فائقة في اقتحام الحصن ولما دخلوه طلب قائده الصلح فقبل عمرو واستسلمت المدينة وكان ذلك في سنة عشرين (٦٤١م).

ثم تقدم الجيش الإسلامي المظفر إلى طرنوس فهزموا جموع الروم بها ثم تحرك عمرو بجيشه على الضفة الغربية للنيل من ناحية الصحراء حتى يجنب جيشه الموانع الطبيعية كالترع والقنوات ثم نزل نقيوس على شاطئ النيل الشرقي وكان قائد الروم "دومنتياس" قد أعد بها سفنًا كثيرة لقتال المسلمين لكن الله هزمهم وقذف في قلوبهم الرعب ففروا هاربين فدخلها المسلمون بغير مقاومة.

ثم أرسل عمرو أحد قواده ويدعى شريك لتتبع فلول الروم الفارين كي يقضى عليهم لكنهم حاصروه وكادوا يهزموه لولا شجاعة أحد جنده وهو مالك بن ناعمة الذي اقتحم بفرسه صفوف الروم ليخترق الحصار ثم أتى عَمرًا فأخبره بخبرهم فأدركهم بجيشه فلما علموا بمقدمه فروُّا هاربين وسمي هذا الموضع "كوم شريك"، ثم كانت موقعة "حصن كريون" وهو حصن منيع يقع خلف ترعة تمنعه، وكان طريق الإمدادات التي يصلها بالإسكندرية مفتوحًا. والتقي المسلمون فيها بجيش الروم يقودهم "تيودور" واستمر القتال طوال عشرة أيام متتالية كان المدد خلالها لا ينقطع عن الروم، فأرسل عمرو يستشير أمير المؤمنين ماذا يفعل، فأرسل إليه عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "مُرْ الناس جميعًا أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند زوال الجمعة[2] فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت إجابة"، فأطاع عمرو وفي ساعة الصفر المحددة اشتبك معهم في قتال عنيف هادر وانتصر المسلمون وفتحوا المدينة وفي هذه المعركة جُرح عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما جراحة شديدة فأبي إلا أن يقاتل، فلما سمع عمرو بمقالته قال: "إنه ابني حقا".

---

(١) بدأ حصار المسلمين للحصن في سبتمبر ٦٤٠م وفتحه المسلمون في ٦ أبريل ٦٤١م ثم أجلوا الروم عنه.
(٢) وقت صلاة الجمعة.

وبعد تسلم هذا الحصن أصبح الطريق ممهدًا إلى الإسكندرية عاصمة مصر وأهم مدنها والتي تضم أكبر حامياتها حيث يحميها خمسين ألف جندي كما أنها تمتلك طريقًا بحريًا للإمدادات من الإمبراطورية الرومانية. وكانت المدينة بالغة التحصين فقد كان يحيط بها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بحيرة مريوط ومن الغرب ترعة الثعبان، علاوة على أسوارها الحصينة، وكان "تيودور" قد لجأ إليها وحشد بها جنده ووزع المجانيق على أسوارها. لكن عمرو رغم قوة استحكاماتها وعدم وجود آلات للهدم معه أصر على حصارها وطال الحصار فلم ييأس جنده وأحكموا قبضتهم عليها حتى دب اليأس في نفوس حاميتها فسلموها صلحًا بعد أربعة عشر شهرًا من الحصار[1]

وذلك بمقتضي معاهدة الإسكندرية التي عقدها عمرو مع قادتهم في سنة واحد وعشرين من الهجرة (٦٤٢م) والتي كانت تنص على انسحاب البيزنطيون نهائيًا من مصر كلها، وهكذا تم على يديه فتح مصر وتحققت فيه نبوءة النبي ﷺ بفتح مصر، وأقره أمير المؤمنين واليًا عليها تقديرًا لجهوده في فتحها ثم نقل عاصمتها من الإسكندرية إلى الفسطاط التي خطها وبنى بها مسجدًا للمسلمين.

ثم اتجه لتأمين حدود مصر ففتح برقة ووصل إلى حدود النوبة. وظل عمرو واليًا على مصر حتى توفي عمر بن الخطاب ﷺ، فلما بُويع عثمان بن عفان ﷺ عزله سنة سبع وعشرين (٦٤٧م) وولي مكانه عبد الله بن أبي سرح.

ثم عاود الروم غزو الإسكندرية حيث أرسل هرقل قائده "منويل" في ثلاثمائة مركبًا فدخل المدينة هو ورجاله فأفسدوا فيها وقتلوا أهلها وتحركوا نحو الفسطاط عاصمة المسلمين، فأرسل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ القائد عمرو بن العاص على رأس خمسة عشر ألفًا. فالتقي الجيشان بنقيوس وأظهر عمرو شجاعة فائقة في هذه المعركة فقد أصيب فرسه فحارب مترجلاً وثبت المسلمون ونصر الله جنده وفر الروم إلى الإسكندرية فحاصرها المسلمون ونصبوا حولها المجانيق.

---

(١) حاصرها المسلمون في ربيع الأول سنة ٢٠هـ (٦٤١م) وتسلموها يوم الجمعة أول جمادى الآخرة سنة ٢١هـ (٦٤١م).

وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن عمرو فتحها عُنوة وكان يخرب جدارها بنفسه.

ثم عاد إليها في عهد معاوية واليًا سنة ثماني وثلاثين من الهجرة (٦٥٨م) وهكذا فتح عمرو بن العاص ﷺ مصر وحررها من قبضة الروم ثم أمَّن هذا الفتح فقضي على كل أملٍ لديهم في استعادتها .

ولعلّنا نعجب كيف استطاع عمرو بجيش قليل أن يفتح مصر ويهزم جموع الروم الهائلة؟! لكنَّا إذا علمنا قدر الرجل زال العجب، فقد كان عمرو رجلاً صلب العقيدة قوي الإيمان ثابت العزم لا يتنازل عن هدفٍ أو عهدٍ قطعه على نفسه أبدًا.

ويقول الأستاذ محمد فرج: كان للروح المعنوية الهائلة لعمرو وجيشه أكبر الأثر فيما حققوه من نصر بعد نصر حتى خلصت لهم مصر. تلك الروح المعنوية التي وصفها القائد نابليون بونابرت فقال: "إن نسبة القوي المعنوية إلى القوة المادية في المعركة هي كنسبة ٣ : ١".

ويقول فيلسوف الحرب الألماني كلاوزفتز: "إن القوي المعنوية هي التي تحدد نتيجة المعركة". ويقول مونتجمري: "إن المعارك تكسب أولاً وبصفة رئيسية في قلوب الرجال"[١].

وإذا أردنا أن نستوضح هذه الدفعة المعنوية والروح القتالية العالية المكتسبة من ثبات العقيدة وإخلاص النية والعزم في الجهاد، فلنذهب مع واحد من رسل عمرو بن العاص إلى المقوقس عظيم مصر، وهذا الرسول هو عبادة بن الصامت ﷺ، ولنرى ماذا قال معبرًا عما يجيش في صدره وصدر أصحابه إذ قال له متحديًا: "أنا ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا وكذلك أصحابي، إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبة في دنيا ولا طلب

(١) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

للاستكثار منها.. فما منا من رجل إلا وهو يدعو صباحًا ومساءً ربه أن يرزقه الشهادة وأن لا يرُده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلّفه، وقد استودع كل واحد منا ربَّهُ أصحابه وولده".

وصدق الرجل فقد كان المسلمون قد ابتاعوا كل شيء في سبيل الله فربحت صفقة بيعهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ [التوبة: ١١١]، يقدمون ثمنًا زهيدًا ليفوزوا بحياة مديدة وبالنعيم في الدار الآخرة ويكون لهم النصر والتمكين في الدنيا.

أما على الجانب الآخر نجد الله وقد ألقي في قلوب الكافرين الرعب، قال تعالى: ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال ﷺ: "نُصرت بالرعب مسيرة شهر"[١] وصدق الله تعالى وصدق رسوله ﷺ فامتلأت نفوسهم بالفزع والخور حتى قال أحدهم يصف المسلمين وقد ملأ قلبه رعبٌ هائل: "رأينا قومًا الموتُ أحب إلى أحدهم من الحياة"، وقال المقوقس كذلك: "والذي يُحلَفُ به! لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقدر على قتالهم أحد".

وكذلك كانت هناك عوامل أخرى للنصر منها: حسن القدوة حيث كان عمرو يخالط جنده كأنه واحد منهم ويستبقهم إلى صفوف العدو وكان ينزل جنده منزلة إخوته وأبنائه بحسن معاملتهم فلم يكن يمنعهم حقًا، ويقسم فيهم الجزية والغنائم بالسوية، كما خط لهم مدينة وسمح لهم بالإقامة فيها وامتلاك الدور والأراضي وأقام لهم مسجدًا يقيمون به شعائر دينهم.

ويقول سقراط: "يجب أن يعرف القائد كيف يعطى جنوده تعيناقم وأي مؤن أخرى لازمة للحرب".

---

(١) رواه مسلم في صحيحة.

وقال مونتجمرى: "إذا أهملت العامل الإنساني فلن تكون أبدًا قائدًا ناجحًا".

ومن العوامل التي عجلت بالنصر وسهلت مهمة المسلمين بمصر أن المصريين أظهروا التسامح والود مع عمرو وجيشه فلم يحاربوه ولم يعينوا عليه، فقد وجدوا في المسلمين بغيتهم في الخلاص من سطوة الروم والانتقال من جورهم إلى بحبوحة[1] الإسلام وسماحته وهذا دأب الإسلام في كل عصر فقد تعامل عمرو مع قساوستهم ورهبانهم بروح الإسلام المتسامحة مما دفع البطريق بنيامين الذي كان مضطهدًا زمنًا من الروم- يتعقبه من مكان إلى مكان- أن يقول: "عدتُ إلى الإسكندرية فوجدت بها أمنًا بعد خوف واطمئنانًا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم".

فالحقيقة التي لا مراء فيها ولا ريب أن غير المسلمين كانوا يجدون في كنف الإسلام اطمئنانًا وراحة وسماحة لا يلمسونها في بني جلدتهم وأبناء دينهم.

لقد كان حكم عمرو في مصر عدلاً ورحمة فقد بدأ ولايته على مصر بالتسامح فقال: "القبط في مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة"، كما ألغى الضرائب وأصلح في المجتمع ما أفسده الروم مما كان له عميق الأثر في نشر دين الله على أرض مصر.

وتوفي عمرو وهو ابن ثلاث وسبعين سنة فدفن يوم الفطر بجبل المقطم في ناحية الفخ واختُلف في سنة موته فقيل سنة اثنتين وأربعين (٦٦٢م) وقيل سنة ثلاث وأربعين (٦٦٣م) وقيل إحدى وخمسين (٦٧٣م)[2].

فرضي الله عن عمرو وغفر له وجزاه خيرًا وأثبت في صحيفته صالحات أعمال من هُدي للإسلام من أهل مصر على يديه إلى يوم القيامة إنه أهل ذلك سبحانه والقادر عليه.

---

(١) البحبوبة: وسط الشيء وخياره.

(٢) المعارف للدينوري والإصابة لابن حجر وأسد الغابة لابن الأثير.

عكرمة بن أبي جهل ﷺ

عكرمة بن عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى، القرشي المخزومي. أبوه هو أبو جهل رأس الكفر وفرعون هذه الأمة.

ولقد نشأ عكرمة في ظل أب شديد الكراهية والحقد على الإسلام والمعاداة للرسول ﷺ فورث عنه كراهيته للإسلام فكان شديد الشوكة معاديًا للإسلام نذر نفسه لحرب رسول الله ﷺ .

ولم يدع موقعة إلا وخاضها للقضاء على الإسلام فشهد مع المشركين بدرًا وأحدًا والخندق وفى يوم فتح مكة دخلها المسلمون آمنين إلا أن عكرمة أبت عليه نفسه أن يستسلم فقاد كوكبة من الفرسان لمهاجمة كتيبة خالد بن الوليد لكن خالد سحقهم ففر عكرمة هاربًا بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه وذلك لشدة عداوته للإسلام.

وانطلق عكرمة هائمًا على وجهه حتى بلغ اليمن فقصد البحر فلما هاجت الريح واشتد الموج أحجم عن ذلك، فأدركته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام التي أسلمت واستأمنت له من النبي ﷺ فعاد معها بعد أن شرح الله صدره ليلقاه الرسول ﷺ لقاءً لم يكن يتوقعه إذ أقبل عليه ﷺ فاعتنقه وهو يقول: "مرحبًا بالراكب المهاجر"، فأسلم بين يديه وتبَّدلت مشاعره من الكراهية والعداء إلى الإيمان الصادق بالله وحب الرسول ﷺ وإذ به يقول: "لا أدع مالاً أنفقت لحرب الإسلام إلا أنفقت مثله في سبيل الله .

وأصبح لا يُرى إلا راكعًا أو ساجدًا، وفى خارج الصلاة لا يكاد يرى وعيناه تفارقان كتاب الله .

ويقول ابن كثير: "يقال إنه لا يُعرف له ذنب بعد أن أسلم"[١]. وصار إذا اجتهد في اليمين[٢] يقول: "لا والذي نجاني يوم بدر"[٣].

وأبلي يوم حنين أفضل البلاء وبعد أن لبَّى النبيُّ ﷺ نداء ربه وارتدت العرب ثبت صادقو الإيمان كعكرمة في وجه موجة الردَّة الشرسة التي عصفت بالجزيرة العربية وأحالتها إلى قارب بلا شراع في مهب الريح. فأسند إليه أبو بكر ﷺ قيادة جيش المسلمين إلى اليمامة وأمره ألا يقاتل حتى تصله أمداده لكن شجاعته وإقدامه على الموت ورغبته الملحة في غسل صحيفته مما قد سلف منه، عجَّل إلى القتال فهُزم أمام جيش مسيلمة فلما أتاه خالد بن الوليد مددًا من الخليفة انضوى تحت رايته فكان نصر الله ودحر المرتدين الكافرين.

ثم خرج عكرمة إلى ساحة الشام ليقف يوم اليرموك وقفة الأبطال يواجه جيوش الروم الهائلة فتصدر الجيش وهو يرتجز:

قد علمت بهكنة[٤] الجواري أني على مكرمة أحامي

ثم قال: "قاتلتُ رسول الله ﷺ في كل موطن، أأفرُّ اليوم من أعداء الله"، ثم نادى: "من يبايعُ على الموت؟" فبايعه أربعمائة من المهاجرين فيهم عمرو ابنه وضرار بن الأزور والحارث بن هشام ﷺ، فقال خالد: "لا تفعل! فإن قتلك على المسلمين شديد". فقال عكرمة: "خَلِّ عني يا خالد! فإنه قد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة، وإني وأبي كنا من أشد الناس على رسول الله ﷺ"[٥].

واندفع الفارس البطل يقاتل حتى أدمت الأسنة والرماح وجهه وصدره فقال له المسلمون: "أرفق بنفسك!"، قال: "كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها

---

(١) البداية والنهاية وتاريخ الأمم والملوك للطبري.

(٢) أقسم بالله.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٤) البهكنة: الجارية خفيفة الروح الحلُوة.

(٥) رواه البيهقي عن ثابت البناني ﷺ وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة.

لها، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟ لا والله أبدًا''، وظل يقاتل حتى فاز بالشهادة وتنزل نصر الله على المسلمين ودحر جيش الروم ووجد في جسده بضعًا وسبعين طعنة.

ومرت سنوات وسنوات وجلست أم سلمة رضي الله عنها تُحدِّث عن النبي ﷺ وهى تقول: قال رسول الله ﷺ: ''رأيتُ لأبي جهل عذقًا في الجنة''، فكانت تعجب من ذلك، فلما أسلم عكرمة، قال لها رسول الله ﷺ: ''يا أم سلمة هذا هو- أي لعكرمة''[1].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني والحاكم في المستدرك وابن عساكر في تاريخ دمشق.

أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها

هي نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن النجار، الأنصارية الخزرجية النجارية. اشتهرت بكنيتها أم عمارة.

شهدت مع النبي ﷺ بيعة العقبة وأحد وبيعة الرضوان وخيبر وفتح مكة وحنين، لكن أهم مشاهدها مع الرسول ﷺ هو يوم أحد.

قال الواقدى: شهدت أم عمارة أُحُدًا مع زوجها غَزِيَّة بن عمرو وولداها منه تميم وخولة، ومع ولديها عبد الله[1] وحبيب من زوجها الأول المتوفى عنها زيد بن عاصم بن عمرو- رضي الله عنهم جميعًا- وكانت قد خرجت لتسقى الجرحى فلما انهزم المسلمون أخذت سيفًا واستماتت في الدفاع عن رسول الله ﷺ وأظهرت من البطولة ما يعجز عنه صناديد الرجال فقد حجزت ثوبها في وسطها وتقلّدت سيفها وأخذت تقاتل بكل طاقتها.

فقد روى ابن سعد عن أم عمارة رضي الله عنها قالت: رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقي إلا في نفير[2] ما يتمون عشرة؛ وأنا وابناى وزوجي بين يديه نذُبُّ عنه والناس يمرون به منهزمين ورآني ولا تُرس[3] معي، فرأي رجلاً موليًا ومعه تُرس، فقال ﷺ: ''ألق تُرسك إلى من يقاتل!'' فألقاه فأخذته. فجعلت أترِّس به عن رسول الله ﷺ، قالت: وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل[4]، لو كانوا رجَّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله. فيقبل رجل على فرس، فيضربني وترست له، فلم يصنع

(١) استشهد عبد الله بن زيد رضي الله عنه في وقعة الحرة التي حدثت في عهد يزيد بن معاوية لما رفض الصحابة بيعته فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المزي فاستباح المدينة وقتل جمعًا كبيرًا من الصحابة والتابعين جزاه الله شر الجزاء على سوء فعلته.

(٢) تصغير نفر أي عدد قليل.

(٣) التُّرس: الدرع.

(٤) خالد بن الوليد ومن معه.

شيئًا، وولى؛ فأضرب عُرقوب[١] فرسه، فوقع على ظهره. فجعل النبي ﷺ يصيح: "يا ابن أم عمارة! أمك! أمك!" قالت: فعاونني- ابني- عليه حتى أوردته شَعوب[٢].[٣]

ويقول ابنها عبد الله بن زيد ﷺ: جُرحتُ يومئذ جرحًا في عضدي اليسرى ضربني رجل كأنه الرقل[٤] ولم يعرج عليّ[٥] ومضى عني وجعل الدم لا يرقأ[٦]. فقال رسول الله ﷺ: "أعصب جرحك"، فتقبلُ أمي إليّ ومعها عصائب في حقويها[٧] قد أعدتها للجراح فربطت جرحي والنبي ﷺ واقفٌ ينظر إليّ ثم قالت أمي: انهض نضارب القوم! فجعل النبي ﷺ يقول: "من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة"[٨]. وقالت: أقبل الرجل الذي ضرب عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: "هذا ضارب ابنك"، فاعترضتُ له وضربتُ ساقه فبرك، فتبسَّم الرسول ﷺ حتى رأيت نواجذه، وقال: "استقدت[٩] يا أم عمارة"، ثم أقبلت تعلوه بالسلاح حتى أتت على نفسه[١٠]، فقال النبي ﷺ: "الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك"، ثم قال ﷺ لعبد الله: "ارم!"، قال: فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأصبت عين الفرس حتى هوى هو وصاحبه وجعلت أعلوه بالحجارة[١١].

وعن أم سعد بنت الربيع رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليَّ أم عمارة رضي الله عنها فقلت لها: "يا خالة! اخبريني خبرك؟"، فقالت: "خرجتُ أول النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء. فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة

---

(١) العرقوب: بمنزله الركبة من الإنسان.
(٢) اسم للمنية أو الموت.
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات والذهبي في سير الأعلام.
(٤) النخلة.
(٥) لم يعد إليّ.
(٦) رقأ الدم أي توقف.
(٧) الحقو: الخصر.
(٨) رواه ابن سعد في الطبقات.
(٩) استقد: أخذ ثأره.
(١٠) أى قتلته
(١١) السيرة النبوية لابن هشام.

والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمتُ أباشر القتال وأذبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحُ إليّ''. قالت أم سعد: ''فرأيتُ على عاتقها جرحًا أجوفَ له غور''، فقلت لها: ''ما أصابك بهذا؟''، قالت أم عمارة: ''لما ولّي الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة[١]، أقمأه الله! وهو يقول: دلُّوني على محمد- ﷺ -، لا نجوتُ إن نجا! فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير[٢] ﵁ وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان''[٣]. وقال النبي ﷺ لعبد الله: ''مقام أمك خير من مقام فلان وفلان''، فصاحت أم عمارة: ''يا رسول الله! ادع الله أن نرافقك في الجنة''، فقال ﷺ: ''اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة''، فقالت: ''ما أبالي ما أصابني من الدنيا''[٤]. وظلت تقاتل من حول النبي ﷺ بجسارة وجرأة .

فعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: ''ما التفتُ يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني''[٥]. وبعد تفرق المعسكران نادي منادي رسول الله ﷺ في صبيحة أحد إلى حمراء الأسد[٦] فشدت أم عمارة عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم[٧]. وكانت قد جُرحت ثلاثة عشر جراحة وكان منها جرحٌ غائرٌ على عاتقها ظلت تداويه سنة.

وتمر الأيام وتتعاقب سريعًا لتقبل حروب الردة بعد وفاة النبي ﷺ فنجدها الأم

---

(١) ذكر ابن عائذ أنه انصرف إلى أهله بعد غزوة أحد فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل فدخل عليها، فشدَّ عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح الباري)، وروى الطبري في تاريخه: سلط الله عليه تيس الجبل فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعة قطعة.

(٢) كان مصعب ﵁ يشبه النبي ﷺ فلما قتله ابن قمئة ظن أنه بذلك قتل النبي ﷺ وأشاع ذلك في الناس.

(٣) رواه ابن هشام في سيرته وذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات والهندي في الكنز.

(٦) موضع على ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق المؤدى إلى ذي الحليفة. وبعد انقضاء المعركة وانصراف المشركون أراد المشركون أن يهاجموا المدينة فخرج النبي ﷺ بمن معه فعسكر في حمراء الأسد ثلاثة أيام فألقى الله الرعب في قلوب المشركين.

(٧) رواه ابن سعد في الطبقات.

الصابرة التي يُقتل ولدها حبيب على يدي عدو الله مسيلمة، فقد أرسله أبو بكر الصديق ﷺ برسالة إلى مسيلمة فقبض عليه وأوثقه بالحبال وجعل يقول له: "أتشهد أني رسول الله؟"، فقال حبيب: "لا أسمع.." فجعل عدو الله يقطّعه عضوًا عضوًا حتى مات بين يديه، فلما علمت أم عمارة نذرت أن تشهد قتال مسيلمة بنفسها ودعت الله أن يجعل موته على يدها فخرجت وقد تجاوزت الستين، ولما حمل خالد بن الوليد على المرتدين حملة صادقة تقدمت أم عمارة في كوكبة من الأنصار فيها ابنها عبد الله بن زيد، وقاتلت حتى جُرحت أحد عشر أو اثني عشر جرحًا وقطعت ذراعها ومكّنها الله من قتل مسيلمة حيث طعنته بسيف كان في يدها[١] وعادت من المعركة مضرجة في دمائها فكان أبو بكر رضي الله عنها يعودها بنفسه[٢].

فجزى الله هذه المرآة المؤمنة خير الجزاء فقد كانت نعم الزوجة والأم والمسلمة التي دافعت عن النبي ﷺ وذادت عنه بروحها عندما قل الناصر والمعين رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) جعل الله مقتل عدو الله مسيلمة الكذاب على يدي ثلاثة في آن واحد: طعنته أم عمارة وكذلك أبو دجانة وقذفه وحشي بحربته.

(٢) الإصابة لابن حجر وحياة الصحابة للكندهلوى.



هي الرميصاء بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حِرام بن جُندب بن عامر بن غنم ابن عدى بن النجار؛ الأنصارية الخزرجية النجارية.

ذكر الذهبي أن اسمها الغُميصاء، وقيل اسمها سهلة وقيل أنيفة وقيل رُميثة.

تزوجها مالك بن النضر- وهو أخو أنس بن النضر ﷺ- فأنجبت منه أنس ﷺ خادم النبي ﷺ، ولما مات عنها تزوجها أبو طلحة، زيد بن سهل الأنصاري وجعل مهرها أن أسلم فكان أعز وأغلى مهر لزوجة في الإسلام، وولدت له عمير، وعبد الله.

امرأة من المجاهدات قاتلت في صفوف المسلمين وضربت أروع الأمثلة في الفداء وأتت ببطولات يعجز عن مثلها الرجال، ففي يوم أحد ثبتت مع النبي ﷺ تذبُّ عنه المشركين.

فعن محمد بن سيرين ﷺ قال: "كانت أم سليم مع النبي ﷺ يوم أحد ومعها خنجر"[1]. وشهدت القتال يوم حُنين وكانت تتسلح بخنجرها تدافع به عن نفسها.

فعن أنس ﷺ أن أم سُلَيم اتخذت خنجرًا يوم حُنين، فقال أبو طلحة: "يا رسول الله هذه أم سُلَيم معها خنجر!". فقالت: "يا رسول الله! إن دنا مني مشرك بقرتُ بطنه"[2].

وروي مسلم في صحيحة أن أم سُلَيم رضي الله عنها احتجزت خنجرًا يوم حُنين، فقالت: "اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرتُ بطنه".

وظلت هذه المرأة تجاهد في سبيل الله، صَدَقَتْ العهد مع الله وبذلت حياتها كلها

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح.

في سبيله أطاعت الله ورسوله وأطاعت زوجها وأحسنت تربية أبنائها فكان منهم أنس وعمير رضي الله عنهما وعشرة من حفظة القرآن وأهل العلم، فرضي الله عنها ورضي عنها رسول الله ﷺ.

فعن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ''دخلتُ الجنة، فسمعتُ خشفة[١] بين يديَّ؛ فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان''[٢].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ''رأيتني دخلتُ الجنة، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة''[٣].

---

(١) الخشفة: الصوت ليس بالشديد كصوت وقع الأقدام ونحوه.
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح.
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها

هي أسماء بنت يزيد بن السكن، الأنصارية الأشهلية، كانت تكنى أم عامر وأم سلمة، وهي ابنة عم معاذ بن جبل رضي الله عنه، من المبايعات المجاهدات.

وقد روت عن النبي ﷺ جملة أحاديث، وقد أقامت بعد وفاة النبي ﷺ بدمشق، وقد وقفت وقفة الأبطال يوم اليرموك، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه أمرها وأمر النساء أن يضربن أعناق الفارين من المعركة وقلدهن السيوف، ولكنها لم تكتف بدورها في الصفوف الخليفة بل اندفعت وسط الميدان تقاتل أعداء الله الروم .

فعن مهاجر قال: ''قتلت أسماء بنت يزيد بعمود خبائها يوم اليرموك تسعة من الروم''[١].

توفيت أسماء رضي الله عنها بدمشق ودفنت بها وكان ذلك في عهد يزيد بن معاوية.

(١) رواه الطبراني في معجمه، والهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات.

المثني بن حارثة ﷺ

بطل عظيم من أبطال الإسلام لم يمنحه التاريخ حق قدره ولو أنصفه التاريخ لوضعت فيه مجلدات؛ فهو قائد عظيم وجندي متفاني، هو أول مسلم يهاجم إمبراطورية فارس في عقر دارها فكان هذا إيذانًا بفتحها وإرهاصًا لما تبع ذلك من فتوح.

والمثني بن حارثة ينتمي لبني شيبان أحد فروع بكر بن وائل الذي ينتهي نسبه إلى ربيعة، وقد كان لقومه بني شيبان اليد الطولي على الفرس فقد لقّنوا إمبراطورية فارس درسًا لا يُنسي وألحقوا بهم هزيمة نكراء في موقعة ذي قار التي قال النبي ﷺ فيها: "هذا أولُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم"[١] وفي رواية: "وبي نصروا"[٢].

وكأن المثني على موعد مع القدر ليكمل ما سطره قومه من مجد وبطولة. وفد قومه في العام التاسع من الهجرة- وقيل العاشرة- على النبي ﷺ فبايعوه، وأشرق نور الإسلام في قلب المثني وزوجته سلمي رضي الله عنهما.

ولما قُبض النبي ﷺ وارتدت أغلب قبائل العرب ثَبَتَ على الإسلام وانضوى تحت راية العلاء بن الحضرمي ﷺ في جيشه الذي وجَّهه الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ إلى البحرين لقتال المرتدين الذين كان يتزعمهم هناك الحُطَمُ بن ضُبيعة[٣] والذي كان يلقى العون والتأييد من دولة الفرس، وكان الفرس يبسطون نفوذهم الديني والثقافي على هذه البقعة. واستطاع الجيش الإسلامي أن يقهر المرتدين.

ثم تقدم المثني بن حارثة في ثمانية آلاف من قومه فتبع فلولهم حتى بلغ القطيف

---

(١) رواه الطبراني في معجمه وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وضعفه.

(٢) رواه الطبراني في معجمه وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير خلّاد بن عيسى وهو ثقة.

(٣) الحُطم بن ضُبيعة: من بنى بكر ارتد وقاد حركة الرِّدة في البحرين وأعانه كسرى بجيشه. نزل بمن معه القطيف وهجر وحاصر المسلمين فهزمهم العلاء بن الحضرمي وقُتل الحطم على يد قيس بن عاصم وفر أتباع الحطم إلى دارين فلحق بهم المسلمون وهزموهم.

وتوغل داخل حدود بلاد فارس حتى بلغ مصب دجلة والفرات، والتقي بأولياء الفرس من بني تغلب قرب الفرات فهزمهم فقُتل منهم من قُتل وغرق من غرق حتى امتلأت صفحة النهر بجثثهم.

ووصف أحد شعراء بني شيبان فارسهم الجسور المثني وهو يمتطي صهوة فرسه الدليكة ليحرز هذا النصر الرائع الذي كان مضرب الأمثال في عصره، فقال:

ومنا الذي غشى الدليكـــة ســـيفه — على حين أن أعيا الفـــرات كتائبـــه

ثم التقي بجموع الفرس حيث أغار على مدينة "دهشتا باذ أردشير" وكانت من أمنع مدن فارس فدخلها عنوة وحارب أهلها وخربها فسماها العرب لذلك الخربية ثم تقدم إلى مدينة الأُبُلَة[1] (البصرة حاليًا) وكانت بها قوة فارسية كبيرة لم تصمد أمامه حيث ألحق بهم الهزيمة وأعمل فيهم القتل والأسر . ثم توجه إلى الحيرة فاشتبك معهم في مناوشات.

وترامت إلى مسامع خليفة المسلمين أخبار فتوحاته وانتصاراته فتعجب أبو بكر ﷺ وقال: "من هذا الذي تأتي أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه؟" فأجابه قيس بن عاصم بقوله: "رجلٌ غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد.. إنه المثني بن حارثة الشيباني"، فاستدعاه أبو بكر الصديق فجاءه ومَثُلَ بين يديه وكاشفه بعزمته الصادقة على قتال الفرس فقال: "يا خليفة رسول الله! استعملني على قومي فإن فيهم إسلامًا أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك ناحيتي من العدو". فاستجاب الخليفة الصديق لطلبه وكتب له عهدًا بذلك، وكلفه بمواصلة مناوشاته مع الفرس فظل يقاتلهم ويشتبك معهم.

ثم كان أن استشعر الصديق خطورة الوضع فقرر تعزيز هذه الجبهة فبعث بخالد بن الوليد على رأس جيش وأمر المثني بن حارثة ومن بعده عياض بن غنم أن ينضما إليه

---

(١) بلدة على شاطئ دجلة بالبصرة في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة وهى أقدم من البصرة وكان بها مسالح من مسالح كسرى.

بجيشيهما ليكونا تحت لوائه فخاض معه المثني جميع معاركه بالعراق ببسالة الجندي المطيع لقائده، ثم قرر الخليفة الصديق أن يرسل خالدًا إلى جبهة الشام فتسلمُ المثني الراية ليعود قائدًا بعد أن أدي دوره جنديًا فهو في أي موقع يؤدي دوره بما يمليه عليه واجبه، لا يتطلع لرفعة ولا يخشى دنيَّة ولا يرجو إلاَّ نصر الله ورفعة دينه سواء أكانت له الراية أم لغيره.

وظهرت شجاعته وبسالته في كل موضع خاضه، فقد استطاع أن يتغلب على أمضى أسلحة الفرس وأخطرها وهى الأفيال المدربة حيث كانت المرة الأولى التي يواجه فيها المسلمون هذا السلاح الرهيب الذي كان مكمن خطورته في إفزاعه للخيل التي ما إن تراه حتى تنفر وتفر هاربة إما أن تلقى براكبها فتطأه الفيلة بأقدامها، وإما أن يقتحم عنها فيترجل ويقاتل على قدميه، كما تتضح خطورتها في ثخانة جلدها فلا ينفذ فيه رمح ولا سهم، كما أن الفيل الواحد تفوق قوته عشرات الرجال وهو مدرَّبٌ على أعمال الهدم والتخريب.

وقد فوجئ المسلمون في هذه الموقعة بفيل ضخم يتقدم قوات الفرس فثبت المثني ثبات الجبال وتقدم بنفسه نحو الفيل يحاوره ويناوره يوسعه طعنًا وضربًا حتى أصاب منه مقتل، وظل المثني يقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر يعزُّه الله ويمكن للإسلام على يديه.

ثم أقبل المثني بن حارثة على المدينة بعد أن استخلف على جيشه بشير ابن الخصاصية[1] فوجد أبا بكر ﷺ على فراش الموت فحضره وهو يستخلف عمر بن الخطاب ﷺ ويوصيه فقال: ''إني لأرجو أن أموت في يومي هذا فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثني ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم''، ثم لبيَّ الصديق ﷺ نداء ربه وأسلم روحه المطمئنة إلى بارئها.

---

(١) بشير ابن الخصاصية: صحابي عرف باسم أمه. كان أسمه زحماً فسماه الرسول ﷺ بشيراً. سكن البصرة وحارب الفرس مع المثنى وسعد. (أسد الغابة ٣٩٦/١) .

ولما بُويع عمر جهَّز جيشًا وأمَّر عليه أبا عبيد بن مسعود الثقفي، وانطلق المثنى سيفًا مشهرًا تحت لواء أبي عبيد الذي رأى فيه خبيرًا بالحرب مستبصرًا بطبيعة الأرض التي شهدت معاركه وبطولاته، فاتخذه مستشاره الحربي ووزيره وتحرك المسلمون لقتال الفرس، وقاد المثنى الخيالة فهزم المسلمون الفرس بالنمارق وأسروا قائدهم جابان(١) قبل أن يصل بمدده إلى جيش الفرس. ثم أبلى المثنى أحسن البلاء يوم وقعة الجسر(٢) وكان مستشارًا لأبي عبيد.

ويقول الأستاذ محمد فرج عن الدور الذي كان يلعبه المثنى بالنسبة لقائده: "إن دور المثنى في هذا الجيش هو ما عرفته العسكرية الحديثة باسم هيئة الأركان وهى هيئة تضم ضباط على أعلى درجة من الكفاءة العسكرية والعلم يقدِّمون المشورة والرأي".

ويقول القائد البريطاني مونتجمرى بعد انتصاره في معركة العلمين: "إن من عوامل انتصاره اختياره لرئيس أركان حرب حازم وثق به وابتعد هو عن التفاصيل فتركها له يدرسها ويقدم له الرأي والمشورة"(٣).

لكن انفراد أبو عبيد بالرأي وإصراره على عبور الجسر لقتال الفرس في جانب النهر الآخر أربك جيش المسلمين وأدي إلى وقوع خسائر فادحة في صفوفهم، فقد انتهز الفرس الفرصة وانقضُّوا على المسلمين أثناء عبورهم الجسر فقُتل أبو عبيد وكل من حمل الراية بعده حتى أخذها المثنى، الذي كان عليه أن ينقذ الموقف بحكمة وحزم، وفى الحال أصدر أمره لعروة بن مسعود ليصلح الجسر ويعاون الجيش على اجتيازه وكون فرقة من الشجعان والأبطال تحت قيادته المباشرة وأمرهم أن يركعوا على الركب وقد شرعوا الرماح أمام الفرس وهذا ما تعرفه الحروب الحديثة باسم فرق الصاعقة

---

(١) فر القائد "جابان" من الأسر بعد أن أمنه جندي مسلم وقبل أبو عبيد أمان الجندي المسلم.

(٢) موضع به جسر مشهور قرب الحيرة عقده أبو عبيد بن مسعود على الفرات لما قدم بجيشه إلى بانقيا ويقال كان موجودًا من قبل أقامه أهل الحيرة ليعبروا عليه فأصلحه أبو عبيد وعرفت المعركة كذلك باسم قس الناطف. (معجم البلدان ٢/١٦٢)

(٣) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

والقوات الخاصة، فأعاقوا تقدم الفرس وشغلوهم عن تتبع المسلمين وأخذ المثني يصيح في جنده: "يا معشر العرب! أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا، ولا تفرِّقوا أنفسكم فإنا لن نزايل[1] حتى نراكم على الجانب الآخر".

وظل يقاتل ببسالة وجرأة أذهلت الفرس رغم إصابته برمح وقع في أحد شقيه فأنهك قواه إلا أنه تمالك نفسه وظل يقاوم حتى عبر آخر جندي إلى الجانب الآخر، وهكذا أنقذ الجيش الإسلامي من هلاك محقق، وما إن عبر بجيشه النهر حتى أمرهم بالانسحاب الفوري والسريع فانطلقوا إلى الحيرة ثم إلى أليس، والانسحاب هنا لا يعني الهزيمة إنما هو تكتيك بارع من قائد فذ، وهى خطوة تعكس عبقرية هذا القائد المحنك الذي رأي الانسحاب هنا- مثلما حدث يوم مؤتة- هو الأولى تكتيكيًا لتصحيح الأوضاع، كما أن تقهقره إلى حدود الصحراء يعبر عن ذكاء وحنكة وذلك لأن الصحراء أنسب لهم كعرب فهم يجيدون القتال فيها بخلاف حرب المدن التي يتفوق فيها الفرس، كما تعطي الصحراء بعدًا استراتيجيًا جيدًا تمكنه من الفرار أكثر إذا هوجم ولا تمكن من محاصرته كما تجعل الطريق مفتوحًا لوصول إمدادات المسلمين إن استلزم الأمر.

وبعد هذه المعركة انقسمت جيوش الفرس على نفسها فعاد القائد ذو الحاجب بجيشه إلى المدائن وترك قوة لتتبع فلول المسلمين يقودها "جابان" و "مردان شاه" فخرج إليهم المثني بما بقي من جيشه فأسر القائدين وأعمل السيوف في رقابهم حتى أتي على جميع رجالهم.

وعلم عمر بما حدث للمسلمين فاستشعر الخطر وأرسل إليهم مددًا بقيادة جرير بن عبد الله البجلي وسمح لمن تاب من المرتدين وحسن إسلامه أن يحارب في صفوف المسلمين الذين أظهروا شجاعة وبطولة لا مثيل لها ليكفروا عما سلف منهم وجعل القيادة العامة للمثني بن حارثة فأرسل المثني برسالة إلى جرير يستحثه على سرعة

---

(١) زايل: فارق.

التحرك لأن الفرس كانوا قد أعدوا العدة للقضاء على المسلمين وواعده بالبويب وكان بعد عام من الجسر، وقد حشد الفرس فيها جيشًا عرمرم يقوده "مهران بن مهر بنداد الهمذاني"، واستعانوا بعدد كبير من الفيلة المدربة وتقدم جيش الفرس حتى بلغ البسوس وتراص الجيشان وحال النهر بينهما مثلما حدث من قبل في وقعة الجسر لكن القائد الفطن أدرك خطورة العبور إليهم فترك المبادرة للفرس ليعبروا هم إليه فعبروا الجسر إلى البويب على الضفة الأخرى في ثلاث صفوف يتقدم كل صف فيل ضخم وقد علقوا بأرجلها أجراسًا لتفزع الخيل، فكانت تحدث جلبة شديدة أتاحت المسلمين تحديد جهة قدومهم قبل رؤيتهم، وكان قد تأهب بجيشه فقسَّمه فرقًا وجعل على المُجَنَّبتين[1] بشير ابن الخصاصية وبسر بن أبي رهم، وعلى مجردته[2] أخاه المعني وعلى الرَّجِّل[3] أخاه مسعود، وعلى المقدمة النسير، وعلى الردء[4] مذعورًا، وتمركز هو في القلب على مركز القيادة وامتطى فرسه الشموس- وكان لا يركبه إلا لحرب- فأخذ يخاطب مشاعر جنده ويحرضهم على القتال ويلهب حماستهم وكانت هذه المعركة في رمضان فارتفعت معنويات الجند إلى الذُّرى، وقرر أن يهاجم عدوه قبل أن يهاجموه وهذا يتفق مع خطط الحرب الحديثة التي دعت إلى أن الهجوم خير وسائل الدفاع، فخطب في جنده: "إني مكبرٌ ثلاثًا فتهيئوا ثم احملوا[5] مع الرابعة.."

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد هاجمته قوات الفرس قبل أن يهاجمها بقوة وعنف حتى اختلت الصفوف لكن القائد البارع هو من يتحلى بالصلابة فلا تكسره مفاجأة، والحقيقة أن هذه كانت من بعض صفات بطلنا المثنى بن حارثة الذي استطاع بشجاعته وبسالة رجاله أن يقلب الأوضاع سريعًا واستمات المسلمون وتعاهدوا على الشهادة وأبلى الذين فرُّوا يوم الجسر بلاء الأبطال ليمسحوا عنه هزيمة الأمس، وطُعن

(١) الجناحين.

(٢) الخيل.

(٣) المشاة.

(٤) المؤخرة.

(٥) حَمَلَ: هجم.

أخوه مسعود فنادي في المسلمين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "ارفعوا راياتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي" ثم جاد بروحه الطاهرة، فما كان من المثني إلا أن صاح في جنده: "يا معشر المسلمين لا يرعكم[1] مصرع أخي فإن مصارع خياركم هكذا".

وقرر المثني أن يعمد إلى عملٍ يُنهى القتال سريعًا بعد أن حمى الوطيس فكلف اثنين من قادته بحماية ظهره وحمل بنفسه إلى قائد الفرس "مهران"، وحمل من معه حتى تمكن منه غلام تغلبي فقتله، ولما عاين الفرس مصرع قائدهم وأيقنوا بالبوار أسرعوا إلى الجسر كي يفروا فشدَّ عليهم المثني ورجاله وقطع عليهم خط الرجعة وأطبق عليهم المسلمون من كل جانب يحصدون أرواحهم حصدًا حتى قيل أن كل مائة رجل من العرب يومها قتل ألفًا من الفرس، وقد بلغ عدد القتلى من جانبهم نحو مائة ألف وعُرف هذا اليوم لذلك بيوم الأعشار.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وكانت هذه المعركة في سنة أربعة عشر من الهجرة (٦٣٥م)، وقال عروة بن زيد الخيل[2] أحد أبطال هذا اليوم في وصفه:

هاجت لعروة دار الحــي أحزانــا ... واستبدلت بعد عبد القيس هدانا[3]

وقد أرانا بهـــا والشـــمل مجتمــع ... إذ بالنخيلة قتلــى جنــد مهرانــا

أيام ســـار المـــثني بـــالجنود لهـــم ... فقتل القوم مـــن رَجْـــلٍ وركبانـــا

سمـــا لأجنـــاد مهـــران وشـــيعته ... حـــتى أبـــادهم مَـــثْني ووحـــدانا

ما أن رأينا أميرًا بـــالعراق مضـــي ... مثل المثَنَّي الذي مـــن آل شـــيبانا

إن المثَنَّي لأمـــير القـــوم لا كـــذب ... في الحرب أشجع من ليـــثٍ بخفانـــا

---

(١) راعه: أفزعه وأخافه.

(٢) عروة بن زيد الخيل الطائي: قائد شاعر من رجال الفتوح في صدر الإسلام شهد مع علىٍّ صفين وقاتل تحت رايته، وكان ممن شهد القادسية، أرسله عمر بن الخطاب بعد نهاوند على رأسى ثمانية آلاف إلى الرّى ودستبى فهزمهم. (الاعلام ٤/٢٢٦).

(٣) إشارة إلى قائد الفرس مهران وهو من همذان.

ثم قاد المثني غارات كثيرة على أراضي الفرس فهاجم سوق الخنافس والأنبار وبادوريا وقطربل وسوق بغداد وصفين وكان لهذه الغارات أهمية كبيرة على الناحية الاستراتيجية عكست عبقرية هذا الرجل فقد بثَّ الرعب في نفوس أعداء الله وتعرَّف أكثر على أراضيهم، ومنع أي محاولات من جانب العدو لجمع الحشود وقطع عليهم إمداداتهم كما كانت فرصة لتدريب رجاله ورفع كفاءتهم القتالية، ووسيلة لتدمير موارد أعدائه لتضعف اقتصادياتهم التي يستعينون بها على قتال المسلمين.

واستطاع أن يخضع أهل السواد حتى لا يكونوا شوكة في ظهور المسلمين كما وضع يديه على بغداد وساباط وتكريت وأخضع أهلها وأرسل إلى المدينة ما غنمه المسلمون وكان شيئًا يفوق كل تصور فقد امتلأت جوانب مسجد النبي ﷺ بالنفائس والذهب واللؤلؤ.

ولم يبقَ أمام فتوحات المثني سوي عاصمة بلاد فارس التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفتح الإسلامي لهذا فقد استشعر الفرس خطورة الموقف فوحَّدوا صفوفهم ووضعوا "يزد جرد" على العرش وأعدوا جيشًا ليس لكثرته ولا لعدته مثيل حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ رأي أن يخرج بنفسه على رأس جيش لقتالهم وقال: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب"، لكن أصحابه نهوه عن ذلك، وكان قد علم بمرض المثني بن حارثة من جراحاته التي أصيب بها في معركة الجسر وما بعدها فقرر أن يرسل جيشًا ويؤمر عليه سعد بن أبي وقاص ﷺ.

ولما أحس المثني بدنو أجله كاتب سعدًا فأوضح له الموقف على ساحة فارس جليًا وأسدى له النصح وأوصاه أن يلازم جنده مراكزهم على حدود الصحراء لتكون لهم عمقًا استراتيجيًا فلا يخلص إليهم الفرس الذين لا يجيدون حروب الصحراء وبذلك يكون قد أعد الميدان المناسب لأخيه سعد، وأسلمه الراية على خير ما يكون.

ولما اشتد به المرض أخذوه بوصية منه إلى شراف أرض قومه فمات بها في أوائل السنة الرابعة عشر للهجرة (٦٣٥م).

ومات البطل الذي ضحى بحياته لنصرة الإسلام فعلّمنا روح الصمود في القتال فهو الذي وصف الفرس وقتالهم فقال: ''قاتلتُ العرب والعجم في الجاهلية وفي الإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ عليَّ من ألف من العرب ولمائة من العرب اليوم لأشد من ألف من العجم، إن الله أذهب بأسهم ووهَّن كيدهم، فلا يروعنكم[1] زهاء[2] ترونه ولا سواد ولا قِسي فُج[3] ولا نبال طوال، فإنهم إذا أُعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت''.

(١) راعه: أفزاعه.
(٢) الزهاء من الشيء مقداره وشخصه.
(٣) قسي فُج: بعيد ما بين الوتر وكبد القوس.

أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه

واحد من أبرز قادة المسلمين وأشجع فرسانهم وهو ممن ضحوا بأرواحهم في سبيل الله وأسهم بجهد واضح في فتح العراق.

فما إن بايع الناس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى شرع في إنفاذ وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبدأ يعد الإمدادات لمواصلة فتح العراق. فجمع أمير المؤمنين الناسَ في فناء المسجد وأخذ يحرضهم على الجهاد والناس تخشى الخروج إلى العراق ويرون الخروج إلى الشام، فخاطبهم عمرُ رضي الله عنه قائلاً: "أيها الناس! إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة[١] ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك- أي بالجهاد، أين الطُراء[٢] المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه معز ناصره، مُوَلٍ أهله مواريث الأمم.. أين عباد الله الصالحون؟!"، وشعر الناس بأسف لتثاقلهم فتقدم أبو عبيد بن مسعود وقال: "يا أمير المؤمنين! إنا سمعناك وأطعناك، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة أنا وقومي وعشيرتي وتبعه كثير من أبطال المسلمين كسليط بن قيس وسعد بن عبيد رضي الله عنهما[٣]، وقام رجل من المسلمين وصاح في حماسة: "والله إن كان قعودُنا عن غزو هؤلاء الفرس إلى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان، وإني وهبت نفسي لله"، فهاجت الأنفس وأجهشت العيون وتحمس عدد كبير من المسلمين واجمعوا على الخروج فأثلج ذلك صدر عمر رضي الله عنه وأعد جيشًا وأمَّر عليهم أبا عبيد وكان يقول: "والله لا أؤمر عليهم إلا أوَّلهم انتدابًا"، وقبل أن يخرج بجيشه زوده عمر بنصحه فقال: "يا أبا عبيد! استمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعًا حتى

---

(١) النجعة: طلب الكلأ من موضعه.
(٢) طرأ: خرج فجأة.
(٣) أنصاريان ممن شهدوا بدرًا.

تتبين، فإنها الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث[١] الذي يعرف الفرصة والكف[٢]''.

واجتمع له عشرة آلاف فتحرك الركب تحت راية أبي عبيد، فلما بلغوا العراق انضم إليه المثنى بجيشه، وكان الفرس قد وحَّدوا صفوفهم وتناسوا خلافاتهم فأسندوا قيادة الجيوش لرستم وكونا جيشين كثيفين أحدهما بقيادة ''جابان'' تحرك إلى الحيرة والثاني بقيادة ''نرسي'' تحرك إلى ذي قار.

وتقدمت قوات المسلمين إلى النمارق فهزمت جيش ''جابان'' وأسروه لكن الجندي الذي أسره كان قد أمَّنه دون أن يعرفه فلما قاده إلى أبي عبيد عرفه من حوله وقالوا: ''إنه الملك وهو الذي غدر بنا وحاربنا، فاقتله!'' فرفض أبو عبيد، وقال: ''إني أخاف الله أن أقتله وقد أمَّنه رجل مسلم وإن كان قد غدر، فأنا لا أغدر''، وأطلق سراحه، وضرب بذلك أروع مثال في التسامح وسمو أخلاق المحارب المسلم الذي لا يغدر ولو بعدوه الغادر، ولا يخفر[٣] ذمة جندي في جيشه.

وهاجم المسلمون جيش ''نرسي'' وهزموه ففر هاربًا، كما قطعوا الطريق على جيش ''الجالينوس'' الذي كان مددًا لجيش الفرس فهزموه في باروسما ففر ''الجالينوس'' إلى المدائن، وأزعجت الفرس هذه الهزائم المتوالية فدعا قائد الجيش رستم أشد قواده وهو القائد ذو الحاجب[٤] ''بهمن جاذوية'' فأمده باثني عشر ألفًا من المقاتلين وعشرين فيلاً، ودفع له براية كسرى[٥]، وتحرك الجيش الفارسي الضخم حتى وصل إلى شرق نهر الفرات بينما كان أبو عبيد بجيشه على الضفة الأخرى يحجز بينها النهر، فأرسل قائد الفرس إليه قائلاً: ''إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليك''، وكأن شيطان الفرس يعلم أن القائد العربي الذي تجري في أوصاله الشجاعة مجرى الدم سيلبِّي إليه غير هيابًا فيعبر بجيشه

---

(١) الرزين المتريث.

(٢) أي التوقف.

(٣) نقض عهده.

(٤) ذو الحاجب: لقب فارسي معناه المقدم.

(٥) كانت تسمى ''درفش كابيان'' وكانت راية عظيمة من جلود النمور وكانت لا تُرفع أمام الجيش إلا لأمر عظيم.

إليهم، وبالفعل وعلى الرغم من اعتراض قادة جيشه حرصًا على سلامة الجيش، إلا أنه وقف خطيبًا فقال: ''والله لا يكونوا أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم''، وأصر على رأيه وعزم على العبور ليروا منه الشدة والبأس فيكون ذلك دافعًا لنصرة جنده وموهنًا لكيد عدوه. ونصحه المثنى بن حارثة وبعض قادته بعدم الإقدام على هذه المجازفة.

ويقول الأستاذ محمد فرج: ''إن الإقدام على هذا مجازفة غير مأمونة فقد أكد التاريخ الحربي على مر العصور صعوبة اجتياز الموانع الطبيعية لأنها تحتاج إلى إعداد دقيق وتدريب شاق وسرية مطلقة لأنها تعتبر مرحلة من فقدان التوازن، ويكون فيها المدافع الذي يقف خلف المانع لديه فرصة أكبر لإصابة المهاجم خلال عبوره بخسائر شديدة''[1].

وتحرك أبو عبيد بجيشه عبر الجسر، وكان الفرس قد أخلوا له ولجيشه مساحة ضيقة على الجانب الآخر للنهر لا تسمح لهم بالمناورة والكر والفر، ولم يمهل الفرس المسلمين حتى يعبروا فقد انقضوا عليهم وهاجموهم بعنف أثناء العبور وأنزلوا بهم أفدح الخسائر أما الذين تمكنوا من بلوغ الشاطئ فوجئوا بالأفيال التي أفزعت الخيل فولّت هاربة وهنا أمرهم أبو عبيد أن يترجّلوا ويثبتوا أمامها، واندلع قتال عنيف غير متكافئ بين جيش كبير بكامل عدته وعدده متمركزًا في مواقعه، وجيش قليل العدد قُتل أغلبه وأُحيط به من كل جانب، لكن أبا عبيد أبلى أحسن البلاء هو وجنده وقتلوا من الفرس عددًا كبيرًا وأمرهم بقطع بطن هودج الفيله لتنقلب بمن عليها.

ونظر أبو عبيد فرأي فيلاً أبيضَ يضرب الناس ذات اليمين وذات الشمال فتقدم أبو عبيد يريده فنهاه أصحابه وقالوا: ''إنا نخاف عليك''، فقال: ''إن ربي ينصرني ولكن أخبروني هل لهذا الفيل مقتل؟''، فقالوا: ''إذا قُطع خرطومه فإنه يموت''، فقال: ''إني لحامل على هذا المخلوق فانظروا إن قتلته وهَزمتُ من حوله فأنا أميركم، وإن قُتلت فأخي الحكم أميركم فإن قُتل فولدي وهب فإن قُتل فولدي مالك فإن قُتل

---

(١) شخصيات عسكرية إسلامية لمحمد فرج.

فولدي جبر فإن قُتل فأبو محجن فإن قتل فالمثني ثم تقدم نحو الفيل يناوره وهو يرتجز:

يـــا لـــك مـــن ذي أربـــع مـــا أكـــبرك
يـــا لـــك في يـــوم الـــوغي[1] مـــا أنكـــرك
لأضـــــربن بالحســـــام مشـــــفرك[2]
وهالـــــــك وفي الهـــــــلاك لي درك

وأطاح البطل بخرطوم الفيل بحد سيفه فثار الفيل وهاجم أبا عبيد وأوسعه ركلاً ووطءًا حتى فاضت روحه، وقُتل من بعده القادة وفر بعض الجند عن طريق الجسر فقام عبد الله بن يزيد الثقفي فقطع الجسر ليوقف انسحاب المسلمين وأخذ يصيح فيهم: ''أيها الناس! موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا''، لكن قوة جيش الفرس وكثرة عدده وارتباك صفوف المسلمين جعل الخسائر تتزايد في صفوف المسلمين وقُتل سليط وسعد بن عبيد[3] الأنصاريان رضي الله عنهما وفر البعض في النهر فغرقوا وقُتل ثمانمائة من المسلمين إلى أن أخذ الراية المثنى وانحاز بمن بقي من الجيش وأنقذهم من براثن الفرس .

وكانت وقعة الجسر في الثامن والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة (٦٣٤م) وقيل كان بينها وبين اليرموك أربعون يومًا.

رحم الله أبو عبيد بن مسعود لقد أوردته الشجاعة فيما يراه الناس مورد الهلاك لكن الحق أنه قد فاز بالشهادة التي يتمناها كل مسلم.. فاز ورب الكعبة.

اللهم تقبله شهيدًا وكُلَّ من مات معه واجزهم عن الإسلام الذي حملوا رايته في أيديهم وحفظوه في قلوبهم خير الجزاء.

---

(١) الوغى: الحرب.
(٢) المشفر بمنزلة الشفة من الحيوان وهي في الفيلة الخرطوم.
(٣) صحابيان بدريان.

أبو محجن الثقفي ﷺ

اختلف في اسمه فقيل عمرو بن حبيب وقيل مالك وقيل عبد الله وقيل أن اسمه هو كنيته[١]. صحابي قدم مع وفد ثقيف على النبي فأسلم ولا رواية له.

كان أبو محجن فارس ثقيف في زمانه إلا أنه كان مولعًا بالخمر في الجاهلية وتأخر إقلاعه عنها في الإسلام. وقد جُلد مرارًا لذلك فلما تولى عمر الخلافة نفاه إلى جزيرة فهرب ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسية فكتب عمر إلى سعد فحبسه[٢].

ذكر الطبري في تاريخه أن أبا محجن لما سُئل فيما حُبس قال: ''أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكني كنتُ صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدبُّ الشعر على لساني يبعثه على شفتيَ أحيانًا فيُساء لذلك ثنائي ولذلك حبسني، قلتُ:

إذا مِتُّ فادفني إلى أصـــلِ كرمــةٍ … تروى عظامي بعد مــوتي عُرُوقُهـــا

وقال ابن سيرين: ''كان أبو محجن الثقفي ﷺ لا يزال يُجلد في الخمر فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه فلما كان يوم القادسية، فكأنه رأي أن المشركين قد أصابوا المسلمين فأرسل إلى أم ولد سعد أو إلى امرأة سعد[٣] ﷺ يقول لها: إن أبا محجن يقول لك: إن خلّيت سبيله وحملته على هذا الفرس ودفعتِ إليه سلاحًا ليكونن أول من يرجع إليك إلاّ أَن يُقتل''[٤].

وقيل أنه لما سمع دوي المعركة وقرع السيوف هاجت نفسه للقتال فأخذ ينشد:

---

(١) الإصابة لابن حجر.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) قيل هي سلمي امرأة سعد وهي صحابية أسلمت في العام التاسع تزوجها المثني بن حارثة ﷺ فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص وقيل هذه المرأة هي بنت خصفة.

(٤) رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح وابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة.

كفي حزنًا أن ترتوى الخيلُ بالقنا[١] وأتـــرك مشـــدودًا علـــيَّ وثاقيـــا
إذا قمتُ عنَّاني[٢] الحديدُ وأُغلقـــت مصاريع[٥] دوني قد تصـــم المناديـــا
حبسا عن الحرب العوان[٣] وقد بدت وأعمال غيري يـــوم ذاك العواليـــا
فلله عهـــد لا أخـــيس[٤] بعهـــده إذا فُرِّجـــتُ ألاَّ أزور الحوانيـــا[٦]

فسمعته المرآة فرقت له وقالت: ''إني استخرتُ الله ورضيت بعهدك''.

ورُوي أنه قال لها: ''خلِّيني فلك الله عليّ إن سلمتُ أن أجئ حتى أضع رجلي في القيد، وإن قُتلتُ استرحتم مني''، فخلَّته ووثب على فرسٍ لسعد يقال لها البلقاء ثم أخذ الرمح وانطلق حتى أتي الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزمهم الله فجعل الناس يقولون هذا مَلَك، وسعدٌ ﷺ ينظر- فقد كان سعد به مرض فاستعمل خالد بن عرفطة وارتقى فوق البيت ينظر ما يصنع الناس- فجعل سعدٌ يقول: ''الضبرُ[٧] ضبر البلقاء والطفرُ[٨] طفرُ أبي محجن! وأبو محجن في القيد''[٩].

وفى رواية أخرى- خرج أبو محجن يركض حتى لحق بالقوم فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه. فنظر سعدٌ إليه فجعل يتعجب منه ويقول: ''مَنْ ذلك الفارس؟''[١٠]،

(١) قنًا هو الجنس الجمعي من القناة وهي الرمح أو مجرى الماء
(٢) عنَّاه: كلفه ما يشق عليه.
(٣) أي التي قُوتل فيها مرة بعد مرة.
(٤) نقض عهده.
(٥) المصراع: أحد جزأي الباب.
(٦) جمع حانة وهو المكان الذي تقدم فيه الخمور.
(٧) الضبر: هو أن يجمع الفرس قوائمه الأمامية ويرفعهما واقفًا على مرجليه الخلفيتين.
(٨) الطفر: الوثوب في ارتفاع.
(٩) رواه ابن أبي شيبه وابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة.
(١٠) سيف بن عمر، الأسدى التميمي، من أصحاب السير، توفي في بغداد، وأشهر كتبه المذكور ''الفتوح الكبير'' (الأعلام ٣/١٥٠).

وقال سيف في الفتوح[(١)]: "فقاتل قتالاً عظيمًا، وكان يكبِّر ويحمل فلا يقف بين يديه أحد، وكان يقصف الناس قصفًا منكرًا، فعجب الناس منه وهم لا يعرفونه[(٢)]. فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى هزمهم الله ورجع أبو محجن رضي الله عنه وردَّ السلاح وجعل رجليه في القيود كما كان ثم أنشد قائلاً:

وليلـــة قـــادس لم يشـــعروا بي ... ولم أشـــعر بمُخرجـــي الزحوفـــا

فـــإن أُحـــبس فـــذلكم بلائـــي ... وإن أُتـــرك أذيقهـــم الحتوفـــا

فجاء سعد رضي الله عنه فقالت له امرأته أو أم ولده: "كيف كان قتالكم؟"، فجعل يخبرها ويقول: "لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق[(٣)]، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننتُ أنها بعض شمائل أبي محجن". فقالت: "والله! إنه لأبو محجن كان من أمره كذا وكذا".. فقصت عليه قصته فدعا به وحلَّ قيوده وقال: "والله! لا نجلدك على الخمر أبدًا". قال أبو محجن رضي الله عنه: "وأنا والله! لا أشربها أبدًا، كنت آنف[(٤)] أن أدعها من أجل جلدكم". قال: فلم يشربها بعد ذلك[(٥)].

إنه أبو محجن كان كدأب كل مجاهد يعشق الجهاد فلا تتوق نفسه لشيء سواه. رغم ما كان به من بلاء وسجن. وكان حافظًا للعهد لم يخفر ذمة من أطلقه لذا فقد نصره الله وتاب عليه وهل يهزم جيش فيه مثل أبي محجن؟!

---

(١) رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح وصاحبي الاستيعاب والإصابة.

(٢) حياة الصحابة للكندهلوى.

(٣) فرس أبلق أي اختلط فيه البياض بالسواد.

(٤) أبي وترفَّع عن الشيء.

(٥) رواه عبد الرزاق بسند صحيح في المصنف وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة والكندهلوى في حياة الصحابة والذهبي في سير الأعلام.

القَعْقَاع بن عمرو التميمي ﷺ

تابعي[1] جليل وخطيب مفوَّه تتفجر جوانبه بالشعر والحكمة. كان فارسًا مغوارًا في الجاهلية والإسلام لم تَرَ ساحات القتال رجلاً مثله وما خاض حربًا إلا كان بطلَها الأول ونقطة التحول فيها. وكان مثلاً يُحتذى به في الشجاعة والإقدام ومن ثَمَّ كان القادة الأفذاذ يقحمونه في وسط المعامع ينبش القتال فتتأجج نارًا وتشتعل من فرط جرأته وحماسته. ووالله! لو لم أكن على يقين من حقيقة الرجل وما حفلت به كتب التاريخ من كفاحه وبطولته لظننتُ أنه أسطورة أو شخصية من نسج الخيال.

لقد خاض القَعقاع معارك عدة على ساحتي الشام والعراق يُستعان به تارة هنا وتارة هناك فيسقى جند الروم والفرس كؤوس المنية، يقطف رؤوسهم ويحصد رقابهم ويفعل بهم الأفاعيل وما من أحد غنم مثله فقد غنم سيف هرقل ودرع كسرى بهرام كان يتقلد بهما في أوقات الزينة.

وما إن تسلَّم خالد بن الوليد ﷺ الراية لفتح العراق وتأهب لذلك حتى نظر في قلة جيشه فكاتب أبا بكر يستمده فبعث الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ له مددًا.. أتدرون بكم أمده من الرجال؟! لقد أمده الصديق برجل واحد!! فعجب أصحابه، وقالوا: يا خليفة المسلمين: أتمده برجل واحد؟ فقال الصديقُ: نعم. والله لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا. إنه القعقاع بن عمر التميمي، فوالله لقد كان الصديق عليمًا بمعادن رجاله ومفاتيح النصر، لقد كان الرجل في ميزان أبي بكر وميزان العرب يعدل ألف فارس.

لازم خالدَ في جميع معاركه بالعراق وكان أجرأ العرب على الفرس حيث كان عارفًا بأساليبهم في الحرب، ومن أبرز معاركه بالعراق الفراض وكان واحدًا من أبطالها

---

(١) ذكر ابن الأثير في أسد الغابة (٣٩٠/٤) عن سيف بن عمر، الأسدى التميمى في "الفتوح الكبير" قوله ﷺ "شهدت وفاة النبي ﷺ" وعلى هذا يكون له صحبه كما ذكره الزركلى صاحب الأعلام (٢٠٢/٥) كذلك.

البارزين وقد أنشد فيها:

لقينـــا بـــالفراض جمـــوع روم وفـــرس غمهـــا طـــول الســـلام
أبـــدنا جمعهـــم لمـــا التقينـــا وبيتنـــا بجمـــع بـــني رزام
فما فتئتْ جنـــود الســـلم حـــتى رأينا القـــوم كـــالغنم الســـوام[١]

ولعل من أبرز بطولاته وأهم وقفاته وقفةً أنقذت جيش المسلمين في بلاد فارس من الهلاك وخيبة المسعى ولم يكن أحدٌ ليعلم ماذا كانت العاقبة لولا تلك الوقفة. وذلك عندما التقى الجيشان فيما عُرفت بمعركة ذات السلاسل[٢] فقد أعدوا خطة لاغتيال خالد ابن الوليد قائد المسلمين في تلك المعركة فإذا اصطف الجيشان خرج هرمز قائد الفرس فدعا خالد للمبارزة وكان ينوى أن يكثر المراوغة فتطول مدة المبارزة وأثناء ذلك تنقض فرقة من الفرسان فتقتل خالد غيلة أثناء انشغاله بالمبارزة فيراع[٣] الجيش العربي بمقتل قائده ويدب فيه الوهن ثم يطبق عليهم الجيش الفارسي الأكثر عددًا والأوفر عُدَّة فيهزمهم، وقد أوشكت هذه المكيدة أن تنطلي على المسلمين لولا أن القائد الفارسي أخطأ في التقدير لأمرين: أولهما: اغتراره بقوته مع جهله بقوة خصمه فقد ظن أنه منافسٌ كفءٌ للرجل لكن خالدُ العملاق لم يمهله فصرعه في جولة واحدة مما جعل فرسانه يسارعون في تنفيذ الشق الثاني من المؤامرة فانطلقوا نحو خالد، لكن حتى هذا الأمر قد أخطأوا في تقديره فقد فاتهم وجود بطل آخر في المسلمين لا يقل يقظة عن قائده ألا وهو القعقاع الذي فطن للحيلة وفى لحظة أو تكاد أسرع فانقض عليهم حتى صاروا كالقطيع المذعور وكالشياة عدا عليها الذئبُ وخرج في أثره كوكبة من الفرسان حالت دون البطلين فأذهلتهم المفاجأة ودارت عليهم الدائرة وأنزل الله نصره..

---

(١) السائمة: الشاة في المرعي.
(٢) سُميت بذات السلاسل لأن الفرس كانوا يقيدون أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفرُّوا أمام ضربات المسلمين.
(٣) راعه الأمر: أفزعه.

أما على ساحة الشام فقد تأزم الوضع واشتد الأمر على المسلمين فقد حشد الروم جموعًا هائلة للمسلمين ورأى الخليفة أبو بكر ﷺ أن يضربهم بخالد فامتثل خالد للأمر وانطلق بجيشه وخرج القعقاع يصحب أميره حتى وصل من طريق وعر واجتمعت القيادات الإسلامية يوم اليرموك تحت لواء خالد واشتد القتال وحمي الوطيس وحمل الروم بجموعهم الحاشدة على المسلمين فكسروهم ثم ثبت جند الله وأنزل عليهم نصره وتجسدت البطولة رجالاً يحمون دين الله فكان القعقاع[1] أول من انبرى يلهب الحماسات وخرج يتقدم الصفوف وهو يرتجز:

يا ليـــتني ألقــاك في الطــراد
قبل اعترام الجحفل الـــورّاد
وأنـــتَ في حلبتـــك الـــوارِد

وقاتل قتال الأبطال فهدَّ الروم هدًّا وسرت في أنفس الأبطال نار الحمية والشجاعة فلم يثبت الباطل في مواجهة الحق وانهزم الروم وفروا كالفئران المذعورة، وقد صور القعقاع انتصار المسلمين يوم اليرموك فقال:

ألم ترنـــا علـــى اليرمـــوك فزنـــا ... كمـــا فزنـــا بأيـــام العـــراقِ
فتحنـــا قبلـــها بصـــري وكانـــت ... محرمـــة الجنـــاب لـــدي التلاقـــي
قتلنا الـــروم حـــتى مـــا تســـاوي ... على اليرموك مفـــروق الـــرواق[3]
فضضـــنا جمعهـــم لمـــا اســـتحالوا ... على الواقوصـــة[4] البتـــر الرقـــاق
غداة تهـــافتوا[2] فيهـــا فصـــاروا ... إلى أمـــر تعضـــل[5] بالـــذواق

---

(١) كان يوم اليرموك على الميسرة.
(٢) سقطوا.
(٣) الرواق: أي خضرة الأرض.
(٤) الهوة التي سقط بها جموع الروم قتلى بعد هزيمتهم.
(٥) تَعَضَّل: اشتد عليه وصعب.

وفى عهد عمر بن الخطاب ﷺ أبلي بلاءً حسنًا في فتح دمشق وكان عند باها الشرقي برفقه صاحبه القديم خالد بن الوليد ﷺ، وكان من أمنع الأبواب فلما طال الحصار اعتلى هذا البطل أسوار المدينة ليثبت فوقها سلالم الحبال واندفع داخل الحصن يقاتل من عليه حتى فتح باب الحصن وكَبَّر وكَبَّر المسلمون من خلفه حتى سقطت المدينة كلها.

وأبلي يوم فِحْل أشد البلاء حتى انتصر المسلمون.. ورأي أمير المؤمنين عمر بنظرته الثاقبة ضرورة وجود القعقاع على ساحة العراق لاستفحال الأمر بها فقد خرج الفرس بقدهم وقديدهم على صورة لم تحدث من قبل فأرسله على رأس ألف فارس مددًا لجيش المسلمين فلحق بسعد بن أبي وقاص ﷺ في القادسية في ثاني أيام القتال، وما إن اقترب بجيشه حتى قسَّمه عشر فرق وأمرهم أن يتقدموا بصورة متتابعة وأن يكبروا ويثيروا الغبار فظنهم من رآهم أنهم جيشًا جرارًا أمد به أمير المؤمنين المسلمين وبذلك زلزل نفوس الفرس ورفع معنويات المسلمين وما إن وصل هذا العملاق إلى أرض المعركة حتى تقدم الصفوف وهو يصيح بصوته الجهوري الذي قال فيه أبو بكر الصديق إنه في المعركة بألف فارس وقال: "مَنْ يبارز؟"، فخرج من صفوف الفرس ذو الحاجب[1] قال معرفًا نفسه: "أنا بهمن جاذوية"، فعرفه القعقاع وتذكر ما فعله بالمسلمين يوم الجسر فقال مغضبًا: "يا لثأرات أبي عبيد وسليط[2] وأصحاب الجسر". ولم يمهله القَعقاع فهاجمه كشعلة من النار وضربه ضربة هائلة أطاحت برأسه فتهاوت بين جنده ثم خرج للمبارزة "الفيرزان" و"النبذوان" فقتل القعقاع أولهما وقتل الحارث بن ظبيان الآخر ثم نادي في الناس: "يا معشر المسلمين! باشروهم بالسيوف فإنما يُحصد الناس بها!"، وأخذ ينشد:

أزعجهم عمدًا بها إزعاجًا   أطعن طعنًا صائبًا ثجاجًا

---

(١) لقب فارسي يعني المقدم.

(٢) هو أبو عبيد بن مسعود وسليط بن قيس الأنصاري وكانا رضي الله عنهما ممن قُتلوا يوم الجسر.

أرجـــــو بـــــه مـــــن جنـــــة أفواجًـــــا

ثم شدَّ على الفرس فصرع ثلاثين فارسًا منهم وحده كان آخرهم بزرجمهر الهمذاني الذي قال فيه:

حبوتـــــه جيَّاشـــــةً بـــــالنفس هـــدَّارة مثـــل شـــعاع الشـــمس
في يـــوم أغـــواثِ فليـــل الفـــرس أنخُـــسُ بـــالقوم أشـــد الـــنخس

حـــــتى تفـــــيضَ مَعْشَـــــري ونفســـــي

وبذلك استطاع أن يلهب حماس الجيش.

وفي اليوم التالي للقتال عاد الفرس يستخدمون الأفيال التي أرهقت المسلمين وكادت قوات المسلمين أن تنهزم تحت وطأة الفيلة وخاصة فيلين هائلين بينهم كانا يتقدمان الصفوف أحدهما أبيض والآخر أجرب فنظر سعد فوجد بطليه المقدامين القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم فقال: ''أكفياني الفيل الأبيض!''، وأرسل بفارسين من بني أسد وقال لهما: ''أكفياني الفيل الأجرب!''، وتقدم الأربعة نحو الفيلين في شجاعة يعجز عن وصفها البيان، فضربوهما في أعينهما بالرماح وقطعوا مشافرهما فصارت عاجزة، واستمر القتال حتى دخل الليل فلجأ الجيشان كلٌّ إلى معسكره.

ثم أرسل سعد بن أبي وقاص قائديه عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد لمراقبة المعسكر الفارسي فلما وصلا إلى أرض العدو تحركت نخوتهما وأبوا ألا يعودا إلا بنصر أو شهادة فكبَّرا وحملا على الفرس، وما إن سمع القعقاع تكبيرهم حتى هاجت نفسه وتحرك بكتيبة من المسلمين لنجدة أخويه ظنًّا منه أنهما على خطر ولم يستطع الانتظار حتى يرجع لقائده سعد فهاجم معسكر الفرس بمن معه وكان سعد يراقب القتال ويقول: ''اللهم اغفر للقعقاع وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذن''.

ثم أصدر سعد أمره بالهجوم الشامل والمزاحفة وأشعل القعقاع لهيب الحماس في

جنده فظلوا يحاربون طوال الليل بلا توقف وكان أول صوت سمعه سعد في تلك الليلة:

نحــن قتلنــا مَعْشــرًا وزائــدا أربعــة وخمســة وواحــدا

نُحْسَبُ فوق اللِّبَــد الأســاودا[1] حتى إذا مــاتوا دعــوتُ جاهــدا

الله ربي واحتــــرزتُ عامــــدا

وأخذ يصيح فيهم: "إن الدبرة[2] بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر"، فوصلوا الليل بالنهار شوقًا إلى النصر حتى انهزم الفرس بعد أن شلّتهم المفاجأة فانهزموا هزيمة نكراء وقُتل قائدهم "رستم" وفروا هاربين وغنم المسلمون رايتهم العظمى (درفش كابيان) وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف.

ثم كتب عمرُ بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما: "أيُّ فارسٍ كان أفرس في القادسية؟" فكتب إليه سعد يخبره: "إني لم أرَ مثل القعقاع بن عمرو، حمل في يوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملة بطلاً منهم"[3].

ويوم فتح المدائن كان القعقاع صاحب الكتيبة الخرساء التي كانت لتأمين وتعزيز كتيبة الأهوال التي كان عليها أخيه عاصم بن عمرو، وكانت الكتيبتان تحميان مقدمة المسلمين أثناء عبور دجلة، وقيل أن جنديًا عربيًا سقط أثناء العبور عن ظهر فرسه فلما رآه القعقاع لوى عنان فرسه وأخذه بيده فجرَّه حتى عبر النهر فقال الرجل: "أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع". ودخل المسلمون المدائن عاصمة الفرس بعد أن فرَّ الفرس مذعورين وهرب "يزد جرد" من المدائن إلى حُلوان فجمع عسكره ووجههم إلى جلولاء فاجتمع له جمع عظيم فخرج لهم سعد بجيشه وظهرت للقعقاع بطولات عظيمة فيها وقتل أعدادًا كبيرة منهم وتولى مهمة مطاردة فلول المنهزمين إلى خانقين فقتل من أدرك منهم.

---

(١) الحيات.

(٢) أي الدائرة بمعنى النصر.

(٣) ابن الأثير في الكامل وابن حجر في الإصابة.

ويوم نهاوند كان القعقاع يقود المُجَنَّبة[1] في جيش النعمان بن مقرن فتحصن الفرس بحصونهم وغلّقوها دونهم فلم يستطع المسلمون أن يخلصوا إليهم فأعدَّ النعمان خطة لقتالهم وكانت تحتاج في تنفيذها إلى قائد بطل وبالطبع وقع اختيار القائد على القعقاع وكانت الخطة أن يتقدم القعقاع في كوكبة من الفرسان من الحصن فيناوشون من فيه ثم ينسحبون للخلف فيطمع الفرس فيندفعوا خلفهم فيفتحون الأبواب وتكون الفرصة مواتية لاقتحام الحصن وبالفعل كان القعقاع خير من ينفذ هذه الخطة العسكرية البارعة فما إن تراجع بجيشه حتى اندفع النعمان بجيشه لاقتحام الحصن وكرَّ معهم القعقاع وقاتل أشد القتال فسقط الحصن في أيدي المسلمين وقُتل من الفرس يومها مائة ألف وكانوا يقيدون كل ثلاثين بسلسلة حتى لا يفروا أمام ضربات المسلمين فكان ذلك وبالاً عليهم فسقطوا في خنادقهم وهرب قائدهم "الفيرزان" فتبعه القعقاع على أحد الجبال وأدركه فلم يصمد هذا الفار أمام القعقاع الذي لم يمهله حتى أطاح برأسه.

وواصل فتوحاته في بلاد فارس ففتح همذان مع نعيم بن مقرن.

وبعد القضاء على أي نفوذ للفرس بالعراق وتخومها سكن الكوفة وعاش بها وقاتل يوم صفين تحت راية عليٍّ ﷺ ثم مات بالكوفة عام أربعين من الهجرة (٦٦٠م).

(١) الجناح أو المقدمة.

عمرو بن معد يكرب ﷺ

عمرو بن معد يكرب، الزبيدى كان يكني أبا ثور. صحابي جليل وفارسٌ عقمت النساء أن يلدن مثله حتى عُرف بفارس العرب في الجاهلية والإسلام.

قدم عمرو على النبي ﷺ في وفد من قومه زبيد فأسلموا جميعًا في السنة التاسعة وقال الواقدى في العاشرة. ثم أقام بالمدينة حتى وفاة النبي ﷺ، وكان على رأس المرتدين ثم استتاب في عهد أبي بكر ﷺ وحَسُنَ إسلامه.

ثم خرج مجاهدًا وشهد عامة الفتوح بالشام والعراق وله ما لا يُحصى من الشمائل والبطولات ففي معركة اليرموك قاتل أشد القتال فقد روي مالك بن عبيد الله الخثعمى ﷺ قال: "ما رأيت أشرف من رجل برز يوم اليرموك، فخرج إليه علج[١] فقتله، ثم آخر فقتله، ثم انهزموا- أي الروم- وتبعهم وتبعته قال: ثم انصرف إلى خباء عظيم له فترل فدعا بالجفان[٢] ودعا من حوله، قلتُ: "مَنْ هذا؟"، قالوا: "عمرو بن معد يكرب"[٣]. ثم نصر الله المسلمين وانهزم الروم وعقب هذا الانتصار توفي أبو بكر ﷺ.

ولما بُويع عمر ﷺ بالخلافة تَجَهَّزَ لقتال الفرس الذي حشدوا جموعهم للمسلمين وكان موعدهم يوم القادسية، وطلب سعد بن أبي وقاص ﷺ مددًا من أمير المؤمنين عمر فبعث إليه عمر وقال: "يا سعد! إني امددتك بألفي رجل: عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد"[٤]. ولقد صدق يقين عمر فكان عمرو يعدل في ميزان الرجولة والشجاعة ألف رجل.

---

(١) العلج: الرجل القوي الضخم من كفار العجم.
(٢) قصعة الطعام.
(٣) أخرجه ابن عائذ في المغازى وذكره الكندهلوى في حياة الصحابة والذهبي في سير الأعلام.
(٤) رواه الطبري في تاريخه عن طريق محمد بن سلام الجمحي ﷺ.

وقد ظهرت من بطولته وشجاعته يوم القادسية ما يعجز عنه اللسان ولا يقوم له وصف.. فها هو ذا يمر على الصفوف ويصيح في جند الله: "يا معشر المسلمين! كونوا أسودًا فإن الفارسي تيس"، وبينا هو يصول ويجول إذ رماه فارسي بنشابة[١] فأصابت سية قوسه[٢] فحمل عليه عمرو فطعنه فدق صلبه ونزل إليه فأخذ سلبه[٣].

وفي رواية أخرى لابن عساكر في تاريخه: جاءته نشابة فأصابت قربوس[٤] سرجه فحمل على صاحبها فأخذه كما تؤخذ الجارية، فوضعه بين الصفين[٥] ثم احتز رأسه وقال: هكذا فاصنعوا بهم.

وفي ليلة الهرير[٦] أبلى أحسن البلاء وأظهر أعظم البطولة وذلك أن سعد بن أبي وقاص ﷺ تنبه لوجود مخاضة أسفل مواقع المسلمين فخشي أن يستغلها الفرس فيهاجموا المسلمين ليلاً، فأرسل عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدي لاستطلاع الأمر في نفر قليل فتقدم البطلان إلى الموقع المحدد فلم يجدا أحدًا، وإذا بالبطلين تحدث الواحد منهما نفسه بمهاجمة الفرس فيأخذوهم على غِرة من الخلف.. هل تصدق يا أخي القارئ أن رجلين يهاجمان جيشًا وحدهما؟! ولا عجب فكل منهما يصلح أن يكون جيشًا وحده ولا عجب فإنها العقيدة وصدق الشاعر إذ يقول:

إن العقيـــدة في قلـــوب رجالهـــا أقـــوى مـــن درة وألـــف مهنـــد

وقد صدق الفاروق إذ قال عنهما أنهما بألفي رجل.. وانطلق الماردان كالإعصار الهادر يشقان معسكرات العدو وقد علا صوتهما بالتكبير فخلعت قلوب الفرس وظنوا أن جيشًا كامل العدد والعدة يقاتلهم ولما سمع معسكر المسلمين التكبير انضموا إليهم

---

(١) سهم من قوسه.
(٢) السية: ما عطف من طرفي قوسه.
(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في معجمه وعند غيرهم بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم ﷺ.
(٤) القربوس: جزء من السرج مقوس من مقدمة المقعد وآخره.
(٥) أي الجيشين.
(٦) الليلة الثالثة في معركة القادسية.

وأمر سعد باقي القوات بالهجوم الشامل على جميع القطاعات وارتفعت تكبيرات المحاربين وتعالت قعقعة السيوف تشق صمت الليل فدُحر أعداء الله وانهزم الفرس..

ثم شهد موقعة نهاوند سنة إحدى وعشرين وقاتل فيها أشد القتال حتى كان الفتح وأصيب فيها إصابات بالغة حتى أثبتته جراحه فمات متأثرًا بها بقرية روذة[1].

وقيل مات يوم القادسية متأثرًا بجراحة، وقيل مات يومها عطشًا.

---

(١) الإصابة لابن حجر، وهى من قرى الرّى مات في الطريق بها ودفن فيها (معجم البلدان).

طليحة بن خويلد الأسدي ﷺ

واحد من أشجع الفرسان وأشد المحابين في الجاهلية والإسلام، قال عنه محمد بن سعد[١] أنه كان يُعد بألف فارس لشجاعته وشدته[٢]. ومن شجاعته أنه كان قد أقسم ألاَّ يدعوه أحد إلى مبارزة إلا أجابه.

جاء النبيَّ ﷺ في وفد من قومه بنى أسد في العام التاسع الهجري فأسلموا بين يديه فلما رجع مع قومه ارتد عن الإسلام ثم ادَّعى النبوة في حياة النبي ﷺ فوجَّه إليه النبيُّ ﷺ ضرار بن الأزور[٣] فضربه ضرار بسيفه يريد قتله فنبا[٤] السيف ولم يصبه فشاع في الناس أن السلاح لا يؤثر فيه.

ولما مات النبي ﷺ كثر أتباعه من أسد وغطفان وطيئ وشاع أمره في نجد كلها وكان يتلو على الناس أسجاعًا يدَّعى أنها تُنَزَّل عليه وكان يأمر بترك السجود في الصلاة، وكانت رايته في الحرب حمراء وقد طمع في امتلاك المدينة فهاجمها بعض أشياعه فحاربه أبو بكر ﷺ ونجح في ردِّه عنها.

ثم سيَّر إليه خالد بن الوليد فلقي طليعته في بزاخة[٥] فقتل منهم الصحابين الجليلين عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم[٦] رضي الله عنهما، ثم التقى بخالد بن الوليد فانهزم طليحة وجيشه هزيمة منكرة ثم فرَّ إلى الشام ولحق بالغساسنة وأقام بالشام..

---

(١) عرف بابن سعد ولد بالبصرة عام ١٦٨هـ. محدث حافظ ومؤرخ ثقة. درس على الواقدى وغيره وهو آخر من جمع السير من مصادرها الأولى وثاني مؤلف بعد ابن اسحاق وصلنا كتابه عن السير كاملاً. أهم مؤلفاته الطبقات الكبير. توفي عام ٢٣٠هـ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

(٣) ضرار بن الأزور بن أوس، الأسدى: صحابي. أحد أبطال الجاهلية والإسلام قاتل يوم اليمامة حتى قطعت ساقيه فجعل يحبو على ركبتيه وقاتل والخيل تطأه ومات بعدها. (الأعلام ٣/٢١٥).

(٤) نبا السيف: أي لم يصبه.

(٥) أرض لطيئ بنجد.

(٦) هو الصحابي الذي أعطي الراية لخالد يوم مؤته بعد مقتل القادة الثلاثة.

وبعد هذه الصفحات المظلمة في تاريخ طليحة أراد الله له الهداية بعد طول ضلال فبعد أن تابت أسد وغطفان وعادت للإسلام أشرق نور الحق في قلبه، ثم خرج إلى مكة معتمرًا في خلافة أبي بكر فمر بجنبات المدينة فذكر بعضهم لأبي بكر مكانه، فقال: "ما أصنع به! خلُّوا عنه فقد هداه الله للإسلام".

وفي عهد عمر جاء يبايعه فقال له عمر: "أنت قاتل عكاشة وثابت؟! والله لا أحبك أبدًا". فقال طليحة: "يا أمير المؤمنين، ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدي، ولم يهنّي بأيديهما". فرضي عمر بيعته ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم.

وكان عمر ﷺ يعرف جيدًا مقادير الرجال لذا كان يعرف من هو الرجل ويعرف ضروب شجاعته وقدراته التي رأي أن يسخِّرها لنصرة الإسلام، وأراد أن يضعه في محك الاختبار ليرى حسن بلاءه فأرسله إلى ساحة العراق لقتال الفرس وانطلق طليحة وكأنما وُلد من جديد وقد سمت قوته وبلغت الذرى وها هو يسعى ليحارب في سبيل الله تعالى بسلاح جديد لم يكن بعرفه من قبل وهو العقيدة كما أنه سعى ليمحو صفحات سود قضاها في حرب الإسلام مما جعله يزداد قوة فوق قوة وشجاعة بعد شجاعة وهكذا يفعل الإسلام إذ يشحذُ سيوفَه ويجليها فتزيد مضيًّا وبريقًا. ثم كاتب عمر قائده سعدًا يخبره أنه ممدَّه برجلٍ يُعدُّ بألف رجل ألا وهو طليحة بن خويلد..

وأقبل طليحة على سعد وشهد القادسية وقد كان أحد أبطالها وقاهر أقوى أسلحة الفرس وهى الأفيال فما إن نشب القتال حتى فوجئ سعد بالفرس وقد دفعوا بثلاثة عشر فيلاً هاجموا أحد أجنحة الجيش وهو جناح بنى بَجيلة فنفرت الخيل وفرَّ الرجال فنظر سعدٌ فوجد بطلنا طليحة وعلى الفور أصدر سعد أوامره لطليحة في بنى أسد كي يتصدوا لها وصاح سعدٌ فيهم: "ذبُّوا عن بَجيلة ومن حولها من الناس"، فصرخ طليحة في عشيرته: "يا عشيرتاه! لو علم سعدٌ أن أحدًا أحق بإغاثة هؤلاء منكم لاستغاثهم ابتدئوهم بالشِّدة وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبَة! فإنما سميتم أسدًا لتفعلوا فعله، شدُّوا ولا تصدُّوا! وكرُّوا ولا تفرُّوا! شدُّوا عليهم باسم الله!".

وتقدم طليحة الذي لا يهاب الموت وثبت وثبت رجالُه حتى حبسوا الفيلة.. لقد كان عملاً بطوليًا خارقًا نال فيه خمسمائة من قومه الشهادة تحت أقدام الفيلة وهم يصارعونها.. وقاتل أشدَّ القتال وأبلى أحسن البلاء .

وفي يوم أرماث من القادسية خرج الجالينوس فاعترضه طليحة فضربه على رأسه لكن مغفره كان سميكًا فشقه و لم ينفذ إلى رأسه وقال في ذلك:

أنــا ضــربتُ الجــالينوس ضــربة حين جيادُ الخيلِ وســط الكُبَّــة[١]

وكان هو وعمرو بن معد يكرب صاحبها الهجمة الشرسة على معسكر الفرس ليلة الهرير حيث أقبلا يمزقان صفوف الفرس وقد تعالى تكبيرهما يزلزل قلوب الفرس حتى فتح الله عليهم.

ومن وقفاته العظيمة وبطولاته الجسيمة ومما يظهر بأسه وقوته أن سعدًا أرسله عينًا له يستطلع أحوال الفرس فتسلل طليحة داخل معسكر رستم ليلاً فلما أدبر الليل أتى في ناحية المعسكر يريد فرسًا من أفراسهم أعجبه فانتبه له جند الفرس فلحق به فارسي فقتله طليحة بعد مصاولة قليلة ثم لحق به آخر فقتله ثم ثالث فأسره واختطفه على فرسه وساربه إلى معسكر المسلمين.

فقال له سعد: ''ما وراءك؟'' قال طليحة: ''دخلت عسكرهم وجستها[٢] منذ الليل وقد أخذتُ أفضلهم توسمًا وما أدرى أصبتُ أم أخطأتُ؟ وها هو ذا''.

فاستعلم سعد من ذلك الفارسي أخبار الجيش بعد أن أمَّنه على دمه إن صدق، فقال الفارسي: ''أخبركم عن صاحبكم- يقصد طليحة- قبل أن أخبركم عمن قِبَلي، لقد باشرت الحروب وغشيتها[٣] وسمعت عن الأبطال ولقيتهم منذ أنا غلام إلى أن

---

(١) الكبة: الجماعة من الناس.

(٢) جاس: طاف بالمكان.

(٣) شهدتها وحضرتها.

بلغتُ ما تري. و لم أسمع بمثل هذا أن رجلاً قطع معسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال[(١)] إلى معسكر فيه سبعون ألفًا يخدم الواحد منهم الخمسة إلى العشرة فما دونه فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسًا وهتك أطناب[(٢)] بيته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس يعدل فينا ألف فارس فقتله فأدركه الثاني وهو نظير الأول فقتله ثم أدركته لا أظنني خلفتُ بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقبيلتين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأثرت بحياتي، ثم أسلم هذا الرجل وسمي نفسه مسلمًا وكان من أهل البلاء والجهاد في الحرب[(٣)].

وظل طليحة يقاتل في سبيل الله ببلاد العراق إلى أن أكرمه الله بالشهادة فنالها يوم نهاوند بعد أن أبلى بلاء الأبطال.

رحمه الله وغفر له! وأبدل سيئاته حسنات.

---

(١) كان قد اجتاز معسكر الجالينوس ومعسكر ذي الحاجب إلى معسكر رستم.

(٢) الطُّنُب: حبل يُشد به الخباء والسرادق.

(٣) أصحاب الرسول وشخصيات عسكرية إسلامية نقلاً عن كتاب القادسية لباشميل والقادسية لأحمد عادل.

قيس بن مكشوح ﷺ

قيس بن هبيرة بن هلال، البجلي، لقب أبوه بمكشوح. كان قيس سيدًا في قومه بني بَجيلة في الجاهلية وفارسها، وفي الرواة من يُعَرِّفه بالمرادى، وهو ابن أخت عمرو بن معد يكرب، كان يكني أبا شداد.

وهو صحابي من الشجعان والأبطال المغاوير والشعراء المعدودين. أدرك النبي ﷺ فأسلم بين يديه.

ذكر الذهبي في سيره أنه خاض حروب الردة وكان ممن قتل الأسود العنسي لكنه ارتد بعد ذلك ولجأ إلى اليمن فاتبعته جماعة من أصحاب الأسود العنسى فملك صنعاء كلها، ثم هزمته جيوش أبي بكر الصديق ﷺ فأسره ووبخه فتاب بين يديه فعفا عنه، وحسن إسلامه .

ثم شهد الفتوحات في زمان عمر وعثمان وله مواقف عظيمة أبرزها مواقفه يوم القادسية حيث كان يقود الميسرة ولما احتدم القتال والتحم الجيشان ولما اشتدت وطأة الفرس قام خطيبًا في الجند- وكان قد قدم من الشام مع هاشم بن عتبة مددًا للمسلمين- فقال: "يا معاشر العرب، إن الله قد مَنَّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمد ﷺ فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا دعوتكم واحدة وأمركم واحدًا، بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عدو الأسد، ويختطف بعضكم بعضًا اختطاف الذئاب، فانصروا الله ينصركم، وتنجزوا من الله فتح فارس، فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتشال القصور الحمر والحصون الحمر"[1].

فأشعل حماسهم وحارب يومها بشجاعة لا توصف وقتل عددًا كبيرًا من جند الفرس، قيل أنه قتل رستم قائد الفرس حيث أدركه وهو يفر في النهر فضربه بسيفه

---

(١) الطبري في تاريخه.

على جبهته فشق رأسه وأنشد في ذلك شعرًا:

جلبتُ الخيل من صنعاء تردى	بكل مدجج كالليث سامي
إلى وادي القرى فديار كلبٍ	إلى اليرموك فالبلد الشامي
وجئنا القادسية بعد شهر	مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جمع كسرى	وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيتُ الخيل جالت	قصدتُ لموقف الملك الهمام
فأضربُ رأسه فهو صريعًا	بسيفٍ لا أفلّ[١] ولا كهام[٢]
وقد أبلى الإله هناك خيرًا	وفعل الخير عند الله نامي

ثم شهد نهاوند وأبلى بها أحسن البلاء، وحضر صفين في جيش عليٍّ بن أبي طالب وعمار بن ياسر رضي الله عنهما فقاتل أشد القتال حتى نال الشهادة بها.

---

(١) السيف الأفل: أي مابه فَلّ وهو كسر حده.
(٢) الكهام: السيف إذا كَلَّ أو جَبُن صاحبه عن الحرب.

النعمان بن مقرن ﷺ

قيل اسمه أوس من بني مزينة. وَفَدَ هو وقومُه مزينة على النبي ﷺ بالمدينة فأسلموا جميعًا وشهدوا فتح مكة مع النبي ﷺ وكان النعمان يحمل رايتهم وشهد النعمان ما بعدها من مشاهد .

ولما قُبض النبي ﷺ وارتدت أغلب العرب كان على ميمنة أبي بكر ﷺ في وقعة ذي القصة التي هزم فيها مانعي الزكاة ثم انطلق لقتال المرتدين في جزيرة العرب فأبلي أحسن البلاء حتى خمدت فتنتهم.

وجاهد الفرس تحت قيادة خالد بن الوليد وله فيها بطولات مجيدة.

ثم قاتل تحت راية سعد يوم القادسية ثم ولّاه سعد فتح سابور ففتحها ثم سار إلى السوس ففتحها وهزم جموع الفرس الهائلة بها، ثم قاد الجيوش الإسلامية إلى كسكر ففتحها وهزم الفرس بها شر هزيمة، ثم ولّاه سعد جباية الخراج فثقل على نفسه أن يدع ميدان القتال الذي توطنت عليه نفسه إلى حياة السكون والدعة، كان النعمان قد وجد العز والشرف في الجهاد ووجد الحياة الحقة في طلب الشهادة فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ أن يدفع به في نحور العدو فكاتب أمير المؤمنين أميره سعد وقال: ''إن النعمان كتب إليّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج، وأنه قد كره ذلك ورغب في الجهاد فابعث به إلى أهم وجوهك''.

وكانت أهم المعارك التي خاض غمارها هي معركة نهاوند[1] في سنة إحدى وعشرين (٦٤١م) لعظم خطرها وقوة استعداد الفرس وأعوانهم بها لقد كانت بحق من المعارك الفاصلة التي حسمت الصراع على أرض العراق وما جورها بين المسلمين والفرس.

وكان ''يزد جرد'' قد عزم أن يثأر للقادسية فحشد جيشًا جرارًا قوامه مائة

(١) مدينة عظيمة بينها وبين همدان ثلاثة أيام.

وخمسين أو مائة وتسعين ألفًا من أهل ماه وأصبهان وهمذان والري وقُومِس ونهاوند وأذربيجان وأمَّر عليهم أشدَّ قادته "الفيرزان".

فلما بلغ أمير المؤمنين عمر ﷺ الخبر جمع الناس في المسجد وأخذ ينادي: "أين المسلمون؟ أين المهاجرون والأنصار؟ من ههنا من المسلمين؟" فلم يزل ينادي حتى امتلأ المسجد عليه رجالاً، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

"أما بعد.. أيها الناس! فإن الشيطان قد جمع لكم جموعًا كثيرة وأقبل بها عليكم، ألا! وإن أهل الري وأصبهان وأهل همذان وأهل نهاوند أمم مختلفة ألوانها وأديانها، ألا! وإنهم تعاقدوا وتعاهدوا على أن يسيروا إليكم فيقتلوكم، ألا! هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا! فأشيروا عليَّ برأيكم"، وكان عمر قد عزم أولاً على الخروج بنفسه فأثناه الصحابة عن هذا فقال: "أشيروا عليَّ برجل أولِّيه ذلك الثغر وليكن عراقيًا!" فقالوا: "أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك". فقال: "والله لأولين الراية غدًا رجلاً يكون لأَوَّلُ الأسنةِ يلقاها".

فتهافت الصحابة ليعرفوا مَنْ الرجل؟ فأجاب عمر بمنطق الواثق: "إنه النعمان بن مقرن المُزَني". واستحسن المسلمون الرأي فقد كان لا يخفي قدر الرجل عنهم.

فأمده عمر بثلاثين ألفًا من بينهم أبطال المسلمين كالزبير بن العوام وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والقعقاع وقيس بن مكشوح وطليحة بن خويلد ﷺ، وكتب عمر إلى أهل الكوفة يستحثهم على الجهاد فقال: "سلام عليكم! أما بعد فقد استعملت عليكم النعمان بن مقرن المُزَني، فإن قُتل فعليكم حذيفة بن اليمان فإن قُتل فعليكم أبو موسي الأشعري فإن قُتل فعليكم بجرير بن عبد الله البجلي فإن قُتل فالمغيرة بن شعبة".

وأمر النعمان أن يسير بثلثي أهل الكوفة ويستعين بأهل البصرة، فسار المسلمون حتى بلغوا نهاوند وكان الفرس قد أعدُّوا لهم بها جيشًا كثيفًا والتقى الجيشان واشتد

القتال وانكشف مُجَنَّبَةُ[١] المسلمين اليمني أمام جموع الفرس الهائلة في اليوم الأول واستمر القتال لليوم التالي وفيه بذلت الميمنة جهدًا خارقًا حتى ثبتوا واستعادوا أماكنهم.

ثم هاجم الفرس الميسرة فانكشفت واستمات المسلمون حتى ثبتت المُجَنَّبَتين وشدَّ عليهم المسلمون فكسروهم كسرة منكرة وتزلزلت أقدام الفرس أمام أبطال المسلمين وفرُّوا هاربين وتحصنوا بالخنادق والأسوار فحاصرهم المسلمون بها إلى يوم الجمعة وعجز المسلمون عن اقتحام هذه الحصون لمنعتها ففكر النعمان في وسيلة لاقتحامها.

ويروى الطبري في تاريخه أن النعمان لما انتهي إلى حصونهم في نهاوند بجيشه طرح له الفرس حسك الحديد[٢] وكان قد بعث عيونًا فساروا فزجر بعضهم فرسه فدخل في حافره حسكة فلم يبرح فترل فإذا الحسك فأقبل بها وأخبر النعمان فرأي النعمان أن يخرج إليهم ثم يتأخر كأنه هارب فيخرج الفرس في طلبه فيفتحوا أبوابهم فينقض عليهم المسلمون وكانت هذه خطة النعمان لاقتحام الحصن وأسند تنفيذها إلى القعقاع بن عمرو في كتيبة من جيشه فخرج إلى حصونهم فناوشهم عند حصنهم ثم تراجع أمامهم فطمع الفرس وكنسوا الحسك وخرجوا لمطاردتهم وكان جيش النعمان من ورائهم مموهًا مختبئة فرماهم الفرس بالرماح واستتر المسلمون بالتروس لا يتحركون حتى أكثروا فيهم الجراح وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك فأمرهم بالثبات وعدم التحرك إلا بإذنه.

وكان النعمان قد خطبهم فجعل يأتي راية راية يحرضهم على القتال ويقول: "الله الله في الإسلام أن تخذلوه، فإنكم باب بين المسلمين وبين المشركين، فإن كُسِرَ هذا الباب دخلوا على المسلمين"، وأمرهم بالتزام مواقعهم وألا يقاتلوا حتى يأذن لهم،

---

(١) المجنبة: جناح الجيش.

(٢) حديد يُصنع على مثل الحسك والحسك نبات شائك وهو يوضع حول العسكر وينثر على الأرض في طريق الخيل ليعلق بها.

ثم قال: ''أيها الناس إني هازٌّ لكم الراية مرة فليتعاهد الرجل الخيل في حزمها وأعنتها، ألا! وإنِّي هازٌّ لكم الثانية فلينظر كل رجل منكم إلى موقف فرسه ومضرب رمحه ووجه مقاتله، ألا! وإني هازٌّ لكم الثالثة ومكبر فكبِّروا الله واذكروه، ومستنصر فاستنصروه، ألا ! فحامل فاحملوا، فقال رجلٌ: قد سمعنا مقالتك وحفظنا وصيتك فأخبرنا بأي النهار يكون ذلك حتى يكونوا على آلة وعدة، قال النعمان: ''ليس يمنعني أن يكون ذلك من أول النهار إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار، ولم يَعْجَل بالقتال حتى تزول الشمس[1] وتهبُّ الرياحُ ويطيب القتال وتحضر الصلاة ويترل النصر من السماء مع مواقيت الصلاة في الأرض'' ثم قال: ''إن قُتلت فلا يلوى عليَّ أحد[2]، وإني داعي الله بدعوة فأمنوا''، ثم قال: ''اللهم ارزقني الشهادة بنصر المسلمين والفتح عليهم''، فأمَّن القوم.

ومكث المسلمون ينظرون إلى الراية ويراعونها حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء هز النعمان الراية هزَّة فانتزعوا المخالي عن الخيول وقرَّطوها الأعنة[3]، وأخذوا أسيافهم بأيمانهم والأترسة بشمائلهم، وصلى كل رجل منهم ركعتين يبادر بهما، ثم هز النعمان الراية الثانية، فوضع كل رجل منهم رمحه بين أذني فرسه، وجعل كل رجل يقولُ لصاحبه: ''أي فلان! تنح عني، لأوطئك بفرسي، إني أرى وجه مقاتلي، إني غير راجع إن شاء الله حتى أُقتل أو يفتح الله عليَّ''، ثم هزَّ الراية الثالثة فكبرَّ فجعل الناس يكبرون الأول، فالأول الأدنى، فالأدنى وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى أن أرجلهم كانت تخفق في الرُّكَب، فلم يستطع منهم أحد أن يوتر قوسه وكان الفرس قد شدُّوا أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا، فحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد وقاتل النعمان كالأسد الهصور، وتعالى قرع السيوف يصم الآذان ورُمى النعمان بسهم فسقط وقد تشبث بالراية فأمسكها وطعن بها مشركًا حتى تلطخت بدمائهما.

(١) وقت الزوال هو الظهر.
(٢) لا ينكبُّ على أحد.
(٣) ربطوها في أعنة الخيل.

ونال الشهادة فكان أول قتيل يومها فلفَّه أخوه سويد بن مقرن في ثوبه وكتم خبر موته ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان ففتح الله على المسلمين .

قال جبير: فوالله ما علمتُ من المسلمين أحدًا يومئذٍ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا فما كنا نسمعُ إلا وقع الحديد على الحديد فلما رأوا صبرنا وأنا لا نبرح العرصة[1] حتى انهزموا فجعل يقع الواحد منهم عليه سبعة بعضهم على بعض في قيادُ فيقتلون جميعًا وجعلوا يعقرهم حسك الحديد الذي وضعوه خلفهم[2].

وقُتل ذو الحاجب وعدد كبير من جند الفرس وفر "الفيرزان" ولم تقم بعدها للفرس قائمة لذا سُمي هذا اليوم "فتح الفتوح". وتسامعت المدينة بأخبار النصر ففرح عمر بن الخطاب ﷺ وحمد الله تعالى ولما بلغه خبر النعمان حزن عليه وبكاه حتى علا نحيبه وقال: "يرحم الله النعمان- ثلاثًا"[3].

ودفن هناك في موضع يقال له الأسفيذهان[4].

---

(١) العرصة: الساحة.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تاريخه.

(٣) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان.

(٤) موضع بالعراق دفن به النعمان وعددًا من الصحابة والتابعين كطليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب.

عبد الله بن الزبير ﷺ

عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد، أول مولود مسلم يولد بالمدينة. أبوه الزبير ابن العوام حواري الرسول ﷺ وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضي الله عنها وعن أبيها.

عُرف بالشجاعة والجرأة منذ نعومة أظفاره فكلنا يذكر قصة الفتى الذي كان يلهو مع الصبية ببضع تمرات فلما مرَّبهم عمر بن الخطاب ﷺ فرَّ الجميع وثبت عبد الله وحده فعلم عمر أنه سيكون له شأن. وقد تربَّى على الشجاعة والفروسية منذ عهده الأول.

فعن هشام بن عروة بن الزبير ﷺ قال: ''كان أول ما أفصح به عمي عبد الله بن الزبير وهو صغير: السيف فكان لا يضعه من يده فكان الزبير ﷺ يقول له: ''والله ليكونن لك منه يوم وأيام''[1].

جاهد صغيرًا مع النبي ﷺ وشهد كثيرًا من المشاهد، وله بطولات عظيمة في فتوح مصر وشمال إفريقيا. وفي معركة إفريقيا كان عمره سبعه وعشرين عامًا، وكان المسلمون عشرين ألفًا يواجهون نحو مائتي ألف من الروم والبربر، وفي معركة شرسة وقتال مرير دارت رحى الحرب على المسلمين وكادوا أن يهزموا لكثرة أعداد عدوهم وشجاعة جرجيروس (جُرجير) الذي كان يحارب بنفسه بجرأة وشجاعة يحمس جنده ويبث فيهم روح الفداء وكانوا يدافعون عنه ببسالة.

ونظر عبد الله بن الزبير بفطنته وقدَّر أن هذه المعركة لن تُحسم إلا بقتل هذا القائد العنيد الذي يكتظ حوله جنده كالغابة، ويقول عبد الله بن الزبير: ''رأيت غَرة

---

(١) الكامل لابن الأثير.

من جرجير: بصرت به بخلف عساكره على برذون[١] أشهب معه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس وبينه وبين جنده أرض بيضاء ليس بها أحد، فخرجت إلى ابن أبي سرح فندب لي الناس فأخذتُ منهم ثلاثين فارسًا وحملت في الوجه الذي رأيت فيه جرجير وقلتُ لأصحابي: "احموا لي ظهري فوالله ما نشبتُ[٢] أن خرقت الصف إليه فخرجت صامدًا له[٣]، وما يحسب هو ولا أصحابه إلا أني رسولٌ إليه، حتى دنوت منه فعرف الشر، فوثب على برذونه وولي مدبرًا فأدركته ثم طعنته فسقط ثم ذففتُ[٤] عليه بالسيف ونصبتُ رأسه على رمح وكبَّرتُ وحمل المسلمون فأرفض أصحابه من كل وجه، وركبنا أكتافهم[٥]"[٦]. وهكذا انتصر المسلمون وقهروا عدوهم بفضل شجاعته وحسن تصرفه.

لقد تربي عبد الله على الإسلام وإخلاص العبادة ويقول مجاهد: "لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير ولقد جاء سيل طبق[٧] البيت فجعل ابن الزبير يطوف سباحة، وكان إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تظنه حائطًا لسكونه وطول سجوده"[٨].

وكانت أبرز مواقفه في تمسكه بالحق ما أظهره من بطولة وشجاعة خارقة بتصديه ليزيد بن معاوية ورفضه مبايعته وكان يقول: "والله! لا أبايع السِّكير أبدًا". فقد كان يزيد معاقرًا للخمر لا يرعى حرمة لمسلم ولا دين. ورفض ابن الزبير مصالحته ومهادنته فكان يقول: "والله! لضربةٌ بسيف في عز أحب إليَّ من ضربة بسوط في ذل"، وأنشد يقول:

(١) البرذون: الحصان الهجين ليس بعربي.
(٢) ما لبثت.
(٣) صمد: ثبت.
(٤) ذفف عليه: أجهز عليه وقتله.
(٥) أي هزمناهم.
(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(٧) طبق به: أحاط به.
(٨) الكامل لابن الأثير.

ولا ألـــينُ لغـــير الحـــق أســـأله   حتى يلينُ لضرسِ الماضـــغ الحجـــرُ

ثم دعا ابن الزبير إلى نفسه بالخلافة عام ٦٤هـــ عقيب موت يزيد بن معاوية فبايعه أهل الحجاز واليمن ومصر وبعض الشام والبصرة والكوفة وخراسان وخلافته صحيحة[١] وقد دامت نحو تسع سنين حاربه خلالها آل أمية وكانت بداية المواجهة مع يزيد بن أبي سفيان الذي كانت له الشام وكان يحوز القوة والسطوة فوجَّه إليه يزيد جيشًا جرارًا من أهل الشام أمَّر عليهم مسلم بن عقبة المزي فدخل المدينة في وقعة الحَرَّة المشهورة فقتل عددًا كبيرًا من خيرة الصحابة والتابعين والفقهاء وعبث فيها وأفسد وأسرف في القتل وكان ذلك على بعد أميال قليلة ''من مسجد رسول الله ﷺ.

ثم مات يزيد بعد هذه الواقعة بقليل فخلفه مروان بن الحكم ﷺ[٢] فما لبث أن مات فخلفه عبد الملك ابنه، وما إن تولى عبد الملك بن مروان الخلافة حتى صعد المنبر وقال: ''من لابن الزبير منكم؟''، فقال الحجاج بن يوسف الثقفي[٣]: ''أنا يا أميرَ المؤمنين!'' ثلاثًا- وقال: ''إني رأيت في النوم أني انتزع جُبته[٤] فلبستها''. فعقد له جيشًا قوامه ألفين أو ثلاثة آلاف من أهل الشام وسيَّره إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكتب معه أمانًا له ولمن معه إن أطاعوا.

فسار الحجاج في جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين (٦٩١م) فحاصر ابن الزبير واستأذن الخليفة عبد الملك بن مروان في دخول الحرم فلما أنكر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وذلك لأن موسم الحج كان قد دخل، أذعن عبد الملك فكفَّ ثم عاد بعد موسم الحج فتأهب لدخوله، وكان ابن الزبير يقول لأهل مكة: ''احفظوا هذين

---

(١) هو أول من ضرب الدراهم المستديرة نقش على وجهيها محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل.
(٢) كانت له صحبة.
(٣) الحجاج بن يوسف الثقفى قائد داهية دموى ولد عام ٤هـ (٦٦٠م) بالطائف انتقل إلى الشام وكان في جملة جند روح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان ثم ترقى في المناصب حتى قلده عبد الملك أمر عسكره وسيره إلى عبد الله بن الزبير فقتله ثم ولاه مكة والمدينة والطائف ثم تولى العراق عشرين عامًا. ومات بواسط عام ٩٥هـ (٧١٤م).
(٤) الجُبَّة: ثوب سابغ واسع الكمين يُلبس فوق الثياب.

الجبلين(١) فإنكم لن تزالوا بخير أعزة ما لم يظهروا(٢) عليهما، فلم يلبث أن ظهر الحجاج ومن معه على جبل أبي قبيس ونَصَبَ عليه المنجنيق وكان الحجاج يضع فيه الحجارة بيده وكانت الحجارة تقع بين يدي(٣) ابن الزبير فلا ينصرف وطال الحصار وأحكم الحجاج قبضته على مكة ومنع عن أهلها الطعام والشراب واستمر هذا الحال قرابة ستة أشهر. فعانى الناس أشد العناء واستسلم عدد كبير من جيشه بلغ نحو عشرة آلاف خرجوا إلى الحجاج بالأمان من بينهم ابني عبد الله ابن الزبير وهما خُبيب وحمزة، فدخل ابن الزبير على أسماء أمه ﷺ فقال لها: "يا أماه خذلني الناس حتى ولدىَّ وأهلي"، فقالت: "يا بني! أنت أعلم بنفسك إن كنتَ تعلم أنك على الحق وتدعو إلى الحق فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، وإن كنتَ تعلم أنك أردت الدنيا، فبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك ومن قُتل معك". فقال: "يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثّلوا بي ويصلبوني"، قالت: "يا بني! إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامضِ على بصيرتك واستعن بالله"، فقبَّل رأسها وقال: "هذا رأيي والذي خرجتُ به دائبًا إلى يومي هذا ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أصبتُ الحياةَ فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله، وأن تُستَحَلَ حرماته، ولكني أحببت أن أعلمَ رأيكِ فقد زدتني بصيرة، فانظري يا أماه! فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلِّمي الأمرَ إلى الله! فإن ابنك لم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلمٌ عن عمالي فرضيتُ به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني وأقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني"، فقالت أمه: "لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرتَ سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك!". فقال: "جزاكِ الله خيرًا"(٤).

وروي عروة بن الزبير قال: لما كان الغداة التي قُتل فيها ابن الزبير دخلت عليه أمه فقالت لابنها: "يا عبد الله! ما فعلتَ في حربك؟" قال: "بلغوا مكان كذا

(١) أحدهما أبو قبيس.
(٢) ظهر على الشيء: اعتلاه.
(٣) أمام.
(٤) الكامل لابن الأثير وحياة الصحابة للكندهلوي.

وكذا''، وقال إن الموتَ لراحة''، قالت: ''يا بني! لعلك تتمناه. ما أحبُّ أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك: إما أن تملك فتقر بذلك عيني وإمَّا أن تُقتل فأحتسبك''[1]. واقتربت منه تعانقه فأكبَّ عليها يقبلها وهى عمياء لا ترى فأَخَذَتْ تتحسسه وتقول: ''يا بني! ما هذا الذي تلبسه- تقصد درعه؟ ما هذا لباس من يريد الشهادة، انزعه عنك! فهو أقوي لوثبتك وأخفُّ لحركتك، والبس بدلاً منه سراويل مضاعفة حتى إذا صُرعتَ لا تنكشف عورتك!''، فنزع درعه وشد سراويله وقال: ''لا تَدَعِي الدعاء لي يا أماه!''. قالت: ''لا أدعه لك أبدًا''، ثم قالت: ''اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبرَّه بأبيه وبي! اللهم قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين!'' فخرج وهو يرتجز:

إني إذا أعــــرفُ يـــــومي أصـــــبرُ ... وإنمــــا يعــــرفُ يومَــــهُ الحــــرُّ

إذ بعضهم يعرفُ ثم ينكرُ فلما سمعته قالت: ''تصبرُ إن شاء الله، أبواك أبو بكر والزبير وأمك صفية بنت عبد المطلب وأسماء''، ثم انطلق في قتال مرير غير متكافئ فحمل[2] على أهل الشام حملة منكرة فقتل منهم ثم انكشف هو أصحابه، فقال له بعض أصحابه: ''لو لحقتَ بموضع كذا''، قال: ''بئس الشيخ أنا إذًا في الإسلام لئن أوقعت قومًا فَقُتِلوا ثم فررتُ عن مثل مصارعهم''.

وجعل الحجاج على أبواب المسجد رجالاً من أهل كل بلد فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة ولأهل الأردن باب الصفا ولأهل فلسطين باب بني جُمَح ولأهل قنسرين باب تميم، وكان الحجاج واقفًا بناحية الأبطح إلى المروة يقود رجاله، وكان ابن الزبير يحمل في هذه الناحية مرة، ومرة في هذه

(١) رواه الطبراني، وأبو نعيم في الحلية والحاكم في المستدرك وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب.
(٢) حَمَلَ عليه: هاجمه.

الناحية كأنه أسد في أجمة[١] ما يقدم عليه الرجال، يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم.

وعن أبي إسحاق قال: "أنا حاضر قتل ابن الزبير رضي الله عنهما يوم قُتل في المسجد الحرام، فجعلت الجيوش تدخل من باب المسجد، فكلما دخل قوم من باب حمل عليهم وحده حتى يخرجهم"[٢]. ولما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير غضب وترجَّل[٣] وأقبل يسوق الناس ويصمد بهم، فتقدم ابن الزبير فضاربهم فانكشفوا وعرج فصلى ركعتين عند المقام فقتلوا صاحب رايته وصارت الراية في أيدي أصحاب الحجاج، فلما فرغ من صلاته تقدَّم فقاتلهم بغير راية، وقتل منهم ثم حمل عليهم حملة بلغ بها الحجون.

وروي ابن إسحاق قال: "فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت شرفه من شرفات المسجد فوقعت على رأسه فصرعته وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أسمـــــاءُ إن قُتلـــــتُ لا تبكـــــيني   لم يبـــــقَ إلا حَسَـــــبي وديـــــني

وصارم لانت بـــه يمـــيني[٤]

وقيل رُمي بآجرة[٥] فأصابته في وجهه فأرعش لها ودمي وجهه فلم تمنعه إصابته عنهم فقاتلهم قتالا شديدًا فتعاودوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وسنُّه ثلاث وسبعون سنة، قيل قتله- أي أجهز عليه- رجلٌ من مراد وحمل رأسه إلى الحجاج. فقال أحد قادة الحجاج: "ما ولدت النساء أذكر[٦] من هذا!" فقال الحجاج: "أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟" قال: "نعم. إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا".

---

(١) الأجمة: الغابة ذات الشجر الملتف الكثيف.
(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم والهيثمي.
(٣) نزل عن فرسه.
(٤) رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والهيثمي في مجمع الزوائد.
(٥) الحجر الجيري.
(٦) أكثر رجولة.

فبلغ كلامهما عبد الملك فصوبَ رأي القائد على الحجاج، وكان قد أُرسل رأسه إلى عبد الملك بن مروان وصُلب جثمانه بغير رأس على الثنية اليمنى بالحجون فمر عليه ابن عمر رضي الله عنهما وهو مصلوب، فقال: ''رحمك الله أبا خبيب! إنك كنتَ صوامًا قوامًا''. وقد وصف مشهده أحد الشعراء:

كـــالطود الشـــامخ في الحجـــون علــــوٌ في الحيـــاة وفي الممــــات
بحق إن أنت إلا احدي المكرمـــات كأنـــك واقـــف فـــيهم خطيبًـــا

وقـــد وقفـــوا قيامًـــا للصـــلاة

ثم ذهبت أسماء فوقفت أمام جثمانه تتلمسه فجاءها رسول الخليفة عبد الملك فقال لها: ''يا أماه إن أمير المؤمنين أوصاني بك خيرًا فهل لك من حاجة؟'' فصاحت: ''لست لك بأم! أنا أم هذا المصلوب وعند الله تجتمع الخصوم''. فتقدم إليها ابن عمر مواسيًا معزيًا.

وكان ابن الزبير ﷺ قبل قتله بقي أيامًا يستعمل الصبر والمسك والصوم لئلا ينتن عندما يُصلَب فلما صُلبَ ظهرت منه رائحة المسك فقيل إن الحجاج صلب معه كلبًا ميتًا حتى يغلب على ريحه[1].

وذكر مسلم في صحيحة أن عبد الله بن الزبير صُلب وأُلقى في مقابر اليهود وأرسل الحجاج إلى أمه يستحضرها[2] فلم تحضر فأرسل إليها: ''لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك ''[3]، فلم تأته فقام إليها، فلما حضر قال لها: ''كيف رأيتني فعلتُ بعبد الله؟'' قالت: ''رأيتُ أفسدتَ على ابني دنياه وأفسد عليك آخرتك، أما إنَّ رسولَ الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذَّابًا ومُبيِّرًا[4]، فأما الكذاب فقد رأيناه- يعني

---

(١) الكامل لابن الأثير.
(٢) يطلب حضورها.
(٣) أي ضفائرها.
(٤) بار أي هلك والبور الهلاك.

المختار الكذاب[١]- وأما المبير فأنت هو''[٢].

ولما سمع عبد الملك بما جرى من الحجاج أرسل يلومه وأمره أن يسْمح لأمه بدفنه.

أما الحجاج فبعد أن دخل مكة أخذ البيعه لعبد الملك بن مروان واستعمله عبد الملك على مكة والمدينة فدخل المدينة وأقام بها شهرًا أو شهرين فاستخف بأهلها وأساء إلى جماعة من الصحابة كأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد ﷺ، وقال في مدينة رسول الله ﷺ قولاً عظيمًا فلما بلغ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قوله، قال: ''إن وراءه ما يسوءه، قد قال فرعون ما قال ثم أخذه الله بعد أن أنظره''.

---

(١) هو المختار بن عبيد الله بن مسعود الثقفي ادعى النبوة وثار على ابن الزبير بالكوفة وقد قتل عام ٦٧هـ.
(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحة.

قُتَيْبَة بن مسلم

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة، الباهلي. واحد من أبطال المسلمين وكبار الفاتحين. حاز نصيبًا وافرًا من الحزم والدهاء والشجاعة وعلو الهمة وحسن الرأي، كما ورث عن أبيه مسلم أهم صفاته وهى الأمانة لذا كان يسمي قتيبة الأمين ابن الأمين[1].

ولد عام ٤٩هـ ولاه عبد الملك بن مروان الري ثم في عهد ابنه الوليد ولاه الحجاج خراسان سنة ست وثمانون من الهجرة (٧٠٥م) ورغم أن الرجل ظل يمتلك زمام الحكم طيلة عشر سنين دون منازع، إلا أنه كان يشعر أنه لم يخلق للولاية والمناصب ولكنه خُلق ليكون مقاتلاً فقد ملأ عليه حب الجهاد والرغبة الشديدة في نشر دين الله كل خلجات نفسه. فقد كان يمتلك في داخله مقومات قائدًا فذًا من قوة العزيمة والصلابة بما تعجز عن تحمله الجبال، فلم يثنه شيءٌ عن هدفه ولم تعجزه المناصب ولم تقعده عن أداء دوره الذي مَلَكَ عليه كل جوارحه فكان لا يري عملاً يفضل الجهاد، فترك الراحة والقصور ليغزو في سبيل الله فخرج يغزو بجنده فقهر الملوك وفتك بالجيوش. (أنظر خريطة رقم (١٥)) .

خرج قتيبة على رأس جيشه من خراسان[2] ففتح بلخ[3] صلحًا ثم فتح بيكند أدنى مدن بخاري[4] على نهر جيحون سنة سبع وثمانون من الهجرة (٧٠٥م) وبعد أن دخلها استنصر أهلها عليه فأتاهم جمع كبير حاصروا قتيبة وجيشه فلم ينفذ له رسول شهرين وصمد قتيبة ومن معه في ذلك الحصار وثبت كالطود المنيف.

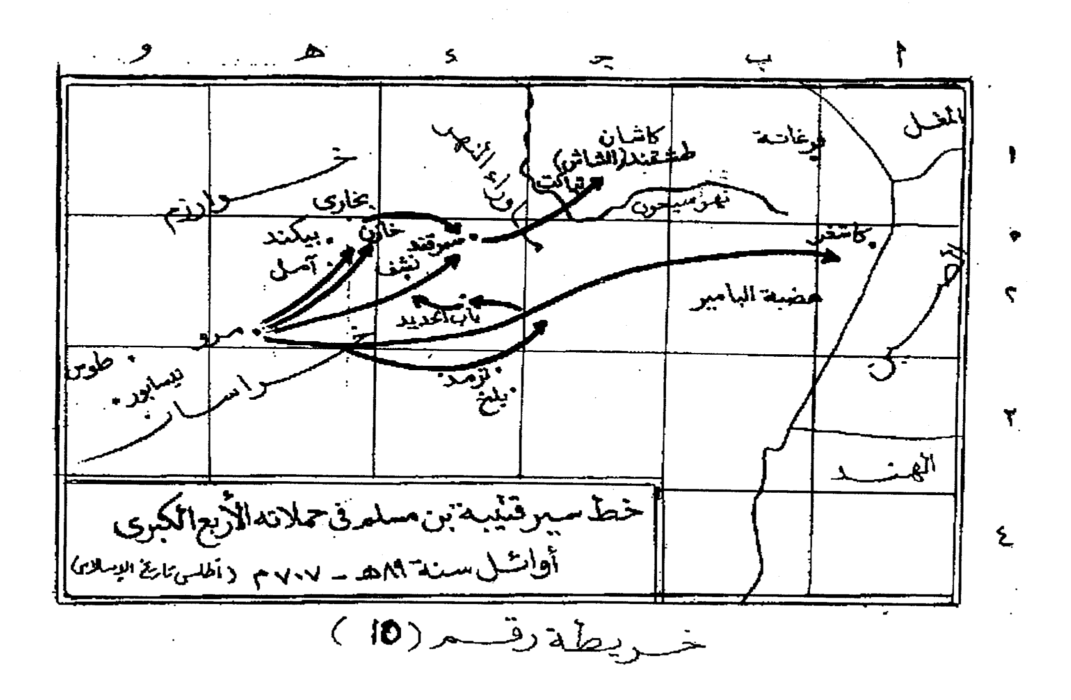
---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير.

(٢) خرسان: بلاد واسعة أول حدودها العراق وآخرها طخارستان والهند وكرمان وأهم مدنها مروونيسابور. (معجم البلدان ٢/٤٠١).

(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخرسان قيل أن أول من بناها لُهْراسف الملك. (معجم البلدان ١/٥٦٨).

(٤) بخاري: بلاد واسعة تقع وراء النهر كانت قاعدة ملك السامانية افتتحها سعيد بن عثمان بن عفان في أيام معاوية ثم تمرد أهلها ففتحها سلم بن زياد في أيام يزيد بن معاوية. (معجم البلدان ١/٤١٩).


خط سير قتيبة بن مسلم في حملاته الأربع الكبرى
أوائل سنة ٨٩هـ - ٧٠٧م (أطلس تاريخ الإسلام)
خوارزم
بخارى
بيكند
آمل
سمرقند
نسف
كش
باب الحديد
ترمذ
بلخ
مرو
طوس
نيسابور
خراسان
ما وراء النهر
كاشان
طشقند (الشاش)
فرغانة
نهر سيحون
كاشغر
هضبة البامير
المغول
الصين
الهند

خريطة رقم (١٥)

ولما أبطأ خبره على الحجاج ساوره القلق وأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد فأنزل الله نصره على جنده بعد أن قاتل المسلمون أشد القتال وانهزم الكافرون وتحصنوا بالمدينة فحاصرهم وأحكم قبضته عليهم فطلبوا الأمان فأمنهم قتيبة وقبل الصلح واستعمل عليهم أحد عماله بينما تحرك بجيشه ليكمل فتوحاته .

فلما انصرف عنهم نقضوا العهد وقتلوا عامله فلما علم بما جري في بيكند عاد إليهم فضرب أسوار المدينة بالمجانيق ودخلها عنوة وقتل كل من كان بها من الجند جزءاً لخيانتهم.

ثم فتح الصغد عنوة وفتح بلاد كرمينية وهى بلدة بين سمرقند وبخاري، ثم فتح بخاري سنة تسع وثمانين من الهجرة (٧٠٧م) بعد قتال عنيف دام يومين متصلين.

ثم غزا مدن خوارزم ثم اتجه إلى سمرقند ففتحها بعد قتال عنيف فدخلها وأحرق أصنامها ودمَّرها فلما رأي أهل هذه البلاد ما جري لمعبوداتهم من تخريب دون أن تدفع عنها الأذى أو حتى تحرك ساكنًا كان ذلك سببًا في كفرهم بأصنامهم ودخولهم الإسلام.

ثم فتح فَرْغانة ثم فتح خجندة على نهر سيحون بعد قتال عنيف، ثم فتح كاشان وبذلك استطاع خلال سبع سنوات أن يفتح بلاد ما وراء النهر كلها.

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يتابع تحركاته ويكاتبه قائلاً: ''اتمم مغازيك! وانتظر ثواب الله!'' .

وفى سنة ست وتسعون من الهجرة (٧١٤م) بدأ قتيبة يفكر في فتح الصين وكان قد بلغ حدودها فعزم وأعدَّ العدة لفتحها ولم يتراجع أو تخور همته عندما علم بموت الوليد بن الملك فأرسل وفدًا إلى ملك الصين يخيره بين الإسلام أو الجزية أو القتال. فقال ملك الصين في كبر وغرور مخاطبًا رسل قتيبة: ''انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف. فإني أعرف حرصه وقلة أصحابه. وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه''.

فقال رسولُ قتيبة: ''كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون- أي الشام- وكيف يكون حريصًا من خلّف الدنيا وغزاك؟! أما تخويفك إيانا بالقتل فإنّا لنا آجالاً إذا حَضَرَتْ فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه''.

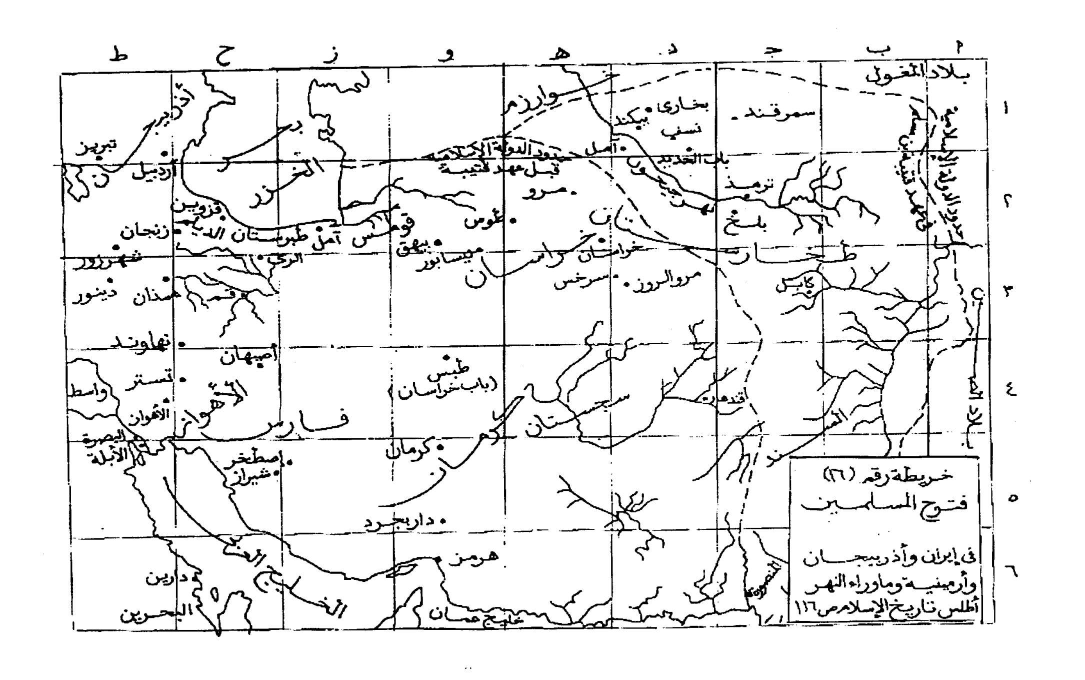
فلما أحس الملك صدق مقالهم وبلغه ما هاله عن قتيبة وجيوشه وعلم أن مسعاه إلى بوار، فأجاب الرسولَ: ''فما الذي يرضى صاحبك؟''، قال الرسول: ''إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويُختِّم ملوككم ويأخذ الجزية''. فقال الملكُ: ''فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختِّمهم ونبعثُ إليه بجزية يرضاها''.

ثم دعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بالحرير والذهب وأرسل أربعة غلمان من أبناء ملوكهم فأبرَّ قتيبة بقسمه وقبل منهم الجزية ثم عاد إلى مرو منتصرًا. (انظر الخريطة رقم (١٦)) .

وبعد هذه الفتوحات الموفقة والانتصارات المذهلة تُرى كيف كانت مكافأة هذا البطل العظيم؟ وهل هذه المكافأة مهما بلغت عظمتها كانت ستكافئ أعماله وتجزيه عن أفعاله؟.. سوف تدهش أيها القارئ ويأخذك العجب كل مأخذ إذا علمت أن مكافأته كانت من سليمان بن عبد الملك[1] خليفة المسلمين هو العداوة والنكران فقد حيكت ضده الدسائس واختلف عليه قواده فقتله وكيع بن حسان أحد قادة جيشه في ذي الحجة سنة ست وتسعين بفرغانه وعمره ثمان وأربعين سنة.. وقُتل مظلومًا وكأن الرجل أبى أن يكون جزاؤه ومكافأته إلا على الله فهو الذي يجزى ويثيب.

---

(١) سليمان بن عبد الملك : خليفة أموي ولد بدمشق عام ٥٤هـ (٦٧٤م) تولى الخلافة بعد موت أخيه الوليد عام ٩٦هـ، كان كثير الفتوحات. توفي بدابق عام ٩٩هـ (٧١٧م).


خريطة رقم (٣٦)
فتوح المسلمين
في إيران وأذربيجان
وأرمينية وماوراء النهر
أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٦
بلاد المغول
بحر الخزر
خوارزم
خراسان
فارس
كرمان
سجستان
طخارستان
الخليج العربي
خليج عمان
سمرقند
بخارى
بيكند
نسف
ترمذ
بلخ
مرو
طوس
نيسابور
مروالروز
سرخس
كابل
قندهار
طبس (باب خراسان)
أصبهان
قم
الري
همذان
دينور
نهاوند
تستر
الأهواز
واسط
البصرة
الأبلة
إصطخر
شيراز
داربجرد
هرمز
دارين
البحرين
قزوين
زنجان
شهرزور
أردبيل
تبريز
آمل
طبرستان
الديلم
قومس
البيهق

لقد ظل هذا البطل في جهاد وقتال طوال ثلاثة عشر عامًا لم تنكس له راية ولم يحجم عن قتال. كان عظيم القدر مرهوب الجانب حتى قال أحد ملوك العجم عندما علم بمقتله: "يا معشر العرب قتلتم قتيبة! ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا".

ولقد صدق الذهبي إذ وصفه فقال: "لم ينل قتيبة أعلى الرتب بالنَّسَبِ، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام وكثرة الفتوح ووفور الهمة"[1]. ورثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي:

كأن أبا حفصٍ قتيبة لم يسر بجيشٍ إلى جيش ولم يعلُ منبرًا
ولم تخفق الراياتُ والجيشُ حوله وقوفٌ ولم يشهد له الناس عسكرًا
دعته المنايا فاستجاب لربه وراح إلى الجناتِ عفًّا مطهرًا
فما رُزِئ الإسلامُ بعدَ محمدٍ بمثلِ أبي حفص فابكيه عبهرًا[2]

اللهم ارحمه! واغفر له! وَوَسِّع له بقدر ما وسَّع رقعة الإسلام وأعز دينك!

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(٢) زوجته أم ولده.

محمد بن القاسم

محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل، الثقفي. من أهل العراق يجتمع مع الحجاج بن يوسف الثقفي في جده الحكم. قائد عظيم وفارس مغوار كما كان شاعرًا مُجيدًا.

ظهرت بوادر نبوغه الحربي وملكات قدرته العسكرية مبكرًا فقد كان مضرب المثل في الإقدام والشجاعة بينما لم يتجاوز بعد السابعة عشر من عمره، لذا فكر الحجاج أن يستعين به على أحد جيوشه .

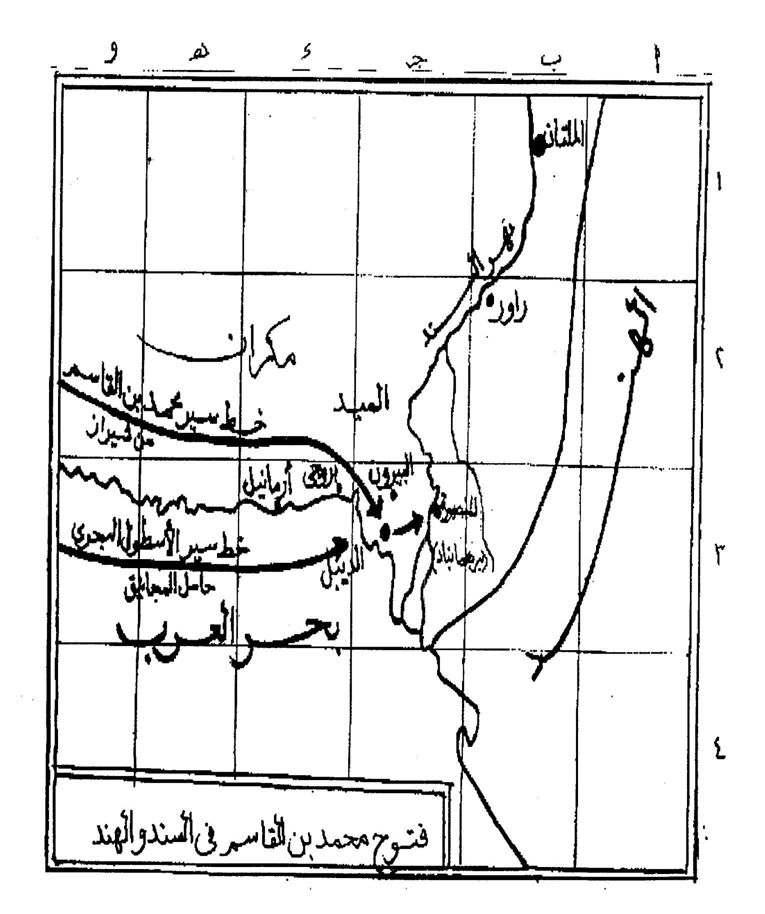
وكان الحجاج قد فكر أن يرسل جيشًا ثالثًا[١] لفتح شبه القارة الهندية. وجهزه بستة آلاف من أهل الشام وأمَّر عليه محمد بن القاسم الذي كانت تتوق نفسه إلى فتح الهند والثأر لما وقع من هزائم في صفوف المسلمين الذين حاولوا فتحها من قبل.

وخرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز عام تسعين من الهجرة (٧٠٨م) برًا في حين كان الحجاج قد أعدًا أسطولاً بحريًا يسير محاذيًا لهم في البحر وكان يحمل خمس مجانيق منها واحد بالغ الضخامة اسمه العروس وسار الجيش والأسطول والتقيا في موضع الديبل[٢]. (انظر الخريطة رقم (١٧).

فأمر محمد بن القاسم فخندقوا بها ونصبوا المنجنيق الضخم، وكان بالمدينة صنم ضخم في بناء عظيم اسمه ''بَدُّ'' وعليه منارة عظيمة مرتفعة وفى رأس المنارة صاري عليه راية حمراء إذا هبت الريح أطافت[٣] بالمدينة وهى تدور. وحاصر المسلمون المدينة وطال الحصار ثم أمر فرموا ''البَدَّ'' بالمنجنيق فكسر فلما رآه أهل المدينة حطامًا خرجوا إليه بسلاحهم فقاتلهم ابن القاسم بجيشه فهزمهم فرجعوا سريعًا منسحبين إلى حصونهم.

---

(١) كان الحجاج قد أرسل جيشه الأول إلى بلاد ما وراء النهر والصين، والثاني إلى أرمينيا.
(٢) الديبل: قرب مدينة كراتشى الحالية.
(٣) أطاف: طاف ودار.فقه٩٧٩٩



(أطلس تاريخ الإسلام، ص ١١٨ - د. حسين مؤنس)

خريطة رقم (١٧)

فأمر ابن القاسم بالسلالم فنصبت وصعد هو وجنده مكبرين وكان أولهم رجلٌ من مراد من أهل الكوفة وبعد قتال دام ثلاثة أيام فتحت المدينة وهرب عامل ذاهر ملك السند عليها، فدخلها محمد بن القاسم فاتحًا وأنشأ بها مسجدًا وخط المدينة وأنزل بها جزءًا من جيشه وجعل يتقدم فلا يمر بمدينة إلا فتحها .

ففتح بيرون وصهبان وسدوستان حتى بلغ نهر مهران فعقد عليه جسرًا ثم اجتازه ليتأهب للمعركة الفاصلة مع ملك السند ذاهر واصطف الجيشان وكانت المواجهة وكان جيش ذاهر ضخمًا يستخدمون فيه الأفيال المدربة وكان الملك ذاهر يركب فيلاً ضخمًا، وكان المسلمون قد اعتادوا على قتال الأفيال فكان القائد المسلم يأمر جنده بضرب خراطيمها كما كانوا يقذفونها بالنفط المشتعل[1] باستخدام المجانيق ففرت الفيلة بعد أن ألحقت بجيش الكافرين خسائر فادحة، وقاتل المسلمون أشدَّ القتال حتى تمكنوا من قتل ملكهم ذاهر عندما أقبل الليل وفي ذلك قال قائله:

الخيلُ تشهد يوم ذاهــر والقنــا[2] ومحمد بـــن القاســـم بـــن محمـــد

إني فرَّجت الجمع غـــير معــرد[3] حتى علــوت عظـــيمهم بمهنـــد[6]

فتركته تحت العجاج[4] مجنــدلاً[5] متعفــر الخـــدين غـــير موســـد[7]

لقد كان الملك ذاهر ظالمًا شديد الجور حنق عليه شعبه فانشقت فئة منهم عليه

---

(١) النفط كان يعرف بالنار الإغريقية نسبه إلى مخترعه المهندس الإغريقي الكلينيكوس الذي اخترعه في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨– ٦٨٥م) وهو مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ قابل للاشتعال وكانت توضع في أنابيب نحاسية لها فم توقد منه ثم توضع هذه الأنابيب في أسطوانة هائلة مستديرة ثم تقذف بالمنجنيق وهى نفس نظرية قاذفات اللهب التي تطورت إلى النابلم (الأنيق في المنجنيق لابن ارتبغا).

(٢) القنا: الرماح

(٣) مُعَرِّد: فار هارب.

(٤) العجاج: الغبار.

(٥) منطرحًا.

(٦) المهند: السيف.

(٧) موسد التراب أي دُفن وقبر.

وحاربته وأعانت المسلمين عليه حتى قُتل وانهزم جيشه وفرَّت فلولهم المنهزمة إلى مدينة "برهما باد" فهاجمها ابن القاسم وفتحها ثم فتح مدينة "راوز" وتقدم حتى الرور ففتحها بعد حصار ثم عبر نهر بيامس ليدخل مدينة الملتان أكبر مدن السند العليا ففتحها ثم فتح مدينة الكيرج سنة خمس وتسعون من الهجرة.

وبذلك بلغ المسلمون حدود الهند وغنم المسلمون أموالاً لا تحصى. وبعد ذلك مات الحجاج والوليد بن عبد الملك فخلفه أخوه سليمان الذي سعى لتصفيه حساباته مع الحجاج بعد موته في شخص أقاربه وقادته فكان ذلك هو قَدَرُ محمد بن القاسم وكانت مكافأته على جليل أعماله وعظيم فتوحاته أن عُزل وجئ به إلى مدينة واسط[1] مكبلاً بالأغلال يديه إلى قدميه مغلولةً إلى عنقه، ولقي بها من صنوف العذاب وألوان الهوان ما يفلُّ الحديد فظل يلقي البلاء صابرًا محتسبًا إلى أن نجح أعداؤه في إلصاق التهم به فأخذ بجرائرها وقُتل مظلومًا.

فحزن عليه أهل السند لما لمسوه فيه من عدل ورحمة وإنصاف فقد كان يقول دومًا لعماله: "أنصفوا الناس من أنفسكم، وإذا كانت قسمة فأقسموا بالسوية، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه".

لقد كان كدأب عظماء الفاتحين المسلمين إنما يفتح الله عليه بحسن خلقه وعدله قبل أن يفتح بسيفه فكان نعم الصورة المشرِّفة للإسلام فينتصر من باب الدعوة كما كان خير قدوة للمسلمين.

رحم الله محمدًا وغفر له على أياديه في نشر دين الله، ولقد صدق فيه قول النبي ﷺ وفى جيشه إذ يقول ﷺ: "عصابتان أحرزهما الله من النار، عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسي بن مريم[2] "[3].

---

(١) واسط: سميت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة. (معجم البلدان ٥/٤٠٠).

(٢) هم من ينحاز بهم عيسى بن مريم بالطور عندما يخرج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

(٣) رواه أحمد في مسنده والنسائي في سننه.

عقبة بن نافع رضي الله عنه

عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر، القرشي الفهري الأموي. أبوه نافع هو أخو العاص بن وائل لأمه. وُلد عقبة في العام الأول قبل الهجرة لكنه لم يلق النبي ﷺ لذا يعد تابعيًا وليس له صحبة.

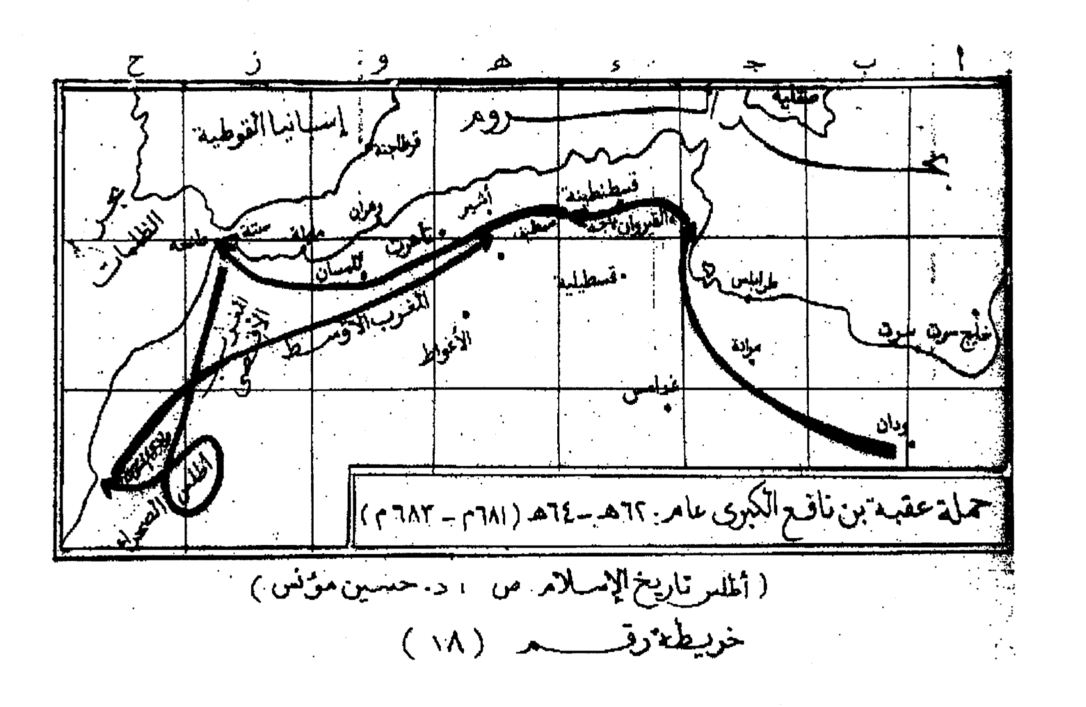
واحد من أعظم المجاهدين وأبرز الفاتحين. شهد فتح مصر، ثم وجهه عمرو بن العاص رضي الله عنه عام اثنتين وأربعين من الهجرة (٦٦٢م) لفتح إفريقيا ففتح برقة وتخوم السودان ثم انطلق شمالاً ففتح القيروان (موقعها تونس الآن) ثم بنى بها مدينة لسكنى جنده عرفت بالقيروان شيدها في الفترة من ٤٩هـ إلى ٥٥هـ (٦٦٩- ٦٧٤م) وعُين واليًا على إفريقيا.

ثم عُزل من منصبه ووُلِّيَ مكانه أبو المهاجر الذي سجنه وبالغ في إهانته، فلما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة عزَّ عليه أن يُساء إلى هذا الفاتح البطل أو أن تُعفى آثاره[1] فعاقب أبا المهاجر، وقرَّب عقبة بن نافع من مجلسه وأكرمه.

ويشاء الله أن يظل هذا السيف حبيسًا في غمده رغم رفع الظلم عنه فلما مات معاوية وخلفه ابنه يزيد رأى أن يستعمله على القيروان وأن يأذن له ليتم فتوحاته التي توقف عنها منذ سبع سنين. (أنظر الخريطة رقم (١٨)) .

---

(١) تُزال وتُمحى.



(أطلس تاريخ الإسلام ص ، د. حسين مؤنس)

خريطة رقـــم (١٨)

فبعثه واليًا على المغرب سنة اثنين وستين (٦٨١م) فعاد إلى القيروان فأصلحها وجدد بناءها ثم اتجه إلى السوس الأدنى ففتحها، ثم اتجه إلى الزاب، ثم تاهرت، ثم انحدر إلى طنجة ومن طريق وعر شديد الحزونة[١] عبر جبال أطلس الوسطى وصل إلى السوس الأقصى، وبذلك جنَّب جيشه المرور بالمدن الساحلية الحصينة وبذلك فاجئ جيش البربر وانقض عليهم بجيشه ففرق جموعهم وهزمهم شر هزيمة وبذلك دان له شمال إفريقيا كله .

فانطلق حتى بلغ مياه المحيط الأطلسي فاقحم فيه قوائم فرسه وبنية صادقة يتمنى في نفسه لو مكَّنه الله من اجتياز هذا البحر اللُجي لَفَتَحَ ما وراءه، ثم انطلق عقبه بجيشه المظفر في طريقه إلى عاصمة ولايته القيروان فلما اقترب من تهوذة[٢] من أرض الزاب[٣] تقدمته العسكر إلى القيروان وبقي في [illegible] قليل من خاصته فأطبقت عليه جيوش الروم والبربر فقُتل وكان موته عام ثلاث وستين (٦٨٢م).

سقط البطل شهيدًا بعد أن مكَّن للإسلام في شمال إفريقيا وهدي الله على يديه خلق كثير من أهل البلاد من البربر فكان منهم أمثال طارق بن زياد.

ثم شاء الله أن ينجزه وعده ويحقق له ما تمني على أيدي من خلفه من جند الإسلام كطارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم ممن نشروا الدين وحملوا رايته ليبلغوا به أقاصي الأرض فتشرق شمس الحق في القلوب وليمكنوا لدين الله تعالى في أرضه.

---

(١) الحزن: الوعر.

(٢) تهوذة: إحدى قبائل البربر بإفريقيا.

(٣) الزاب: تعني في لغة البربر السبخة وهي الأرض الرطبة ذات الملح وهى أرض بالمغرب بها نهر باسمها.

موسي بن نصير

واحد من أعظم القادة العسكريين الذين عرفهم التاريخ، لم يهزم له جيش قط في موقعة دخلها. وهو فاتح الأندلس ومتولي إقليم المغرب ومكمل فتوحاته. ولد في خلافة عمر ابن الخطاب عام ١٩هـ في وادي القرى شمالي الحجاز قيل كان مولي لامرأة من لخم لذا كان يعرف باللخمي، وكان يكني أبا عبد الرحمن.

قال عنه الذهبي: ''كان أعرجَ مهيبًا ذا رأي وحزم''[١]. وكان ولاؤه لبني أمية فقد ولاه معاوية ﷺ غزو البحر فغزا قبرص وبنى حصونًا بها.

وفى أواخر القرن الأول للهجرة شهدت بلاد المغرب اضطرابًا حيث ثارت قبائل البربر على الحكم العربي فأسند أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك إلى قائده موسى بن نصير مهمة قمع الثورة فاشتبك مع البربر في حروب كثيرة كما سيَّر ابنه مروان على جيش فحارب البربر في إحدي الوقائع فأصاب منهم مائة ألف أسير، وبعث أخيه فسبي منهم مثل ذلك، ويقول الفَسَوِي[٢]: ''إنه افتتح بلادًا كثيرة وولي إفريقيا سنة تسع وسبعين (٦٩٨م)''[٣]. (انظر خريطة رقم (١٩)) .

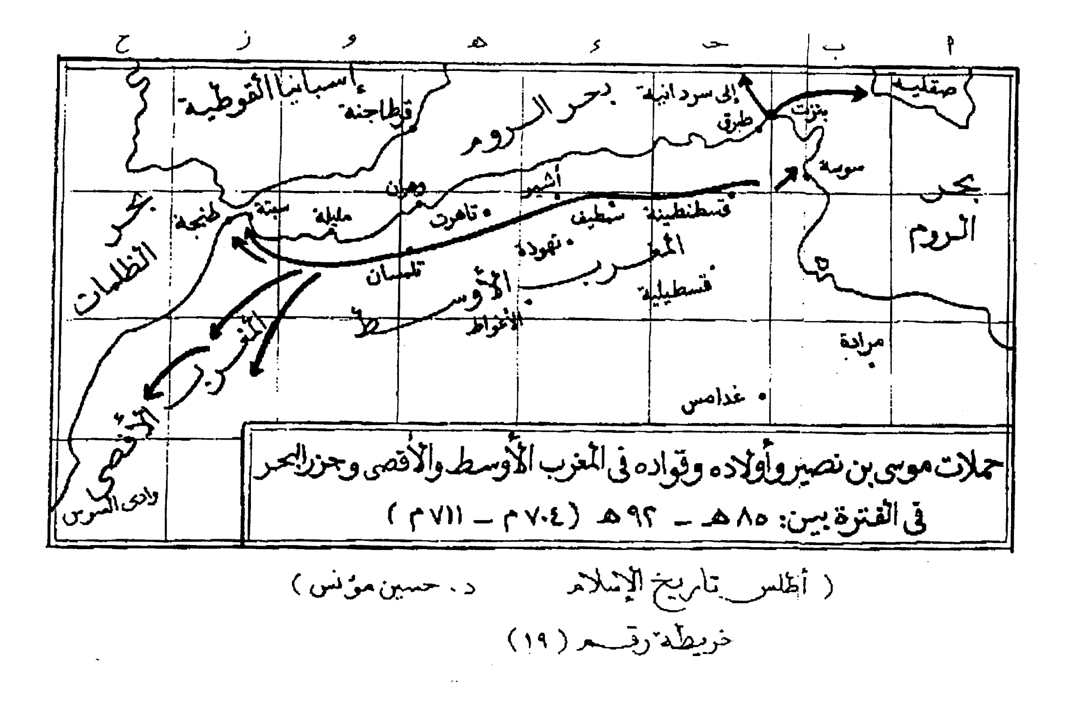
وكان موسي بن نصير نعم الحاكم العادل كان يقيم في الناس بالعدل ويقسم بالسويَّة لا يفرق بين مسلم عربي وأخيه البربري ويأخذ للضعيف الحق من القوى فأحبه الناس ودخل كثير من البربر في الإسلام فدعموا جيوش الإسلام هناك، وبذلك قمع الفتنة ودان له شمال إفريقيا كله.

---

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء.

(٢) يعقوب بن سفيان الفارسي من أهل فسا بفارس من كبار حفاظ الحديث، توفي عام ٢٧٧هـ (٨٩٠م) وأشهر كتبه "التاريخ الكبير". (الأعلام ٨/١٩٨).

(٣) الذهبي في سير أعلام النبلاء.



حملات موسى بن نصير وأولاده وقواده فى المغرب الأوسط والأقصى وجزر البحر
فى الفترة بين: ٨٥هـ - ٩٢هـ (٧٠٤م - ٧١١م)

(أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس)

خريطة رقم (١٩)

ففكر موسي بن نصير فيما كان يرجوه عقبة بن نافع من عبور البحر لذا فقد طمح في فتح بلاد الأندلس[١] فأرسل طريفًا[٢] في سنة واحد وتسعين (٧١٠م) في حملة استطلاعية يستطلع أخبارها فلما أحس بأن الظروف هناك مواتية أرسل من مقر إقامته بالقيروان يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك في فتح إسبانيا فلما أذن له أعدَّ جيشًا وأمَّر عليه مولاه طارق بن زياد فغزا البحر إلى الأندلس فهزم القوط في عدة مواقع وفتح أكثر مدنها ثم رأي موسي بن نصير أن يتحرك على رأس جيش إلى الأندلس فَيُعَجِّل بفتحها ويقضي على أية مقاومة للقوط بها فنزلها موسي بن نصير بجيشه وهزم القوط في كل معركة دخلها معهم . (أنظر خريطة رقم (٢٠)) .

ثم خشي موسي على جيش طارق الذي كان قريبًا من الساحل الجنوبي فتحرك إليه بجيشه فالتقيا في طليطلة حيث انضم الجيشان تحت لواء موسي بن نصير، وزحف الجيش يقوده البطل المظفر موسي بن نصير لفتح الأقاليم الشمالية فانتصر في كل معاركه رغم قوة عدوه وفي احدي هذه المعارك كاد المسلمون أن ينهزموا فتقدم الصفوف ورفع يديه بالدعاء متضرعًا إلى ربه بالبكاء وصدق هو وجنده الحملة وأظهروا فنون الشجاعة والفداء حتى نصرهم الله.

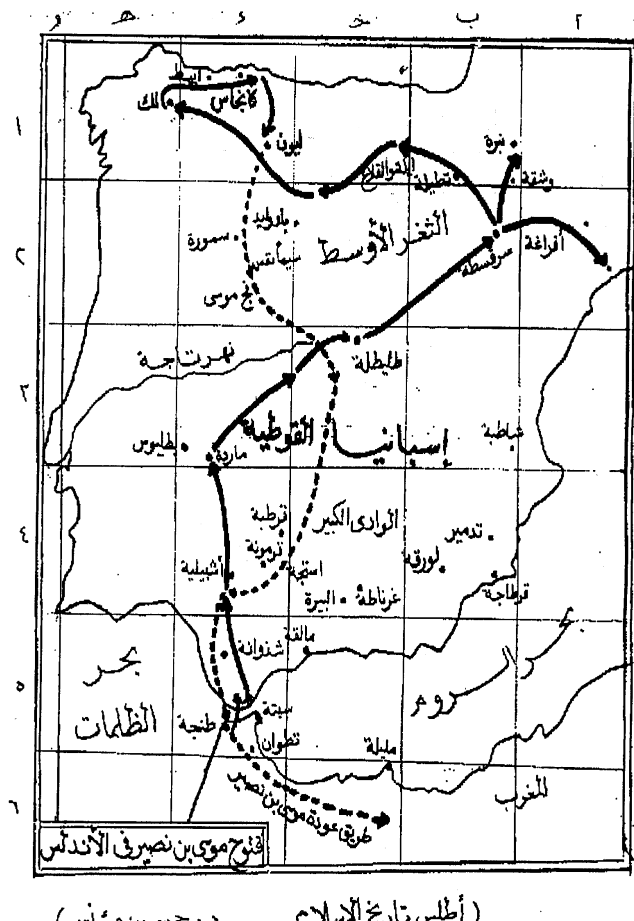
وكان موسي عازمًا أن يجتاز جبال البرانس إلى فرنسا فيفتحها ثم يسير شرقًا في أوروبا فاتحًا حتى يفتح القسطنطينية وكان كلما تمادى في سيره وتنقل في فتوحه يقول لعسكره: ''لو أطعتموني لوصلت إلى القسطنطينية''، وكان يقول: ''والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أوقفهم على رومية ثم ليفتحنها الله على يدي''[٣].(انظر خريطة(٢١) .

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل: "إن أول من سكنها قوم كانوا يعرفون باسم الأندلش (بالشين المعجمة) فسُمي البلد بهم ثم عُرب الاسم بالسين المهملة، وكان النصاري يسمونها إشبانية باسم رجل صُلب بها كان اسمه إشبانس وعند بطليموس أنها باسم ملك كان بها في أول الزمان اسمه إشبان بن طيطس، وقيل سميت باسم أندلس بن يافث، بن نوح عليه السلام وهو أول من عمرها". (٢٦٤/٤).

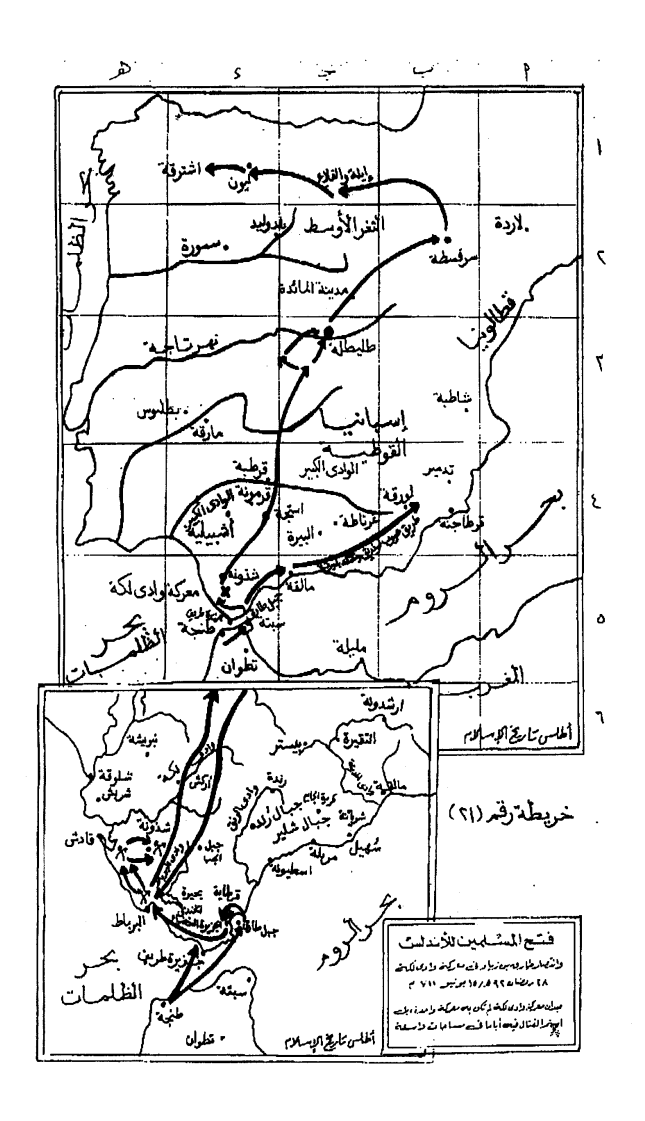
(٢) طريف بن مالك: أحد جند البربر، صاحب أول حملة إسلامية صغيرة لاستكشاف بلاد الأندلس أرسله موسى بن نصير على رأسها فسميت البقعة التي نزل بها في إسبانيا باسمه وقد ظلت أشهر قاعدة بحرية بالغرب حتى سقطت في يد نصارى الغرب عام ٦٩١هـ (١٢٩٢م).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.



(أطلس تاريخ الإسلام   د. حسين مؤنس)

خريطة رقم (٢٠)


فتح المسلمين للأندلس
أطلس تاريخ الإسلام
اشترقة
ليون
سرقسطة
لاردة
الثغر الأوسط
سمورة
مدينة المائدة
طليطلة
شاطبة
بطليوس
ماردة
إسبانيا القوطية
الوادي الكبير
قرطبة
تدمير
أوريولة
قرطاجنة
إشبيلية
استجة
غرناطة
البيرة
شذونة
مالقة
معركة وادي لكة
سبتة
طنجة
تطوان
مليلة
بحر الظلمات
بحر الروم
ارشدونة
بونيشة
شلوقة
شريش
قادش
البرباط
سهيل
جزيرة طريف

خريطة رقم (٢١)

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ قام الخليفة الوليد بن عبد الملك باستدعائه إلى دمشق فاستخلف ولده عبد العزيز على الأندلس، واستخلف ولده عبد الملك على طنجة وسبته وولده عبد الله على إفريقيا فلما دخل دمشق كان الوليد في مرض الموت فمات بعد ثلاثة أيام.

فخلفه سليمان بن عبد الملك الذي عزله وأساء إليه وعامله بما لا يليق بفاتح عظيم مثله فلو أبقاه لكان خيرًا للإسلام واعتزل حياة الحرب والقيادة سنوات .

ويقول الفسوى: ''إنه حج ثم مات بالمدينة سنة ست وتسعين (٧١٥م)''[1]. رحم الله ذلك القائد الفذ الذي قاتل الروم والبربر والفرنج وغيرهم طوال أربعين سنة لم يُهزم فيها قط فكان يقول: ''والله ما هُزمت لي راية قط، ولا بُدِّد لي جمع ولا نُكب المسلمين معي منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغت الثمانين''[1].

رحم الله ذلك المجاهد العظيم الذي أخلص لربه، صدق الله فصدقه الله كان يتجه إليه بقلبه وجوارحه فينصره الله فقد سُئل ذات مرة: ''ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟'' قال: ''الدعاء والصبر''.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي.

طارق بن زياد

واحد من أعظم القادة العسكريين في التاريخ وأعظم الفاتحين المسلمين خلّد التاريخ ذكره فاسمه يتردد على كل لسان ويعرفه أهل الشرق والغرب وهل يجهل أحد ذلك الجبل أو ذلك المضيق الذي يفصل بين إفريقيا وأوروبا ويعرف باسمه.

إنه طارق بن زياد وهو إفريقي الأصل وُلد سنة تسع وأربعين من الهجرة (٦٧٠م) لقبيلة من البربر تدعي نغرة ودخل جميع أهلها في الإسلام. كان مولي لموسي بن نصير الذي جعله أميرًا على طنجة بأقصى المغرب بعد أن فتحها.

تمر الأيام وتتابع السنين لينقضي على موت عقبة بن نافع عشرات من السنين، عقبة ذلك الفاتح العظيم الذي فتح شمال إفريقيا من شرقه إلى غربه حتى بلغ بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) فخاضه بفرسه حتى غاصت به قوائمه وهو يتطلع إلى تلك المساحة المائية الشاسعة مترامية الأطراف التي تنطبق فيها صفحة السماء على الأفق وهو يقول: "يا رب لو أعلم أن هناك أرضًا بعد هذا البحر لعبرته في سبيلك مدافعًا عن دينك ومقاتلاً من كفر بك".

وكأنها صارت أمانة في عنق كل مسلم أمانة يحملونها عنه وعهدًا يلزمون أنفسهم بالمضي في تحقيقه كابرًا عن كابر حتى جاء طارق بن زياد ليكمل المسيرة ويبر بقسم عقبه بن نافع وكأنما هي أمواج متلاطمة لا يقف أمامها شيء تنحسر أحداها لتنطلق الأخرى فتغمر شواطئ الضلال وتطمس معالم الكفر.

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك قد أمر عامله على القيروان موسي بن نصير أن يعدَّ جيشًا لفتح إسبانيا بأقل عدد ممكن من المسلمين فوقع اختياره على القائد الفذ طارق بن زياد لما عهده فيه من حسن القيادة وإخلاص النية لله.

وخرج طارق في سبعة آلاف من البربر وثلاثمائة من العرب في شهر

اثنتين وتسعين من الهجرة (٧١١م) فركب البحر ويذكر ابن الأثير أن طارقًا لما ركب البحر في طريقه لفتح الأندلس غلبته عينه فرأي النبي ﷺ ومعه المهاجرين والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكبوا القسي فقال له النبي ﷺ: ''يا طارق تقدم لشأنك!'' وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد. ونظر طارق فرأي النبي ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشرًا وقويت نفسه وأيقن تمامًا أنه يسعى إلى نصر.

ونزل بجيشه ساحل إسبانيا ففتح الجزيرة الخضراء، ولما بلغ رودريك[1] (لوذريق) ملك القوط بإسبانيا قدومهم، حشد نحو مائة ألف، وتجهز طارق للمعركة وأرسل يستمد موسي بن نصير فأمده بخمسة آلاف لتتكامل عُدَّةُ جيشه اثني عشر ألفًا وخرج لقتال القوط لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين، فلما تراءت الفئتان أحرق سفنه وقيل أحرقها القوط وقام يخطب في جنده خطبته المعروفة: ''أيها الناس! أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. فإن صدقتم الحملة وإلا ففيها قبوركم!'' .

والتحم الجيشان في وادي لكة على ضفاف نهر لكة قرب مدينة شذونة وهي منطقة وعرة المسالك تتخللها الهضاب والتلال استمر القتال فيها ثمانية أيام أبلى فيها طارق وجنده أحسن البلاء، ولما اشتد القتال فكر القائد العبقري في ضرورة إحراز نصر خاطف يحطم قوى خصمه فقال لجنده: ''إني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة[2]، ولا أحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، وإنما أبدأ بنفسي وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه!''.

---

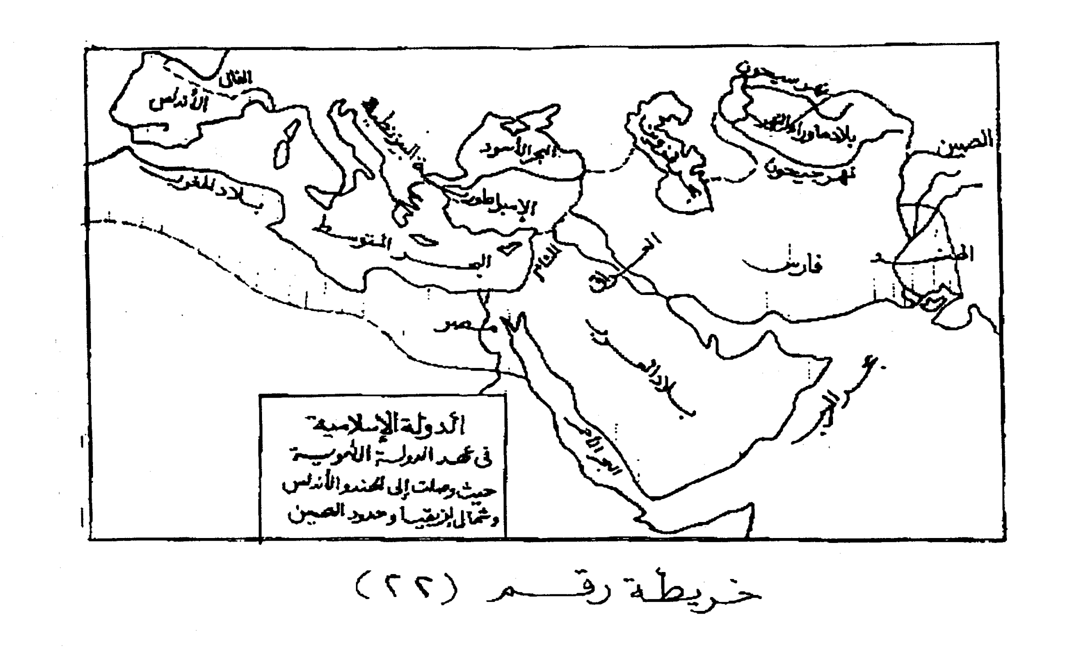
(١) سماه العرب لذريق وذكره الطبري باسم أدرينوق.
(٢) نجاة.

وانطلق طارق يشق صفوف أعدائه فانهزموا وتفرقوا عن ملكهم فلم يجد لنفسه إلا الفرار فتبعه طارق حتى بلغ مدينة لورقة فغرق في أحد الأنهار أثناء فراره.

ثم اتجه طارق بن زياد بجيشه إلى مدينة استجة يتبع فلول المنهزمين فلقيه أهلها بعد أن انضم إليهم المنهزمون فقاتلوه قتالاً شديدًا لكن شجاعة طارق ألهبت حماسة رجاله فانزلوا بالقوط هزيمة ساحقة، ولما سمع القوط بما جرى في لكة واستجة تملكهم الفزع وفروا هاربين إلى عاصمتهم طليطلة وهنا قام طارق بن زياد بتقسيم جيوشه ففتح قرطبة وغرناطة ومالقة وتدمير ثم اتجه بفرقة من جيشه ففتح طليطلة عنوة وغنم كثير من كنوزها ثم اتجه شمالاً ليكمل فتوحه. (انظر الخريطة رقم (٢٢)) .

ووافاه موسي بن نصير بجيوشه في رمضان سنة ثلاث وتسعين بعد أن فتح هو الآخر عدة مدن حيث انتهى دور طارق كقائد ليلعب دوره كمحارب في جيش موسي بن نصير ففتحا في سنتين أغلب مدنها إلى أن أتاهما أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بإستدعائهما إلى دمشق سنة خمس وتسعين (٧١٤م) .

وعاش طارق ست سنوات بالشام ثم انقطعت أخباره فلم يذكر التاريخ عنها شيئًا ابتعد فيها عن حياة الحرب والقتال، وظلت الأندلس طوال ثمانية قرون كاملة تجني ثمار جهد هذا البطل الذي فتحها الله على يديه لتنعم بالتسامح والرخاء في ظل الإسلام.


الدولة الإسلامية
في عهد الدولة الأموية
حيث وصلت إلى الهند والأندلس
وشمال إفريقيا وحدود الصين
الغال
الأندلس
بلاد المغرب
البحر الأسود
الإمبراطورية البيزنطية
البحر المتوسط
الشام
مصر
فارس
الصين
بلاد العرب
نهر سيحون
نهر جيحون

خريطة رقم (٢٢)

أسد بن الفرات

وُلد في نجران سنة مائة وتسع وأربعين (٧٦٧م) ثم صحب والده إلى إفريقيا، وأمضى عشر سنوات في الترحال طلبًا للعلم فزار الحجاز حيث تلقى الفقه من الإمام مالك بن أنس في المدينة، وزار العراق فدرس على محمد بن الحسن ببغداد، وزار مصر فدرس على أشهب بن عبد العزيز[١] .

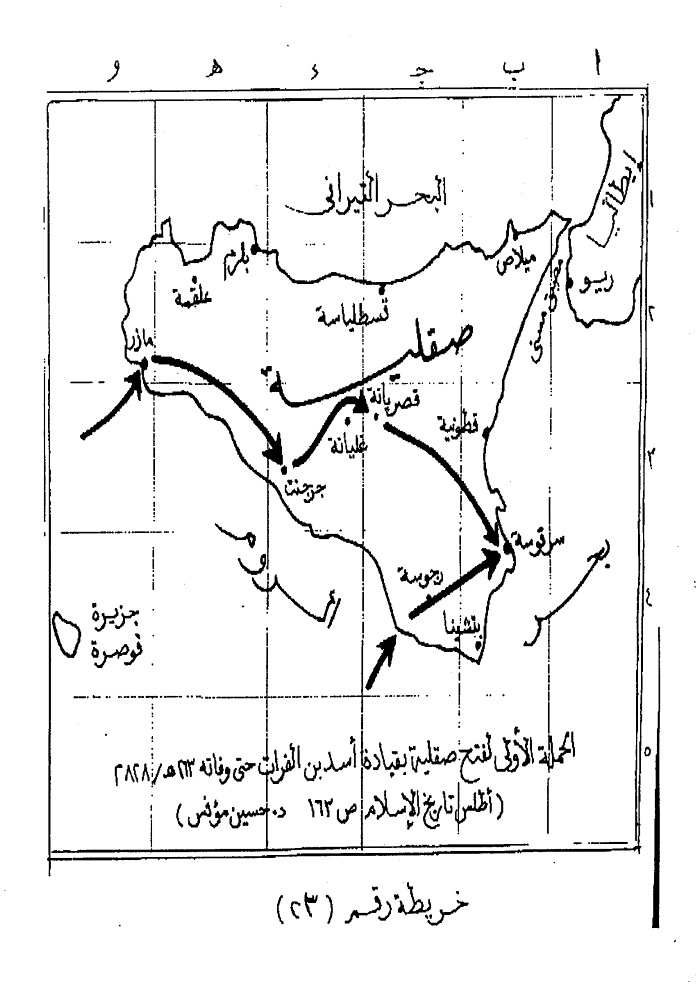
فنبغ في الفقه وعلا شأنه وذاع صيته بين طلابه ووضع مؤلفات عديدة والفقه منها "الأسدية في الفقه" وقد عينه الخليفة في منصب قاضي القيروان لقد كان بحق عالمًا يتقي الله ولا يخاف ذا سلطان ولا يخشى في الله لومة لائم.

ثم تاقت نفسه إلى الجهاد وكأنما أراد أن يبلغ أبواب الخير كلها فيجمع بين العلم والجهاد فعرض نفسه على الخليفة وألح في الخروج للجهاد فلما استبصر من الرجل صدق العزم وإخلاص النيَّة أجازه في طلبه على أن يكون قاضيًا أميرًا ولم تجتمع في إفريقيا لأحد غيره. لقد كان بحق رجلاً مَنَّ الله عليه بنفس كريمة وشخصية عظيمة وعزيمة صلبة لا تلين فلم يقعده عن الجهاد العلم والتعلم ولم يوقفه تقدم سنه ولعلك تعجب يا أخي إن علمت أنه خرج للجهاد وهو يناهز الستين من عمره وكأننا على موعد من عجائب لا تنتهي نلقاها مع هذا الرجل العظيم.

وخرج أسد بن الفرات سنة مائتي وإحدى عشر (٨٢٧م) على رأس أسطول يتجه إلى صقلية لفتحها في عشر آلاف فَرَسًا بجيشه على ثغر مازر غربي الجزيرة، فقاتل الروم بها وهزمهم هزيمة ساحقة وفتح حصونهم. (أنظر خريطة رقم (٢٣)) .

---

(١) أشهب بن عبد العزيز القيسي العامرى: فقيه الديار المصرية، كان من أصحاب الإمام مالك، توفي بمصر عام ٢٠٤هـ (٨١٩م) [تهذيب التهذيب (١ : ٣٥٩) ووفيات الأعيان (١ : ٧٨) والأعلام (٣٣٣/١)].



الحملة الأولى لفتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات حتى وفاته ٢١٣هـ/٨٢٨م
(أطلس تاريخ الإسلام ص ١٦٢ د. حسين مؤنس)

خريطة رقم (٢٣)

ثم فتح جزيرة قوصرة[1]، ثم حاصر سرقوسة بحرًا وبرًا واشتبك مع حاميتها في قتال عنيف شرس وأُصيب وهو يحمل الراية فكان الدم يسيل من جراحه فلا يبالي حتى لا تسقط الراية واستمات عليها فلما أدركه قواده واقبلوه عليه ليحتملوه أبي عليهم إلا أن يقاتل وقال: "هؤلاء عجم الساحل هؤلاء عبيدكم لاتهابوهم"، وحمل عليهم رغم جراحه وحمل من معه حتى هزمهم.

ولقي الشهادة سنة مائتي وست عشرة (٨٣٢م) ثم واصل المسلمون من بعده كفاحهم بتلك الروح التي أشعلها فيهم فدانت لهم الجزيرة كلها ونشروا دين الله بها وظلت تحت سيطرة المسلمين قرنين من الزمان.

١- قوصرة: جزيرة صغيرة تقع بين تونس وصقلية.

هارون الرشيد

هارون بن المهدي بن المنصور، العباسي. خامس خلفاء الدولة العباسية بالعراق وأشهرهم. عُرف بهارون الرشيد، وكان يكنى أبا جعفر، أمه هي الخيزران. ولد بالري[1] سنة مائة وتسع وأربعين (٧٥٦م).

شخصية فذة وقائد بارع نصر الله به الإسلام وأعزه، وهو صاحب شخصية تحمل في طياتها القوة والشجاعة والحزم. لذا كان بحق خير مثال للمسلم القوي وصاحب الصورة المشرفة للإسلام.

تفتحت شجاعته وقدرته العسكرية في سن مبكرة فقد أرسله أبوه الخليفة المهدي على رأس جيش كبير سنة مائة وثلاث وستين من الهجرة (٧٧٩م) لقتال الروم فأنزل بهم هزيمة ساحقة وفى السنة التالية توغل في آسيا الصغرى فافتتح عدة حصون للروم وزحف بجيشه حتى بلغ مضيق القسطنطينية وغنم الكثير من الدواب والسلاح وقُتل من جيش الروم نحو خمسين ألفًا مما اضطر إمبراطور بيزنطة أن يتعهد بأداء الجزية للمهدي أمير المؤمنين لمدة ثلاث سنوات كان قدرها سبعين ألف دينار سنويًا.

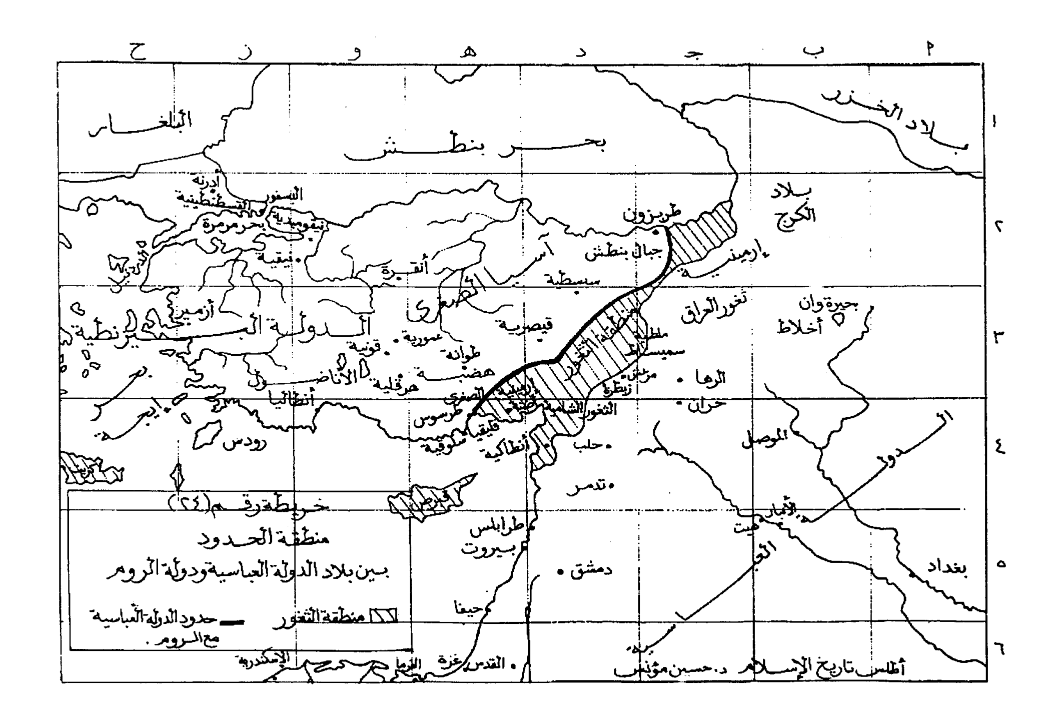
فلما توفي المهدي ما لبث أن نقض "نقفور" إمبراطور بيزنطة العهود ظانًا أنه بموت المهدي ستضيع قوة المسلمين وتذهب هيبتهم. لذا فقد أرسل إلى هارون الرشيد كتابًا يخبره بعزمه عن عدم أداء الجزيه كما أمعن في اجترائه على خليفة المسلمين بأن طالبه برد ما أداه من جزية في السنوات الماضية.

وما إن فضَّ هارون الرشيد الكتاب حتى ملأه الغضب فأمر أن يُكتب على ظهر الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأتُ كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام"[2].(انظر خريطة رقم (٢٤).

---

(١) الري: مدينة مشهورة قديمة بناها فيروز بن يزدجرد بالأجر وعلى جانبها جبل يشرف عليها وقد خُرب معظمها. (معجم البلدان ٣/١٣٢).

(٢) الكامل في التاريخ (٥/٣٣٤).



خريطة رقم (٢٤)
منطقة الحدود
بين بلاد الدولة العباسية ودولة الروم
منطقة الثغور
حدود الدولة العباسية مع الروم.
أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس
بحر بنطش
بلاد الخزر
بلاد الكرج
البلغار
القسطنطينية
بحر مرمرة
نيقية
أنقرة
آسيا الصغرى
الدولة البيزنطية
هضبة الأناضول
قونية
عمورية
قيصرية
سبسطية
طرابزون
جبال بنطش
ارمينية
ثغور العراق
بحيرة وان
أخلاط
الرها
حران
الموصل
طرسوس
الثغور الشامية
أنطاكية
حلب
تدمر
طرابلس
بيروت
دمشق
حيفا
القدس
غزة
بغداد
رودس
قبرص
أنطاليا
هرقلية
طوانة
زبطرة
سميساط
ملطية
مرعش
الإسكندرية

وهكذا كانت عزَّة المسلمين النابعة من عزة هذا الدين الذي أعزنا الله وأكرمنا به مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون: ٨]، فسار إليهم على رأس جيش ضخم سنة مائة وثمان وثمانين (٨٠٣م) فشتت جموع الروم وسحقهم وقُتل منهم أربعين ألفًا، وأصيب نقفور إصابات بالغة.

وفى عام مائة وتسعين (٨٠٥م) عاد فغزا بلاد الروم بجيش جرار قوامه مائة وخمسة وثلاثين ألفًا واخترق آسيا الصغرى وافتتح هرقلية إحدى كبرى مدنهم وغنم ما لا يحصى من السبايا والغنائم فهال ذلك نقفور وتعهد بأداء الجزية صاغرًا، وقال الشاعر:

نقض الذي أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه ... فتحٌ أتاك به الإلهُ كبير
فتح يزيدُ على الفتوح يؤُمنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور

وأنشد أشجع السلمي في فتوحات وانتصارات هارون الرشيد شعرًا قال فيه:

برقتْ سماؤك في العدو فأمطرت ... هَامًا[1] لها ظِلُّ السيوف غمامُ
رَأيُ الإمامِ وعزمُهُ وحُسامُهُ[2] ... جندٌ وراءَ المسلمين قيامُ
وصلت يداك السيفَ حين تعطلت ... أيدي الرجالِ وزلت الأقدامُ
وعلا عدوَّك يا بن عم محمدٍ[3] ... رَصَدَان[4]: ضوءُ الصبح والإظلامُ
وإذا تنبه رُعْتَه[5] وإذا غفا[6] ... سلَّت[1] عليه سيوفك الأحلامُ[2]

---

(١) الهام هي الرؤوس.
(٢) الحسام: السيف.
(٣) إشارة إلى نسبتهم إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.
(٤) الرصد: الطريق.
(٥) راعه: أخافه وأفزعه.
(٦) غفا: نام.

وفى عام مائة واثنتين وتسعين (٨٠٧م) زحف بجيشه على الروم حتى قدم طوس فمرض ومات بها في ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة مائة وثلاث وتسعين (٨٠٨م) ودُفن بها. وكان قد بلغ من السن سبعًا وأربعين ودامت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين.

رحم الله تعالى هارون الرشيد الخليفة المؤمن المجاهد المُفترى عليه الذي أشاع عنه الحاقدون أنه كان لا يعيش إلا للغناء والجواري وهذا ظلم بيِّن فلقد كان هارون عزًّا للإسلام لم يكن ليضيع عمره في اللهو والعبث إنما كان في خلافته يحج عامًا ويغزو عامًا فحج بالناس ست حجج آخرها سنه مائة وست وثمانين وكان يغزو حتى فتح كثير من تخوم الروم وحصونهم وكان يرفع بصره إلى السماء فيرى السحابة في كبد السماء فيقول: "سيري كيف شئت فسوف يأتينا خراجك إن شاء الله"[٣].

لقد كان مثالاً للشجاعة يتقدم بنفسه الجيوش ويعتزم الأمر في حزم وشدة فلا يثنيه عنه قول أو فعل، وكان إمامًا عادلاً وفقيهًا عالمًا، كان لا يشغله شاغل عن العبادة حتى أنه كان يصلى مائة ركعة في اليوم والليلة تطوعًا وكان زاهدًا على ما آتاه الله من ملك وسلطان.

رحمه الله وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

---

(١) سَلُّ السيف: أشهره.

(٢) معني البيت: أنه أفزع أعداءه في يقظتهم فجعلهم لا يغفلون من الخوف صباح مساء فإذا ناموا هاجت عليهم في منامهم فأفزعتهم.

(٣) الكامل في التاريخ (٥/٣٥٦).

المعتصم

محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، العباسي. لُقِّب بالمعتصم وكانت كنيته أبا إسحاق ولد سنة مائة وتسع وسبعين (٧٩٥م). تولي الخلافة بعد أخيه المأمون عام ٢١٨هـ.

كان المعتصم رجلاً جسيمًا قويًا آتاه الله بسطة في الجسم وكان من قوته أنه كان يحطم ساعد الرجل بين إصبعين. وكان إلى جانب هذه القوة البدنية الهائلة يحمل بين جنباته شخصية أقوي حازت من صفات الشجاعة والثبات والحزم نصيب وفير قلما استحوذ عليه إنسان.

ولقد كان المعتصم رجل حرب في المقام الأول صحب أباه وأخاه في حروبهما مع الروم، فتمرس على القتال وألف حياة الضرب والطعان ولما آلت إليه الخلافة بعد خلفاء بني العباس العظماء ظن الروم أن الفرصة أصبحت مواتيه للنيل من الخلافة الإسلامية والثأر مما لحقهم من هزائم فأرسل إمبراطور الروم جيشًا جرارًا قوامه مائة ألف مقاتل وجعل على رأسه القائد "تيوفيل" فزحفوا إلى ملطية فدمروها بجيشهم وأحرقوها ثم حاصروا زبطرة ورموها بالمجانيق وقتلوا أهلها وسبوا نساءها فصرخت امرأة مسلمة من أهلها والروم يجروها: "وامعتصماه! وامعتصماه!" فلما بلغه ما حدث من الروم وسبيهم للنساء ونداء المرأة وما لحق بالمسلمين من قتل وتخريب غضب غضبًا شديدًا وتوعَّد بإهلاكهم ثم سأل عن أمنع مدن الروم فعرف أنها عمورية فجيَّش جيشًا هائلاً خرج على رأسه بنفسه.

ولكي نتبين تصميمه وتصميم رجاله نجده خرج لفتح عمورية وقد نقش اسمها على التروس والدروع والألوية.

ثم نزل بجيشه بالقرب من طرسوس وقسم جيشه ليطوق المدينة من نواحٍ عدة

فهاجم أنقرة فدمرها ثم حاصر عمورية خمسة عشر يومًا وظل يقذفها بالمجانيق حتى دك أسوارها وفتحها في شهر رمضان سنة مائتي وثلاث وعشرين (٨٣٧م) وهزم تيوفيل هزيمة نكراء وقتل من جنده تسعين ألفًا فلم يبق من جيشه إلا نسبة العُشر الذين تصدعت قلوبهم رعبًا ففروا منهزمين .

وأرسل ملك الروم المرأةَ المسلمة عزيزة النفس في حراسة كتيبة من النساء.

وهكذا حفظ الله بالمعتصم عزة الإسلام ومنعته وظل هذا المجاهد العظيم يقاوم الروم ويدحرهم في موقعة بعد موقعة ويطردهم من مدينة إلى أخرى حتى توفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة مائتين وسبع وعشرين (٨٤١م) ودامت خلافته ثماني سنين وثمانية شهور.

سيف الدولة الحمداني

واحد من أعظم أبطال المسلمين الذين تألق نجمهم في سماء الحروب الرومية وقد اشتهر بلقبه سيف الدولة الذي سماه به الخليفة العباسي المتقي عندما جاء لمناصرته على الأتراك. وقد ظهر في فترة ضعف الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري حيث بدأ يظهر نفوذ الدولة الحمدانية[١]. (أنظر خريطة رقم (٢٥) .

وقد ظهرت أمارات نبوغه العسكري قبل أن يعتلى الإمارة، فقد خرج تحت إمرة أخيه الحسن ابن عبد الله الحمداني لنجدة الخليفة العباسي المتقي سنة ثلاثمائة وثلاثين (٩٤١م) فهزما الأتراك ووسَّعا نفوذ دولتهما إلى بغداد لكن الأتراك استطاعوا أن يستعيدوا بغداد من أخيه .

فلما تولى سيف الدولة زمام الدولة بعد أخيه وسَّع حدود دولته فضم حلب سنة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين (٩٤٤م) وانتزعها من الإخشيديين وجعلها عاصمة دولته، ووسع حدود دولته حتى صارت متاخمة لحدود الدولة البيزنطية وكانت تفصل بين المسلمين والبيزنطيين منطقة تضم كثير من القلاع والحصون تعرف بمنطقة الثغور (انظر الخريطة رقم ٢٣) وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى قسمين: أحدهما بالشمال الشرقي يُعرف بثغور الجزيرة تواجه شمال العراق، والآخر في الجنوب الغربي ويُعرف بثغور الشام وكان المسلمون والبيزنطيون يتبادلون الغارات عبر هذه الثغور في ظل الدولة العباسية .

---

(١) بدأت الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري تتفكك وتضعف وفي هذه الظروف التي شهدتها هذه الخلافة العباسية استطاعت قبيلة تغلب بفضل زعيمها حمدان بن حمدون أن يؤسس دولة عرفت باسمه في شمال العراق واتخذ الموصل عاصمة لها، ثم قام الحسن بن الحسن بن عبد الله الحمداني بتوسيع نفوذ دولته إلى بغداد وكان في صراع دائم مع الأتراك من جهة والبيزنطيين من جهة أخرى ثم جاء سيف الدولة فوصل بهذه الدولة إلى أقصى مداها وضم حلب وهزم الروم في مواقع عديدة ومن بعده دخلت الدولة الحمدانية في صراعات وتفرق أمراؤها في العراق والشام ومصر. وعلى هذا فقد دامت دواتهم من ٣١٦هـ - ٣٨٠هـ (٩٢٩م - ٩٩١م).


البحر الأسود
القسطنطينية
آسيا الصغرى
البيزنطيون
مرعش
الرها
الموصل
بحر الروم
الحمدانيون
بغداد
دمشق
مصر
حروب سيف الدولة الحمدانى
مع البيزنطين

خريطة رقم (٢٥)

فلما ضعفت الدولة العباسية طمع البيزنطيون في الاستيلاء على منطقة الثغور، لكن سيف الدولة وقف شوكة في ظهر البيزنطيين واستطاع بإمارته الصغيرة أن ينزل بالروم هزائم ساحقة ويوقف زحفهم ويجهض حملاتهم.

وكان يلازمه الشاعر الفحل أبو الطيب المتنبي طوال تسع سنوات كاملة قضاها سيف الدولة في جهاد أعداء الإسلام فجسد هذه الأمجاد في أشعاره وقصائده حتى سميت بالسيفيات لكثرة ما تحدث فيها عن هذا البطل العربي.

ورغم أن الدولة البيزنطية بلغت أوج قوتها العسكرية في عصره إلا أنه تصدى لها وأوقف زحفها، فقد عاصر سيف الدولة اثنين من أقوي القادة العسكريين الذين عرفتهم دولة الروم هما: "برداس فوقاس"، "وحنا شميشق".

وقد أغار سيف الدولة على آسيا الصغرى سنة ثلاثمائة وخمس وثلاثين (٩٤٧م) فانتزع كثير من حصونها مثل مرعش ودخل بعض مدن الثغور.

لكن أهم معاركه مع الروم بلا شك كانت معركة حصن الحَدَث وترجع أهمية هذا الحصن إلى أنه كان أهم المنافذ إلى بلاد الروم فخرَّبه البيزنطيون سنة ثلاثمائة وسبعة وثلاثين (٩٤٨م) حتى لا يكون شوكة في ظهورهم لذا قرر سيف الدولة أن يعيد بناءه ووضع أساسه بيديه عام ثلاثمائة وأربع وثلاثين (٩٥٤م) فلما علم الروم بذلك رموه بجيش قوامه خمسون ألفًا يقوده القائد الرومي الداهية "برداس فوقاس" فتصدي لهم سيف الدولة ببضع مئات من فرسانه فهزمهم وأسقط منهم ثلاثة آلاف قتيل من بينهم حفيد "برداس" وصهره ووقع في الأسر عدة آلاف، ولاذ قائد الروم بالفرار ناجيًا بنفسه، وكانت هذه المعركة واحدة من عجائب الزمان انتصرت فيها القلة على الكثرة لكنها القلة المؤمنة والكثرة الكافرة التي ينطبق عليها قول الحق تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقد أنشد المتنبي في هذا النصر شعرًا قال فيه:

هل الحَدَثُ الحمراء تعــرف لونهــا ... وتعلــم أيُّ الســاقين الغمــائمُ
سَقَتها الغمامُ الغُــرُّ قبــل نزولــه ... فلما دنا منها ســقتها الجمــاجم[١]
أتــوك يجــرون الحديــد كــأنهم ... ســروا بجيــاد مــا لهــن قــوائم
إذا برقوا لم تُعْرف البــيضُ منــهم ... ثيــابهم مــن مثلــها والعمــائم[٢]
خميس[٣] بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء[٤] منــه زمــازم[٥]
تجمــع فيــه كــل لُسْــنٍ وأمــةٍ ... فلم تُفْهِــم الحُــدَّاثَ إلا التــراجم
فلله وقــتٌ ذوَّب الغــشَّ نــارُهُ ... فلم يبق إلا صارمٌ أو ضــبارم[٦] [٧]
تقطَّع ما لا يقطع الدِّرع والقنــا[٨] ... وفر من الأبطــال مــن لا يصــادم
وقفت وما في الموت شكٌّ لواقــفٍ ... كأنك في جفن الردى[٩] وهو نــائم
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى[١٠] هزيمــةً ... ووجهك وضــاحٌ وثغــرك باســم
ضممتَ جناحيهم على القلب ضمةً ... تموت الخوافي تحتــها والقــوادم[١١]
بضربٍ أتى الهامات والنصرُ غائــبٌ ... وصار إلى اللَّبَّاب[١٢] والنصرُ قــادم

---

(١) يتساءل من الذي جعل قلعة الحدث حمراء اللون أهو المطر أم الجماجم والدماء التي تساقطت كالمطر.
(٢) كانت جيوش الروم تلبس الدروع وعليها التروس وعلى الرؤوس الخوذ وعلى الخيل الحديد المصفح فكان الحديد يلمع تحت ضوء الشمس فلا يكاد الإنسان يميز بين السلاح وبين ما يلبسون.
(٣) الخميس: الجيش كثير العدد.
(٤) واحدة من مجموعات النجوم.
(٥) الزمزمة: الهمهمة والصوت غير المفهوم.
(٦) الضبارم: الأسد.
(٧) كانت أعداد الروم الهائلة وسلاحهم غثًا ضاعت وتناثرت هباءً أمام أسود المسلمين.
(٨) القنا: الرماح.
(٩) الردي: الموت.
(١٠) المكلوم: الجريح.
(١١) الخوافي: ريشات جناح الطائر المختفية والقوادم ريشات مقدم الجناح وهى إشارة إلى جناح جيش الروم.
(١٢) اللَّبَاب: موضع القلادة من الصدر.

حقرتَ الرُّدَيْنيات[١] حتى طرحتـها وحتى كأن السيفُ للرمح شـاتم[٢]
ومن طلبَ الفـتح الجليـل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم[٣]

نثرتهم فـوق الأحيـدب[٤] نثـرةً كما نُثرتْ فوق العروسِ الـدراهمُ
تدوس بك الخيلُ الوُكورَ[٥]على الذُّرى وقد كثُرتْ حول الوكور المطاعم[٦]

وعندما استطاع ''فوقاس'' بعد ذلك أن يستولى على حلب عاصمة سيف الدولة عام ثلاثمائة وإحدى وخمسين (٩٦١م) لم يهنأ بذلك الغزو فقد انسحب منها بعد ثمانية أيام بسبب المقاومة الحمدانية الصامدة.

وكذلك فشل قائد البيزنطيين الآخر ''حنا شميشق'' في الاستيلاء على بيت المقدس حيث تصدى له الحمدانيون كما أن مقاومة الفاطميين بالقدس عجلت بفشلهم فعادوا بخفي حنين[٧].

لقد كان سيف الدولة نموذجًا فريدًا للقائد الفذو المجاهد العظيم فلم يكن سيف الدولة مثل قرنائه من حكام عصره ممن تشغلهم مشهيات الحياة وملذاتها فقد كان حبه للجهاد هو شغله الشاغل حتى أن أحد أقاربه دعاه يومًا للاستماع للغناء فقال له: ''أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر''.

ولقد حارب سيف الدولة الروم في نحو أربعين معركة يرجو الشهادة ويسعى لها

---

(١) الردينيات: الرماح.
(٢) كان قتال المسلمين بالسيوف ولم يكن بالرماح لأن السيوف يتطلب القتال بها إلى شجاعة في الالتحام.
(٣) أي السيوف.
(٤) الأحيدب: الجبل.
(٥) الوكر: عش الطائر الجارح.
(٦) كانت خيول المسلمين تطاردهم وهم يفرون حتى إذا صعدوا الجبال وصلت إليهم فقتلهم المسلون ومزقهم أشلاء وأعدتها للنسور في وكورها لتطعم صغارها.
(٧) خائبي المسعى.

لكن يشاء الله أن يموت على فراشه وكان قد جمع ما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار حروبه مع الروم فصنع منه لَبِنَة وأوصى أن توضع في قبره تحت خده لعل الله يرحمه بها. اللهم ارحمه! وارزقه ثواب المجاهدين! .

ألب أرسلان

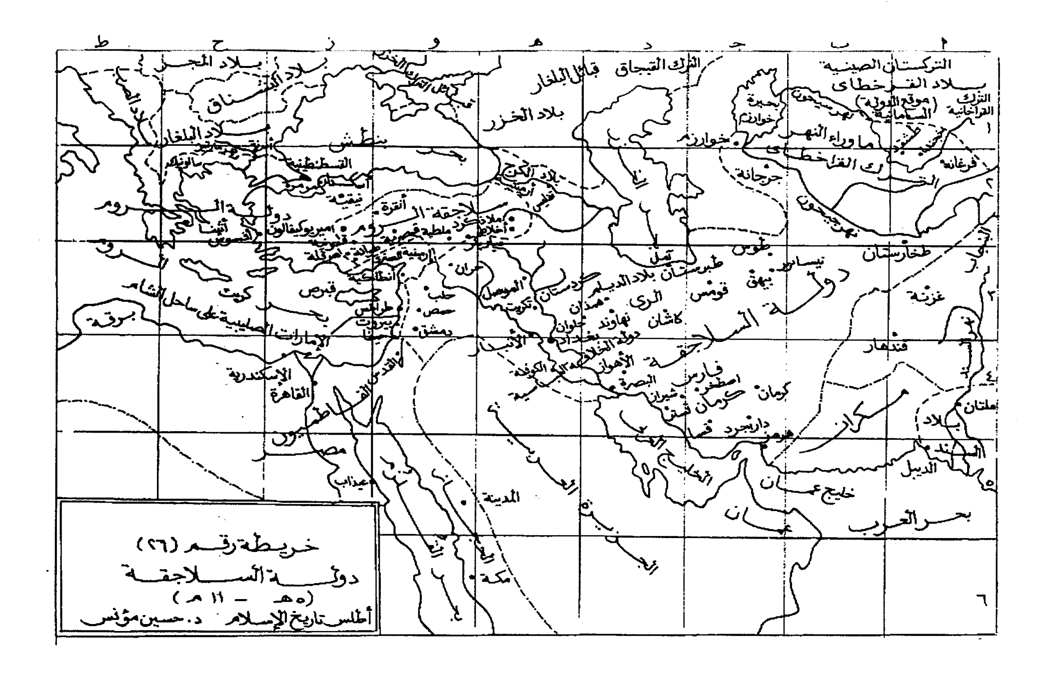
اسمه يوسف الخوازمى لُقّب بألب أرسلان أي الأسد الشجاع. واحدٌ من أعزِّ قادة الإسلام وأعظم ملوك السلاجقة[١] تولى الحكم بعد وفاة عمه طغرل بك[٢] وكان قد تولى قيادة الجيوش في عهده ففتح الكثير من المدن وقضي على نفوذ الشيعة البويهيين الذين كانوا يسيطرون على بغداد. ورث ألب أرسلان الحكم بعد أن ترك له عمه دولة قوية فسار على نهجه في القوة والتمكين. (انظر خريطة رقم (٢٦) .

ولقد جمع ألب أرسلان بين الحنكة العسكرية والحكمة والمقدرة السياسية وقد كان رحيم القلب رفيقًا بالفقراء كثير الدعاء كما اشتهر بين الحكام بحسن سيرته ومحافظته على عهوده، وكان حازمًا ماضي الهمة استطاع أن يخمد الثورات ويقمع الفتن فوحَّد دولته واخضع أقاليم جديدة ضمها لبلاده.

---

(١) السلاجقة هي قبيلة من قبائل الغز التركية أسسها سلجوق الذي كان ينتمي إلى قبيلة تقيم ببراري القرغيز في التركستان ثم استقر به الترحال في بخاري حيث اعتنق الإسلام على المذهب السني ودعا إليه فانتشر الإسلام بين السلاجقة الذين أخذوا على أنفسهم الانتصار للسنة ومحاربة التشيع فأغار على الدول الشيعية بفارس مثل الدولة السامانية واستطاع طغرل أحد أحفاده أن يضم إقليم خراسان عام ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) وظل يتوسع حتى بلغ حدود بغداد عام ٤٤٦هـ (١٠٥٥م) فاعترف الخليفة العباسي بطغرل سلطانًا وكان السلاجقة يساندون الخلافة العباسية السنية على الفاطميين الشيعة فقضوا على النفوذ البويهى تمامًا عام ٤٤٧هـ (١٠٥٦م) وقتلوا شيخ الروافض ابن عبد الله الجلاب، وأخذ نفوذ السلاجقة يزداد حتى بلغ أقصى حدوده في القرن في الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبالتحديد في عهد ملكشاة حيث امتدت حدود دولته من مدينة قشغر إلى بيت المقدس حيث ضمت خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى وكانت عاصمتها بالري ثم انتقلت إلى بغداد، وبعد وفاة ملكشاة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) تفككت دولتهم حتى حلت محلها في العراق وفارس دولة الأتابكة وفي آسيا الصغرى دولة الأتراك العثمانيين.

(٢) طغرل بك: زعيم سلجوقى استطاع أن يسقط الدولة البويهية الشيعية ووحُد السلاجفة الأتراك في دولة قوية حيث ضم خراسان وإيران وشمال وشرق العراق توفي عام ٤٥٥هـ (١٠٦٢م).



خريطة رقم (٢٦)
دولة السلاجقة
(٥هـ — ١١م)
أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس

ومنذ توليه الحكم علم حقيقة دوره ونهض بالحمل الذي ألقى على عاتقه من نصرة الإسلام وحفظه في وقت عسير اختلفت فيه الأمة وتصارع حكام المسلمين وكثر المتربصون بديار الإسلام، فبدأ أولاً بنصرة الإسلام في دياره فوطّد الحكم في دولته بحسن السيرة والعدل والإصلاح بين الناس هذا على الصعيد الداخلي.

أما على الصعيد الخارجي فكان قد وضع نصب عينيه هدفًا سعى إلى تحقيقه ألا وهو نشر دين الله فرفع راية الجهاد ورأى ضرورة توحيد الإسلام تحت راية السنة ودين محمد ﷺ فحارب الشيعة وسعى لإسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية فأعد جيشًا وجهه إلى شمال الشام فحاصر الدولة المرداسية[1] بحلب فقضي على نفوذها وضم حلب والرملة وبيت المقدس من الفاطميين وسيَّر جيشًا آخر إلى بلاد العرب فضم مكة والمدينة واستطاع أن يبطل الأذان الشيعي "حي على خير العمل" بمكة وردَّه للسنة.

ثم أعد جيشًا كبيرًا نحو بلاد الأرمن وجورجيا ففتحها وضمها لمملكته وهكذا انطلق بحول الله وقوته من نصر إلى نصر، وقد أغضبت فتوحاته إمبراطور الروم "رومانوس ديوجينس" الذي أحس بالخطر خرج لقتال المسلمين.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: "أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل مثل الجبال من الروم والفرنج في عدد عظيم وعُدَد، معه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفًا، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشرة ألفًا، ومعه مائة ألف نقّاب وحفّار، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير وألف عجلة تحمل السلاح والدروع والمجانيق من بينها منجنيق يجرُّه ألف ومائتا رجل، خرجوا كلهم ليبددوا الإسلام وأهله وزحف الجيش الهائل الذي بلغ قوامه نحو ستمائة ألف- وقيل أنه بلغ مائتي ألف- حتى بلغ بغداد وزحف السلطان ألب أرسلان في نحو خمسة عشر ألفًا[2].

---

(١) دولة أسسها صالح بن مرداس الشيعي عام ٤١٤هـ (١٠٢٣م).

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن الجيش الإسلامي كان يقرب من عشرين ألفًا.

وكان الروم قد زحفوا إلى قرب بغداد وتحرك ألب أرسلان بجيشه فعسكر في مكان يعرف باسم الزهوة يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة وقد جمع حوله العلماء وأبرزهم أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي فأشار عليه أن يلقاهم يوم الجمعة بعد وقت الزوال[1] وهو ساعة إجابة.

وفي يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة سنة أربعمائة ثلاث وستين (أغسطس ١٠٧٠م) وقف الخطباء على المنابر يخطبون في جموع المصلين يدعون الله لينصر عباده المجاهدين ووقف ألب أرسلان يصلي بجيشه يدعو الله يتذلل ويتوسل إليه حتى بكي وأبكي المسلمين فلما فرغ من الصلاة قال: ''أيها الناس! من أراد أن ينصرف فلينصرف! فما ههنا سلطان يأمر ولا ينهي''، وألقي القوس والنشاب وأخذ السيف وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ثم قام فلبس كفنه تحت ثيابه وتحنط وقال: ''أيها الناس! إن الإسلام اليوم في خطر وإن المسلمين كذلك، وإني لأخشى أن يُقضي على لا إله إلا الله''، ثم صاح: وا إسلاماه! ها أنذا قد تحنطت فإن قتلتُ فهذا كفني فمن أراد الجنة فليفعل مثلما فعلتُ ولنقاتل دون لا إله إلا الله حتى نهلك أو تُرفع''.

وما هي إلا لحظات حتى تكفَّن الجيش الإسلام كله وراحت تفوح منهم رائحة الحنوط وقد باعوا دنياهم بآخرتهم، وإذ بالسماء تدوي بصيحات الله أكبر.. يا خيل الله اركبي!

والتقي الجمعان بمكان يعرف باسم ملاذكرد (مانزيكرت)[2] التقي الجمعان فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، وإذ بالسلطان ألب أرسلان يترجل عن فرسه فيسجد لله ممرغًا وجهه في التراب يدعو الله ويستنصره وبعد قتال عنيف لم تشهد ميادين الوغى مثله أنزل الله نصره على عباده المؤمنين وهزم الروم وأُسر ملكهم ''رومانوس'' الذي افتداه قومه بألف ألف وخمسمائة دينار وأرسله إلى بلاده في جيش

---

(١) وقت صلاة الجمعة.

(٢) موقعها شمال شرق بحيرة فان.

من المسلمين وقد رفعت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله عالية فوق الرؤوس وقام الجيش الإسلام عليه يحفظه ويحرسه حتى بَلَّغَه أرض بلاده فوسعته سماحة الإسلام في ظل رايته مسالمًا بعد ما قهرته سيوف المسلمين وهو معتديًا باغيًا.

وهكذا مكَّن الله لألب أرسلان ناصر دينه حتى بلغت جيوشه البوسفور والدردنيل. وقد كان لهذه المعركة أهميتها فهي تعد نقطة تحول في تاريخ الإسلام مهدت على أضعاف نفوذ الروم في آسيا الصغرى، وساعدت فيما بعد في القضاء على حملاتهم الصليبية على يد صلاح الدين ثم القضاء عليهم نهائيًا بأيدي العثمانيين.

وقد ظل هذا السلطان يقضي بحكم الله وشريعته فحسنت سيرته وشاع العدل في رعيته، وسار رافعًا راية الجهاد لنصرة دين الله.

وفي العاشر من ربيع الأول سنة أربعمائة خمس وستين (١٠٧٢م) قُتل شهيدًا على يد أحد الثوار ودُفن في مرو بجوار قبر أبيه وخلفه ابنه ملكشاه الذي أقتفي سيرة والده في الإصلاح والجهاد.

رحم الله ألب أرسلان واسكنه فسيح جناته وأسدى إليه الخير على ما قدم للإسلام والمسلمين.

قلج أرسلان

قائد داهية من أحفاد ألب أرسلان وهو بطل مسلم استطاع أن يلحق بالدولة البيزنطية خسائر فادحة وأن يهزمهم شر هزيمة مما أدي إلى إنهاء وجودهم بآسيا الصغرى.

ورغم ما يؤخذ على هذا الرجل في سياسته الداخلية والخارجية حيث حكم في فترة مليئة بصرعات شرسة بين المسلمين بعضهم البعض من جانب، وبينهم وبين العالم الخارجي المتربص بهم من جانب آخر وقد اشتعلت الصراعات الداخلية بين الأمراء للوصول إلى سُدَّة الحكم[1] مما كان يدفعه أحيانًا لخوض تحالفات مع جيرانه من غير المسلمين، ورغم أن ما يُروى في ذلك لا يخلو من تعصب مؤرخي الغرب إلا أنني كمسلم لا أجد دافعًا أو ذريعة تبرر التحالف مع عدو كالبيزنطيين ضد حاكم مسلم مهما كانت الظروف ومهما سارت مجريات الأحداث.

لكن يشفع له قتاله لأعداء الإسلام وما أنزله بهم من هزيمة مؤثرة مع قلة جنده وهذا يدل على ثوبه[2] إلى دينه وعودته إلى ربه فأنزل الله عليه نصره ولولا نصره لله ما نصره الله، لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠].

وقلج أرسلان هو قاهر البيزنطيين في معركة ميريوكيفالون[3] سنة خمسمائة واثنتين وسبعين (١١٧٦م) والتي وقعت بعد مرور نحو قرن من الزمان على معركة ما نزيكرت. وسبب هذه الحرب أن الإمبراطور البيزنطي ''مانويل الأول'' خشي من

---

(١) مقاليد الحكم.

(٢) يثوب: يعود تائبًا.

(٣) ميريوكيفالون: حصن قديم شيده الامبراطور الروماني جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) على الطريق العسكري البيزنطي الرئيسي في آسيا الصغرى يقع في جنوب غرب مدينة أنقرة وشمال غرب مدينة قونية عاصمة السلاجقة، وتعني الكلمة ''ميريوكيفالون'': ألف رأس وقد سمي بذلك لأن آلاف البيزنطيين قُتلوا عنده في حروبهم وكان آخرها هذه المعركة.

إزدياد نفوذ السلاجقة مما صار يشكل خطرًا عليه في آسيا الصغرى فحشد جيوشه لقتالهم كما انضمت إليه جيوش الصرب وهنجاريا (المجر) بحكم ولاء الدولتين للإمبراطورية كما حشد قوات أخري صليبية وإنجليزية وغيرها، كما استحث البابا "ألكسندر الثالث" (١١٥٩م – ١١٨١م) ليدعوا لقتال السلاحقة ليخلوا الطريق للحملات الصليبية ولتأمين طرقها لاجتياز بلاد الأناضول وآسيا الصغرى ولوقف تقدم صلاح الدين الذي أخذ شأنه يتزايد في المنطقة ويعلو نجمه .

وهكذا تجمعت قوى الكفر لقتال المسلمين. وكان "مانويل الأول" يعلم أنه مقبل على حرب فاصلة ستغير موازين القوى السياسية والعسكرية في آسيا الصغرى وأعدَّ جيشًا هائلاً قسَّمه إلى قسمين: قسم كان قوامه خمسين ألفًا أسند قيادته لابن عمه "أندرينقوس" ووجهه إلى الشمال لحصار مدينة نيكسار، أما القسم الثاني والرئيسي من الجيش فكان تحت قيادة الإمبراطور الروماني نفسه يتوجه إلى قونية عاصمة السلاجقة.

وقد تحرك الجيش الأول متوغلاً في إقليم بافلاجونيا البيزنطي شمال آسيا الصغرى حيث انضمت إليه قوات أخرى فزاد عدده وضرب حصارًا حول المدينة. وقد أظهرت مدينة نيكسار بسالة وصمودًا رائعين أثناء الحصار مما أعجز البيزنطيين عن دخول المدينة واستطاع قائد حاميتها بدهائه وسعه حيلته أن يبث بذور الشك في صدور جند البيزنطيين وأشاع بمقتل الإمبراطور البيزنطي وفشل تحالفاتهم مع جيرانهم وبذلك فقد استغل الحرب النفسية التي لا تقل خطرًا وأهمية عن الحرب المسلحة . واشتبك الروم مع حامية المدينة خلال حصونها المنيعة فأصابهم السلاجقة المسلمون بخسائر شديدة مستغلين فقدانهم الثقة وتحطم معنوياتهم.

ولما سمع ما نويل بما جري لجيشه الأول قرر أن يهاجم قونية عاصمة السلاجقة الروم ليثأر لجيشه وفكر في أقصر طريق يوصله إليها في أسرع وقت ممكن وبالفعل وقع اختياره على طريق وعر بين جبلين طوله عشرة أميال يعرف بممر تزيبرتز والذي يقع في نهايته حصن ميريو كيفالون.

وكان القائد المسلم قلج أرسلان يستطلع أخبارهم وينتظر قدومهم من هذا الطريق على التلال والجبال المحيطة بالممر فأعدَّ جيشه وجهَّزه ورفع من معنوياته، وبالفعل بدأت القوات البيزنطية في التحرك داخل الممر، وفي صباح يوم أحد عشر من شهر ربيع الأول سنة خمسمائة واثنتين وسبعين (١٧ سبتمبر ١١٧٦م) عندما أصبح الجيش البيزنطي محصورًا بالكامل داخل الممر أصدر سلطان السلاجقة أرسلان أمره بالهجوم على المقدمة لوقف مسيرة جيش "مانويل" وإعاقة حركته واندفع الجيش الإسلامي من فوق التلال ومن بين الشعاب فمزق صفوفهم وقد تزاحمت قواتهم ومعداتهم الضخمة داخل الممر وقتل عدد كبير منهم على رأسهم "بوهيمند الثالث" حاكم أنطاكية وصِهْر "مانويل الأول".

ثم أمر فهاجموا ساقة[1] العدو ليحولوا دون فراره ودبَّت الفوضى في صفوف البيزنطيين فأعمل قلج أرسلان وجيشه فيهم السيف فقتلوا أغلب الجيش وفر "مانويل الأول" ببعض خاصته ناجيًا بحياته، واضطر إلى مصالحة قلج أرسلان صاغرًا فكان ذلك مكسبًا سياسيًا جديدًا للسلاجقة وكان لهذه المعركة دور مؤثر قلَّص الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى كما عمل على تحجيم المساعدات البيزنطية للصليبيين خلال هذه الفترة وما بعدها مما أتاح الفرصة لصلاح الدين الأيوبي في تحطيم مملكة بيت المقدس الصليبية بعد موقعة حطين، ومهدت هاتين المرحلتين الطريق أمام العثمانيين للقضاء نهائيًا على الدولة البيزنطية وفتح القسطنطينية مما عمل على تثبيت أقدام المسلمين في شرق أوروبا.

---

(١) الساقة: المؤخرة.

عماد الدين زنكي

عماد الدين زنكي أحد أتابكة[1] السلاجقة. وهو ابن أحد أمراء السلطان ملكشاه السلجوقي.

ظهر عماد الدين زنكي في فترة ضعف شديدة للمسلمين فلم تستطيع الخلافتان العباسية في العراق والفاطمية في مصر والشام ولا السلاجقة الذين تفككت دولتهم أن يردُّوا الطوفان الصليبي الكاسح الذي حشد نحو مائة ألف يتقدمهم ملوك وأمراء أوروبا مثل دوق اللورين الأدنى "جود فرى" وأخوه "بلدورين"، والنورماندى الإيطالي "بوهمند" وابن اخته "تانكرد" و"ريموند" كونت تولوز بفرنسا حيث خرجوا في الحملة الصليبية الأولى فنزلوا آسيا الصغرى واستولوا على حصون السلاجقة، وتسلل "بلدوين" إلى حوض الفرات فاستولى على الرها، ثم تحرك الصليبون إلى الشام فاستولوا على أنطاكية بعد مذبحة عظيمة، وواصلوا زحفهم حتى انتزعوا طرابلس بعد أن أعملوا البطش والتنكيل في جموع الشعب الأعزل، ثم اتجهوا إلى بيت المقدس وحاولت الحامية العربية بها أن تردَّهم وقاتلت قتالاً مستميتًا لكن إزاء القوة الهائلة للصليبيين لم تصمد فاكتسحوا المدينة ودخلها جودفرى وجنوده فقتلوا الأبرياء وأحرقوا الدور بأهلها.

وبذلك تكونت للصليبيين أربع إمارات لهم في العالم العربي سنة أربعمائة واثنتين وتسعين (١٠٩٨م) هي: الرها يحكمها "بلدوين"، وأنطاكية يحكمها "تانكرد"، وطرابلس يحكمها "ريموند"، وبيت المقدس ويحكمها "جودفرى" ولما مات خلفه عليها أخوه "بلدوين". (انظر خريطة رقم (٢٧) .

---

(١) الأتابك: كلمة تركية تتألف من مقطعين أتا وتعني أب، وبك وتعني الأمير فيكون معناها الأمير الوالد وهو لقب يطلق على من يكون وصيًا على الأمير الصغير وقد ظهر في عهد السلاجقة وأول من لقب به هو نظام الملك الحسن بن على بن عباس عام (٤٦٥هـ).



وظل الصليبيون يتوسعون ويسقطون مدينة في إثر مدينة حتى استولوا على عكا وبيروت وصيدا وصور ولم يبق للمسلمين من مدن الشاطئ الشامي سوى عسقلان وفي هذه الظلمة الحالكة والليل القاتم البهيم ظهر عماد الدين زنكي كالنجم الثاقب والشهاب المبين فانبري لجهاد الصليبيين، وكان في أول الأمر أميرًا على الموصل وركز لواء سلطانه فيها ثم بسط نفوذه على حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وأخذ يكيل للصليبيين الضربات وكانت أول أعماله الحربيَّة ضدَّهم هو حصاره لمدينة الرُّها أربعة أسابيع حتى فتحها سنة خمسمائة وتسع وثلاثين (١١٤٤م) بعد قتال مرير، وقد سُمِّي هذا الانتصار نصر الأنصار وبذلك قضى على إمارة صليبية هامة لأنها كانت تشقُّ جسد الأمة الإسلامية نصفين، وقد تغنَّي في هذا الانتصار شاعره الأثير ابن القيسراني فقال:

سَمَتْ قِبْلَةُ الإسلام فخرًا بِطَوْلِـه[١] ... ولم يك يسمو الدين لـولا عمـادُه

فيا ظفـرًا عَـمَّ الـبلادَ صـلاحُه ... بمن كان قد عَـمَّ الـبلاد فسـادُه

غداة كأن الهام في كـل قَـوْنَس[٢] ... كمائِمُ[٣] نَبْتٍ بالسيوف حصـادُه

فـلا مُطْلَـقٌ إلا وشُـدَّ وثاقـه ... ولامُوَثَّـقٌ إلا وحُـلَّ صِـفادُه[٤]

ولا منـبرٌ إلا تـرنَّح عـودُهُ[٥] ... ولا مصـحفٌ إلا أنـار مـدادُه[٦]

فقل لملوك الكفـر تُسَـلِّمُ بعـدها ... ممالكهـا إن الـبلاد بـلادُه

كذا عن طريق الصبح فَلْيَنْتَهِ الدجى ... فيا طالما غال[٧] الظـلام امتـداده

(١) الطَّوْل: الفضل والغني واليسر.
(٢) القونس: مقدم رأس الفرس.
(٣) الكمائم مفردها كِمَامة وهى وعاء طلع النخل.
(٤) الأصفاد: القيود.
(٥) اهتز طربًا دلالة على قوة الخطب ومدى تأثيرها في الناس.
(٦) المداد: الحبر.
(٧) غاله: أهلكه على غِره.

وواصل عماد الدين جهاده وواصل فتوحاته ضد الصليبيين مستعينًا بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، حتى اغتاله أحد مماليكه بتحريض من الصليبيين عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) وهو يحاصر قلعة جعبر.

وقد ظن أعداء الإسلام أن اغتياله سيكون كفيلاً بإيقاف أي مقاومة من المسلمين لكن هذه الحادثة لم تنل من الإسلام الذي تدافعت موجاته فلا يسقط بطل إلا ويخلفه أبطال حيث جاء من بعده ابنه نور الدين محمود ليكمل مسيرة والده.

نور الدين محمود

محمود بن عماد الدين زنكي، لقب بنور الدين، ولد سنه خمسمائة وأحدى عشرة (١١١٨م) ورث عن أبيه الأتابك عماد الدين زنكي[١] إمارة حلب ووقع عليه عبء جهاد الصليبيين فسار في ذلك على نهج والده. وقد قضي حياته كلها في قتالهم حتى أنه حَرَّم على نفسه الضحك وكان يقول في ذلك: ''إني لا ستحيى من الله أن يراني مبتسمًا والمسلمون محاصرون من الفرنجة''.

وذكر الذهبي في سيره ''أن الصليبيين لما نزلوا دمياط ظل عشرون يومًا لا يفطر إلا على الماء''.

وكان حُب الجهاد يملأ عليه حياته ويؤثره على الدنيا بما فيها وكان يقول: ''حب الجهاد ينسيني طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها''، هكذا كان الرجل يحيا للجهاد وكأنما خُلق له فصار سيفًا مشهرًا في وجوه أعداء الله.

قال عنه ابن الأثير في تاريخه: ''كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة لم أرَ على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه''.

ويقول العماد الكاتب: ''كان في الحرب ثابت القدم حسن المرمى صلب الضرب يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة''.

وكان مخلص الجهاد صادق العزم، نشأ ودرج وهو يرى جند الصليبيين يفسدون في ديار الإسلام ويدنسون بيت المقدس فكان ذلك يمزق نفسه ويحطم قلبه، ولم تكن قوتهم وبطشهم مع ضعف حال المسلمين ليثنيه عن هدفه نحو تحرير بيت المقدس حتى

---

(١) قُتل عماد الدين زنكي فاقتسم ابناه الإمارة فاستقل ابنه غازي بالموصل واستقل نور الدين بحلب.

أنه صنع منبرًا[١] في حلب جلب له العمال والصناع وكان يتحمل سخرية الناس وتهكمهم منه وهكذا كان صدق عزمه في الجهاد.

ولما قُتل عماد الدين زنكي بعد أن كان قد فتح الرها سنة خمسمائة وتسع وثلاثين (١١٤٤م) ظنَّ الصليبيين بابنه نور الدين الذي حل مكانه الضعف فحاولوا استردادها فأرسلوا الحملة الصليبية الثانية سنة خمسمائة واثنتين وأربعين (١١٤٧م) يقودها الملك ''كونراد الثالث'' ملك ألمانيا ''ولويس السابع'' ملك فرنسا بجيوشهما بآسيا الصغرى فمزَّق السلاجقة جيوش ''كونراد'' وفتكوا بجيش ''لويس السابع'' فقرر الصليبيون أن يغيِّروا اتجاههم ليحرزوا أي نجاح يحفظ ماء وجوههم أمام الغرب فحاصروا دمشق سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م)، وقاوم أمير دمشق الأتابك طغتكين هذا الحصار ثم أرسل يستنجد بنور الدين الذي هُرع إليه بستة آلاف والتقي بجيوش الصليبيين في سنة خمسمائة وأربع وأربعين (١١٤٩م) بأنب ولما اصطف الجيشان انفرد نور الدين في ناحية من الجيش فسجد لله ومرَّغ وجهه في التراب تضرعًا، وقال: ''اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا! من نور الدين؟! الدين دينك والجند جندك، فافعل يا رب ما يليق بكرمك''.

واستطاع نور الدين أن يبدد جيوشهم ويكسرهم، وقتل القائد ''بيمونت'' فارس الصليبيين الذي اشتهر بشدة بأسه وكراهيته للإسلام، كما أسر قائد الجيش ''جوسلين'' أقوى وأشد فرسانهم، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية، ثم حشد صاحب إنطاكية جيشًا جرارًا لقتاله فهزمهم نور الدين وسحق قواتهم حتى أن الشاعر ابن القيسراني قال فيه:

هذى العزائم لا ما تدَّعى القُضُب[٢]   وذي المكارم لاما قالت الكتبُ

---

(١) جاء صلاح الدين بعد عشرين سنة ففتح بيت المقدس ونصب فيه منبر نور الدين هذا وظل به حتى أحرق مع أغلب محتويات المسجد الأقصى على يد اليهود عام ١٩٦٩م.

(٢) القضَّاب من السيوف: القاطع البتار.

الشهادة وكان يخرج من كل معركة منتصرًا فيقول في حزن شديد وانكسار: ''لقد عزمتُ على الشهادة غير مرة فلم أنل شرفها ولو كان فيَّ خيرٌ أولىٌ عند الله مكانة لرزقنيها''، وكان دائمًا يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير[1]. فعرف بنور الدين الشهيد .

وتوفي سنة خمسمائة وثمان وستين (١١٧٤م) رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وبلَّغه أعلى درجات الشهادة التي قد يبلغها الرجل بنيته المُخْلِصَة.

لقد كان نور الدين مجاهدًا زاهدًا لا يرغب في زينة الحياة وزخرفها حتى أنه كان يعيش على سهمه في غنيمة الحرب، وكان ورعًا زاهدًا خشن الملبس والمأكل، عابدًا يطيل السجود ويقوم الليل ويكثر الصيام ويقرب العلماء والفقهاء ويحرص على مجالس العلم.

وأصدق ما قيل فيه هو ما ذكره ابن الأثير فقال: ''لقد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وإلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيره من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه'' لذا يردفه البعض بالخلفاء الراشدين في الصلاح وحسن السيرة.

(١) أي يُقتل شهيدًا ويُلقى في العراء حتى تتخطفه الجوارح والسباع.

صلاح الدين الأيوبي

إذا ذُكِرَتْ البطولةُ رُفِعَ ذكرُ هذا البطل، وإذا تجسدت الفروسية في أجلِّ صورها تجسدت في شخص هذا الفارس العظيم. إنه صلاح الدين ناصر دين الله ومحرر المسجد الأقصى وهازم الصليبيين.

أسمه يوسف بن نجم الدين بن شاذي، لُقِّب بالملك الناصر صلاح الدين، كردى الأصل ولد سنة خمسمائة وثلاث وثلاثون (١١٣٨م) في تكريت على نهر دجلة. حفظ القرآن صغيرًا ودرس الفقه والأدب حتى صار محدثًا فقيها كما شبَّ على الفروسية وفنون الحرب.

وقد ظهر صلاح الدين في فترة كانت ديار الإسلام تئنُ فيها تحت وطأة الصليبيين الذين بسطوا نفوذهم على بيت المقدس والشام وكانت بداية الغزو الصليبي في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فبعد أن انتصر السلاجقة على البيزنطيين وطهَّروا آسيا الصغرى منها لجأ الإمبراطور البيزنطي "ألكسيوس كومنين" إلى البابا أوربان الثاني يستصرخه ويطالبه بالدعوة لإبرام تحالف مسيحي ضد الإسلام، فنادي البابا نداءه التاريخي في مجمع "كليرمونت" بفرنسا سنة أربعمائة وثمان وثمانين (١٠٩٥م) ودعا إلى الحرب الصليبية .

ثم جاء بطرس الراهب ليلهب الدعوة وسارعت الكنائس في أوروبا بمنح صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب وينهض لتخليص بيت المقدس، فتسارع مسيحو أوروبا الغربية يلبون النداء، وكان للحملات الصليبية دوافع عديدة أولها الدافع الديني لما تحمله مدينة بيت المقدس من قداسة في نفوس النصارى، كما كانت الشعوب النورماندية النشطة التي بسطت نفوذها على غرب أوروبا تلتمس لها مخرجًا جديدًا لإشباع غرائزها الحربية خاصة بعد ما نجحوا في طرد المسلمين من إسبانيا، كما ساهم نظام الإقطاع

الذي نما في أوروبا في ظهور فئة واسعة من الأفاقين الذين كانوا يطمعون في الثراء السريع بنهب خيرات أراضي جديدة، كما كانت المدن الإيطالية وغيرها من مدن البحر المتوسط الأوروبية تطمع في مضاعفة تجارتها والتوسع في منتجاتها التي تحصل عليها من أراضي جديدة، كما كان المسيحيون في أوروبا يخشون على سلامة قوافلهم المفتوحة للحج بسبب حروب السلاجقة والفاطميين.

ومن ثَمَّ انطلقت الحملة الصليبية الأولى التي أغارت على سواحل الشام سنة أربعمائة واثنتين وتسعين (١٠٩٨م) واستطاعت أن تقيم لها أربع إمارات هي: الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس. وكان استيلائهم على بيت المقدس بعد حصار دام شهرين وتمكنوا من دخوله بعد أن أجهضوا دفاع حاميتها الفاطمية.

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: "دخلها الصليبيون في ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة أربعمائة واثنتين وتسعين (١٠٩٨م) ولبثت جيوشهم فيها أسبوعًا اعملوا السيف على رقاب العباد وقتلوا من المسلمين أكثر من ستين ألفًا منهم الأئمة والعلماء والعُبَّاد وكانوا يحرقون البيوت على سكانها وكانوا يسرقون كل ما وجدوه. ونصبوا الصلبان على المسجد الأقصى المبارك وردَّدُوا على مآذنه إن الله ثالث ثلاثة وأطلقوا في ساحته المطهرة الخنازير، وجعلوا جزءًا من ساحته مربطًا للخيل، وفرَّ كثيرٌ من أهلها إلى العراق".

ويقول وول ديورانت في قصة الحضارة: "إن النساء كنَّ يُقتلن طعنًا بالسيوف والحراب والأطفال يُختطفن من أثداء أمهاتهم ويُقذَف بهم من فوق الأسوار أو تُهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبحوا سبعون ألفًا من المسلمين بساحة بيت المقدس كما قتلوا من وجدوه بها من اليهود".

لقد كان حال المسلمون يُرثى إليه فهم ضعاف متناحرون وكانت الخلافة الفاطمية الشيعية تناصب دولة السلاجقة السُّنِّيَّة العداء وكان الفاطميون أحيانًا يستعينون بالصليبيين على المسلمين.

وبعد.. هذا باختصار هو الجو الذي نشأ فيه صلاح الدين لذا فقد تربى على الجهاد في كنف أسرة حملت على عاتقها عبء الجهاد فهذا أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه الذين نذرا حياتهما للجهاد، لذا فقد كان الجهاد له بمثابة الهواء الذي يتنفسه، وكان لأستاذه نور الدين محمود أكبر الأثر في نفسه لجهاد الصليبيين، فقد أرسله لضم مصر بصحبة عمه أسد الدين شيركوه في جيش قوامه ألفي فارس وذلك في اثني عشر من شهر ربيع الأول سنة خمسمائة واثنتين وستين (فبراير ١١٦٧م) وكان شاور هو القائم بالوزارة في مصر وكان خائنًا لدينه يتعاون مع أعداء الله الصليبيين وبلغ في ذلك المدى لما استدعاهم في مصر ليحموه من نور الدين محمود، فأرسل إليه أسد الدين قبل أن يحاربه كتابًا يحذره من التعاون مع الصليبيين ويدعوه إلى الاتحاد باسم الدين وتعهَّد بأنه سيرجع عن مصر بعد أن يطهرها من الصليبيين، فما كان جواب شاور على كتابه إلا أن قتل الرسول وقال: ''ما هؤلاء الفرنج: هؤلاء الفرج''، فقال أسدُ الدين: ''لعنه الله! لو أطاعني لم يبق بالشام منهم أحد''.

وحدث بالفعل أن وصلت جيوش الصليبيين القاهرة فانضم إليهم شاور بجيشه ثم عبروا النيل إلى الجيزة وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد حتى بلغوا مكانًا يعرف بالبابين وهناك التقي الجيشان في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمسمائة واثنتين وستين (١١٦٦م) وكان شاور والصليبيين في عدد يبلغ أضعاف جيش المسلمين، فأسند شيركوه إلى صلاح الدين قيادة القلب، وأظهر صلاح الدين شجاعة وبطولة رائعين في القتال واستطاع الجيش الإسلامي أن يطوِّقهم من الجانبين حتى أفناهم عن آخرهم وكان هذا من عجائب الزمان وقتها أن يهزم ألفي فارس عساكر مصر والفرنجة مجتمعين ثم انتقل شيركوه إلى الإسكندرية لإغلاق منافذ الإمدادات الصليبية ثم غادرها بعد أناب عنه بها صلاح الدين في ألف فارس وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستقل فيها صلاح الدين بالقيادة.

ثم تحركت فلول جيش شاور المنهزمة بعد أن توالت عليها إمدادات الصليبيين

إلى الإسكندرية فحاصروها برًا وبحرًا وأظهر أهلها بسالة فائقة في مقاومة الحصار ورفضوا كل الإغراءات للتخلي عن صلاح الدين، وصمد صلاح الدين حتى أقبل إليه شيركوه بجيشه فضعف أمل الصليبيين في الاستيلاء على مصر وطلبوا الصلح مقابل خروج القوات الصليبية وجيش نور الدين من مصر.

وبعد أن تمت بنود الصلح وخرج شيركوه والصليبيون من مصر وجد الصليبيون أن الفرصة سانحة لهم في مصر في ظل ضعف شاور فسار "أموري" ملك بيت المقدس على رأس جيش لغزو مصر فاستولوا على بلبيس وقتلوا كل من وجدوه بها وأحرقوها ثم تقدموا حتى وصلوا على حدود الفسطاط فاستغاث الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين وبعث له بشعور نسائه، فأرسل نور الدين حملة يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في عشرة آلاف فارس وذلك في منتصف ربيع الأول سنة خمسمائة وأربع وستين (١٨ ديسمبر ١١٦٨م) فهزموهم هزيمة ساحقة وقضوا نهائيًا على الوجود الصليبي في مصر وتولى أسد الدين وزارة مصر بعد ما قُتل شاور جزاءً لخيانته.

ولم تدم خلافته أكثر من شهرين إذ توفي فخلفه صلاح الدين على الوزارة في سنة خمسمائة وأربع وستين (١١٦٨م) حيث كان قبلها سَاعِدُ شريكوه الأيمن وأبرز قواده، وبذلك أصبح صلاح الدين وزيرًا لمصر يتبع الخليفة الفاطمي الشيعي العاضد، وفي الوقت ذاته يعتبر نائبًا لنور الدين السني صاحب الشام وهما سلطتان مختلفتان ومذهبان مختلفان، وسرعان ما مات العاضد فخلص له الانقياد لحاكم واحد هو نور الدين الذي أرسله على رأس حملة سنة خمسمائة وست وستين (١١٧٠م) فهاجم غزة وعسقلان والرملة فهزم الصليبيين وكاد يأسر ملكهم، ثم فتح مدينة أيلة[١] وأفنى حاميتها الصليبية وأقام بها حامية من جنده.

ولما توفي نور الدين محمود أخذ صلاح الدين على نفسه عهدًا بتوحيد البلاد الإسلامية للقضاء على الخطر الصليبي، وبذلك بدأ مشاريعه الحربية في فلسطين ضد

(١) مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. (معجم البلدان).

الصليبيين التي دامت نحو اثنتين وعشرين عامًا. وكانت أولى خطواته لقتال الصليبيين والقضاء عليهم هو تطهير البلاد الإسلامية من الداخل من الضلالات والبدع فقضى على المذهب الشيعي في مصر والشام وأعاد الحكم بسنة رسول الله ﷺ وألغي الأذان الشيعي حي على خير العمل وصار يُؤذن في مصر والشام بأذان أهل مكة كما عزل القاضي الشيعي وقلّد القضاءَ صدرُ الدين عبد الملك بن درباس الشافعي وأجرى في مصر مذهبي الإمامين الشافعي ومالك رضي الله عنهما.

ثم نشر العدل في مملكته، ولم يكن صلاح الدين قائدًا عسكريًا عظيمًا فحسب بل كان سياسيًا بارعًا وحاكمًا رائعًا يسوس بالعدل فكان يجلس يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع بنفسه للفصل بين الناس ورد المظالم كما كان يقرِّب الفقهاء وينشأ المدارس.

ثم دعي صلاح الدين إلى تكوين وحدة إسلامية وقضي في سبيل ذلك سبع عشرة سنة (٥٦٤هـ- ٥٨٢هـ) وقام بعقد صلح حوران مع أمراء العرب والمسلمين في المنطقة وتعهدوا بوضع قواهم تحت تصرفه وبذلك نجح في توحيد البلاد وأصلحها في الداخل والخارج ومن ثم أصبح مستعدًا لقتال الصليبيين، وانطلق لقتالهم وكانت الشرارة الأولى للمعركة الفاصلة مع الصليبيين عندما قام "رينو دي شاتيون" (أرناط) أمير الكرك بمهاجمة قافلة من قوافل الحج سنة خمسمائة واثنتين وثمانين (ربيع عام ١١٨٦م) وكانت تمر قرب حصنه فأسرها ونهبها وقتل من فيها ونقض بذلك الهدنة التي عُقدت بين المسلمين والصليبيين لمدة أربع سنوات ٥٧٩هـ (١١٨٣م) — ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

فأرسل إليه صلاح الدين يذكِّره بالهدنة فرد أرناط بتبجح وقال لأسرى المسلمين: "إذا كنتم تثقون بمحمد فليأت محمد لإنقاذكم"، ثم أمر بقتلهم فلما علم صلاح الدين بمقولته تلك أقسم ليقتلنَّه بيده إن ظفر به، وأعد جيشًا وعزم على قتال مملكة بيت المقدس لأنها لم توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها.

وخرج صلاح الدين من دمشق يوم السبت غرة المحرم سنة خمسمائة وثلاث وثمانين (١١٨٧م) وقد استعد وتجهز لكسر الصليبيين في معركة فاصله. وتحرك الجيش الإسلامي حتى عسكر في بلدة عشترا شمالي الكرك وقيل مكان يسمي قصر السلامة فأتخذها موضعًا لحشد قواته فحشد اثني عشر ألفًا وأمر باطلاق نفير الحرب في جميع ديار الإسلام ولبّى المتطوعين من مصر والشام والجزيرة العربية وغيرها، وبدأت قواته في التحرك من معسكره بعشترا يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر في نفس العام فغزا ما يجاور حصـــن الكرك متحديًا أرناط الذي خاف أن يخرج له.

وعندما علم الصليبيون بأمر صلاح الدين حشدوا جيشًا جرارًا بعكا وكان الجيش الصليبي يتكون من معظم شعوب أوروبا التي تدين بالبابوية في روما عدا الإسبان والبرتغاليين لانشغالهم بحروبهم مع المسلمين بالأندلس، وكذلك الروس لأنهم لم يكونوا على مذهب البابا و لم يكن له سلطان عليهم، وكان الصليبيون يضمون بينهم كذلك مسيحي الشام الموارنة وبعض نصارى لبنان الذين حاربوا في صفوفهم أو كانوا عيونًا للصليبيين بين المسلمين.

وكان الصليبيون يتوافدون من الغرب لا ينقطعون عامًا واحدًا في صورة حملات مصغرة يبلغ عددها ألفين أو ثلاثة أو على صورة جماعات من الحجاج المتحمسين الذين لم يلبثوا أن ينضموا إلى جيوش الصليبيين، بالإضافة إلى جماعات خاصة مدربة على الحرب كالداوية[1] والإسبتارية[2] وقد عُرفت هاتان الطائفتان بالتعصب الأعمى ضد المسلمين وعدم الالتزام بالعهود معهم.

وبذلك استطاع الصليبيون أن يحشدوا ثلاثة وستون ألفًا وقيل ثمانين ألفًا جاءوا بقدهم وقديدهم، وتحركوا من عكا حتى نزلوا بصفورية، وكانت خطة صلاح الدين تقضي

---

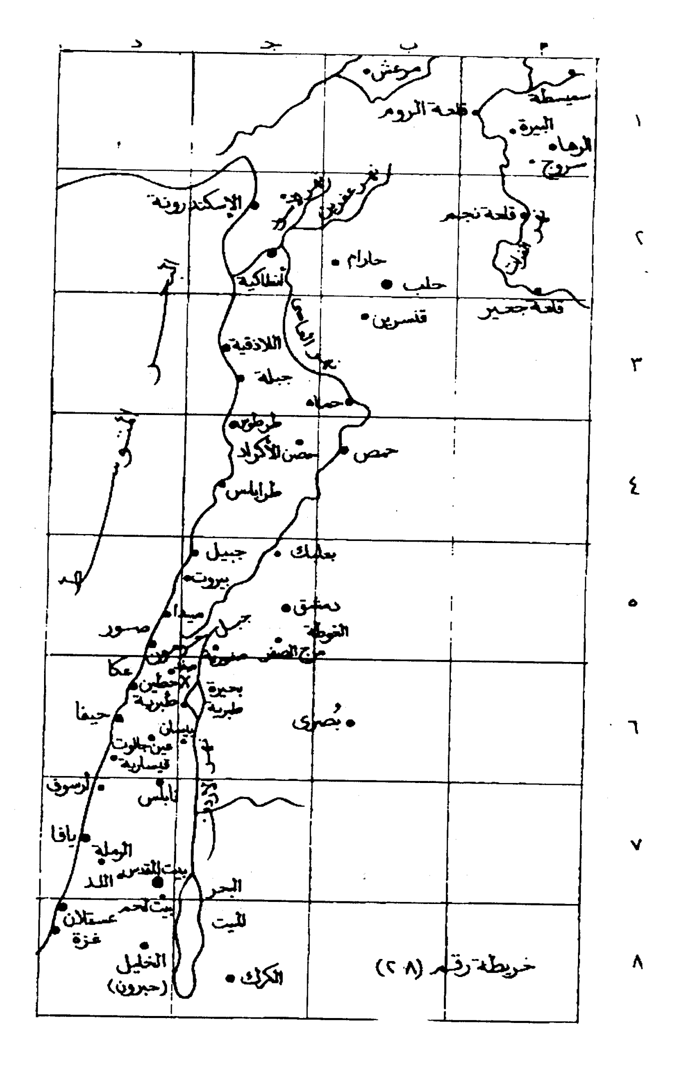
(١) الداوية: من فرسان المعبد. أسس هذه الجماعة "هيورى" عام ١١١٩م كجماعة مسلحة تتولى الدفاع عن الأرضي المقدسة بفلسطين وحراسة الحجاج المسيحيين، وقد باركهم البطريرك وجعلهم بنقطعون للتدريب.

(٢) الإسبتارية: بدأت كجماعة من البندكتان الإيطالية حيث سكنوا بيت المقدس بغرض معالجة المرضي من الحجاج المسيحيين، ثم تطوعت لحمايتهم وتلقوا تدريبًا عسكريًا مكثفًا.

باستدراجهم للقتال في أرض مفتوحة بعد أن يبسط يده على بحيرة طبرية فيمنعهم الماء، فانطلق بجيشه حتى وصل غرب بحيرة طبرية بحطين يوم الخميس ٢٣ ربيع الآخر ٥٨٣هـ (يونيو ١١٨٧م) عليها وسيطر على آبار الماء المجاورة. (انظر الخريطة (٢٨) .

وما إن وصل الصليبيون على حدود المسلمين حتى كانوا قد أتوا على ماء الصهاريج وأخذ منهم العطش كل مأخذ. وكان صلاح الدين طوال الليل يمر على قواده فيشجعهم ويبث فيهم روح الجهاد فارتفعت معنويات الجيش المسلم وظل المسلمون طوال الليل يناوشونهم فما غمضت لصليبي جفن، وما إن أشرقت شمس يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة خمسمائة وثلاث وثمانين (٥ يوليو ١١٨٧م) حتى جاء يوم الفصل والتقي الجيشان واندفع الجيش الصليبي يلهث عطشًا بعد أن اخترق السهول في حر منتصف الصيف، وانتهز صلاح الدين فرصة هبوب الريح في اتجاه الصليبيين فأمر بإشعال النار في الأعشاب البرية فحملت الريح الدخان فزادت من حرهم وجهدهم وظل المسلمون يقاتلون قتال الأبطال حتى أحاطوا بالصليبيين إحاطة الدائرة بقطرها وكسروهم كسرة شنيعة، وفرَّ ريموند وبعض خاصته وصعد الصليبيون التل الذي نصبوا عليه خيمة ملكهم فاجتمع حولها مائة وخمسون فارسًا فصاح صلاح الدين في جنده: "ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة". وقاتل المسلمون أصحاب الخيمة حتى أسقطوها وأنزل الله النصر على عباده المؤمنين وانهزم الصليبيون فترل صلاح الدين من فوق صهوة جواده وسجد شكرًا لله ومرغ أنفه في التراب تواضعًا لخالقه تعالى.

وأسر المسلمون جاى لوزيجنان (لوزيان) ملك بيت المقدس، وأرناط أمير الكرك، وجيرار مقدم الداوية وأسر كذلك صاحب جبيل والشوبك وعدد كبير من الصليبيين بلغ نحو ثلاثين ألفًا وقتل مثلهم. وأخذوا منهم صليب الصلبوت الذي كان أخذه عندهم أعظم من أسر الملك نفسه.



خريطة رقم (٢٠٨)

فتأمل دروبها وجبالها ودرس مسرح العمليات ورسم خطته، وكانت خطته في الحرب دائمًا هي المبادأة بالهجوم السريع فكان بمجرد أن يأتيه خبر عن تحرك عدوه يسرع إلى الجبهة قبله فيختار أنسب الأماكن ويضع الكمائن التي كان يجيد استغلالها في معاركه قد ساعده على ذلك معرفته بالبيئة الجغرافية للشام التي كانت تجمع بين الجبال والهضاب والسهول وكان دائم الاستعانة بجنود من الجهة التي ينتقل إليها، بخلاف الصليبيين الذين أتوا من أقطار بعيدة. وكان صلاح الدين يفضل الالتحام بعدوه أيام الجمع لاسيما وقت صلاة الجمعة والخطباء على المنابر وهذا ما فعله في فتح عكا وبيت المقدس واللاذقية وسرمانية، وكان يختار لقتال الصليبيين أيام الحر والقيظ لعلمه بجهدهم فيها وعدم اعتيادهم عليها، كما كان الفارس المسلم قليل الدروع لذا كان أقدر على المناورة وأسرع في الحركة من الفارس الصليبي الذي كان مثقلاً بالحديد من رأسه إلى إخمص قدميه لدرجة أنه كان يعجز عن امتطاء صهوة جوادة بنفسه فكان يُرفع بالحبال حتى يوضع على ظهر فرسه، وكانت الخيول كذلك تلبس الدروع على الرؤوس والصدور. وانقض صلاح الدين بجيشه يوم الجمعة على مدينة طبرية فأخذها عُنوة عدا قلعتها التي احتمت بها زوجة ريموند صاحب طرابلس. وأثناء ذلك عقد الصليبيون مجلس حربهم وقرروا القتال وقال ملك القدس: "لابد أن أصدمه وأصدُّه وأرادده حتى أرده وأقيم صليب الصلبوت[1] فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد، وأن أمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد". ثم خرج الجيش الصليبي يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (أول يوليو سنة ١١٨٧م) من صفورية قاصدًا معسكر المسلمين في حطين وبذلك نجحت خطة صلاح الدين في استدراجهم إلى حطين. وكان الوقت صيفًا والحرارة شديدة وكان صلاح الدين قد سيطر على بحيرة طبرية فأحكم قبضته

وبلغ من كثرة الأسرى أن الواحد كان يباع بثلاثة دنانير وقيل أن أحدهم باع

١- صليب الصلبوت: كان الصليبيون يتخذنه ويزعمون أنه من الخشبة التي صلب عليها معبودهم المسيح وكانوا يغلفوه بالذهب الأحمر وكللوه بالدر والجوهر وكان إذا نُصب أمامهم سجد له كل نصراني وركع، وكانوا يتخذونه علمًا لهم في معاركهم يحمله أحد القساوسة.

أسيرًا بنعلاً يلبسها، ورؤى فلاحًا يقود نيفًا وثلاثين أسيرًا، وقال ابن الأثير في تاريخه: ''لم يصب الصليبيون بمثلها منذ أن دخلوا الشام وتعتبر هذه الواقعة بداية النهاية لدولتهم الباغية في الشرق''. وقال العماد الأصفهاني في هذا النصر:

حططتَ على حطين قَدْرَ ملــوكهم ... ولم تُبْقِ من أجناس كفرهم جنسًــا

بواقعةٍ رجَّت بهـــا الأرض جيشـــهم ... دمارًا كمَا بُسَّـــتْ جبـــالهم بسًّـــا

بطونُ ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترض أرضٌ أن تكون لهم رَمْسًا[1]

ســـبايا بـــلاد الله مملـــوءةٌ بهـــا ... وقد شُرِيَتْ بخسًا وقد عرض نخسًـــا

يطاف بها الأسواق لا راغـــبٌ لهـــا ... لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوكســـا

ثم أُحضر إلى خيمة صلاح الدين ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك، فأجلس صلاح الدين ملك بيت المقدس إلى جواره وفاءً لمنصب الملك وسقاه بيده الماء دليلاً على عفوه عنه، فلما طلب أرناط الماء رفض صلاح الدين حتى لا يؤمنه وأخذ يذكّره بجرائمه ونقض عهوده مما دفعه قبلها لإهدار دمه، وقال له: ''ها أنذا أنتصر لمحمد ﷺ منك''، وفي سماحة المسلم عرض عليه الإسلام لينجو بنفسه فرفض وثار غاضبًا فاستل صلاح الدين نمجتاة[2] فطعنه ليخلص العالم من شره ورجسه، ثم قال: ''كنتُ قد نذرتُ مرتين أن أقتله إن ظفرت به أحدهما لما أراد أن يسير إلى مكة والمدينة[3] والثانية لما أخذ القبيلة غدرًا- يقصد الحجاج العزل''.

والتفت وقال للملك: ''لم تجرِ عادة الملوك بقتل الملوك، وأما هذا فقد تجاوز حده فجرى عليه ما جرى''، وعفا عن ملك بيت المقدس، ثم أمر بضرب رقاب كل أسير داوى أو اسبتارى بعد أن عرض عليهم الإسلام فأراح العالم من شر تعصبهم وحقدهم.

---

(١) الرمس: القبر.

(٢) خنجز مقوس قصير يشبه السيف.

(٣) كان أرناط قد أعد أسطولاً بحريًا حمل أخشابها وقلاعها إلى خليج العقبة وقام بتركيبها ثم قام بتمريرها عبر البحر الأحمر سنة ٥٨١هـ (١١٨٣م) إلى شاطئ الحجاز ليعبث بقبر النبي ﷺ ثم يخرب الكعبة فأرسل صلاح الدين أخاه الملك العادل فلحق بهم أسطوله عند مرفأ حوراء شمالي ينبع فهزمهم وأسرهم وفر أرناط.

وانطلق صلاح الدين يوم الأحد فاستولى على قلعة طبرية بعد أن أمَّن زوجة ريموند وسمح لها بالخروج في مالها ورجالها إلى طرابلس. واندفع صلاحُ الدين كالإعصار أو الطوفان الذي يجرف كل ما شاب الأرض من قش ووسخ كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ [الرعد: ١٧] فتساقطت المدن من أيدي الصليبيين تباعًا الواحدة تلو الأخرى حتى استطاع صلاح الدين في مدة ثلاثة شهور أن يمحو من خريطة الشرق العربي أي أثر للتواجد الصليبي الذي دام نحو قرن من الزمان.

ففتح عكا بعد أن أمَّن أهلها يوم الجمعة غرة جمادى الأولى ٥٨٣هـ بعد أن كانت ترزح[1] تحت نير[2] الصليبيين سبعين عامًا وصلى الجمعة في مسجدها القديم الذي كان الصليبيون قد حوَّلوه إلى كنيسة، فكانت أول جمعة تصلى بالساحل الشامي كله منذ أن سقط في أيدي الصليبيين ثم زحف سريعًا ففتح الناصرية وصفورية وقيسارية وحيفا وأرسوف وسميسطة ونابلس وصيدا وجبيل وعسقلان والرملة والداروم وغزة ومشهد الخليل إبراهيم وبيت لحم وبيت جبريل (بئر سبع)، وأثناء هذه الفتوحات والانتصارات المدوية جاءته رسالة من شاب دمشقي أسير ببيت المقدس في صورة أبيات شعرية كتبها على لسان المسجد الأقصى قال فيها:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكَّس
جاءت إليك ظلامةٌ ... تسعى من البيت المقدس
كلُّ المساجد طُهِّرت ... وأنا على شرفي مُنَجَّس

فثارت ثورة بطلُنا صلاح الدين وعزم على سرعة تحريرها وسعى لحشد الأمة كلها فجهَّز جيشًا ليحاصرها برًا وبحرًا وهيَّأ نفسيه جنده بأن منع المزاح في جيشه وأمرهم بالإكثار من الصلاة والعبادة وقراءة القرآن، ولما علم الصليبيون بعزمه حشدوا بها نحو ستين ألفًا وفدوا عليها من حطين وعسقلان وغيرها وزادوا من تحصينها، لكن

---

(١) رزح: ناء بالحمل أو ثقل به.

(٢) النير: الخشبة المستعرضة التي تربط في عنق الثور لجر المحراث.

صلاح الدين لم يكن شيءٌ ليثني عزمه أو يصده عن الهدف الذي عاش له حياته ألا وهو تحرير المسجد الأقصى، الذي سعى إليه بكل قلبه وجوارحه .

وبلغ من تصميمه ما أورده صاحب شذرات الذهب[١] أن أحد المنجمين حاول أن يثنيه عن عزمه فقال: سوف تفتح القدس وتذهب منك عينًا واحدة فردَّ عليه- وما كان ليصدقه-: "رضيتُ أن أفتحه وأعمى بعدها".

وزحف صلاح الدين بجيشه إلى بيت المقدس يوم الأحد ١٥ رجب ٥٨٣هـ فنزل الجهة الغربية للمدينة فحاصرها وضيق على الصليبيين بها وظل يدور حول أسوارها خمسة أيام كاملة يبحث عن ثغرة فوجد أن خير مكان يصلح لذلك هو شمالها فنصب المجانيق قِبَله. وبعد قتال مستميت حول أسوارها لم تتمالك أن تهاوت وسقطت في يديه بعد حصار دام أربعة عشر يومًا فلما رأى الصليبيون الهزيمة واقعة بهم طلبوا العفو والأمان فأجابهم إلى طلبهم ودخلها منتصرًا في السابع والعشرين من شهر رجب سنة خمسمائة وثلاث وثمانين (٢ أكتوبر ١١٨٧م) ولم يدخلها قبله على هذه الصورة سوى عمر بن الخطاب ﷺ.

وكان حكمة الله تعالى في تقديره أن يدخلها ليلة الإسراء والمعراج ليحررها بعد تسعين سنة من الصليبيين[٢]. وكان الصليبيون قد نصبوا صليبًا مذهبًا كبيرًا على رأس قبة الصخرة فأنزله المسلمون وكسروه ورفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقد تغنى الشاعر الحسن الجو يني البغدادي في فتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين، قال:

هذي الفتوح فتوح الأنبيــاء ومــا … لها سوى الشكل بالأفعــال أثمــانُ

أضحتْ ملوك الفرنج الصيد في يده … صيدًا وما ضعفوا يومًا وما هــانوا

تسعون عامًا بلاد الله تصرخ والـــ … إســـلام أنصـــارُه صـــمٌ وعميــانُ

---

(١) ابن هشام اللغوي (٧٠٨- ٧٦١هـ).

(٢) كان الصليبيون قد استولوا عليه في شعبان سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) وذلك في خلافة المستعلي بالله الفاطمي في وزارة بدر الجمالي.

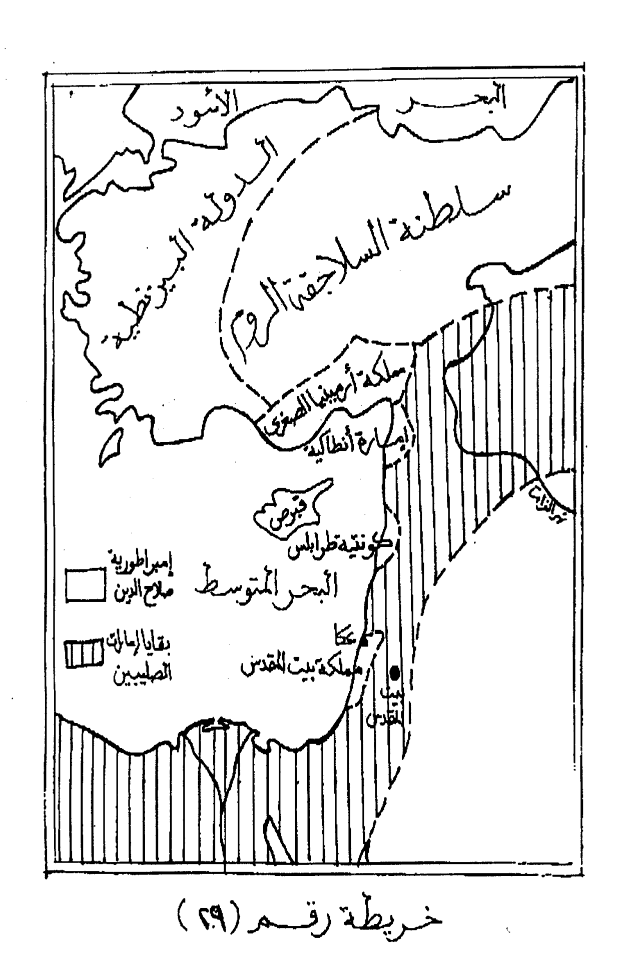
للناصر ادُّخرت هذه الفتوح وما سمت لهم همم الأملاك[1] مُذ كانوا
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تنزلت فيه آياتٌ وقرآنُ
فالله يبقيك للإسلام تحرسه من أن يُضامَ ويُلفى[2] وهو حيران

وقَبِلَ صلاح الدين الفدية منهم وكانت عشرة دنانير للرجل وخمسة للنساء واثنين للطفل وأمهلهم أربعين يومًا فمن تأخر عن ذلك وقع في الأسر فبلغ ما جمعه المسلمون من الفدية نحو مائة ألف دينار وقيل مائتي وعشرين ألفًا، وبقى ستة عشر منهم عجزوا عن أداء الفدية فأسروا، هذا بالنسبة لمن قاتل المسلمون فيها ورفع عليهم السلاح.

أما أهلها من النصارى الذين ليسوا من الإفرنج الغربيين المعتدين سمح لهم بالبقاء مقابل جزية تُدفع كل عام وأبدى صلاح الدين تسامحًا جميلاً معهم فأعفى سبعة آلاف عجزوا عن دفع الجزية، في حين أن البطريق خرج بكل ماله ورفض أن ينفق منه شيئًا ليفتدى جنده أو أهل ملته، ولما رآه قادة صلاح الدين يخرج بكل ماله أشاروا عليه أن يصادره فرفض وقال: "لا، ما كان لنا من حق في ماله إلا العشرة دنانير ولا أغنم المال أبدًا عن طريق الغدر، دعوه يخرج بها!"، وسمح للنصارى بزيارتها في أي وقت للحج بغير سلاح.

ثم قام بدخول المسجد الأقصى فنصب به منبر نور الدين محمود، وأقيمت أول صلاة جمعة بعد تسعين عامًا في الرابع من شعبان سنة ٥٨٣هـ وألقي القاضي محيى الدين زكيٌّ الدين قاضي دمشق أول خطبة به فصعد المنبر ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم كان أول كلامه: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]. (أنظر خريطة (٢٩) .

(١) الملوك.
(٢) ألفاه: وجده وصادفه.


البحر
الأسود
الدولة البيزنطية
سلطنة السلاجقة الروم
مملكة أرمينيا الصغرى
إمارة أنطاكية
قبرص
كونتية طرابلس
البحر المتوسط
إمبراطورية صلاح الدين
بقايا إمارات الصليبين
عكا
مملكة بيت المقدس
بيت المقدس

خريطة رقم (٢٩)

فتفكر يا أخي: بين حال المسجد الأقصى اليوم وبين ما كان عليه أيام الصليبيين. وتأمل الفارق بين الحالين فهو وإن كان في قبضة اليهود الآن إلا أنه لم تُعطل فيه صلاة كما فعل به الصليبيون طوال تسعين عامًا، لكن النفوس قد امتلأت يأسًا مقيتًا هو في رأيي أخطر أسلحة العدو فهو يسعى كي نلقى آخر أسلحتنا وهو صدق العزم والثقة في الله والإيمان به. فهل آن لنا أن نتحد لنصنع النصر كما سعى إليه صلاح الدين وأنجزه، ويقول الشاعر محمد صيام في ذلك:

المسجد الأقصى المبارك يستغيث..
أتسمعون؟
والناسُ كلُّ الناس في أوطاننا يتصايحون
قم يا صلاح الدين.. إن بنى العروبة نائمون
قم.. فالصليبيون عادوا كالأفاعي ينهشون
فاخلع نيوبهم[1] التي بسمومها يتحركون
أما الصهاينة الغزاة فما لهم إلا المنون[2]

ثم انطلق صلاح الدين ففتح الكرك والشوبك، ولم يبق للصليبيين سوى صور وطرابلس وأنطاكية.

ولما تسامعت أوروبا بانكسار جيوشهم الصليبية في الشرق أخذ البابا يستصرخ ملوك أوروبا فحشدت أوروبا الحملة الصليبية الثالثة وكان على رأسها "ريتشارد قلب الأسد" ملك انجلترا "فردريك باباروسا" ملك ألمانيا، "وفيليب أغسطس" ملك فرنسا. واتخذ فرد ريك ملك ألمانيا طريق البر إلى بيزنطة ثم نزل آسيا الصغرى لكن الله أغرقه وهو يعبر أحد الأنهار وتفشت الأوبئة في جيشه، أما الملكين ريتشارد وفليب

(١) أنيابهم.
(٢) الموت.

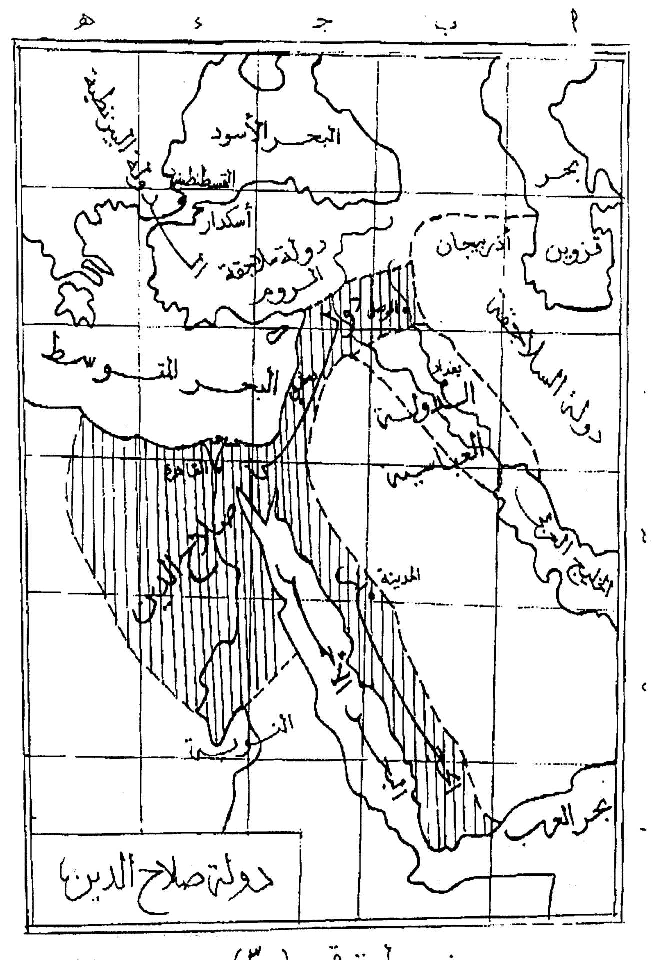
فتحركا باسطولهما فاستوليا على قبرص في طريقهما ليجعلوها قاعدة حربية يستمدا بها العون على المسلمين ونزلا مدينة صور ثم حاصر عكا وانضم إليهما "جاي لوزيان" ملك بيت المقدس وبذلك خان عهده مع صلاح الدين بعد أن أطلقه وأمَّنه وتعهد بعدم قتال المسلمين وبعد سنتين من الحصار سقطت عكا سنة خمسمائة وأربع وثمانين (١١٨٩م) .

ثم دخلوا حيفا ويافا وحشدوا جيوشهم للاستيلاء على بيت المقدس وبعد نحو عام من المناوشات فشلت جهودهم لنتزاع بيت المقدس فاضطروا مكرهين للمفاوضة وتم عقد صلح الرملة في سنة خمسمائة وثمان وثمانين (ديسمبر ١١٩٢م) على أن يستمر ثلاث سنوات يأس خلالها ريتشارد أن يحقق حلمه فقرر العودة بغير رجعة إلى بلاده، واستتب الأمن في ديار الإسلام وتحررت على يدي صلاح الدين أكثر من ستين مدينةً وحصنًا كانت تأنُّ تحت وطأة الاحتلال الصليبي طوال تسعين عامًا.(انظر خريطة (٣٠)

ثم دخل دمشق ليستقر فيها ويصلح ما أفسدته الحرب وظل بها عامًا كاملاً ثم قرر أن يهاجم بلاد الروم ليقطع عليهم طريق العودة نهائيًا، وفي ليلة السبت السادس عشر من شهر صفر أصابته الحمى واشتد عليه المرض وشاء الله أن تكون منيته فتوفي بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة خمسمائة وتسع وثمانين (٤ مارس ١١٩٣م) بقلعة دمشق عن عمر يناهز السابعة والخمسين عامًا. فعمَّ الديار الإسلامية حزن شديد بموته ويصور هذا الحزن قول الشاعر:

بالله أيـــن الناصـــرُ الملـــك الـــذي	لله خالصــــــةً صَـــفَتْ نياتُـــــه
أين الذي مـــا زال ســـلطانًا لنـــا	يُرجـــى نـــداه وتُتقـــي ســـطواتُه
في نصرة الإســـلام يســـهر دائمًـــا	لتطول في روض الجنـــان ســـناتُه[1]
لا تحسبوه ممات شـــخصٍ واحـــدٍ	فممـــاتُ كـــلِّ العـــالمين مماتُـــه

(١) السِّنَة: الغفوة القصيرة.


البحر الأسود
القسطنطينية
أسكدار
دولة سلاجقة الروم
أذربيجان
قزوين
البحر المتوسط
القاهرة
بغداد
الدولة العباسية
دولة السلاجقة
المدينة
الخليج العربي
بحر العرب
دولة صلاح الدين

خريطة رقم (٣٠)

ويقول أبو شامة في الروضتين عن يوم موته: ''كان يومًا لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة والبلاد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنتُ أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنتُ أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخُّص[1]، إلا ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفُدى بالنفس. وغشى الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة وصلى الناس عليه إرسالاً''.

رحم الله ذلك البطل الذي كان على رباط دائم وجهاد مستمر حتى وصفه ابن جبير فقال: ''كان لا يأوي للراحة ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه و لم يُرَ وقد خلع لباس الجندي إلا مرة واحدة في دمشق قبل وفاته بأيام فقد كان دائمًا مستعدًا للحرب وكان يقول: ''نحن كل وقت بصدد النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدَّة دخل الوهن على الإسلام''.

لقد ظل طوال ربع قرن وهو يجاهد في ميادين القتال لم يترل عن صهوة جواده إلا للعبادة أو النوم أو الطعام فشهد الجميع له بالشجاعة حتى أن أعدائه الفرنج منحوه رتبه فارس[2].

لقد كان يسعى لجهاد أعدائه في كل مكان فكان يقول: ''متى يسَّر الله لي ركبتُ هذا البحر إلى جزائره وأتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت''.

لقد كان له من الصبر على الجهاد ما يفوق الجهاد فكان يضرب به المثل في الصبر وقوة التحمل أثناء المعارك والحروب فقد أصابته مرة الدمامل من وسطه إلى ركبتيه فكان يتحمل آلامه معتليًا صهوة جواده يطوف على جنده صابرًا على آلامه،

(١) أي المبالغة.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية.

وكان إذا اعتراه مرض سار في جنده فإذا لم يستطع جلس يستظل بمنديل على رأسه يقيه حرارة الشمس ولا ينصب خيمة حتى لا يعلم بمرضه جنده فتخور عزائمهم أو أعدائه فيتقوُّن عليه، وعندما علم بوفاة إسماعيل ولده تكتم الخبر و لم يظهره بقوة إيمان وصبر وكان لديه من الثبات واليقين نصيب وافر فقد وصل ذات يوم ما بين صلاة العصر وغروب الشمس نيف وسبعون مركبًا للعدو وهو واقفًا يشاهدها فلم يبدو عليه أي جزع أو خوف.

وكان من عادته أن يقرأ القرآن أو يستدعي من يسمعه القرآن وهو بين الصفوف فقد وصفه أحد رسل الصليبيين أثناء القتال عندما دخل خيمته المنصوبة وسط جيشه فوجده واقفًا في خيمته الصغيرة على بساط بسيط وقد نشر مصحفًا بين يديه مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته[1] وسيفه وقوسه، وعند ما جاء وقت الصلاة ضجَّ المعسكر بصوت الأذان وأم إمام كل خيمة المصلين.

وكان متواضعًا زاهدًا فما وُجد في خزائنه يوم وفاته سوى سبعة وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا ذهبيًا، و لم يخلف دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا.

ودفن بمقبرته[2] شمالي الجامع الأموي بدمشق الذي بناها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين إثر وفاة والده، وكتب أعلى الضريح: "اللهم فارض عن تلك الروح! وافتح لها أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح".

(١) الزردية: رداء من حديد يُلبس تحت الثياب للوقاية من الطعن والسهام.
(٢) يقع الضريح حاليًا داخل المدرسة العزيزية بحي الكلاسة شمالي الجامع الأموي.

حسام الدين لؤلؤ

بطل مسلم أرمني الأصل كان من أجناد مصر في أيام الفاطميين، فلما تولى صلاح الدين أمر مصر عَرف لهذا الرجل قدره فعينه مقدمًا للأسطول وأوكل إليه إدارة شئون الأسطول المالية والإدارية والفنية والعسكرية. وقد أظهر هذا الرجل قدرة فائقة في قيادة الأسطول الإسلامي المصري حتى استحق لقب أمير البحر.

لقد كان لؤلؤ مخلصًا طائعًا شديد الأيمان قد أحب الله ورسوله وبذل في سبيل الدفاع عن دينه ورسوله كل ما أوتى من قوة وجهد.

وكان السلطان صلاح الدين قد علم أن أرناط أمير الكرك أنشأ أسطولاً بناه من قطع منفصلة في مكان قريب من البحر الأحمر ثم حمَّلها على جمال الأعراب بالأجرة ثم قام بتجميع أجزاء الأسطول وأكمل صنعه قرب الشاطئ ثم أنزل سفنه البحر وشحنها بالجنود وكلف منها مركبين لحصار حصن أيلة التابع للمسلمين لتمنع تقدم أي مدد من المسلمين وتقدمت مراكب أرناط فسارت في البحر الأحمر وكانت مفاجأة شديدة للعرب لأنهم لم يعهدوا صليبيًا في البحر الأحمر .

وتقدمت سفنه نحو عيذاب[1] فحطمت كل ما يقابلها من مراكب العرب حيث أحرقت ستة عشر مركبًا، ولما وصل عيذاب بسفنه أسر مركبًا للحجيج بها ومركبين كانا مقبلين بتجارة من اليمن ثم نزلوا إلى الساحل فهاجموا قافلة كبيرة من الحجيج كانت قادمة من قوص إلى عيذاب وفتكوا بكل من فيها واستولوا على جميع أموالهم، وبلغوا من الشناعة والفظاعة ما لم يسمع بمثله من قبل[2].

ثم ساروا في البحر نحو ساحل الجوزاء يقصدون النزول إلى البر والتوجه إلى

(١) عيذاب: بلدة صغيرة كانت على البحر الأحمر وكان الناس يركبون منها للحج.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير.

المدينة المنورة لينبشوا قبر النبي ﷺ وينقلوا جسده الشريف إلى بلادهم فيدفنوه عندهم، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بعد دفع مبلغ معين ثم يتوجهوا إلى مكة فيخربوها ويدكُّوا مبنى الكعبة وما حولها[1] وهكذا أراد أعداء الله أن يخرِّبوا مقدسات المسلمين ويعبثوا بجسد النبي ﷺ. دفعهم إلى إجرامهم هذا حقدهم على الإسلام الذي يحرق أكبادهم، لكن الله تعالى تكفَّل بحفظ دينه وعصمة نبيه ﷺ فقيض له رجالاً كبطلنا.

وما إن سمع صلاح الدين بذلك حتى أرسل إلى نائبه على مصر أخوه الملك العادل وأمره أن يجهز أسطولاً لرد هذه الشرذمة الباغية فأرسل الملك العادل إلى أمير البحر حسام الدين لؤلؤ فخرج في أسطوله فقال: ''شأنكم! شأني بهم. إيتوني بمائة قيد''.

ثم خرج بالأسطول الإسلامي يمخر عباب البحر منطلقًا كالسهم المارق نحو هدفه قد هاجت نفسه وتدفقت في شرايينه قوة هائلة أشعلها نور الإيمان النابع من قلبه المؤمن الواثق بربه فانطلق ورجاله ففكَّ حصار حصن أيلة وقتل وأسر جند أرناط بها، ثم اتجه نحو عيذاب يشتد كالطير في أثر أرناط وجنده فلم يجد هناك سوى ما خلفوه من خراب ودمار وأشلاء ممزقة للحجيج الأبرياء فأسرع إلى ساحل الجوزاء فلحق بهم وقد نزلوا البر متجهين نحو المدينة المنورة لم يفصلهم عنها إلا مسيرة يوم واحد .

وكانوا نيفًا وثلاثمائة مقاتل في كامل عتادهم، ففاجأهم حسام الدين في عشرة أفراد وبقوة اليقين والإيمان وما تحرَّق به قلوبهم من الغيرة على دين الله وحرمة رسوله ﷺ انتفضوا فصاروا كالأسود الجريحة وسبحان الله الذي ينصر عباده المؤمنين ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وألقى الله في قلوب الذين كفروا الرعب ففرُّوا من أمامهم كالجرذان المذعورة وهربوا إلى الجبال وانقض عليهم جند الله يقتلونهم ويأسرون منهم، وفر أرناط عليه من لعنة الله ما يستحقه وفرَّ عدد

(١) كانت هذه هي المحاولة الثانية من أرناط لغزو المدينة وتخريبها فقد سبق له أن جهز جيشًا قبلها بعام يتجه إلى تيماء ثم إلى المدينة ليغزوها ويخربها، لكن عز الدين فروخشاة نائب السلطان بدمشق أسرع إليه فصدد وهو يهم بالخروج من حصن الكرك.

قليل من جنده لائذين بأرواحهم من الموت المحقق. ووالله لقد أتى لؤلؤ ومن معه بمثل المعجزة وتحققت على أيديهم كرامة عجيبة ولا عجب فإن الناصر هنا هوُ الله الذي غضب لنبيه ﷺ.

وعاد حسام الدين بمائة وسبعين أسيرًا وقد ربطهم في الأغلال وعقد طرف الحبل في ذنب فرسه ودخل بهم القاهرة في شهر ذي الحجة سنة خمسمائة وثمانٍ وسبعين (١١٨٣م) .

وقد عاين ابن جبير ذلك بنفسه وقال: ''كان يوم دخولهم القاهرة يومًا مشهودًا وقال: كانوا يضعونهم على الجمال وجوههم إلى أذنابها فطافوا بهم في معظم أنحاء البلاد ثم قُتلوا جميعًا''[١]. نكالاً لهم فكان هذا جزاؤهم العادل في الدنيا تمهيدًا لما ينتظرهم من عذاب الله يوم القيامة. وكان في إفساد خطتهم قضاءً تامًا لأي محاولة للصليبيين لورود ماء البحر الأحمر.

كما كان لحسام الدين لؤلؤ دورًا كبيرًا في فتح بيت المقدس ٥٨٣هـ (١١٨٧م) حيث أسند إليه صلاح الدين مهمة حراسة الشواطئ العربية وقطع الطريق على مراكب الفرنج والاستيلاء عليها، وقد أتم أمير البحر عمله على خير وجه فأحكم قبضته على البحر المتوسط وقضى على أي محاولة لتقدم سفنهم في البحر.

كما استطاع في منتصف ذي القعدة سنة خمسمائة وخمس وثمانين (١١٨٩م) في خمسين قطعة بحرية أن يدمر الأسطول الصليبي بكاملة أثناء قيام صلاح الدين بإعداد جيشه لفتح عكا.

لقد كان البطل العظيم أمير البحر حسام الدين لؤلؤ قوة عظيمة في ميزان الإسلام نصر الله به الإسلام وأعزَّه بيديه.

رحمه الله وجزاه خيرًا على حسن فعاله لما أسداه للإسلام والمسلمين.

(١) ذكره ابن خلدون في تاريخه، وابن الأثير في الكامل والمقريزي في خططه.

سيف الدين قطز

هو قطز بن عبد الله المعزى ثالث ملوك الترك المماليك، لقب بالمالك المُظَفَّر، وعُرف بسيف الإسلام. قيل أن اسمه محمود بن ممدود، وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاة ووريثه في الملك، فلما غلب التتار[١] بلاده سُبِيَ وبيع بدمشق وانتقل إلى القاهرة[٢]. كان مملوكًا للمعز أيبك التركماني، وترقَّى في المناصب حتى صار أتابك العسكر[٣] في دولة المنصور بن المعز.

ثم قام قطز بخلع المنصور وتولى السلطنة يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة سنة ستمائة وسبع وخمسين (١٢٥٨م) هو البطل الذي حمل على عاتقة أمانة حفظ الإسلام والذود عنه فنصره الله وحفظ به الإسلام.

من عناصر شرف هذا الملك أنه لم يحارب ليتولى السلطة بل تولى السلطة من أجل الجهاد. ظهر في فترة اشتدت بها الخطوب واتسعت الخلافات في صفوف الأمة ففي العراق دبَّ الضعف والوهن في أوصال الخلافة العباسية، أما الشام فكانت تقتسمها سلطات ثلاث: سلطة الفرنج الذين كانوا يبسطون نفوذهم على الشريط الساحلي، وسلطة الأرمن المسيحيين، وسلطة الحكام المسلمين الأيوبيين الذين بدوا في

---

(١) التتار: قبائل من البدو كانت تعيش في الهضبة الآسيوية الشاسعة الممتدة من أطراف الصين إلى أواسط آسيا وهى منطقة واسعة تغلب عليها السهول والأراضي ذات المراعي المتغيرة لذا فقد احترف أهلها الرعي واكتسبوا مهارة فائقة في ركوب الخيل ولم يرغبوا في الاستقرار أو بناء المدن الكبيرة بل ظلت جموعهم تضرب في الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال قرب التركستان وقد استطاع جنكيزخان (حاكم الحكام) أن يوحِّد هذه القبائل وتُوج ملكًا عليهم عام ١٢٠٦م وجعل عاصمة مملكته قرة قدم وكان يعقد لهم اجتماع مغولى سنوى عرف باسم قور يتلاى وقام بوضع دستورًا له اسماه الياساق حيث اخضعهم لطاعته وتوعد بالعقوبة الشديدة من يعصاه وحشد جيوشه لضم البلاد المجاورة فغزا الصين عام ١٢١٥م ثم وصل إلى نهر هوانجهو وغزا بلاد الدولة الخوازمية ودمرها كبخاري وغيرها ومات سنة ١٢٣٧م في سن الرابعة والستين. ثم جاء حفيده هولاكو ليواصل غزوه.

(٢) النجوم الزاهرة وفوت الوفيات.

(٣) قائد الجيش.

خلاف وشقاق فكانت دمشق وحلب للملك الناصر بن العزيز بن الظاهر، وكانت بلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل وكان كلاهما قدعزم على ضم مصر إلى سلطانه بعد ما انتابها من ضعف فقد تتابع عليها الملوك في فترة وجيزة فقد توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وقُتل ولده الملك المعظم توران شاة ثم حكمت أرملة أبيه شجر الدر التي تزوجت من الأمير المعز أيبك التركماني الذي نُصِّب حاكما لمصر سبع سنين ثم كان مقتله عن طريق مؤامرة دبرتها زوجته مع خدمها ثم قُتلت هي الأخرى بمؤامرة مماثلة وأخيرًا تولى الملك المنصور بن أيبك التركماني وعمره خمس عشرة سنة فلم يكن قادرًا على تحمل مهام الحكم لذا طمع في مصر ملوك الشام ومعهم الأمير ركن الدين بيبرس البند قداري.

أما على الصعيد الخارجي فقد كانت الأمة الإسلامية كسفينة تائهة بلا شراع في بحر لجي بليلة عاصفة فقد تقدم هولاكو[1] يقود التتار في زحفهم فملكوا سائر بلاد الروم وخراسان في عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ثم تقدموا فدخلوا بغداد عام ٦٥٦هـ (١٢٨٥م) فأعملوا السيف في أهلها أربعة وثلاثين يومًا ثم نزلوا بظاهر بغداد في العاشر من المحرم وأحرقوا كتب العلم وبنوا بها جسرًا بعد أن خلطوها بالطين والماء عوضًا عن الأجر[2].

ويقول الذهبي في تاريخ الإسلام: ''قيل إن هولاكو أمر بعدِّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف (مليون وثمانمائة ألف) ويقول الذهبي: والأصح عندي أنهم بلغوا ثمانمائة ألفًا''. وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله وأهله وأكابر دولته وعلمائها.

ثم تقدم التتار إلى جزيرة العرب فاستولوا على حرَّان والرُّها وديار بكر عام

---

(١) هولاكو بن طولوى بن جنكيزخان، تولى حكم المغول بعد موت أبيه وكان أعظم ملوك التتار وأكثرهم سطوة فتح بلاد خراسان وأذربيجان والعراق والموصل وديار بكر والشام وبعض بلاد الروم وكان لا يدين بدين إلا أن زوجته كانت نصرانية، وكان موته بمرض الصرع الذي كان يعتريه سنوات طويلة حتى أصبح يتغشاه في اليوم الواحد مرة أو مرتين أو ثلاث فأقعده شهرين ثم مات سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) وكان عمره ستون سنة بعد أن أنجب سبعة عشر ولدًا فأخفوا موته عن الناس حتى حضر ابنه أبغا ونصبوه مكانه.

(٢) الأجر: الحجر.

٦٥٧هـ (١٢٥٩م) ثم عبروا الفرات على جسور أقاموها حتى بلغوا حلب في الثاني من شهر صفر عام ٦٥٨هـ فحاصروها سبعة أيام ثم أعطوا الأمان لأهلها فلما فتحوها غدروا بهم وقتلوا جميع أهلها وفعلوا بها ما فعلوه ببغداد .

ثم أرسل هولاكو قائد جيشه كتُبغا نوين[1] إلى دمشق فاستولى عليها دون مقاومة تذكر بعد أن فرَّ ملكها السلطان الناصر وخاصته ودخل التتار دمشق كما دخلوا حلب بأمان ثم غدروا بأهلها وفتكوا بهم، وتقدم المغول فوصلوا نابلس ثم الكرك وبيت المقدس وبلد الخليل إبراهيم عليه السلام وتقدموا إلى غزة دون مقاومة وكانوا يقتلون كل من وجدوه ويسبون النساء والصبيان كما أخذوا من الأغنام والماشية شيئًا كثيرًا. وكان التتار في خلق كثير من المغول والكُرج[2] والعجم وغيرهم لم يستطع مؤرخ أو مرجعي أن يحصى عددهم، ما قصدوا إقليمًا إلا دخلوه ولا عسكرًا إلا فلُّوه[3] ولم يبق خارج حكمهم إلا مصر والحجاز واليمن. (انظر خريطة رقم (٣١) .

وكان التتار لما وصلوا غزة اضطر هولاكو فجأة إلى مغادرة الشام وذلك لسببين:

السبب الأول: علمه بموت أخيه الأكبر "منكوقا آن" وتنازع أخويه "قوبيلاى"، و"أرريق بوكا" على ولاية العرش،

والسبب الثاني: أن مملكته أصبحت مهددة من جهة القوقاز من قِبَل ابن عمه بركة خان ملك القبجاق[4] الذي اعتنق الإسلام وأعلن الحرب عليه انتقامًا لما فعله بالمسلمين ببغداد وحلب وغيرها.

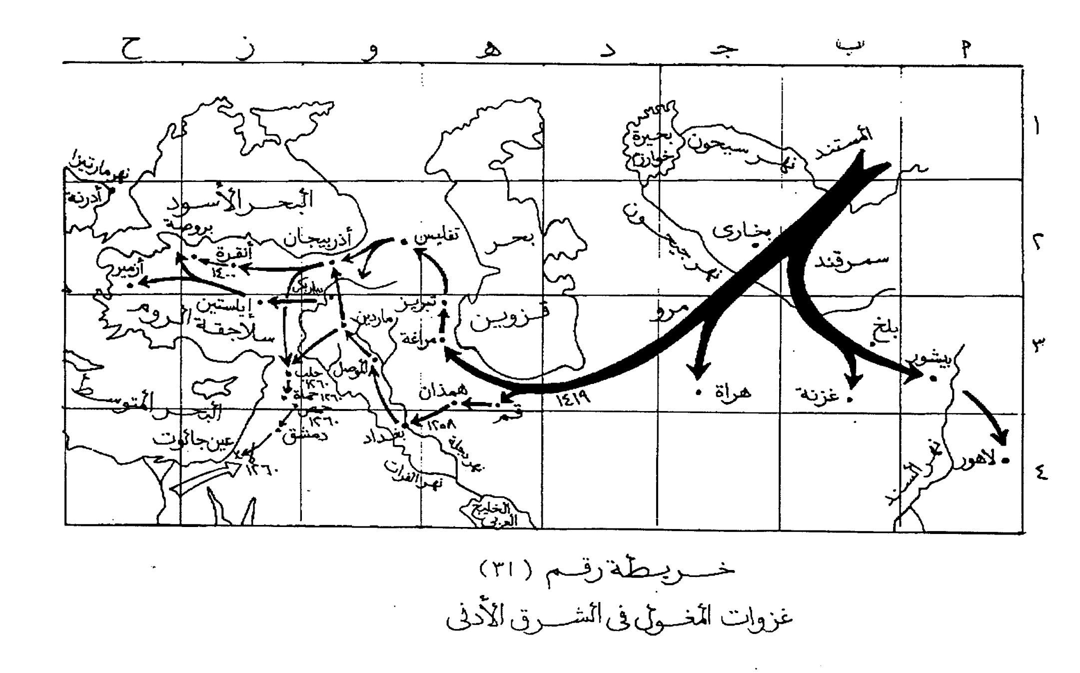
---

(١) كتبغا هو اسمه ونوين لفظ فارسي يقرن بأسماء وقواد التتار ويعني أمير عشرة آلاف من الجند، وكتبغا كان مقدم عسكر التتار وكان ذو رأي وتدبير لدى التتار وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به وكان مقدامًا خبيرًا بالحروب وافتتاح الحصون، وكان يدين بالنصرانية.

(٢) أقوام من النصارى كانوا يسكنون جبال القبق وقد ملكوا مدينة تفليس وكانوا يسمون ملوكهم "برزينان" وقد ظلوا حتى أخرجهم عنها خوارزم شاه جلال الدين. (معجم البلدان ٥٠٦/٤)

(٣) فلوه: كسروه.

(٤) القبجاق: قبيلة عظيمة من الترك معناها أمير فهد شمال شرق بحر قزوين.



خريطة رقم (٣١)
غزوات المغول في الشرق الأدنى

وكان هولاكو في نيته أن يكتفي بما وصل إليه من غزو لكن إلحاح الصليبيين الذين وجدوا في المغول حليفًا قويًا يستطيع أن يسترد لهم بيت المقدس من أيدي المسلمين جعل هولاكو يوافق أن يترك قائده كتبغا لإتمام هذا العمل وكان كتبغا يحسن النوايا للنصارى لا لكونه مسيحيًا فحسب بل لأنه تعاون مع الغرب لتكون حلف إفرنجي مغولي[١] لذا أخذت حملة هولاكو صفة الحرب الصليبية الأرمينية المغولية كما اشتركت بالفعل فرقة أرمينية مسيحية من مسيحي الشرق مع المغول في حروبهم[٢].

وإن كان هذا التحالف قد تم بصورة جزئية غير كاملة وذلك بسبب معارضة بعض زعماء النصارى الغربيين لهذا الحلف العسكري والخلاف الذي دَبَّ بين بارونات عكا النصارى وبين التتار عندما سهلوا حركة مرور قطز ومن معه من أراضيهم.

لكنها كانت خلافات بسيطة لأن الهدف كان واحدًا وهو القضاء على الإسلام في المنطقة لذا فرحت أوروبا الصليبية بانتصار التتار على المسلمين وكان البابوات وحكام أوروبا يظرون إلى التتار وكأنهم حلفاؤهم في حرب المسلمين فقد دعا ''لويس التاسع'' بعض أمراء التتار لزيارة فرنسا وفاوضهم على عقد اتفاق عسكري ينص على قيام التتار بغزو العراق والقضاء على الخلافة العباسية في حين يحمى الصليبيون الغزو التترى من الجيوش المصرية لمنع نجداتهم للمسلمين في آسيا.

وفي سنة ٦٤٦هـ (يناير ١٢٤٩م) أرسل ملك فرنسا ''لويس التاسع'' هدايا ثمينة إلى كتبغا أمير التتار حملها وفد رفيع المستوى يرأسه الراهب الدومنيكى ''أندريه دي لونجيمو'' وكانت من بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس وصورة للسيدة العذراء ونماذج مصغرة لعدد من الكنائس.

---

(١) وقد سعى إلى هذا التحالف حكام النصارى في غرب آسيا حيث رأي "هاتون الأول" ملك أرمينية أن الفرصة سانحة للإنضمام إلى المغول في قتالهم للمسلمين فيستخلصوا من المسلمين الشام بوجه عام، وبيت المقدس بوجه خاص، ولأن الملك "بوهيمند السادس" ملك أنطاكية كان حليفًا لجاره وصهره "هاتون الأول" فقد دخل كذلك في الحلف المغولي، كما كان لزوجة هولاكو المسيحية دوكس خاتون (دوقوز خاتون) أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين زعماء المسيحيين وهولاكو ولا يُغفل دور كتبغا النصراني في ذلك.

(٢) النجوم الزاهرة ص٥١ نقلاً عن مؤرخ المغول الهمذاني.

ويقول الأسقف دي مسنيل[١] نائب مدير البعثات التبشيرية في روما في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية: "اشتهر هولاكو بميله إلى النصارى النسطوريين[٢] وكانت حاشيته تضم عددًا كبيرًا منهم من بينهم قائده الأكبر كتبغا الذي كان نصراني نسطورى كما كانت الأميرة "دوكس خاتون" زوجة هولاكو نصرانية أيضًا، وقد لعب نفوذ هذه الأميرة على زوجها دورًا خطيرًا، تفحز به الكنيسة في تجنب أوروبا النصرانية أهوال الغزو التترى وتوجيه غزوهم إلى العرب المسلمين في الشرق العربي، كما لعبت الأميرة دورًا في إغراء زوجها باحتلال سوريا الإسلامية".

ويصف الأسقف حملة التتار فيقول: "لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نصرانية نسطورية، قد هلل لها الغرب وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده النصراني كتبغا الذي تعلّق أمل الغرب بجيشهما، ليحقق له القضاء على المسلمين وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم العرب والمسلمين"[٣].

ونجد أثر التعاون بين النصارى والتتار واضحًا في البلاد الإسلامية التي داهمها التتار ففي بغداد ذبح التتار المسلمين في حين أمَّنوا النصارى على أرواحهم وأموالهم، وعندما دخل التتار دمشق زار كتبغا كنائس النصارى وأقام شعائرهم وعظّم دينهم، وذهبت طائفة منهم إليه بالهدايا وأظهرت الولاء والطاعة فأعطاهم الأمان بفرمان من هولاكو فاستطال النصارى على المسلمين بها ودخلوا المدينة من باب توما وصلبانهم مرتفعة ينادون بارتفاع دينهم وانخفاض دين الإسلام وطافوا بأرجاء المدينة يحملون صليبًا كبيرًا على رؤوس الناس ولا يمرون على باب مسجد إلا رشُّوه بالخمر ولا يمرون

(1) Du Masnil.

(٢) طائفة من المسيحيين ينتسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينية، سكنوا الموصل وأرمينيا ونشروا المسيحية في إيران والصين والهند. (البلدان ١٦).

(٣) مجلة الأمة (العدد ٢١) بتاريخ رمضان ١٤٠٢هـ/ يوليو ١٩٨٢م نقلاً عن المصدر المذكور.

على جمع من المسلمين إلا وسكبوا على رؤوسهم الخمر وألزموا المسلمين بالقيام في الأسواق والطرقات لصليبهم هذا، ودخلوا كنيسة السيدة مريم يتعبدون بأمان يطلقون نواقيسها فحدث همٌّ وغمٌّ عظيمين عند المسلمين وتوجَّه وفد من المسلمين في ثاني وعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ إلى مقر حاكم التتار ليتظلموا عنده فأهانهم ورفع النصارى عليهم وأخرجوهم ضربًا وسبًّا[1].

وبعدما استعرضنا في هذه المقدمة توصيف الأحداث على الصعيدين الداخلي والخارجي تتبين صعوبة مهمة قطز في تلك الفترة الحرجة التي لم يجد أهل الإسلام من هو أجدر منه لتولى أمر المسلمين.

فلما بلغ أهل مصر تقدمَ التتار وبلوغهم حدود مصر ووصلتهم رسالة صاحب حلب يستنجد بهم على قتال التتار، بينما كان يحكم مصر الملك المنصور بن المعز أيبك وكان صبيًا صغيرًا، فجمع قطز أتابك الجيش المصري والعلماء والفقهاء والأعيان وكان فيهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجارى قاضي الديار المصرية وغيرهم من العلماء وأجمعوا على عزل السلطان الصغير وتولية قطز مكانه لأنه كان شهمًا شجاعًا لا يصلح غيره لقيادة الجيش الإسلامي نحو الجهاد.

وتسلطن قطز يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) ثم استدعى ركن الدين بيبرس البندقدارى من غزة وأنزله دار الوزارة وجعله أتابك العسكر وفوَّض إليه جميع أمور المملكة وأقطعه قليوب وأكرمه وأكرم جماعة المماليك البحرية.

وقبل مغادرة هولاكو لبلاد الشام أرسل رسولاً في أربعين رجلاً برسالة إلى قطز حاكم مصر على غرار الرسالة التي أرسلها إلى الملك الناصر صاحب الشام، وقال هولاكو في رسالته: ''من ملك الملوك شرقًا وغربًا القائد الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من الجنس المماليك الذين هربوا

(١) النجوم الزاهرة والبداية والنهاية.

من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال إنَّا نحن جندُ الله في أرضه. خَلَقَنَا من سخطه. وسلَّطنا على من حلَّ به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر. فاتعظوا بغيركم! وأسلموا لنا أمركم! قبل أن ينكشف الغطا فتندموا ويعود عليكم الخطا، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكي، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهَّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟! فمالكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع. فإنكم أكلتم الحرام، ولا تَعُفُّون عن الكلام وخنتم العهود والإيمان. وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أمننا سلم، فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتكم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حَذَّر من أنذر. وقد ثبت عندكم أنَّا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفَجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدَّرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا بردِّ الجواب، قبل أن تضرم الحربُ نارها، وترمي نحوكم شَرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًّا، ولا كافيًا ولا حِرازًا، وتُدْهَونَ منَّا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذَّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى"[1].

وبعد هذه الرسالة الطويلة التي عكست الحرب النفسية التي يستغلها التتار دائمًا

(١) النجوم الزاهرة نقلاً عن مختصر الدول لابن العبري، كما أوردها السيوطي في تاريخ الخلفاء والمقريزي في الخطط.

في صالحهم قبل كل حرب، تُرى ماذا كان جواب السلطان قطز؟ الحقيقة إن جوابه كان قاطعًا لا يحتمل سوى معنى واحد هو القتال والجهاد الذي لم يتولَ السلطنة إلا من أجله فما إن فُضت الرسالة حتى قال قولته الحاسمة: ''إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعًا إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون مسلمين أمام الخلق''، ثم أمر بإعدام هؤلاء الرسل فأعدموا توسيطًا[١] كل مجموعة منهم أمام باب من أبواب القاهرة على مشهد من الناس، وعُلقت رؤوسهم على باب زويلة وبذلك قطع قطز خط الرجعة على أي متخاذل وشدَّ عزم رجاله بعد أن أصبح لا مناص عن الحرب.

وبعد أن قتلهم أبقي منهم على فرد أو اثنين قرر أن يستخدمهما في حرب نفسية ضد التتار وذلك بأن يُطاف بهم ليروا استعدادات الجيوش وتدريباتهم ثم يرسله إلى قومه فينقل له صورة عن قوة جيش المسلمين وتفوقهم. وعقد قطز مجلس الحرب[٢] وهو ما يعرف الآن بمجلس الأمن القومي وكان في دار السلطنة بقلعة الجبل. وتحدَّث الشيخ العز بن عبد السلام فقال:

''إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام، وَجَبَ على الناس قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص[٣] المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا يجوز''.

فكان لابد قبل استنصار الله تحقيق العدل داخل البلاد على نحو يرضي الله تعالى، وهكذا كان قطز المؤمن المطيع لأمر الله تعالى نجده يقدم رجال مشورته فيحكمون بأمر

---

(١) أي أن يضرب وسطه بالسيف فيقسمه نصفين وهو أشد نكاية من ضرب العنق.

(٢) كان الغرض منه المشورة قبل الإقدام على الحرب وجعل إعلان الحرب أمرًا مشروعًا وكان برئاسة السلطان وبعضوية كل من أتابك العسكر وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم ٢٤ أميرًا (الخطط للمقريزي).

(٣) الحوائص: جمع حياصة وهو حزام الفرس وحزام الرجل أيضًا وكان من عادة السلطان أنه إذا ركب للعب الكرة والصولجان بالميدان فرّق حوائص من ذهب على بعض الأمراء (السلوك المقريزي).

الله ولا يخشون في الله لومة لائم فسمع لهم وأطاع وأخذ مشورتهم مأخذ الأمر النافذ فأقرها على نفسه وخاصته أولاً ليحقق القدوة لأمرائه ورعيته، وأمر رجاله بالمعروف ونهاهم عن المنكر وخرج الجيش المصري تائبًا منيبًا طاهرًا من الذنوب ليستحق نصر الله، وانتقلت هذه الشفافية الروحية إلى جميع فئات الشعب وكان شهر رمضان قد أقبل فامتلأت المساجد ولجأ الناس إلى الله تعالى بالدعاء وإخلاص العمل وأقلعوا عن الذنوب والمعاصي فما وُجد سارقًا أو شارب خمر.

كما كان لشجاعة الرجل وتصميمه على الحرب أقوى الأثر في نفوس جنده وقادته، كما كان واثقًا في ربه موقنًا بنصره.

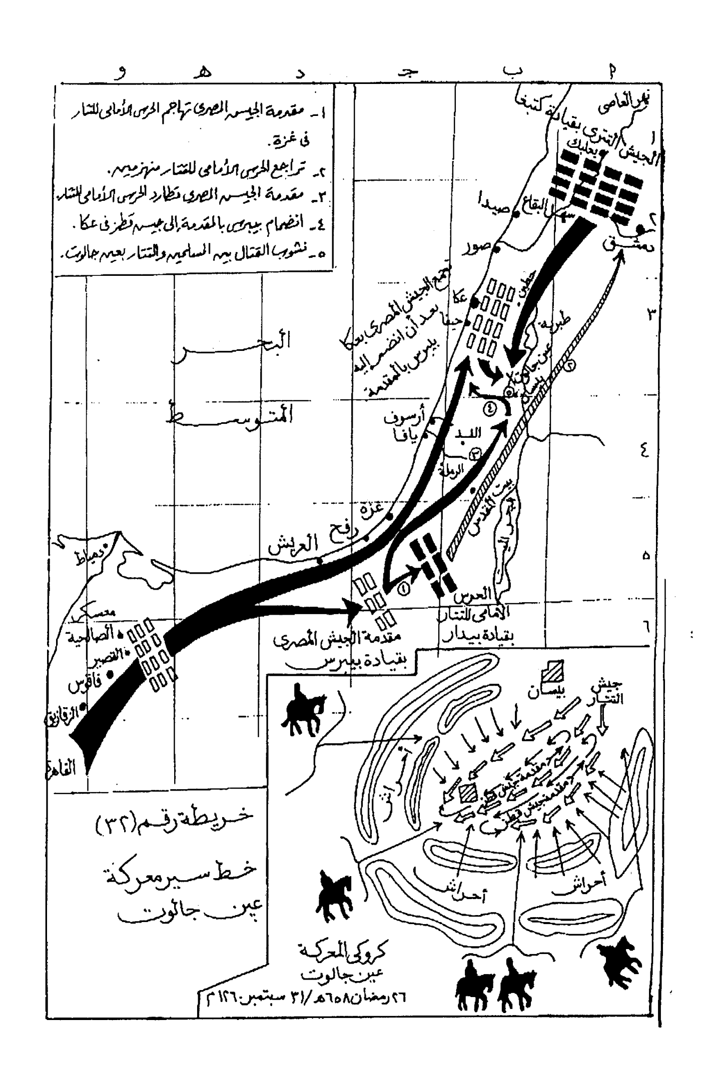
ويقول ابن الأثير أن حسام الدين البركزخاني لقيني بالشام وكان قطز قد تسلطن فقال لي: ''قطز تسلطن وتَمَلَّكَ الديار المصرية ويكسر التتار''. فتعجبت من حديثه وقلتُ: ''من أين لك هذا؟!''، فقال: بينما كنا صبية قلتُ له: ''والله ما أشتهى إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارسًا''، فقال لي قطز: ''طَيِّبْ قلبك! أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا''. فقلتُ له: ''ويلك! كيف تعطيني ذلك؟!''، قال: ''أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت''. قلتُ: ''ويلك أنت مجنون؟!''، قال: ''رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام وقال لي أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار. وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه''. قال: ''فسكتُّ، وكنتُ أعرف منه الصدق في حديثه وأنه لا يكذب''.

قال ابن الأثير: ''فرأيت حسام الدين البركزخاني بالديار المصرية بعد كسر التتار وقد أعطاه قطز ما أراد''[١].

وبدأ قطز يحشد قواته فخرج يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ستمائة وثمان وستين (١٢٦٠م). (انظر الخريطة رقم (٣٢) .

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى.



١- مقدمة الجيش المصري تهاجم الحرس الأمامي للتتار في غزة.
٢- تراجع الحرس الأمامي للتتار منهزمين.
٣- مقدمة الجيش المصري تطارد الحرس الأمامي للتتار.
٤- انضمام بيبرس بالمقدمة إلى جيش قطز في عكا.
٥- نشوب القتال بين المسلمين والتتار بعين جالوت.
البحر المتوسط
دمشق
صيدا
صور
عكا
حيفا
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
غزة
رفح
العريش
دمياط
الصالحية
القصير
فاقوس
الزقازيق
القاهرة
بيت المقدس
طبرية
عين جالوت
بيسان
تجمع الجيش المصري بعكا بعد أن انضم إليه بيبرس بالمقدمة
مقدمة الجيش المصري بقيادة بيبرس
الحرس الأمامي للتتار بقيادة بيدار
جيش التتار
أحراش
كروكي المعركة عين جالوت
٢٦ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م
خريطة رقم (٣٢)
خط سير معركة عين جالوت

فنزل معسكر الصالحية ثم استنفر الناس للقتال فنُودي في القاهرة وسائر أقاليم مصر بالجهاد واجتمع له الأجناد فلما تكامل حشد قواته عزم أن يخرج إلى التتار ولا ينتظرهم حتى يدخلوا مصر فيجنب مصر خطرهم ويرفع معنويات جنده ويوهن معنويات التتار الذين لم يعتادوا من أعدائهم إلا على الدفاع، وقام قطز في الناس خطيبًا وكان قد تثاقل بعض الأمراء عن الخروج، فقال: ''يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين''.

ثم حذر الناس ووضح لهم خطورة الموقف وأخذ يستحث الناس على الخروج وهو يبكي فضج القادة بالبكاء وعزموا على بذل الأرواح فداءً للإسلام فما تخلف شابًا ولا كهلاً من مصر والشام عن الجهاد.

وأرسل قطز طليعة جيشه بقيادة بيبرس فتحرك في شهر رمضان سنة ستمائة وثمانٍ وخمسين (١٢٦٠م) فنزل بغزة وكان بها جموع التتار بقيادة ''بيدار'' الذي ما إن عاين زحف المسلمين حتى أرسل إلى قائده كتبغا الذي كان في سهل البقاع[١] فردَّ عليه أن قف مكانك وانتظر حتى يوافيه بجيشه لكن بيبرس لم يمهله فداهم جيش ''بيدار'' قبل وصول كتبغا فاسترد غزة من التتار وطاردهم حتى نهر العاصى وبذلك تمكن المسلمون من تدمير الحرس الأمامى للتتار.

ويقول عميد أركان حرب محمود نديم فهمى: بالرغم من أن معركة غزة لم تزد عن كونها معركة تكتيكية بين مفرزة[٢] الجيش المملوكي والحرس الأمامي لجيش التتار إلا أنها عكست عبقرية قطز الحربية لأنه زحف بمقدمة جيش وليس كما كان معتادًا أن

---

(١) سهل يقع في لبنان بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية وهو من السهول العالية تتخلله شبكة من الأنهار كالعاص والليطاني وروافد يهما ومن أهم مدنه بعلبك.

(٢) المفرزة: مقدمة الجيش.

يتم بواسطة طلائع محدودة أو جواسيس وهذا شيئًا جديدًا لم يشاهد قبل ذلك فقد تحققت المفاجأة التكتيكية غير المتوقعة بمهاجمة مقدمة التتار ومن هنا كانت المفاجأة فقد كانت كل الجيوش التي واجهتهم تقوم بتجهيز قتالي الغرض منه الدفاع فقط وذلك بتأمين الدفاع وراء الأسوار، لكن المبادأة الاستراتيجية والمفاجأة التكتيكية التي حدثت بمهاجمتهم تعد المرة الأولى من نوعها مما أحدث لهم الهزيمة ومن هنا ارتفعت الروح المعنوية للمسلمين.

وقد كان هذا الهجوم أول مرحلة قتالية من الخطة الاستراتيجية في مواجهته مع التتار، كما عكست هذه الخطوة كياسة قطز وبعد نظره أنه قد أمر جنده بعدم استثارة الصليبيين أثناء المرور بأراضيهم(١) وهو يعد أرقي أنواع التجهيز لخلق أفضل ظروف للقتال فلا تتشتت قواته بمحاربة عدوين في الوقت ذاته(٢).

ثم تحرك قطز بجيشه فانضمت إليه مفرزة بيبرس فعسكر بعكا وعقد مؤتمرًا حربيًا حضره رؤساء الفرق العسكرية وكان الجيش المصري متجمعًا عند أسوار عكا.

ويقول عميد أ.ح. محمود نديم فهمي: يعد هذا المؤتمر الحربي الذي عقده قطز لقادته وجيشه لعرض خطة الحرب عليهم هو أحدث ما وصل إليه الفن الحربي تكتيكيًا واستراتيجيًا حيث يعرض فيه القائد قراراته على مرؤوسيه ويلقن كل جندي مهمته، وبعد أن انهي اجتماعه استغل هذا الجمع ليثير حماسهم ويحثهم على عدم التهاون في محاربة عدوهم حتى لا يصيبهم ما أصاب من قبلهم ويحذرهم من عقوبة الله تعالى لمن يخذل دينه فثارت حميتهم وصمموا على القتال لآخر رمق وبذلك فجَّر فيهم الروح المعنوية(٣).

وتحرك الجيش الإسلامي في معيَّة الله تعالى ورعايته وقَدَّمَ بيبرس بقوة المقدمة طليعة

---

(١) كان الصليبيون يحتلون ساحل الشام على البحر المتوسط فلما مر بهم جيش المسلمين استأذنوا حكومة عكا الصليبية في السماح لجيشه بالعبور لمحاربة التتار فأذنوا لهم.

(٢) الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي للعميد أ.ح. محمود نديم.

(٣) المرجع السابق.

لجيشه لمناوشة التتار واستطلاع أخبارهم حتى لحق بهم قطز بجيشه في عين جالوت[١].

حقًا لقد كان الوضع صعبًا و لم يكن في مقدور أكثر الناس تفاؤلاً أن يرى أي بادرة لنصر فقد كانت كل الحسابات العسكرية تؤكد تفوق التتار ورجحان ميزان القوة لصالحهم فقد كان للتتار خبرة طويلة في القتال لما خاضوه من عشرات المعارك بينما كانت خبرة جيش مصر بالمعارك أقل والجيش المجرب أفضل من الجيش قليل التجربة، وكانت معنويات التتار مرتفعة قادةً وجندًا لأنهم يتقدمون من نصر لنصر لم تنكّس لهم راية و لم يهزموا قط، وكان جيش التتار متفوقًا في العدد والعدة وكان تعداد الفرسان كبير لدرجة مفزعة مما ييسر لهم سرعة الحركة ويؤدى إلى تطبيق حرب الصاعقة أو الانقضاض الذي كان من سمات حروبهم ومن المعروف أن الجيش سريع الحركة يهزم الجيش البطيء.

كما كانت مواضع جيش التتار في عين جالوت أفضل من مواضع الجيش المصري بحكم احتلالهم أرض المعركة ووفودهم عليها أولاً، كما كان جيش التتار متفوقًا في قضاياه الإدارية إذ كان يعتمد على قواعد قريبة من أرض الشام بينما كانت قواعد الجيش المصري بعيدة فالمسافة بين مصر وعين جالوت طويلة وخاصة في تلك الأيام التي كانت القضايا الإدارية تنقل على الدواب مخترقة الصحاري والوديان وكل ما تقدم يؤكد بلا شك رجحان كفة التتار وصعوبة موقف جيش قطز[٢].

وفي صباح يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ستمائة وثمان وخمسين (٣ سبتمبر ١٢٦٠م) دار القتال والتقى الجيشان وكانت خطة المسلمين أن يتقدم بيبرس بالمقدمة فيناوش التتار ثم يفر متراجعًا إلى المنطقة التي اختارها قطز للمعركة

---

(١) بلدة تقع إلى الشمال الغربي لمدينة بيسان على مسافة عشرة كيلو مترات من نهر الجالوت وقربها عين ماء باسمها= =وكان السكان المحليون يعرفونها باسم عين جالود [الموسوعة الفلسطينية (٣٦٨/٣) ومعجم البلدان لياقوت الحموى].

(٢) لواء أركان حرب محمود شيت خطاب مُقال منشور بمجلة الأمة رمضان ١٤٠٢هـ ص١٠.

والتي أخفي أغلب قواته النظامية بين تلالها وشعابها وخلف أحراشها وانطلت[1] الخدعة على التتار ووقعوا في ذلك الشرك الذي نُصب لهم.

ويقول عميد أ.ح. محمود نديم فهمي: طبقت القوات المملوكية مبدأ المفاجأة الاستراتيجية بنقل المعركة خارج الأراضي المصرية، وتكتيكيًا باستدراج التتار إلى الأرض التي اختارها قطز والتي أخفي حولها قواته الرئيسية، فحمل كتبغا بكل رجاله على المسلمين ووقع في خطأ أنه لم يحتفظ باحتياطي خفيف الحركة وهو مبدأ أساسي من مبادئ الحرب تغاضى عنه قائد التتار فتولدت الهزيمة، كما كان للمماليك مبدأ تكتيكي آخر هو مبدأ لا بديل عن النصر إلا الشهادة لهذا حسم القتال لصالح المسلمين[2].

لكن كثرة أعدادهم المفزعة مع سرعة حركتهم جعلهم يثبتون أمام المسلمين وكان القتال شديد لم يُرَ مثله وانقض التتار على المسلمين وكسروا الميسرة كسرة شنيعة لكن هنا تظهر صلابة القادة وأصالة معادنهم فصمد قطز وحمل بنفسه عليهم وقد ألقي خوزته وأخذ يصيح: "وإإسلاماه" وتجمعت حوله قواته وأسرع لنجدة الميسرة حتى تحايلت ورجعت واستأنف قطز الهجوم المضاد بقوات القلب التي كانت تتألف من المجاهدين المتطوعين الذين خرجوا يطلبون الشهادة بإخلاص وأبلى أحسن البلاء وهو يشجع أصحابه ويحسِّن إليهم الموت والشهادة وضرب أروع الأمثلة في الجهاد فكان نعم القدوة لجنده .

ففي المعركة قُتل جواده و لم يصادف أحدًا من الأوشاقية[3] فظل يقاتل مترجلاً في شجاعة لا توصف فرآه أحد الأمراء فترجَّل له ليركب مكانه فامتنع قطز عن الركوب وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت. فقال له الأمير:

---

(١) خُدع.
(٢) الفن الحربي في العصر المملوكي.
(٣) الذين يتولون ركوب الخيل وتجهيزها.

''يا خَوَنْد[١] لو صادفك بعض المُغل وأنت راجل كنت رحتَ وراح الإسلام''، فقال قطز: ''أما أنا فكنتُ رحتُ إلى الجنة- إن شاء الله- وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه''.

ثم جاء أوشاقيًا بفرس فركبه وتوغل في صفوف المغول بشجاعة واستطاع المسلمون بكرة بعد كرة أن يزعزعوا جناحي التتار ويحصروهم وكان كتبغا يضرب بسيفين غيرة وحمية حتى قُتل شر قتله، قتله الأمير جمال الدين آقوش شمس وأُسر ابنه ففر التتار منهزمين ثم عادوا فانتظموا في بيسان واشتبكوا مع قطز ثانيةً واشتدت وطأة القتال وتأرجح النصر بين الجانبين وصاح قطز صيحة عظيمة ''واإسلاماه.. واإسلاماه.. واإسلاماه.. يا الله!! انصر عبدك قطز على التتار!'' فلما انهزم التتار نزل قطز عن فرسه ومرَّغ وجهه في التراب وقبَّل الأرض وصلى ركعتين شكرًا لله[٢].

وكان التتار قد فروا إلى مزرعة للقصب يختبئون فيها فأمر قطز جنده فأضرموا النار في المزرعة وأمر جماعة من الشجعان على رأسهم بيبرس فطاردوهم إلى أطراف البلاد ففتكوا بهم وتخطَّفهم الناس خطفًا.. وهكذا تم نصر الله لعباده المؤمنين.

ويقول الأسقف دي مسنيل واصفًا هذه الفترة: ''وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوته على الزوال يسترد مكانته ويستعيد قوته ويصبح أشد خطرًا من ذي قبل''[٣].

لقد كبت الله اليهود والنصارى والمنافقين ورد كيدهم ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى طَهُرَت بلاد الشام كلها من فلول التتار، ثم وصل الملك المظفَّر إلى حلب ودمشق فدخلها وفرح الناس بقدومه واستقبلوه في موكب عظيم وأزال المسلمون اعتداءات النصارى على مساجدهم واستعمل على الشام نوابه ثم قفل عائدًا إلى مصر.

---

(١) القائد أو الأمير.
(٢) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن وبدائع الزهور لابن إياس والسلوك المقريزى.
(٣) تمت الإشارة إلى المصدر سابقًا.

ولما بلغ القُصَير[١] وبقي بينه وبين معسكره بالصالحية مرحلة واحدة سبقه جنده فسار في نفر قليل من خاصته وكان جماعة من الأمراء قد أوغروا صدر بيبرس عليه خاصةً وأنه كان قد وعده بإمارة حلب فأعطاها غيره فجرى في نفس بيبرس منه وحشة، فانقض عليه بيبرس في جماعة من أمرائه فقتلوه قرب خيمته يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة سنة ستمائة وثمان وخمسين (أكتوبر ١٢٦٠م).

قُتل البطل.. قُتل السلطان المجاهد قطز مظلومًا وظل ملقى بالعراء والناس في ذهول، ثم دفنه خاصته بموضع وفاته..

مات و لم يملك إلا سنة واحدة، وظل الناس في مصر يتشوقون لقدومه ليستقبلوه استقبال الفاتحين لكن يشاء الله أن يصل إليهم جثة هامدة تسعى إلى مواراة التراب حيث نقلت رفاته ليدفن في القاهرة، فحزن الناس حزنًا شديدًا وبكوا عليه مُرَّ البكاء.

وندم بيبرس على قتله لما علم بالمؤامرة وما جرى من فتنة وتولى السلطنة من بعده فواصل المسيرة نحو الجهاد.

لقد كان قطز بطلاً شجاعًا مجاهدًا كأنما بعثه الله للجهاد ثم استأثر الله بجزائه فقبضه إليه مظلومًا و لم يهنأ بالسلطنة.

قال عنه الإمام الذهبي في سيرته: ''كان بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه''[٢].

---

(١) القُصير: قرية تعرف الآن بالجعافرة وهي إحدى قرى مدينة فاقوس الحالية بالشرقية.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.



هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البُنْدُقداري[١]، الصالحي النجمي الأيوبي التركي. سلطان الديار المصرية والشام والحجاز، وهو رابع سلاطين المماليك الأتراك.

وُلد في حدود ٦٢٠هـ (١٢٢٣م) بصحراء القبجاق وقد أُخذ من بلاده وبيع بدمشق حيث اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي البند قداري[٢] ثم اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقه وجعله من مماليكه وحضر معه وقعة دمياط[٣] سنة ستمائة وثمان وأربعين (١٢٥٠م) وأبلي فيها بلاءً حسنًا وانهزم الصليبيون هزيمة نكراء وأسر الملك لويس التاسع ورجال من أكابر دولته وبلغ عدد الأسرى نيِّفًا وعشرين ألفًا وأنزل الملك الفرنسي بدارا بن لقمان[٤] وعُين عليه الطواشي صَبيح حارسًا، ولم يلبث قليلاً حتى رضخ وفدته زوجته بمبلغ كبير وخرج من مصر مدحورًا بعد أن سلَّم معها خمسمائة ألف دينار. وقال ابن مطروح أحد شعراء مصر وقتها مستهزءًا بملك فرنسا:

قُــــلْ للفرنســـيس إذا جئتـــه	مقالَ صدق مــن قئــول فَصيــحْ
آجــرك الله علـــى مـــا جَـــرَى	من قَتْــل عُبَّــادِ يســوعَ المسيــحْ
أتيــتَ مصــر تبتغــي مُلْكهَـــا	تحسب أن الزمر يـــا طبـــلُ ريـــحْ

---

(١) نسبة إلى البُند قدار وهو الذي يحمل قوس البندق من خلف السلطان أو الأمير وقد لُقب بهذا اللقب لأنه كان أول الأمر مملوكًا للأمير أيدكين البُند قداري.

(٢) يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة أن علاء الدين أيدكين عاش حتى صار من جملة أمراء الملك الظاهر بيبرس.

(٣) جاء لويس التاسع بأسطوله وخمسين ألفًا من الجند في أواخر عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فنزل بدمياط ثم تقدم بجيوشه إلى المنصورة والتقى بجيش المسلمين بعد موت الملك الصالح أيوب سلطان الدولة الأيوبية وكان ولي عهده توران شاه غائبًا في الشام. وطال القتال شهرًا وضعف الصليبيون وساء حالهم لانقطاع المؤن وتفشى وباء في الخيل ثم عاد توران شاه في المحرم من عام ٦٤٨هـ فداهم لويس وجيشه ليلاً فقتل عددًا كبيرًا من جنده وأسر الملك ونحو ١٢٠ ألفًا منهم.

(٤) الدار التي كان ينزل بها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء للدولة ومن هنا عرفت باسمه.

فساقك الحَيْنُ إلى أدهَمٍ ضاق به عن ناظريك الفَسيحْ

وكلُّ أصحابك أودعتهم - بحسن تدبيرك - بطنَ الضريحْ

خمسون ألفًا لا يُرى منهم إلا قتيلٌ أو أسيرٌ جريحْ

وفقكَ الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريحْ

إن كان باباكم بذا راضيًا فرُبَّ غِشٌ قد أتى من نصيحْ

وقُلْ لهم إن أضمروا عودةً لأخذِ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيحْ

دارُ ابن لقمانَ على حالها والقَيْدُ باقٍ والطواشي صَبيحْ

وبعد هذا الانتصار الساحق قُتل الملك المعظم توران شاه، ثم حكمت شجر الدر ثم حكم الأمير المعز أيبك التركماني وبعد فترة وجيزة قُتل الأمير فارس الدين أقطاي الجَمَدَار[1] أستاذ بيبرس فخرج يصحبه عددًا من المماليك البحرية بعد أن جاهروا بالعداوة للمعز أيبك وقصدوا الملك الناصر صاحب الشام فأكرمهم.

ثم انتقل بيبرس إلى الكرك وأغرى صاحبها بغزو مصر وضمها إلى ملكه، وخرج بيبرس على رأس جيش من أهل الشام وبعض المماليك البحرية فانهزموا بعد أن تصدى لهم عسكر مصر ففر بيبرس هاربًا إلى الكرك فوقع بينه وبين صاحبها وحشة فعاد إلى صاحب الشام الملك الناصر فأقام لديه .

ولما علم أن قطز عزل الملك المنصور بن أيبك التركماني وتسلطن مكانه، أخذ يحرض صاحب دمشق على غزو مصر، فلم يجبه، ثم أرسل إليه سلطان مصر قطز دعوة كريمة يطلبه فلما جاءه أكرمه وأقطعه قليوب وجعله أتابك العسكر.

ولما تجهز جيش مصر لقتال التتار بعثه على مقدمة جيشه فحطم الحرس الأمامي لجيش التتار بقيادة بيدار وانتزع منهم غزة، ثم جعله طليعة لجيشه فناوش التتار واستدرجهم إلى ميدان القتال الذي رسمه قطز بعين جالوت فلما اجتمع عِقْد الجيش

---

(١) الجَمَدَار: شخص يُعين لدى السلطان أو الأمير يتصدى لإلباسه ثيابه، وهي كلمة فارسية تتكون من لفظين: جاما بمعنى ثوب ودار بمعنى ممسك ليكون المعنى ممسك الثياب أو حامل الثياب (النجوم الزاهرة).

لقطز أبلى بيبرس فيها أحسن البلاء وأظهر شجاعة نادرة وكان على رأس فرقة تتبعت فلول التتار المنهزمة إلى حمص فقضوا عليهم.

ولما عاد قطز إلى دمشق بعد انتصار المسلمين لم ينجزه ما وعده من إمارة حلب لكنه أعطاها صاحب الموصل فحدثت بينهما وحشه، وكان معه من المماليك من أفسد قلبه على قطز وأوغر صدره عليه فلما نزل قطز قرب الصالحية أجهز عليه بيبرس وبعض مماليكه ثم تسلطن مكانه ولقّب نفسه بالملك الظاهر.

ثم واصل ما بدأه قطز من جهاد التتار، فالحقيقة التي لا يعلمها الكثير أن عين جالوت لم تكن هي آخر عهد المسلمين بالتتار، فقد هاجم التتار ديار الإسلام بعدها وعاودوا الكرَّة مرَّةً بعد مرَّة وكان أولها عندما علم هولاكو بمقتل الملك المظفر قطز فجهز جيشًا لغزو الشام فتوجهوا إليها بحشودهم فدخلوا البيرة ثم دخلوا حلب وأسرفوا في القتل بها ثم تقدموا إلى حماة في ستة آلاف فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حماة والملك الأشرف صاحب حمص وعساكر من حلب في نحو ألف وأربعمائة فارس يوم الجمعة خامس المحرم سنة ستمائة وتسع وخمسين (١٢٦٠م) فالتقوا بحمص قرب قبر خالد بن الوليد وانتصر المسلمون نصرًا حاسمًا.

ثم عاد التتار إلى حلب وفعلوا بها ما اعتادوا أن يفعلوه من قتل وسفك، فلما علم الملك الظاهر بيبرس جهز جيشًا قاده بنفسه فسحقهم وأخرجهم من حلب وقضي على فلولهم.

ثم عاد التتار كذلك بعدها فحشدوا جموعهم تحت قيادة "قرابُغا" القائد العام لجيوش التتار على العراق، وبادر على الخوارزمي الذي استخلفه هولاكو على بغداد (شحنة بغداد) في خمسة آلاف فارس فدخلوا الأنبار سنة ستمائة وإحدى وسبعين (١٢٧٢م) فقتلوا من كان فيها ثم لقيهم جيش الخليفة العباسي المستنصر[١] فاستطاع التتار أن يغرروا بجيشه ويقتلوه.

---

(١) هو أخو الخليفة المستنصر الذي قتله التتار عندما غزوا بغداد بقياده هولاكو وكان قد تلقب بلقبه ثم جاء بيبرس ومعه القضاة والأعيان ووجوه الدولة فأثبت نسبه إلى الخليفة العباسي المقتول فبويع بالخلافة على العراق وما حولها بعد أن ظلت الخلافة العباسية شاغرة نحو ثلاث سنين ونصف بينما استقل بيبرس بمصر والشام.

ثم جمع التتار مرة أخرى حيث خرج أبغا بن هولاكو على رأس جيش قوامه بضع عشرة آلاف فارس وتجمعوا شرق الفرات استعدادًا لغزو الشام فتوجَّه بيبرس بجيشه معه مراكب مفككه عبر بها الفرات عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) فهزمهم هزيمة لا تقل عن يوم عين جالوت، وأنشد في ذلك الشاعر شهاب الدين أبو الثناء محمود:

سر حيث شئتَ، لك المهيمن جـارُ	واحكم فوفق[1] مـرادك الأقـدارُ
لم يبـق للـدين الـذي أظهرتـه	يـا ركنـه عنـد الأعـادي ثـارُ
لما تراقصتْ الـرءوس وحُركـتْ	مـن مطربـات قسـيك الأوتـارُ
رَشَّتْ دماؤهم الصعيدَ فلـم يَطـرْ	منهم على الجيش السـعيد غبـارُ
شكرتْ مساعيك المعاقلُ[2] والورى	والتُّربُ[3] والآسـاد والأطيـارُ[4]

ثم علم أن عسكر الروم والتتار اجتمعوا على نهر جيحون[5] (جيحان) في أحد عشر طُلْبًا[6] في كل طُلب ألف فارس وكان التتار قد عزلوا عسكر الروم عنهم خوفًا من باطن يكون لهم مع المسلمين وجعلوا عسكر الكُرْج طُلْبًا واحدًا، فخرج إليهم بيبرس بجيشه وكان قليل العدد فما إن بدأت المعركة حتى هجمت حشود التتار على المسلمين هجمة شرسة ونظر بيبرس فوجد ميمنة التتار وقد أتت على ميسرة المسلمين فكسرتها فحمل بنفسه في جماعة من الشجعان حملة رجل واحد فردُّوها، وكان بيبرس في جنده كالأسد الضاري يقتحم الأهوال وأخذ يحبِّب لأصحابه الشهادة ويطيب لهم الموت في سبيل الله حتى انكسر التتار والروم وفر "أبغا" ببعض جنده وأسرت أعدادًا هائلة من الروم والتتار.

---

(١) الأصل "فطوع" لكنني رأيت عدم استخدامها لأنها لفظة تخالف العقيدة وذكرت محلها "فوفق".
(٢) المَعْقِل: الملجأ والحصن.
(٣) شكره التراب على ما سقاه من دمائهم.
(٤) شكرته الجوارح التي أطعمها فشكرته.
(٥) هو النهر الشرقي من النهران اللذان يخترقان سهول كيليكية وقد اشتهر في عصر المماليك إذ كانت البلاد التي على ضفتيه تمثل حدود الروم.
(٦) جزء من الجيش كالكتيبة ونحوه.

وبعد ما فر "أبغا" حشد من جديد لقتال المسلمين فتوجه له بيبرس بجيشه فقذف الله الرعب في قلوب التتار ففر قائدهم وجيشه بغير رجعة.

هذا عن قتاله للتتار فقد قضي على آمالهم في غزو بلاد الإسلام، أما عن جهوده لقتال الصليبيين فقد قام بجهود مكملة لصلاح الدين فتوجه إلى الشام سنة ستمائة وستين (١٢٦٣م) وكانت تحركاته تدل على أنه يتفقد قواته ويعيد توزيعها استراتيجيًا وهاجم مدن الصليبيين الساحلية عام ٦٦٤هـ (١٢٦٤م) ففتح مدن صور وطبرية وأرسوف وحصن الكرك فحاصره وفتحه عُنوة وسبي وغنم ما لا يُحصى من الغنائم.

ثم نزل قلعة صفد وكانت تابعة لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف استطاع أن يفتحها وأزال دولة الكفر بها ثم رحل إلى دمشق ووجه بعض طلائع جيشه فقامت بفتح يافا سنة ستمائة وست وستين (١٢٦٨م).

ثم فتح بلاد سيسية[١] وأسر ليفون بن صاحبها هاتون بن قسطنطين، وفتح قارة[٢] وأمَّن بذلك الطريق من الفرنج الذين كانوا يغيرون على المسلمين منها.

وفي أثناء قتاله للصليبيين صَدَّ الجيوش المغولية الزاحفة من إيلخانية[٣] فارس والعراق عند نهر الفرات. وأخذ في تحصين أطراف دولته المواجهة لمغول فارس فحصن قلعة البيرة التي زودها بتحصين يكفي حصارها لمدة عشرة سنوات كي تظل شوكة في ظهر المغول وقام بإفساد الطرق المؤدية إلى الشام كي لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من عشب لدوابهم وهى أعلى درجات الرقي في التفكير الاستراتيجي لتحقيق أسس الفن الحربي، ثم استعد لتحطيم مقاومة الصليبيين نهائيًا بفتح مدينة أنطاكية[٤] وقام بمهاجمة إمارتها وذلك بعدما علم بتحالف حاكمها مع المغول ضد

---

(١) من مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس وكانت كبيرة ذات قلاع أسوارها ثلاثة على جبل مستطيل.

(٢) قرية كبيرة على الطريق بين دمشق وحمص كان أغلب أهلها من النصارى.

(٣) اسم ممالك إيران وفارس القديمة.

(٤) مدينة حصينة من مدن الروم بها أسوار عالية وأبراج منيعة لم يفتحها السلطان صلاح الدين الأيوبي أول من بناها هو أنطيخس ثالث الملوك بعد الإسكندر وقيل بناها أنطيغونيا على نهر أورتطس بعد موت الإسكندر بست سنوات (البلدان/٥٨).

المسلمين وكان لديه من الذكاء السياسي قدر كبير فتحالف مع بعض الدول الأوروبية لإبعادها عن المعترك الصليبي، كما حالف الدولة المغولية التي اعتنقت الإسلام وأطلقت على نفسها القبيلة الذهبية[١].

وفي سنة ستمائة وست وستين (١٢٦٨م) توجه قاصدًا إنطاكية ومما يؤكد قدراته العسكرية العالية على قود المعارك والتخطيط الحربي السليم أنه هاجمها بثلاث فرق:

الفرقة الأولى اتجهت إلى ميناء السويدية ليقطع بها إمدادات البحر عن إنطاكية وهو ما يعرف بقوة العزل، وتعرف حاليًا باسم عمليات صد الإنزال البحري.

والفرقة الثانية سدت الممرات بين قليقية والشام ومنعت الإمدادات عنهم من أرمينية الصغرى وهو ما يعرف حاليًا باسم المنع.

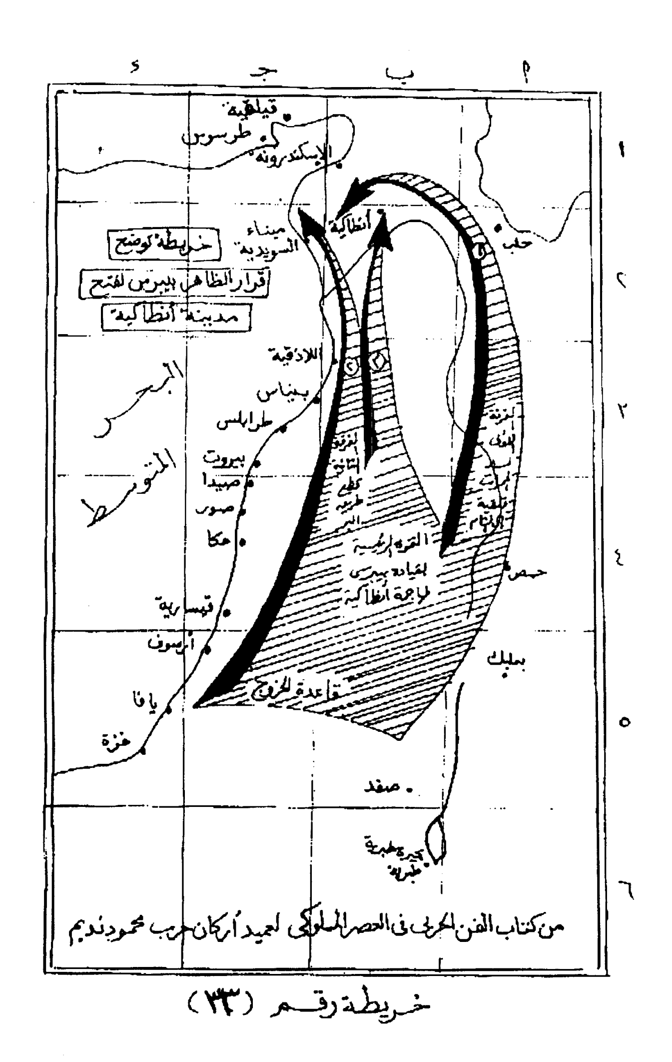
والفرقة الثالثة وهى القوة الرئيسية بقيادة بيبرس وهى ما تعنى استراتيجيًا القوة الرئيسية وتعرف بالقوة الضاربة بينما كانت القوتان الآخرتان للحصار والتطويق ومنع الإمدادات . (انظر خريطة (٣٣) .

وداهم بجيشه المدينة فدخلها منتصرًا في رمضان سنة ستمائة وست وستين (١٢٦٨م) وقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون منها أن قُسِّمت النقود بالطاسات وبلغ من كثرة الأسرى أنه لم يكن هناك غلام مسلم إلا وله غلام وبيعت الجارية بخمسه دراهم وكان تأثير سقوط إنطاكية كارثة كبيرة على الصليبيين لأنها كانت بحكم موقعها سندًا قويًا للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وموقعًا لتمركز احتياط قواتها الاستراتيجية[٢].

---

(١) مؤسسها هو بركة خان ابن عم جنكيز خان الذي اعتنق هو وقبيلته الإسلام وجعل عاصمة بلاده "سراي بركة" على نهر الفولجا وبسط نفوذه على أجزاء كثيرة من روسيا.

(٢) الفن الحربي للجيش المصري في العصر الملوكي للعميد أ.ح. محمود نديم فهمي.


خريطة توضح
قرار الظاهر بيبرس لفتح
مدينة أنطاكية
قيلقية
طرسوس
الإسكندرونة
ميناء السويدية
أنطاكية
حلب
اللاذقية
بنياس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
أرسوف
يافا
غزة
البحر المتوسط
القوة الرئيسية
لقيادة بيبرس
لواجهة أنطاكية
قاعدة الخروج
حمص
بعلبك
صفد
بحيرة طبرية
طبرية
من كتاب الفن الحربي فى العصر المملوكى لعميد أركان حرب محمود نديم

خريطة رقم (٣٣)

ثم بدأ بيبرس في مهاجمة إمارة طرابلس فانتزع المنافذ المؤدية إليها والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد التابع للإسبتارية وحصن عكا، ثم عاد إلى مصر لتأمينها لعلمه بعزم لويس التاسع على مهاجمتها فلما غير لويس التاسع وجهته[١] عاد من جديد إلى طرابلس سنة ستمائة وتسع وستين فأرسل إليه أميرها بوهميند السادس يطلب الصلح فأجابه بيبرس على أن يكون الصلح عشر سنوات[٢]، ثم دخل بيبرس قيصرية عاصمة السلاجقة الروم سنة ستمائة وخمس وسبعين (١٢٧٧م) وجلس على عرش السلاجقة الروم وخطب على المنبر.

لقد كانت حياة بيبرس جهاد وكفاح مستمر فما إن حكم حتى قاتله التتار والروم فتصدى لهم ووجد أعداء الله منه بأسًا شديدًا فأخضع أعدائه مرة بعد مرة ووسَّع حدود دولته من أقصى حدود النوبة إلى قاطع الفرات.

وتوفي يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع والعشرين من المحرم سنة ستمائة وست وسبعين (١٢٧٧م) بعد أن حكم سبع عشرة سنة بعد أن بايع لابنه الملك السعيد ناصر الدين.

لقد كان بيبرس بحق نموذجًا للمحارب المثالي وكأنه خُلق ليكون مقاتلاً فهو شجاع يتقدم جنده ولا يخشى الموت، سريع الحركة يباغت عدوه ويبادر إليه السعي لذا ظل طويلاً مادة خصبة للشعراء والقصاص أثروا بها الأدب العربي.

---

(١) غيَّر لويس التاسع اتجاهه إلى تونس ليحتلها لكنه أصيب بحمى شديدة مات على أثرها وفشلت الحملة الصليبية وعادت خائبة.

(٢) السلوك المقريزى.

عثمان بن أرطغرل

قائد إسلامي ومجاهد عظيم وإليه يُنسب العثمانيون[1] وهو مؤسس دولتهم. ولد سنة ستمائة وست وخمسين (١٢٥٨م) في فترة الغزو المغولي لعاصمة الخلافة العباسية ببغداد.

واستطاع هذا الرجل العظيم أن يُكَوِّن دولة قوية أخضع بها كثير من أراضي الدولة البيزنطية وأحرز كثير من الانتصار على البيزنطيين مما أدى في النهاية إلى القضاء على دولتهم بفتح عاصمتها القسطنطينية.

لقد استطاع هذا الرجل العظيم في هذه الفترة الحرجة للإسلام والتي دبَّ فيها الضعف في أوصال الأمة الإسلامية أن يقف صامدًا ويُكَوِّن دولة في قلب العالم العربي الذي كان يتربص بالإسلام وأن يقهر أعدائه ويمكّن لدين الله، وقد توطد له الحكم بعد موت والده أرطغرل سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) وملك وعمره أربع وعشرين سنة في منطقة الأناضول التي أقطعها لوالده السلطان السلجوقي.

ثم استشعر البيزنطيون الخطر فكوَّنوا تحالف نصراني سنة سبعمائة (١٣٠١م) للقضاء على الدولة العثمانية الناهضة، فخرج لهم عثمان بجيشه فلقَّنهم درسًا لن ينسوه وأنزل بجيوشهم هزيمة منكرة وأظهر شجاعة منقطعة النظير، وكوَّن تحالف مع السلطان السلجوقي لقتال الروم وحلفائهم، وأغار على مقاطعة بيثينيا البيزنطي وأسقط عددًا من مدنها .

---

(١) ينسب عثمان وقومه إلى قبيلة تركمانية كانت تعيش في بداية القرن ٧هـ (١٣م) في كردستان وكانت ترعى الغنم، لكن نتيجة الغزو المغولي على العراق وشرق آسيا الصغرى هاجر سليمان جد عثمان عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) فارًا بقبيلته إلى بلاد الأناضول واستقر في مدينة أخلاط (مدينة شرق تركيا حاليًا)، ولما توفي سليمان خلفه ابنه أرطغرل وتحرك بمن معه إلى شمال غرب الأناضول وأثناء مسيره مع قبيلته شاهد قتالاً دائرًا بين قوة من السلاجقة والجيش البيزنطي فهب ومن معه لنجدة المسلمين حتى انتصر السلاجقة المسلمون، وكافأهم السلطان السلجوقي بإقطاعهم أرضًا في الحدود الغربية للأناضول بجوار ثغور الروم، ولما توفي أرطغرل عام ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) خلفه ابنه عثمان الذي سار على نهج أبيه وأسس دولة قوية عُرفت بالدولة العثمانية.

ولعل أهم الحروب التي خاضها لقتال البيزنطيين هو فتح مدينة بروسة سنة سبعمائة وسبع عشرة (١٣١٧م) فحاصرها عدة سنوات حصارًا شديدًا حتى أخضعها بعد مقاومة عنيفة من قائدها "إقرينوس"[1] ثم فتح حصون كتة، ولفكة، وآق حصار، وحصن قوج حصار، وكبوة وغيرها.

لقد كان عثمان بن أرطغرل- رغم جهل أكثر الناس بشخصيته وأعماله والتي طمستها أغلب كتب التاريخ- فاتحًا عظيمًا وقائدًا مهيبًا يحارب في سبيل الله بقوّته وبحسن دعوته فكأنما كان يحارب بسيفين، وكان من الحكمة بمكان فعمل في كل أمر بمقتضاه فكان نعم المحارب ونعم الداعية.

لقد وعى دوره كسفير للإسلام قبل أن يكون محاربًا فأحسن سيرته ووفّي بعهوده فكان خير قدوة لما يدعو إليه فدخل كثير من الروم في دين الله إقتداءً به وحبًّا له واقتناعًا بما يتمسك به قبل أن يُخضِعهم بسيفه.

لقد كان عثمانُ خالصَ الإيمان مجاهدًا في سبيله، بذل حياته كلها في سبيل الدعوة الإسلامية فارتفع شأن الدولة الإسلامية في عهده.

وتوفي سنة سبعمائة وست وعشرين (١٣٢٦م) بينما كان ابنه أورخان يحاصر مدينة بروسة التي فتحتها ودُفن بها عثمان وسار ابنه على نهجه في الفتوح حيث دام حكم أورخان نحو عشرين عامًا تعد أعظم مرحلة في تاريخ الدولة العثمانية من حيث الفتوح وتنظيم الدولة.

---

(١) إقرينوس: قائد بيزنطي شهير أسلم وحسن إسلامه ويعد من أبرز القادة البارزين من المسلمين في تلك الفترة.

مراد الأول

مراد بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل. قائد بارع وسياسي محنك، وهو واحد ممن وطَّدوا أركان الدولة العثمانية وأرسوا جذور الإسلام في أوروبا. ولد سنة سبعمائة وإحدى وستين (١٣٥٩م) تربَّى على الإسلام وروح الجهاد فنشأ شجاعًا مجاهدًا كريمًا متدينًا.

تولى الحكم بعد وفاة أخيه سليمان، كان محبًا للنظام متمسكًا به عادلاً مع رعاياه وكان شغوفًا بالغزوات ونشر الإسلام وجعل غايته إكمال فتوحات آبائه في أوروبا وقد استطاع أن يتوسع في أوروبا وآسيا الصغرى في وقت واحد لتكوين دولة قوية، وتمكَّن من فتح مدينة''أدرنة'' سنة سبعمائة واثنتين وستين (١٣٦٠م) التي كانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية سنة سبعمائة وثمانٍ وستين (١٣٦٦م) .

وكان بذلك أول حاكم مسلم ينقل الخلافة الإسلامية إلى أوروبا وظلت عاصمة للعثمانيين حتى فُتحت القسطنطينية، ثم فتح مقدونيا مما أثار حنق العالم الغربي الذين استشعروا في وجوده خطر جسيم فكونوا حلفًا صليبيًا ضده حيث تحالف ''لازارس'' ملك صربيا مع الدول المسيحية المجاورة كالبلغار والمجر وإقليم والاشيا والبولنديين سنة سبعمائة وتسع وثمانين (١٣٨٧م) وباركه البابا أوروبا الخامس.

واستغلوا انشغال السلطان مراد الأول بقتال الروم في آسيا الصغرى فوجهوا جيشًا هائلاً بلغ قوامه ستون ألفًا فتصدى لهم قائده ''لالا شاهين'' قرب تشرمن على نهر مارتيزا وانتصر الجيش الإسلامي نصرًا ساحقًا وفرَّ الصرب وأنصارهم وغرق بعض أمرائهم في النهر أثناء فرارهم ونجا ملك الصرب بصعوبة.

واستطاع الجيش العثماني أن يكتسح كثيرًا من أراضي الإمبراطورية البيزنطية

وبلغاريا وصربيا، ثم عادت الجيوش الصربية والبلغارية فتحالفت مع الجيوش البوسنية وتوجهت لقتال السلطان العثماني والتقي الجيشان في سنة ٧٩١هـ (يونيو ١٣٨٩م) في قوصرة وكان الجيش الصليبي يفوق الجيش الإسلامي بأضعاف مضاعفة وقاد السلطان مراد الأول بنفسه المعركة ليرفع من عزم رجاله.

وكان معه مصحفًا ففتحه فكان أول ما وقع عليه نظره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٥] ثم وقف مناجيًا ربه وقال: "يا الله يا رحيم! يا رب السموات! يا من تقبل الدعاء لا تخزني يا رحمن يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة! أرسل السماء علينا مدرارًا! وبدِّد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين... أفديك بروحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو! يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سببًا في موتهم! إن روحي أبذلها فداءً لك يا رب. إني وددت ولا زلت دومًا أبغى الاستشهاد من أجل جند الإسلام.. يا إلهي إنني أقسم بعزتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، ولكنني ابتغى رضاك ولا شيء غير رضاك، يا إلهي أقسم بعزتك وجلالك إنني في سبيلك فزدني تشريفًا بالموت في سبيلك"[(١)].

ونشب القتال وتدافع جند الله يتسابقون إلى الشهادة ويجودون بأسمى معاني الفداء والجهاد واستبسلوا في القتال حتى أنزل الله نصره على جنده وهزموا الصليبيين هزيمة ساحقة وأسروا الملك "لازارس" فترجل مراد الأول مقتحمًا عن فرسه فمرَّغ وجهه في التراب وسجد شكرًا لله وبقدر ما كان سعيدًا ممتنًا بنصر الله إلا أنه كان حزين القلب لأنه حُرم الشهادة التي كانت أفضل أمانيه .

وأثناء تفقده ساحة القتال بعد المعركة وكأن الله كان يدخر له ما تمنى من خير فقام جندي صربي باغتياله بخنجر مسموم فسقط مضرجًا في دمائه وهو يقول: "لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علاَّم الغيوب والمتقبِّل دعاء الفقير، أشهد أن لا

(١) "الدولة العثمانية" للدكتور علي محمد الصلابي نقلاً عن كتاب "الفتوح الإسلامية عبر العصور".

إله إلا الله وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نُصْرَةَ الإسلام''.

ثم أسلم الروح الطاهرة لبارئها عن عمر بلغ خمس وستون سنة، وكان مقتله في خامس عشر من شعبان سنة سبعمائة وإحدى وتسعين (١٣٨٩م) .

ثم قام ابنه ''بايزيد'' بالقضاء تمامًا على فلولهم وأقام دولة قوية من بعده.

محمد الفاتح

محمد الثاني بن مراد الثاني بن محمد الأول بن بايزيد بن مراد الأول بن أورخان ابن عثمان بن أرطغرل. عرف بمحمد الفاتح.

واحد من أعظم صنَّاع التاريخ وواحد من العلامات البارزة في تاريخ الإسلام استطاع أن ينسج اسمه بحروف من نور في تاريخ البطولة، وأن يسطر مجدًا عجز عنه المسلمون على مدى تسعة قرون، وصاحب أعظم فتح بعد فتوحات النبي ﷺ ألا وهو فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية والدولة الرومانية الشرقية، الذي يعد بكل المقاييس أقسى لطمة سددها الإسلام في وجه أوروبا النصرانية.

ومحمد الثاني هو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان ولد في سادس وعشرين رجب سنة ثمانمائة وثلاث وثلاثين (٢٠ إبريل ١٤٢٩م) وقد عاصره كثير من المؤرخين كابن تغرى بردى[١] وابن إياس والسخاوى والسيوطى وابن العماد الحنبلي فاثنوا عليه ونوَّهوا بفتوحاته .

ومن ذلك ما قاله المؤرخ ابن إياس عنه: "هو محمد بن مراد بن محمد، انتشر عدله في سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والكرم الزائد وسعه المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية وفتح كثير من حصونها وقلاعها"[٢].

لقد كان فارسًا شجاعًا جمع بين قوة الشخصية والعدل وسعة العلم حيث كان مطلعًا على أحدث أساليب العلم في عصره، وكان منذ طفولته يقبل على قراءة السير والتاريخ فما إن يطالع صفحاته حتى يطلق لخياله العنان يحلم بأنه هو الرجل الذي ستُفتح القسطنطينية على يده فيحقق بشارة النبي ﷺ ويكون هو الرجل الذي قال

(١) صاحب كتاب النجوم الزاهرة.
(٢) بدائع الزهور لابن إياس.

رسول الله ﷺ فيه: "لتفتحن القسطنطنية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"[1].

ورغم صعوبة هذا الفتح بل واستحالته ظل حلمًا يراوده حتى شغل كل تفكيره. والقسطنطينية كانت واحدة من أهم مدن العالم أسسها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول عام ٣٣٠م لتكون عاصمة لإمبراطوريته، وقد قيل عنها: "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها".

وهكذا اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وكان كل حاكم يتولى يزيد من استحكاماتها.

وظل المسلمون في صراعهم مع الدولة البيزنطية يسعون لفتحها كلٌ يطمع أن يتحقق فيه قول النبي ﷺ وكانت أولى الحملات الإسلامية لفتحها سنة أربع وأربعين (٦٦٤م) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ لكنها لم تنجح ودُفن أبو أيوب الأنصاري ﷺ تحت أسوارها، وظل خلفاء الدولة الأموية يسعون لذلك الهدف بلا جدوى، ثم جاء العباسيون ليستمروا في المحاولات، وكانت أقوى الحملات في عهد هارون الرشيد سنة مائة وتسعين (٨٠٤م) لكنها أخفقت في مسعاها وظلت الجهود تتواصل بلا يأس لكن ذهبت جميعها أدراج الرياح إلى أن جاء السلطان العثماني بايزيد الأول (الصاعقة) فحاصرها بقوة سنة سبعمائة وست وتسعين (١٣٩٣م) وكاد أن يفتحها لولا تعرض بلاده للغزو المغولي الذي قادة تيمورلنك[2] (تيمور الأعرج) مما اضطره إلى سحب قواته وفك الحصار لقتال المغول. ثم حاصرها السلطان مراد الثاني لكنه لم يفلح كذلك وكانت هذه هي المحاولة الحادية عشر التي تبوء بالفشل.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٣٥/٤).

(٢) حاكم مغولي سفاح، موطنه تركستان استطاع أن يغزو بجيوشه ما حوله من بلاد فاستولى على دولة المغول والتركستان واتخذ سمرقند عاصمة له، ثم دانت له دلهي بالهند وبغداد ودمشق، ثم زحف على آسيا الصغرى واستطاع أن يدمر بورسة عاصمة الدولة العثمانية وقتها عام (١٤٠٢م) وأسر السلطان العثماني بايزيد الأول في قفص من حديد.

ولما مات هذا السلطان آلت الخلافة إلى ابنه محمد الثاني في سنة ثمانمائة وخمس وخمسين (فبراير ١٤٥١م) وكان عمره آنذاك اثنتين وعشرين سنة وكان بطلُنا هذا ذو همة فما إن علم بموت والده وتوليه مكانه حتى امتطى جواده وخاض الفيافي[١] والقفار قاطعًا نحو مائة وعشرين ميلاً حتى بلغ الدردنيل ثم عبره إلى جاليبولى بالشاطئ الغربي ليلاً ومعه عشرة آلاف عامل وصانع فبنى عليها قلعة "روماليى حصار" التي تقع في الجانب الأوروبي على أضيق نقطة من مضيق البسفور وكانت بالغة التحصين ارتفاعها ٨٢ مترًا، وكانت تقابل تمامًا القلعة التي بناها السلطان بايزيد في البر الآسيوي وبذلك أصبحتا متقابلتين لا يفصل بينهما سوى مسافة ٦٦٠ مترًا مما أتاح له أن يتحكم في مرور السفن من شرقي البسفور إلى غربه وبذلك تستطيع مدافعه أن تمنع مرور السفن فيقطع بذلك أي مدد يمكن أن يصلهم من مملكة طرابزون[٢] .

وفكر محمد الفاتح في استخدام سلاحًا متقدمًا يزود به جيشه. وبالفعل تمكن من تصنيع عددًا من المدافع الحربية[٣] بمساعدة مهندس مجرى مسلم يدعى أوربان كان بارعًا في صناعة هذه الأسلحة فوفرله جميع الإمكانيات، فصنع نحو ثلاثين مدفعًا أحداها كان عملاقًا يزن مئات الأطنان عُرف بالمدفع السلطاني وكان يجره خمسين ثورًا ضخمًا وأشرف السلطان على تجربته بنفسه[٤].

كما اهتم بالأسطول وزوَّده بالسفن مختلفة الأغراض ليحكم قبضته على المدينة من البحر فأعد لذلك نحو ١٨٠ سفينة، وأعلن الحرب على الإمبراطورية البيزنطية في

---

(١) الفَيْف: الصحراء الواسعة المستوية.

(٢) مدينة قديمة بآسيا على البحر الأسود تبعد مسافة ١٤٠كم من مدينة أرضروم ويُظن أنها كانت معاصرة لمدينة طروادة الشهيرة.

(٣) لم يكن هذا هو أول العهد بالمدافع فقد ذكر ابن إياس في بدائع الزهور، وابن أرنبغا الزردكاش في كتابه "الأنيق في المنجنيق"، ونجم الدين حسن الرمَّاح في كتاب "الفروسية" أن المماليك أول من استخدموه حيث كان يعرف بالمكحل أو المكحلة كما اخترعوا البارود واستخدموه لأول مرة في معركة المنصورة عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ويؤيد ذلك شهادة المورخ الفرنسى جوانفيل Joinville الذي عاصر المعركة وكان يعد عند المماليك سلاحًا سريًا لا يُستخدم إلا في حالة الضرورة لتمسكهم بالحرب بالسيف اقتداءً بالنبي ﷺ والصحابة واحتقارًا لهذا السلاح المخرب.

(٤) الفتوحات الإسلامية عبر العصور.

خريف سنة ثمانمائة وست وخمسين (١٤٥٢م) وبث في المسلمين داعي الجهاد يستنفر الناس للخروج في سبيل الله، فكوَّن جيشًا قويًا بلغ تعداده نحو ربع مليون مجاهد، وقام بنشر العلماء والواعظين في جنده فأزكوا روح الجهاد فيهم وذكَّروهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية.

وأظهر محمد الفاتح حنكة سياسية غير مسبوقة بعقده معاهدات مع باقي أعدائه ليتفرغ لعدو واحد فأبرم معاهدات مع ملوك أوروبا كالمجر وأهل البندقية[1]. وقد استمات الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر[2] في محاولاته لإثناء عزم السلطان محمد الفاتح فقدَّم إليه الهدايا والرشاوى فكان رده كرد سليمان عليه السلام لما جاءته رسل ملكة سبأ ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٦-٣٧] . فلما استيأس الإمبراطور منه أرسل يستميل مختلف دول أوروبا لدرجة أنه أجرى تحالفًا بين الأرثونوكس والكاثوليك على ما كان بينهما من عداوة شديدة.

وبثَّ محمد الفاتح العيون في المدينة من الداخل والخارج، وكان يقوم ببعض الحملات الاستطلاعية بنفسه حتى استطاع أن يكوِّن فكرة شاملة عن المدينة ويعد خرائط كاملة لها.

لقد كانت المدينة محصنة على صورة غير مسبوقة حيث كانت تحيط بها المياه من ثلاث جهات: مضيق البسفور وبحر مرمرة وخليج القرن الذهبي وكان هذا الخليج تحميه سلسلة حديدة بالغة الضخامة تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى خطين من الأسوار كانت تحيط بها من البر تمتد من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي يزيد طولهما معًا عن خمسة أميال من الحجر الصلد ويتخلله نهر ليكوس وكان بين السورين

---

(١) نقضوا العهد بعد ذلك وتحالفوا مع الإمبراطور البيزنطي.

(٢) تُوِّج هذا الإمبراطور على عرش الدولة البيزنطية عام ١٤٤٨م.

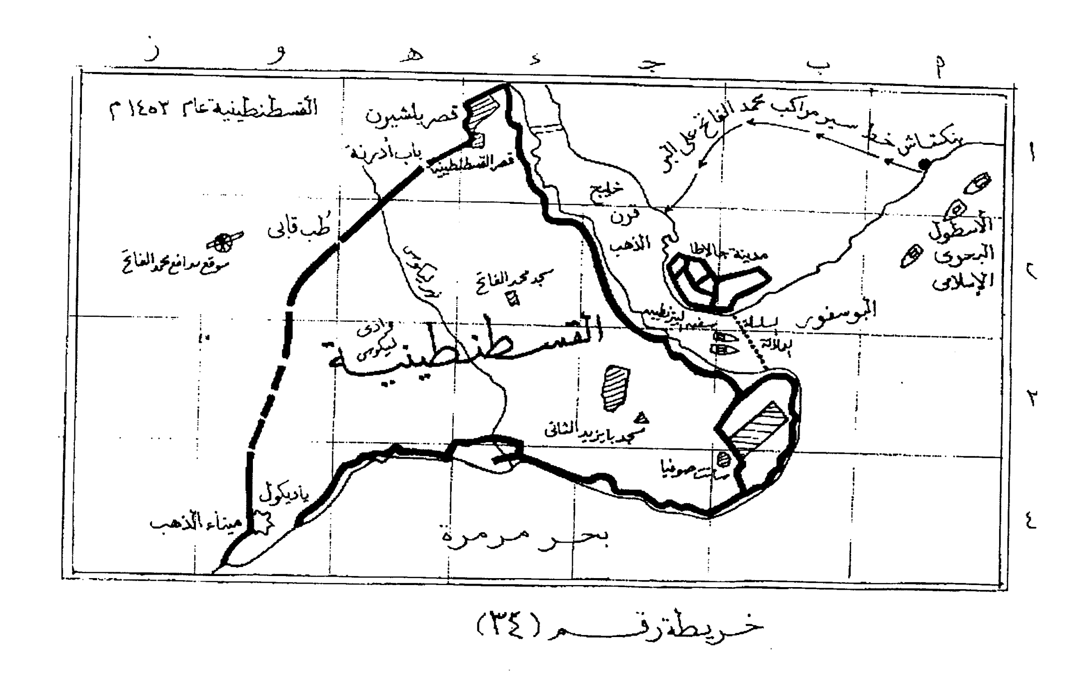
فضاء عرضه ستين قدمًا وارتفاع السور الداخلي أربعين قدمًا وعليه أبراج للحراسة ارتفاعها ستين قدمًا، أما السور الخارجي فارتفاعه خمسة وعشرين قدمًا وعليه أبراج للحراسة مليئة بالجنود. (انظر الخريطة رقم (٣٤) .

وقام محمد الفاتح بتمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية ثم أمر فجُرَّت عليها المدافع يحرسها جزء كبير من الجيش فوصلت إلى موقعها المحدد بعد شهرين وتحرك الجيش المظفر حتى وصل إلى مشارف القسطنطينية يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمانمائة وسبع وخمسين (٦ إبريل ١٤٥٣م) وجمع محمد الفاتح جنده فخطب فيهم خطبة قوية بليغة حثهم فيها على الجهاد وطلب الشهادة وصدق القتال والثبات عند المشهد وقرأ عليهم القرآن ومن الأحاديث ما يبشر بفتح القسطنطينية، وبث العلماء بين صفوف المجاهدين لرفع روحهم المعنوية.

ثم قسَّم جيشه على البر إلى ثلاثة أقسام رئيسية أحكمت الحصار حول أسوار المدينة من مختلف الجهات، وكوَّن جيشًا احتياطيًا خلف الجيوش الثلاثة ونصب المدفع العملاق أمام باب طب قابي، ووضع فرقًا للمراقبة في جميع الجهات المرتفعة قرب المدينة، ونشر أسطوله البحري في المياه المحيطة بالمدينة أخذت تشق عباب البحر وقد استطاع أن يمنع تقدم سفن الروم لكنه لم يتمكن من الوصول داخل القرن الذهبي بسبب السلسلة العملاقة التي حالت دون ذلك.

وأعطى القائد العام الأمر بالهجوم فقامت المدافع تدفع بقذائفها مسافة ميل فتدك أسوار المدينة لكن حامية المدينة كانت تسرع في إصلاح الأسوار أولاً بأول. وكان المسلمون يظهرون شجاعة فائقة في أعقاب كل قصف مدفعي لكن لقوة تلك الحصون كانت كل هجمة تؤدى إلى المزيد من الشهداء.

وفي يوم ١٨ إبريل أحدثت المدافع ثغرة في السور الغربي لكن لضيق هذه الفتحة وقوة الدفاع بقيادة القائد البيزنطي جستنيان وكثرة مقذوفات وسهام الروم اضطر السلطان أن يسحب قواته منها .


القسطنطينية عام ١٤٥٣ م
قصر بلشيرن
باب أدرنة
قصر القسطنطينية
طب قابي
موقع مدافع محمد الفاتح
مسجد محمد الفاتح
وادي ليكوس
القسطنطينية
مسجد بايزيد الثاني
أيا صوفيا
يا ديكول
ميناء الذهب
بحر مرمرة
خليج قرن الذهب
مدينة غلاطة
البوسفور
السلسلة
بنكتاش خط سير مراكب محمد الفاتح على البر
الأسطول البحري الإسلامي

خريطة رقم (٣٤)

وفي اليوم نفسه فشل الأسطول الإسلامي في تحطيم السلسلة العملاقة بسبب قوة السفن المتمركزة خلفها كما قدمت ثلاث سفن أوروبية ضخمة تمكنت من تدمير بعض السفن الإسلامية فازداد الوضع في البحر صعوبة على الأسطول الإسلامي، فاتجه السلطان بعد يومين إلى البحر ليدير المعركة البحرية بنفسه وقد أرسل إلى قائد الأسطول ''بالطة أوغلي''، فقال له: ''إما أن تستولي على هذه السفن، وإما أن تغرقها وإذا لم توفَّق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًّا''.

لكن حدث أن نجحت السفن الأوروبية في مهاجمة الأسطول الإسلامي ثم دخلت خلف السلسلة دون أن تتمكن سفن المسلمين من منعها، فاستشاط السلطان محمد الفاتح غضبًا وعزل قائد الأسطول وظلت الهزائم تتوالى على الأسطول الإسلامي.

ففكر السلطان العثماني في خطة عسكرية مذهلة غير مسبوقة أكدت أنه عقلية عسكرية ليس لها مثيل في أي عصر وذلك بنقل السفن الحربية من مرساها في بنكتاش إلى داخل القرن الذهبي برًّا بين المرسيين بعيدًا عن حي جلطة خوفًا على سفنه من أهل الجنوب وكانت المسافة المقدرة لهذا الطريق نحو ثلاثة أميال وكانت الأرض وعرة غير ممهدة. فأمر السلطان بتسوية الأرض ووضع السفن في صناديق خشبية ضخمة وألقى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ليسهل انزلاق السفن عليها وتم سحبها ليلاً وأنزلت نحو سبعين سفينة داخل القرن الذهبي في ليلة واحدة على حين غفلة من العدو، وكانت هذه العملية بالفعل معجزة عسكرية هائلة أذهلت الروم .

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: ''لقد كان منظرًا عجيبًا أن تُرى السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الخيول على البر كما لو كانت تمخر عباب البحر''.

وفي صباح يوم ٢٢ إبريل استيقظ أهل المدينة على صيحات تكبير المسلمين ودق الطبول داخل القرن الذهبي، فكانت مفاجأة مذهلة قال عنها أحد مؤرخي الغرب: ''ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار تعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج.

لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الاسكندر الأكبر"[1]. وكان لهذا العمل دورٌ كبير في إضعاف الروح المعنوية وبث الرعب في نفوس البيزنطيين مما جعلهم يضطرون لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار كي يدافعوا عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي لأنها كانت أضعف الأسوار، واستطاع الأسطول الإسلامي داخل القرن الذهبي أن يتصدى ببسالة لأي هجوم في حين كانت المدافع على البر تواصل الضرب ليل نهار وقد نُصبت على الهضاب المطلة على المدينة وقد تملك أهل المدينة رعب شديد من صيحات المسلمين وتكبيرهم.

وأخذ المسلمون يهاجمون الأسوار بلا توقف حتى تخور مقاومة الروم وكان يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار وحرب الأعصاب فقد أمر جنده بحفر خنادق تحت الأسوار لدخول المدينة لكن البيزنطيين حفروا خنادق مقابلة لها فلما وصل بعض المسلمون إلى الأنفاق المقابلة ظنوا أنها سراديب توصِّل إلى داخل المدينة لكن سرعان ما أطلق الروم عليهم فيها النفط المشتعل والمواد الملتهبة فمات كثير من المسلمين، لكن هذا الهجوم المضاد لم يَفت في عضد الجيش فواصل حفر الأنفاق في المنطقة الممتدة بين أكرى قبو وشاطئ القرن الذهبي حتى أن صوت الحفر كان يفزع أهل المدينة فزعًا شديدًا حتى كانوا يتوهمون أصوات أقدامهم وهم يمشون أنها أصواتَ حفرٍ وكانوا يتوهمون أن الأرض ستنشق ليخرج منه الجنود العثمانيين.

ثم لجأ العثمانيون لأسلوب جديد في محاولات الاقتحام فصنعوا قلعة خشبية ضخمة تتحرك على ثلاث أدوار بارتفاع أعلى من السور وقد كُسيت بدروع وجلود مبللة لتمنع احتراقها وتقدمت هذه القلعة فلما دنت من أسوار المدينة دار قتال عنيف بين الجانبين فوقها لكن النيران التي كان يقذف بها العدو دمرت هذه القلعة، وأخذ جنود المسلمون البواسل في محاولة بعد محاولة وكانت المدافع لا تزال تقصف أسوار المدينة حتى تحطم جزء كبير منها وأصبح دخولها منتظرًا بين لحظة وأخرى.

---

(١) الدولة العثمانية للدكتور على محمد الصلابي نقلاً عن كتاب "تاريخ الدولة العثمانية" للكاتب التركي يلمظ أوزتونا.

ثم أرسل محمد الفاتح رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي يطالبه بتسليم المدينة حقنًا للدماء فرفض بصلف وغرور، فرد عليه السلطان المسلم: "حسنًا! عن قريب إن شاء الله سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر".

وأمر بتكثيف الهجوم بالمدافع حتى انفجر المدفع السلطاني الضخم من كثرة الاستخدام وقتل العاملين عليه وفيهم أوربان المهندس المجرى. وأمر السلطان بإجراء عملية تبريد للمدافع باستخدام زيت الزيتون فنجحوا في ذلك واستمر القصف حتى ضربت القذائف الأسوار ووصلت إلى وسط المدينة، وأخذ محمد الفاتح يشجع جنده ويحثهم على الصبر والاستعانة بالله، ويذكرهم بقول النبي ﷺ ومدحه فيهم وذكَّرهم باستشهاد من سبقهم من المسلمين تحت أسوارها فسرت في نفوسهم قوة هائلة فاستماتوا في القتال.

وفي الساعة الواحدة من صباح يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة ثمانمائة وسبع وخمسين (٢٩ مايو ١٤٥٣م) كانت ساعة الصفر التي حددها محمد الفاتح لهجوم عام شامل على المدينة برًّا وبحرًا على جميع المواقع وتسابق المجاهدون إلى النصر أو الشهادة، وقد ركَّزوا هجومهم أكثر على وادي ليكوس يقودهم السلطان بنفسه فقام أولاً بإرسال الفرقة الأولى التي قاتلت ببسالة ثم سحبها لما أنهكها القتال ودفع بالفرقة الثانية التي أدَّت دورها ثم سحبها وزجَّ بالثالثة ثم أمر السلطان بالانسحاب لتقوم المدافع بعملها طوال الليل إيذانًا بعمل حاسم في الصباح وأثناء الليل كان محمد الفاتح يطوف بين جنده يذكي فيهم روح الحماسة وأمر فتعالت الأصوات بالتكبير والتهليل ورُتل القرآن.

ثم قام محمد الفاتح فيهم خطيبًا، قال: "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير.. فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا.. يجب على كل جندي أن يجعل تعاليم ديننا الحنيف نصب

عينيه فلا يصدر عن واحد منهم ما ينافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، وليدعوا القساوسة والضعفاء الذين لا يقاتلون"[١].

ولما انبلج الصبح شكَّل السلطان فرقة قادها بنفسه فتسلق ثلاثين منهم أسوار المدينة من ناحية باب أدرنة وهاجم المسلمون بقوة، وأُصيب القائد جستنيان وفر هاربًا وثبت الإمبراطور في قلة من أصحابه واشتبكوا مع المسلمين حتى قتل الإمبراطور، ودخلها المسلمون يرفعون الأعلام ويكبرون بعد حصار دام نحو ستة أسابيع.

ولم يأت وقت الظهيرة من هذا اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣م) إلاّ والسلطان محمد الفاتح في وسط المدينة وقد ترجَّل عن فرسه وسجد لله شكرًا ثم مرَّغ وجهه في التراب ثم حمل حفنة من تراب الأرض فوضعها على رأسه تواضعًا لربه.

وأمر محمد الفاتح جنده بالرفق بأهلها وأمَّنهم على أرواحهم ودمائهم ودخل كنيسة أيا صوفيا مكبرًا وأمر أن يؤذن فيها للصلاة وبتحويلها إلى مسجد جامع وأمر فأُنزل ما بها من تماثيل وطمست الصور ونُصب بها منبرًا وصلى بها أول جمعة وفرض الجزية على النصارى المقيمين بها وكفل لهم حرية العقيدة وأعطاهم نصف كنائسهم وجمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقًا لهم، وعمَّت الأفراح والبشائر العالم الإسلامي فأقيمت الاحتفالات في مصر والعالم الإسلامي ثلاثة أيام، وأرسل محمد الفاتح بالهدايا وبعض الغنائم إلى السلطان المملوكي الأشرف "إينال" وإلى شريف مكة.

والحقيقة أن هذا الفتح لم يكن بالأمر السهل أو العمل اليسير كما حاول أعداء الإسلام والمؤرخين غير المنصفين أن يصفوه فأرجعوه تارة إلى ضعف الدولة البيزنطية وتارة إلى الانشقاق الكنسي بين الشرق والغرب وهذا كله محض هراء فقد كان هذا الفتح عملٌ متكامل لم يَفُتْ السلطان المسلم فيه شيء من إيمان أو إخلاص أو الأخذ بأفضل أساليب العلم والوسائل العسكرية الحديثة .

(١) "تاريخ الدولة العثمانية" للدكتور على حسون.

ولعل أصدق ما قيل عن هذا الفتح قول المؤرخ الفرنسي الشهير كارادى فو(١):
"إن هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح لمجرد ضعف الدولة البيزنطية. بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم له ما كان في عصره من العلم"(٢).

وكان من نتائج هذا الفتح العظيم أن اتحد كلا القسمين الآسيوي والأوروبي للدولة الإسلامية العثمانية لتتحقق أعظم دولة إسلامية واوسعها رقعة على مر التاريخ التي لم تتحقق منذ عصر النبوة إلى الآن مما يوضح مدى عظمة الدولة العثمانية الإسلامية التي امتد نفوذها إلى شواطئ البحر الأسود وضمت كييف والمجر واليونان وسواحل البحر الإدرياتيكي الشرقية. كما تحولت العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي سُميت إسلام بول (مدينة الإسلام) كما سُميت دار السعادة والآستانة.

وفي عام ثمانمائة وست وثمانين (١٤٨١م) أصابت السلطان محمد الفاتح وعكة صحية لكنه لم يهتم وخرج مجاهدًا في سبيل الله فغادر القسطنطينية إلى آسيا الصغرى غازيًا فلما وصل أسكدار فاجأه الموت وسط جنده في يوم الخميس الرابع من ربيع الأول سنة ثمانمائة وست وثمانين (٣ مايو ١٤٨١م) ودُفن بالضريح الذي شُيِّدَ له في جامعه بالقسطنطينية وكان يبلغ عندها من العمر الثانية والخمسين بعد أن حكم ثلاثين عامًا من الجهاد حتى وصلت جيوش المسلمين على حدود جنوب إيطاليا .

قيل كان يستعد لفتح روما لتحقيق نبوءة النبي ﷺ كاملة(٣) وقيل كان يستعد لفتح رودس وظلت هذه الوجهة سرًا من الأسرار طواه محمد الفاتح في صدره ولم يبحْ به لأحد على مثل عادته من الحرص والتكتم فكان لا يفصح أبدًا عن الجهة التي يقصدها للغزو وكان يقول: "لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها".

---

(1) Carra Devaux.

(٢) حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان عن كتاب "مفكروا الإسلام" للكاتب الفرنسي "كارادى فو".

(٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سُئِل رسول الله ﷺ أيُّ المدينتين تُفتح أولاً قسطنطينية أو رومية (روما)؟ فقال ﷺ: "مدينة هرقل تفتح أولاً- يعني القسطنطينية" [رواه أحمد في مسنده (٦٣٥٨) والدارمي في سننه (٤٨٦)].

لقد كان هذا الرجل يعتزم فتح العالم كله بأن يمضي بفتوحاته إلى جنوب إيطاليا فيفتح روما ثم ينتقل إلى أقصى الشمال منها فيفتح فرنسا وإسبانيا ويمضي في فتوحاته حتى يفتح أوروبا كلها وينشر دين الله بها.

ولما بلغ الناس خبر موته عمَّ الحزنُ جميع ديار الإسلام، وعمَّ الفرحُ بلاد أوروبا لتخلص النصارى بها من أعظم خطر كان يهددهم[١].

لقد نال معظم مؤرخي الغرب من الفاتح العظيم محمد الفاتح ونعتوه بأقبح الصفات ولم يشذ عنهم حتى المستشرق الإنجليزي الذي يدعى الاعتدال لين بول[٢] وكل ذلك محض افتراء وبهتان لم يدفعهم إليه سوى الحنق والحقد والضغينة التي ملأت قلوبهم عليه فعلى يديه تم محو اسم الدولة البيزنطية ووريثة الإمبراطورية الرومانية من خريطة العالم إلى الأبد. (انظر خريطة رقم (٣٥) .

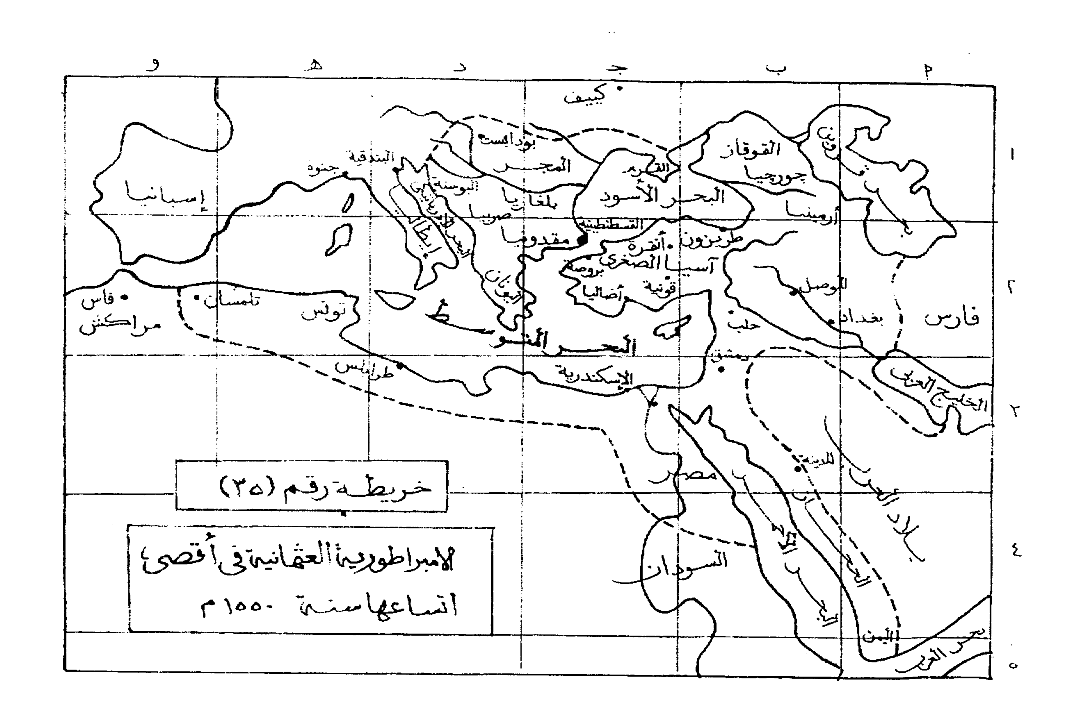
رحم الله عبده المجاهد محمد الفاتح الذي صدق نيته لله فحقق له ما لم يحققه لغيره من الفاتحين وأخزى على يديه الكفر والكافرين.

(تمت بحمد الله)

---

(١) مقال للأستاذ خليل حسن فخر الدين المنشور بمجلة الأمة العدد (٢١) رمضان ١٤٠٢هـ/ يوليو ١٩٨٢م : ص٤٦.

(2) Lane Poole.



خريطة رقم (٣٥)
الامبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها سنة ١٥٥٠م
إسبانيا
جنوه
البندقية
بودابست
المجر
كييف
القرم
القوقاز
جورجيا
أرمينيا
البحر الأسود
بلغاريا
صربيا
البوسنة
إيطاليا
مقدونيا
القسطنطينية
طربزون
أنقرة
آسيا الصغرى
بروصة
قونية
أضاليا
اليونان
فاس
مراكش
تلمسان
تونس
طرابلس
البحر المتوسط
الإسكندرية
دمشق
حلب
الموصل
بغداد
فارس
الخليج العربي
مصر
المدينة
بلاد العرب
السودان
اليمن
بحر العرب

الخاتمـــة

نحمد الله ونصلى ونسلم على رسوله ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه وسار على نهجه وهداه.

أخي المسلم! بقدر ما كانت سعادتي وأنا أبحث في مادة هذا الكتاب بما يحمله هذا الموضوع من عزة وفخر للإسلام متمثلة في بطولات أجدادنا العظماء من الرعيل الأول لهذه الأمة، بقدر ما كان حزني وألمي لما أصاب أمتنا من ضعف ووهن ولعل أصدق ما يعبر عن ذلك بعض أبيات من الشعر أتمثل بها:

إني تـــذكرتُ والـــذكرى مؤرقـــة ... مجـــدًا تليـــدًا بأيـــدينا أضـــعناه

أنى اتجهـــت إلى الإســـلام في بلـــد ... تجده كالطير مقصوصًـــا جناحـــاه

كم صـــرَّفتنا يـــدٌ كنـــا نصـــرفها ... وبـــات يملكنـــا شـــعبٌ ملكنـــاه

استرشد الغرب بالماضـــي فأرشـــده ... ونحن كـــان لنـــا مـــاضٍ نســـيناه

إنا مشـــينا وراء الغـــرب نقتـــبس ... مـــن ضـــيائه فأصـــابتنا شـــظاياه

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب ... بالأمس كانوا هنا والآن قد تـــاهوا

وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها ... عن من بناه لعـــل الصـــخر ينعـــاه

هذى معالم خـــرس كـــل واحـــدة ... منهن قامت خطيبًـــا فـــاغرًا فـــاه

الله يعلم ما قلَّبـــت ســـيرتهم يومًـــا ... وأخطـــأ دمـــع العـــين مجـــراه

لا درَّ دَرُّ امـــرئ يُطـــرى أوائلـــه ... فخرًا ويطـــرق إن ســـاءلته ماهـــه

يا من يرى عُمَـــرَ تكســـوه بردتـــه ... والزيتُ أدم لـــه والكـــوخ مـــأواه

يهتز كسرى على كرســـيه فرقًـــا ... من خوفه وملـــوك الـــروم تخشـــاه

يا رب فابعث لنا من مثلـــهم نفـــرًا ... يشـــيدون لنـــا مجـــدًا أضـــعناه

وأصدقكم القول فكم كان ينتابني شعور عجيب وأنا أبحر في جنبات هذا العمل فكلما خضت سيرة أحد الأبطال فرتعت في بستانه وخُضْت لُجاج بحره حتى تبهرني بطولته وأقف على تفرده وعظمته فأشعر أنني أمام بطولة رائعة لم تلقَ سبقًا ولا تكرارًا، وما إن أصل بالأحداث إلى موت هذا البطل وانطواء صفحة حياته حتى أحس وكأنما أُنزلت بطولة الإسلام معه في قبره وأُدرجت أكفانه فينتابني حزن وأسى .

وما إن أشرع في سرد بطولة غيره حتى يتجدد لدى شعوري الذي أحسست به مع سابقه وهكذا الرجل بعد الآخر ما من بطل يموت حتى يبعث الله مِنْ بعده مَنْ يرفع راية الأمة ويقيم أركان مجدها ويقودها إلى نصر الله المنشود.

وأقولها فإن الأمل سيبقى في قلوبنا ولن نمكّن أعداءنا أن يجردونا منه وقد صار آخر أسلحتنا فمهما ادلهمت الخطوب وساء الحال وتكالبت علينا الأمم، لا يزال الأمل يحذونا والإيمان يملأ نفوسنا وسوف يأتي النصر قريبًا بإذن الله تعالى.

وما هذا العرض المتواضع لما تيسر لي جمعه من بطولات الرعيل الأول من الصحابة والتابعين والفاتحين إلا خطوة على الطريق ومحاولة متواضعة لبث روح الأمل والتحفيز في نفوس جيل اليوم والغد، أرجو أن أكون قد وُفقتُ في إظهاره على خير صورة ورسمت لشبابنا القدوة الصالحة.

اللهم تقبله مِنّي وثقّل به ميزاني وتداركني بعفوك، وعلى الله القصد وإليه السبيل.

فهرس الأماكن التاريخية

م	الاســــــــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١٩	أشجع، قبيلة	٨٠	٢	٤	أ
٢٠	أصبهان (أصفهان)	٣٣١	١٦	٤	ح
٢١	أصطخر	٣٣١	١٦	٥	ز
		٣٦٦	٢٦	٤	جـ
٢٢	أطلاح	٨٠	٢	١	هـ
٢٣	الأكراد، حصن	٣٨٨	٢٨	٤	جـ
٢٤	أليس	١١٢	٥	٥	جـ
		١٣٥	٨	٥	جـ
٢٥	أم دنين، حصن	٢٦٥	١٤	٤	د
٢٦	أمج	٨٠	٢	٧	ب
٢٧	أمغيشيا	١١٢	٥	٥	جـ
		١٣٥	٨	٥	د
٢٨	الأناضول، هضبة	٣٥٤	٢٤	٣	هـ،و،ز
٢٩	الأنبار	١١٢	٥	٣	هـ
		١٣٥	٨	٣	هـ
		٢٣٦	١٣	٣	د
٣٠	أنطاكية	٣٥٤	٢٤	٤	د
		٤٢٦	٣٣	٢	ب
٣١	أنقرة	٣٥٤	٢٤	٢	و
		٣٦٦	٢٦	٢	و
		٤٤٥	٣٥	٢	جـ
٣٢	الأهواز	٣٣١	١٦	٤	ط
		١٣٥	٨	٥	أ
٣٣	الأوس، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٥	ى
٣٤	أوطاس	٨٠	٢	٧	أ
٣٥	أيلة	٦٦-٦٧	١	٣	ك
		٨٠	٢	٢	و

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
	ب				
٣٦	بئر سبع	٩٦	٤	٥	و
٣٧	بابل	١١٢	٥	٤	جـ
٣٨	بابليون، حصن	٢٦٥	١٤	٤	د
٣٩	باروسما	١١٢	٥	٤	د
٤٠	بانياس	٤٢٦	٣٣	٣	جـ
٤١	بُحران	٨٠	٢	٦	ب
٤٢	بخارى	٣٣١	١٦	١	د
		٣٢٨	١٥	٢	هـ
٤٣	بدر	٨٠	٢	٦	جـ
٤٤	بدر، غزوة	١٦٥	١١	–	–
٤٥	برهماناباد	٣٣٤	١٧	٣	جـ
٤٦	بروصة	٤٤٥	٣٥	٢	جـ
٤٧	بزاخة	٩٣	٣	جـ	د
٤٨	البصرة	١١٢	٥	٥	أ
		٣٦٦	٢٦	٤	د
٤٩	بُصرى	٩٦	٤	٤	د
		٣٨٨	٢٨	٦	ب
٥٠	بعلبك	٣٨٨	٢٨	٥	جـ
٥١	بغداد	١١٢	٥	٣	د
		٣٥٤	٢٤	٥	أ
٥٢	البقاع، سهل	٤١٣	٣٢	٢	ب
٥٣	بكر، بني (قبيلة)	٦٦–٦٧	١	٣	و
٥٤	بلبيس	٢٦٥	١٤	٤	د
٥٥	بلخ	٣٣١	١٦	٢	جـ
		٢٣٨	١٥	٣	د
٥٦	البلقاء	٩٦	٤	٥	د

م	الاســــــــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٥٧	البلوزى، فرع	٢٦٥	١٤	٣	جـ
٥٨	بلي، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٣، ٤	ك
٥٩	البندقية	٤٤٥	٣٥	١	د
٦٠	بنكتاش	٤٣٨	٣٤	١	أ
٦١	البهراء	٦٦-٦٧	١	٣	ك
٦٢	بهرشير	١٣٥	٨	٤	د
٦٣	بواط	٨٠	٢	٦	جـ
٦٤	البوسفور، مضيق	٤٣٨	٣٤	٢	ب
٦٥	البوسنة، بلاد	٤٤٥	٣٥	١	د
٦٦	البويب	١٣٥	٨	٤	د
٦٧	بيت المقدس	٩٦	٤	٥	و
		٣٨٨	٢٨	٧	د
		٣٩٤	٢٩	-	-
٦٨	بيت لحم	٣٨٨	٢٨	٧	د
٦٩	البيرة، قلعة	٣٨٨	٢٨	١	أ
٧٠	بيروت	٣٨٨	٢٨	٥	جـ
		٤٢٦	٣٣	٣	جـ
٧١	بيرون	٣٣٤	١٧	٣	جـ
٧٢	بيسان	٩٦	٤	٤	هـ
		٣٨٨	٢٨	٦	جـ
٧٣	بيكند	٣٣١	١٦	١	د
		٣٢٦	١٥	٢	هـ
	ت				
٧٤	تاهرت	٣٤١	١٩	٢	هـ
٧٥	تبوك	٦٦-٦٧	١	٣	ط
		٨٠	٢	٣	د

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٧٦	تدمر	٩٦	٤	٢	جـ
		٣٥٤	٢٤	٤	د
٧٧	تدمير	٣٤٣	٢٠	٤	ب
٧٨	تربة	٦٦-٦٧	١	٦	ط
		٨٠	٢	٨	أ
٧٩	تركستان	٣٦٦	٢٦	١	أ،ب
٨٠	تُستر	٣٣١	١٦	٤	ح
		١٣٥	٨	٤	أ
٨١	تفليس	٤٠٦	٣١	٢	و
٨٢	تكريت	١١٢	٥	٢	د
		١٣٥	٨	٣	د
٨٣	تميم، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٤،٣	ز،ح
٨٤	تهامة، قبيلة	٩٣	٣	٦،٥	د،هـ
٨٥	تهوذة، قبيلة	٣٣٨	١٨	٢	هـ
٨٦	توتة، قرية	٢٦٥	١٤	٢	جـ
٨٧	تيماء	٨٠	٢	٣	جـ
	ث				
٨٨	ثعلبة، بني (قبيلة)	٨٠	٢	٤	أ،ب
٨٩	ثقيف، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٧	ط
٩٠	ثنية المرة	٨٠	٢	٦	جـ
	ج				
٩١	الجابية	٩٦	٤	٣	هـ
٩٢	جبل طارق، مضيق	٣٤٩	٢٢	٥	د
٩٣	جبيل	٣٨٨	٢٨	٥	حـ
٩٤	الجحفة	٨٠	٢	٧	ب
٩٥	جذام، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٤،٣	ك

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٩٦	جرجانة	٣٦٦	٢٦	٢	جـ
٩٧	الجرف	٨٠	٢	٦	ب
		١٢١	٦	٢	د،هـ
٩٨	الجزيرة الخضراء	٣٤٩	٢٢	٥	د
٩٩	الجسر، معركة	١٣٥	٨	٤	د
١٠٠	جعبر، قلعة	٣٨٨	٢٨	٢	أ
١٠١	جلطة، حي	٤٣٨	٣٤	٢	ب،جـ
١٠٢	جلولاء	١١٢	٥	٣	جـ
		١٣٥	٨	٣	د
١٠٣	الجموم	٨٠	٢	٧	ب
١٠٤	جهينة، قبيلة	٦٦–٦٨	١	٥،٤	ى
١٠٥	جورجيا	٤٤٥	٣٥	١	ب
١٠٦	جيحون، نهر	٣٦٦	٢٦	٢	ب،جـ
	ح				
١٠٧	حارام	٣٨٨	٢٨	٢	ب
١٠٨	الحجاز	٣٩٩	٣٠	٥،٤	ب،جـ
١٠٩	الحجون	٢٢٢	١٢	٣	جـ
١١٠	الحرَّة (اللابة الشرقية والغربية)	١٢١	٦	٥،٤ ، ٣،٦	أ، ب، د، هـ
١١١	حسمي	٨٠	٢	٣	هـ
١١٢	حطين	٣٨٨	٢٨	٦	جـ
١١٣	الحفير	١١٢	٥	٥	ب
١١٤	حلب	٢٣٦	١٣	١	ط
		٣٥٤	٢٤	٤	د
		٣٨٨	٢٨	٢	ب

م	الاســــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١١٥	حلوان	١٣٥	٨	٣	جـ
		٣٦٦	٢٦	٣	د
١١٦	حماة	٩٦	٤	٢	د
		٢٣٦	١٣	٢	ط
١١٧	حمراء الأسد	٨٠	٢	٦	ب،جـ
١١٨	حمص	٢٣٦	١٣	٢	ط
		٣٨٨	٢٨	٤	ب
		٤٠٦	٣١	٣	ز
١١٩	حنيفة، بنو (قبيلة)	٦٦-٦٧	١	٤،٥	ز
١٢٠	حنين، وادي	٨٠	٢	٨	أ،ب
١٢١	الحوراء	٨٠	٢	٥	جـ،د
١٢٢	جوران	١١٢	٥	٣	و
١٢٣	الحيرة	١٣٥	٨	٤	د
		٢٣٦	١٣	٤	د
١٢٤	حيفا	٣٥٤	٢٤	٥	هـ
		٣٨٨	٢٨	٦	د
	خ				
١٢٥	خانقين	١٣٥	٨	٣	جـ
١٢٦	خجندة	٣٦٦	٢٦	٢	أ
١٢٧	خراسان	٣٣١	١٦	٢،٣	هـ،و
١٢٨	الخريبة	١١٢	٥	٥	د
١٢٩	خزاعة، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٦	ط
١٣٠	الخزرج، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٥	ى
١٣١	خزيمة، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٦	ح
١٣٢	الخليل، مدينة	٣٨٨	٢٨	٨	د
١٣٣	الخنافس	١٣٥	٨	٣	د
١٣٤	الخندق، معركة	١٢١	٦	-	-

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١٣٥	خوارزم	٣٣١	١٦	١	هـ
		٣٦٦	٢٦	١	جـ
١٣٦	الخورنق	١١٢	٥	٥	د
		١٣٥	٨	٥	د
١٣٧	خيبر	٨٠	٢	٥	ب
		١٢٥	٧	–	–
	د				
١٣٨	دار بجرد	٣٣١	١٦	٥	و
		٣٦٦	٢٦	٤	جـ
١٣٩	الدردنيل، مضيق	٣٥٤	٢٤	٢	ح
١٤٠	دمشق	٩٦	٤	٣	هـ
		٢٣٦	١٣	٣	ط
		٣٥٤	٢٤	٥	د
		٣٨٨	٢٨	٥	جـ
١٤١	دمياط	٢٦٥	١٤	٢	جـ
		٣٥٤	٢٤	٦	و
١٤٢	دومة الجندل	٨٠	٢	٢	ب
		٢٣٦	١٣	٦	و
١٤٣	ديار بكر	٣٦٦	٢٦	٢	و
١٤٤	الدَيْبل	٣٣٤	١٧	٣	جـ
		٣٦٦	٢٦	٥	أ
١٤٥	الدَيْلَم، بلاد	٣٦٦	٢٦	٣	د
١٤٦	دينور	٣٣١	١٦	٣	ط
	ذ				
١٤٧	ذات الرِّقاع	٨٠	٢	٦	ب
١٤٨	ذات السلاسل	٨٠	٢	٤	هـ

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١٤٩	ذُبيان، بنو (قبيلة)	٦٦-٦٧	١	٤	ط
١٥٠	ذكوان، بنو (قبيلة)	٨٠	٢	٨	أ
١٥١	ذو أمر	٨٠	٢	٦	أ
١٥٢	ذو قار	١٣٥	٨	٤	د
١٥٣	ذو قَرَد	٨٠	٢	٥	ب
١٥٤	ذو القَصَّة	٨٠	٢	٦	ب
	ر				
١٥٥	رابغ	٨٠	٢	٧	ب
١٥٦	راوز	٣٣٤ ٣٦٦	١٧ ٢٦	٢ ٤	ب أ
١٥٧	الرَّبَذة	٨٠	٢	٥	أ
١٥٨	ربيعة،بنو (قبيلة)	٦٦-٦٧	١	٣،٤ ٢،	و،ز
١٥٩	الرجيع	٨٠	٢	٧	ب
١٦٠	رضوى، جبل	٨٠	٢	٦	جـ
١٦١	رفح	٢٦٥	١٤	٢	أ
١٦٢	الرقاد، وادي	٩٦	٤	٤	هـ
١٦٣	الرملة	٣٨٨	٢٨	٧	د
١٦٤	الرها	١٣٥ ٣٥٤ ٣٧٤	٨ ٢٤ ٢٧	١ ٣ ٢	ز جـ أ
١٦٥	رودس، جزيرة	٣٥٤	٢٤	٤	ز
١٦٦	الرِّيّ	٣٣١ ٣٦٦	١٦ ٢٦	٣ ٣	ح د
	ز				
١٦٧	زبطرة	٣٥٤	٢٤	٣	د

م	الاسم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١٦٨	زنجان	٣٣١	١٦	٢	ح
	س				
١٦٩	ساباط	١٣٥	٨	٤	د
١٧٠	سابور	٢٣٦	١٣	٥	ب
١٧١	سامانية، دولة	٣٦٦	٢٦	١	أ،ب
١٧٢	سبتة	٣٤١	١٩	٢	ز
		٣٤٤	٢١	٥	د
١٧٣	السبخة	١٢١	٦	٣	هـ
١٧٤	سبسطية	٣٥٤	٢٤	٣	د
١٧٥	سرقوسة	٣٥١	٢٣	٤	ب
١٧٦	سفوان	٨٠	٢	٦	ب
١٧٧	سلاجقة الروم، دولة	٣٩٩	٣٠	٢	جـ،د
١٧٨	سلع، جبل	١٢١	٦	٤	د
١٧٩	سليم، بنو (قبيلة)	٦٦-٦٧	١	٥	ح،ط
١٨٠	السماوة	١١٢	٥	٥	جـ
		٢٣٦	١٣	٥	جـ
١٨١	سمرقند	٣٣١	١٦	١	جـ
		٣٢٨	١٥	٢	د
١٨٢	سميسطة	٣٥٤	٢٤	٣	جـ
		٣٦٠	٢٥	٢	جـ
١٨٣	السند، نهر	٣٣٤	١٧	١،٣	ب،جـ
		٣٦٦	٢٦	٢،	أ
				٤،٣	
١٨٤	السواد، أرض	١١٢	٥	٥،٤	جـ
١٨٥	السوس، وادي	٣٤١	١٩	٤	ح
١٨٦	سوى	٢٣٦	١٣	٢	ز
١٨٧	السويدية، ميناء	٤٢٦	٣٣	٢	جـ

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
١٨٨	سيحون، نهر	٣٦٦	٢٦	١	ب
	ش				
١٨٩	شذونة	٣٤٤	٢١	٥	د
١٩٠	الشوبك	٩٦	٤	٦	هـ
١٩١	شيبان، بنو (قبيلة)	٦٦-٦٧	١	٢	ز
١٩٢	شيراز	٣٣١ ٣٦٦	١٦ ٢٦	٥ ٤	ح د
	ص				
١٩٣	الصالحية	٢٦٥	١٤	٣	د
١٩٤	الصرب، بلاد	٣٦٦	٢٦	١	ط
١٩٥	صفد	٣٨٨	٢٨	٦	د
١٩٦	صفورية	٣٨٨	٢٨	٥	جـ
١٩٧	صفين	١١٢	٥	٢	ز
١٩٨	صقلية، جزيرة	٣٤١ ٣٥١	١٩ ٢٣	١ -	أ،ب -
١٩٩	صور	٣٨٨ ٤٢٦	٢٨ ٣٣	٥ ٤	د جـ
٢٠٠	صيدا	٣٨٨ ٤٢٦	٢٨ ٣٣	٥ ٤	د جـ
	ط				
٢٠١	الطائف	٨٠	٢	٨	أ
٢٠٢	طب قابي	٤٣٨	٣٤	٢	و
٢٠٣	طبرستان	٣٦٦	٢٦	٣	جـ،د
٢٠٤	طبرية، بحيرة	٩٦ ٣٨٨	٤ ٢٨	٤ ٦	هـ جـ
٢٠٥	طبرية، مدينة	٣٨٨	٢٨	٦	جـ

م	الاسم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٢٠٦	طرابلس	٩٦	٤	٢	هـ
		٣٧٤	٢٧	٣	جـ
		٣٨٨	٢٨	٤	جـ
٢٠٧	طربزون	٣٥٤	٢٤	٢	جـ
٢٠٨	طرسوس	٣٥٤	٢٤	٣	هـ
٢٠٩	طرنوس	٢٦٥	١٤	٤	د
٢١٠	طريف، جزيرة	٣٤٤	٢١	٥	د
٢١١	طليطة	٣٤٣	٢٠	٣	جـ
		٣٤٤	٢١	٣	جـ
٢١٢	طنجة	٣٤١	١٩	٢	ز
		٣٤٣	٢٠	٥	د
		٣٤٤	٢١	٥	د
٢١٣	طوانة	٣٥٤	٢٤	٣	هـ
٢١٤	طوس	٣٣١	١٦	٢	هـ
		٢٣٨	١٥	٣	و
٢١٥	طيئ	٦٦–٦٧	١	٤	ح،ط
		٨٠	٢	٤	أ،ب
	ع				
٢١٦	العاصي، نهر	٣٨٨	٢٨	٣	جـ
٢١٧	عبس، قبيلة	٦٦–٦٧	١	٤	ط
٢١٨	عذرة، قبيلة	٦٦–٦٧	١	٥	ى
٢١٩	عُرَنَة	٨٠	٢	٧	ب
٢٢٠	العريش	٢٦٥	١٤	٢	أ
٢٢١	العريض	٨٠	٢	٦	ب
٢٢٢	عَسَفَان	٨٠	٢	٧	ب
٢٢٣	عسقلان	٣٧٤	٢٧	٥	جـ
		٣٨٨	٢٨	٨	د

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٢٢٤	عضل، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٦	ط
٢٢٥	عقرباء	٩٣	٣	٣	جـ
٢٢٦	عقيق، وادي	١٢١	٦	٤، ٥	هـ
٢٢٧	عكا	٣٧٤	٢٧	٥	جـ
		٤٢٦	٣٣	٤	جـ
٢٢٨	عمواس	٩٦	٤	٥	و
٢٢٩	عمورية	٣٥٤	٢٤	٣	و
٢٣٠	العيص	٨٠	٢	٤	هـ
٢٣١	عين التمر	٢٣٦	١٣	٤	هـ
٢٣٢	عين جالوت	٣٨٨	٢٨	٦	د
٢٣٣	عين جالوت، معركة	٤١٣	٣٢	–	–
٢٣٤	عيذاب	٣٦٦	٢٦	٥	و
٢٣٥	عينين، جبل	١٢١	٦	١	د
	غ				
٢٣٦	الغابة	١٢١	٦	١	و
٢٣٧	غرناطة	٣٤٤	٢١	٤	جـ
٢٣٨	غزة	٣٥٤	٢٤	٦	هـ
		٣٨٨	٢٨	٨	د
٢٣٩	غسان	٦٦-٦٧	١	١، ٢	ى،ك
٢٤٠	غطفان، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٥	ط
٢٤١	غفار، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٥	ى
٢٤٢	غمر العربة	٩٦	٤	٦	و
٢٤٣	الغُوطة	٣٨٨	٢٨	٥	جـ
	ف				
٢٤٤	فِحْل	٩٦	٤	٤	هـ
٢٤٥	فدك	٨٠	٢	٥	ب

م	الاســـم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٢٤٦	الفراض	٢٣٦	١٣	٢	و
٢٤٧	فرغانة	٣٢٨	١٥	١	ب
		٣٦٦	٢٦	٢	أ
٢٤٨	الفَرَمَا	٢٦٥	١٤	٢	ب
٢٤٩	فزارة، بنو (قبيلة)	٨٠	٢	٥	أ
٢٥٠	فسا	٣٦٦	٢٦	٤	جـ
٢٥١	الفسطاط	٢٦٥	١٤	٥	د
	ق				
٢٥٢	القادسية	١٣٥	٨	٥	د
٢٥٣	القارة، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٦	ط
٢٥٤	قبجاق، قبائل	٣٦٦	٢٦	١	د
٢٥٥	قراقر	٢٣٦	١٣	٤	د
٢٥٦	قرطبة	٣٤٤	٢١	٤	د
٢٥٧	القرن الذهبي، خليج	٤٣٨	٣٤	١، ٢	جـ
٢٥٨	قريظة، بنى (قبيلة)	١٢١	٦	٥	أ
٢٥٩	قزوين	٣٣١	١٦	٢	ح
٢٦٠	القسطنطينية	٣٥٤	٢٤	٢	ز
		٤٣٨	٣٤	-	-
٢٦١	القُصير	٤١٣	٣٢	٦	و
٢٦٢	قضاعة، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٢	ى
		٨٠	٢	٣	جـ،د
٢٦٣	القطيف	٦٦-٦٧	١	٤	هـ
٢٦٤	قنسرين	٢٣٦	١٣	٢	ط
		٣٥٤	٢٤	٤	د
		٣٨٨	٢٨	٣	ب
٢٦٥	القنطرة	٢٦٥	١٤	٣	جـ
٢٦٦	قوصرة، جزيرة	٣٥١	٢٣	٤	و

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٢٦٧	قومس	٣٣١	١٦	٢	ز
		٣٦٦	٢٦	٣	جـ
٢٦٨	قونية	٣٥٤	٢٤	٣	و
		٣٧٤	٢٧	١	د
٢٦٩	القيروان	٣٣٨	١٨	١	د
٢٧٠	قيسارية	٩٦	٤	٤	و
		٣٨٨	٢٨	٦	د
٢٧١	قيصرية	٣٥٤	٢٤	٣	د
		٣٦٦	٢٦	٢	و
٢٧٢	قيقعان، جبل	٢٢٢	١٢	٣	جـ
٢٧٣	قيلقيا	٣٥٤	٢٤	٤	هـ
		٤٢٦	٣٣	١	جـ
٢٧٤	قينقاع، بنو (قبيلة)	١٢١	٦	٥	ب
	ك				
٢٧٥	كاشان	٣٢٨	١٥	١	جـ
		٣٦٦	٢٦	٣	د
٢٧٦	كاظمة	١١٢	٥	٦	أ
		٢٣٦	١٣	٦	ب
٢٧٧	كُدَر	٨٠	٢	٦	أ
٢٧٨	الكَديد	٨٠	٢	٧	ب
٢٧٩	الكُرج، بلاد	٣٥٤	٢٤	٢	ب
		٣٦٦	٢٦	٢	هـ
٢٨٠	كردستان	٣٦٦	٢٦	٣	د،هـ
٢٨١	الكرك	٩٦	٤	٥	هـ
٢٨٢	كريون، حصن	٢٦٥	١٤	٢	و
٢٨٣	كسكر	١٣٥	٨	٤	جـ
٢٨٤	كلب، قبيلة	٨٠	٢	٢	ب

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٢٨٥	الكوفة	١١٢	٥	٤	د
٢٨٦	كوم شريك	٢٦٥	١٤	٤	هـ
٢٨٧	كييف	٤٤٥	٣٥	١	جـ
	ل				
٢٨٨	اللاذقية	٣٧٤	٢٧	٣	جـ
		٣٨٨	٢٨	٣	جـ
٢٨٩	لحيان، بنو (قبيلة)	٨٠	٢	٧	أ
٢٩٠	لخم، قبيلة	٦٦-٦٧	١	٢	ز،ح
٢٩١	لُكّة	٣٤٤	٢١	٥	د
٢٩٢	لُكّة، وادي	٣٤٤	٢١	٥	د
٢٩٣	لورقة	٣٤٤	٢١	٤	ب
٢٩٤	ليكوس، نهر	٤٣٨	٣٤	٣،٢	د،هـ
٢٩٥	ليكوس، وادي	٤٣٨	٣٤	٣،٢	هـ
	م				
٢٩٦	مؤتة	٩٦	٤	٦	هـ
٢٩٧	مارتيزا، نهر	٤٠٦	٣١	٢،١	ح
٢٩٨	مازر	٣٥١	٢٣	٢	و
٢٩٩	مالقة	٣٤٤	٢١	٥	جـ
٣٠٠	ما وراء النهر، بلاد	٣٦٦	٢٦	٢،١	ب
٣٠١	المجر	٣٦٦	٢٦	١	ح
٣٠٢	المدائن	١١٢	٥	٤	د
٣٠٣	المدينة	٨٠	٢	٦	ب
		٣٦٦	٢٦	٥	و
٣٠٤	المذار	١٣٥	٨	٥	ب
٣٠٥	مرج راهط	٩٦	٤	٣	هـ
٣٠٦	مرج الصفر	٩٦	٤	٤	د

م	الاســـــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٣٠٧	مرعش، حصن	٣٥٤ ٣٦٠	٢٤ ٢٥	٣ ٢	د د
٣٠٨	مرمرة، بحر	٣٥٤ ٤٣٨	٢٤ ٣٤	٢ ٤	ز جـ،د،هـ
٣٠٩	مرو	٣٣١ ٢٣٨	١٦ ١٥	٢ ٢	هـ هـ
٣١٠	المريسيع، بئر	٨٠	٢	٧	ب
٣١١	مزينة، جبل	٦٦-٦٧	١	٥	ط
٣١٢	المشلل، جبل	٨٠	٢	٧	ب
٣١٣	المصيخ	٢٣٦	١٣	٣	هـ
٣١٤	معان	٩٦	٤	٦	هـ
٣١٥	معونة، بئر	٨٠	٢	٦	ب
٣١٦	مقدونيا	٤٤٥	٣٥	٢	جـ
٣١٧	مكة	٨٠ ٢٢٢	٢ ١٢	٨ –	ب –
٣١٨	ملاذكرد	٣٦٦	٢٦	٢	هـ
٣١٩	الملتان	٣٣٤ ٣٦٦	١٧ ٢٦	١ ٤	ب أ
٣٢٠	ملطية	٣٥٤ ٣٦٦	٢٤ ٢٦	٣ ٢	جـ و
٣٢١	المناذرة، بلاد	٩٣ ١٣٥	٣ ٨	٢ ٦،٥، ٤،	د ب،جـ، د، هـ
٣٢٢	مهرجان قذق	١٣٥	٨	٣	ب
٣٢٣	الموصل	١٣٥ ٣٥٤ ٤٤٥	٨ ٢٤ ٣٥	١ ٤ ٢	هـ ب ب

م	الاســــم	ص	رقم الخريطة	أفقي	رأسي
٣٢٤	ميريو كيفالون	٣٦٦	٢٦	٢	ز
	ن				
٣٢٥	نابلس	٩٦	٤	٤	و
		٣٨٨	٢٨	٧	د
٣٢٦	الناصرة	٩٦	٤	٤	هـ
٣٢٧	نجد	٦٦-٦٧	١	٤،٥	و،ز
٣٢٨	نجران	٦٦-٦٧	١	٨	ز،ح
٣٢٩	النضير، بنى (قبيلة)	١٢١	٦	٦	ب
٣٣٠	نقيوس	٢٦٥	١٤	٤	هـ
٣٣١	النمارق	٢٣٦	١٣	٥	د
٣٣٢	نهاوند	٣٣١	١٦	٣	ح
		١٣٥	٨	٣	ب
	هـ				
٣٣٣	هذيل، قبيلة	٨٠	٢	٧	أ
٣٣٤	هر قلية	٣٥٤	٢٤	٣	و
٣٣٥	هليوبوليس	٢٦٥	١٤	٤	د
٣٣٦	همذان	٣٣١	١٦	٣	ط
		٣٦٦	٢٦	٣	د
٣٣٧	هوازن، قبيلة	٨٠	٢	٧	أ
٣٣٨	هيت	٢٣٦	١٣	٣	هـ
	و				
٣٣٩	وادي العربة	٩٦	٤	٦	و
٣٤٠	وادي القري	٨٠	٢	٥	ب
٣٤١	واسط	٣٣١	١٦	٤	ط
٣٤٢	الولجة	١٣٥	٨	٦	جـ
		١١٢	٥	٥	جـ

فهرس الخرائط

قائمة المراجع

١- السيرة النبوية/ ابن هشام ·- القاهرة: دار الكتب القيمة، [-١٩] ·- ٧٥٠ص؛ ١٨سم.

٢- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء/ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستى؛ تحقيق: سعد كريم الفقي ·- القاهرة: دار ابن خلدون، [-١٩] ·- ٣٨٥ص؛ ٢٤سم.

٣- حياة الصحابة/ محمد يوسف الكاندهلوى ·- القاهرة: المكتبة القيمة للطباعة والنشر، [-١٩] ·- ٥٩١ص؛ ١٧سم ·- (حياة الصحابة؛ ١).

٤- سير أعلام النبلاء/ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي؛ أشرف على التحقيق وخرج أحاديث شعيب الأرنؤوط ·- ط١١ ·- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م ·- ٤٠٠ص؛ ٢٤سم ·- (سير أعلام النبلاء؛ ١، ٢، ٤).

٥- سير أعلام النبلاء: الخلفاء الراشدون/ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي؛ إشراف وتحقيق وتخريج أحاديث شعيب الأرنؤوط ·- ط١١ ·- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م ·- ٣٥٢ص؛ ٢٤سم.

٦- الكامل في التاريخ/ ابن الأثير الجزرى؛ راجعه وصححه د.محمد يوسف الدقاق ·- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م ·- ٤٥٢ص؛ ٢٤سم ·- (الكامل؛ ٤).

٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي؛ تعليق وتقديم محمد حسين شمس الدين ·- ط١ ·- القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م ·- ٤٨٢ص؛ ٢٤سم ·- (النجوم الزاهرة؛ ٧).

٨- البداية والنهاية/ أبو الفداء إسماعيل بن كثير ·- ط١ ·- القاهرة: دار الغد العربي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م ·- ٣٨٥ص؛ ٢٤سم ·- (البداية والنهاية: ٧).

٩- المعارف/ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ·- ط١ ·- القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م ·- ٤٢٨ص؛ ٢٤سم.

١٠- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزى)/ تقي الدين أبي العباس أحمد بن على بن عبد القادر العبيدي المقريزي؛ وضع حواشيه خليل منصور ·- ط١ ·- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م ·- ٤٧٥ص؛ ٢٤سم.

١١- موسـوعة الأعـلام/ خير الدين الزركلي ط١٣ ·- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨م.

١٢- الرحيق المختوم/ صفى الرحمن المباركفورى ·- ط١ ·- المنصورة: مكتبة الإيمان، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م ·- ٤٩٤ص؛ ٢٤سم.

١٣- أطلس تاريخ الإسلام/ د.حسين مؤنس ·- ط١ ·- القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م ·- ٥٢٧ص؛ ٣٢سم.

١٤- موسوعة التاريخ الإسلامي/ د.أحمد شلبي ·- ط١٤ ·- القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٩٤.

١٥- الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط/ د.على محمد محمد الصلابي ·- ط١ ·- الإسكندرية: دار الإيمان، [-١٩] ·- ٥٢٠ص؛ ٢٤سم.

١٦- السلاجقة والبيزنطيون في معركة ميريوكيفالون/ عبد الغني عبد الفتاح زهرة ·- ط١ ·- القاهرة: المكتبة القومية الحديثة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م ·- ٥١٥ص؛ ٢٤سم.

١٧- شهداء الإسلام في عهد النبوة/ د.على سامي النشار ·- القاهرة: دار الكتاب العربي، [-١٩] ·- ٣١٤ص؛ ٢٤سم.

١٨- عبقرية محمد/ عباس محمود العقاد ·- القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٤ ·- ١٥٣ص؛ ٢٤سم.

١٩- عبقرية خالد/ عباس محمود العقاد ·- القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٤ ·- ١٥١ص؛ ٢٤سم.

٢٠- الصديق أبو بكر/ محمد حسين هيكل ·- ط١ ·- القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٦١هـ = ١٩٤١م ·- ٣٩٤؛ خرائط، ٢٥سم.

٢١- محمد بن عبد الله (ص): توجيهاته وأوامره في ساحات القتال/ السيد فرج ·- ط١ ·- القاهرة: دار المعارف، [-١٩] ·- ١٦٠ص؛ ١٦سم ·- (اقرأ؛ ٥٢١).

٢٢- البطولة في الشعر العربي/ د.شوقي ضيف ·- ط١ ·- القاهرة: دار المعارف، [-١٩] ·- ١٥٠ص؛ ١٦سم ·- (اقرأ؛ ٣٣١).

٢٣- منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة/ د.نعمان الطيب سليمان ·- ط١ ·- القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، ١٤١١هـ = ١٩٩١م ·- ٣٨٥ص؛ خرائط، ٢٤سم.

٢٤- السرايا الحربية في العهد النبوي/ د.محمد سيد طنطاوي ·- ط١ ·- القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م ·- ١٥٨ص؛ خرائط، ٢٥سم.

٢٥- شخصيات عسكرية إسلامية/ محمد فرج ·- ط٢ ·- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م ·- ٣٧٧ص؛ ٢٥سم.

٢٦- لن تلقي مثل عمر/ لواء أحمد كمال الطوبجي؛ إشراف د. محمد على المحجوب ·- القاهرة: وزارة الأوقاف، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م ·- ٢٩٠ص؛ ٢٨سم.

٢٧- الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري/ محمود نديم أحمد فهمي ·- ط١ ·- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ ·- ٦٣ص؛ ٢٤سم.

٢٨- مجلة الأمة/ قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، رمضان ١٤٠٢هـ = يوليو ١٩٨٢م .- (الأمة؛ ٢١).

٢٩- الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها/ د.عبد الحميد العبادى، د.محمد مصطفى زيادة، د.إبراهيم أحمد العدوي .- ط١ .- القاهرة: نهضة مصر، [١٩-] .- ١٨٨ص؛ ٢٤سم.

٣٠- أصحاب الرسول ﷺ / محمود المصري؛ مراجعة الشيخ أبو إسحاق الحويني.. (وأخ) .- ط١ .- القاهرة: المكتبة التوفيقية .- ٥٢٠ص؛ ٢٥سم.

٣١- أسد الغابة في معرفة الصحابة/ عز الدين بن الأثير؛ تحقيق الشيخ على محمد عوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود .- ط١ .- بيروت: دار الكتب العلمية، [١٩-].

٣٢- الإصابة في تمييز الصحابة/ أحمد بن على بن حجر العسقلاني؛ تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ على محمد عوض .- ط٢ .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

٣٣- الطبقات الكبرى/ ابن سعد؛ تحقيق الأستاذ حمزة النشرتي .- ط١ .- القاهرة: دار الغد.

٣٤- تاريخ مدينة دمشق/ ابن عساكر، تحقيق محب الدين بن غرامة العمورى .- ط١ .- بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م.

٣٥- تاريخ بغداد/ الخطيب البغدادي؛ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا .- ط١ .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٣٦- تاريخ الخلفاء/ جلال الدين السيوطي .- ط٤ .- القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٩م.

٣٧- دلائل النبوة/ أبو بكر حسين البيهقي .- ط١ .- القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٨م.

٣٨- فتوح الشام/ أبو عبد الله الواقدى؛ راجعه طه عبد الرءوف .- ط١ .- الإسكندرية: دار ابن خلدون.

٣٩- تاريخ الأمم والملوك/ ابن جرير الطبري .- ط١ .- القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٢٦هـ.

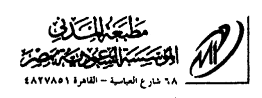
٤٠- حلية الأولياء/ أبو نعيم الأصبهاني .- ط٣ .- القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ.

٤١- معجم البلدان/ أحمد بن أبى يعقوب اسحاق بن جعفر اليعقوبى؛ وضع حواشيه: محمد أمين ضناوى .- ط١ .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.

٤٢- عبقرية الإمام/ عباس محمود العقاد .- ط٧ .- القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩م .- (سلسلة اقرأ؛ ١١٣)

٤٣- فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب/ محمد على محمد الصلابى .- ط١ .- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.

فهرس



مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ٤٨٢٧٨٥١